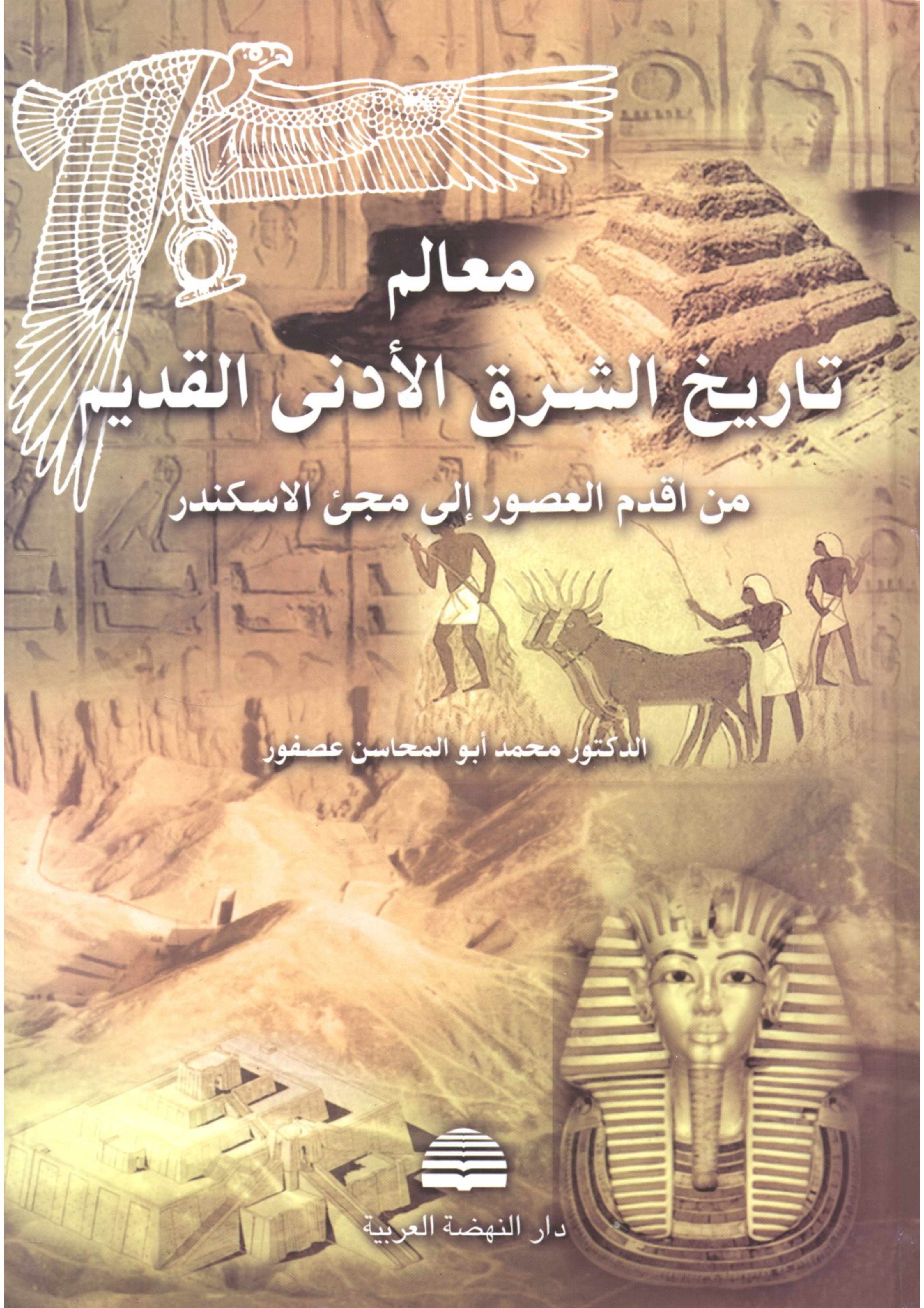

معالم
تاريخ الشرق الأدنى القديم
من اقدم العصور إلى مجئ الاسكندر
الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور
دار النهضة العربية


PDF مكتبة نرجس
HTTP://WWW.NARJES-LIBRARY.COM

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معالم

تاريخ الشرق الأدنى القديم

من أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر

الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور

استاذ مساعد كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

مطبعة المصري



إهـــداء

إلى ذكرى مثال الصبر وإنكار الذات

إلى روح أخى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة

لست أزعم أن هذا الكتاب يخرج فى صورة مرضية حتى لنفسى ، ولكننى أعتقد أنه كان ضرورة أوجبتها ظروف عملى فرغم وجود عدد لابأس به من المطبوعات العربية التى تتناول بعض موضوعه أو معظمه بالدراسة (سواء كانت تأليفا أو ترجمة) إلا أننى أرى أننا مازلنا فى حاجة إلى الكثير من المطبوعات العربية التى تعرض لدراسة تاريخ الشرق الأدنى القديم دراسة عامة ليتسنى لقارىء العربية أن يجد بين يديه مايوضح له تاريخ هذا الجزء الذى نعيش فيه من العالم .

ومع أن إتقان اللغات الأجنبية أمر توجبه نهضتنا الحديثة وفى مؤلفاتها مايمكن أن يجد فيه القارىء بغيته للتعرف على هذا التاريخ إلا أن مايتوخاه عالمنا الحديث من السرعة فى إنجاز كل الأمور يستدعى أن يكون بين يدى طلابنا - بل وقرائنا العاديين - مؤلفات بلغتهم يسهل عليهم الرجوع إليها للبحث فى مختلف العلوم عن خطوطها العريضة على الأقل دون التعرض لما دار ومايدور حولها من مناقشات وجدل ، وقد أردت لكتابى هذا أن لايخرج عن هذا الحيز العام وإننى لعلى يقين من أنه يفى بهذا الغرض ولكنه لايغنى دارس التاريخ عن قراءة غيره من الكتب الأخرى .

ودراسة التاريخ فى مفهومها الحديث لاتعنى سرد الأحداث التاريخية ذات الصبغة السياسية فحسب بل يجب أن يتناول دارس التاريخ بالبحث كل مايمر على مسرح الحياة من مظاهر حضارية مختلفة وأن يجعل من المكان الذى يدرس تاريخه مسرحا يتعرض لكل مافيه ومايدور به من

أحداث بالدراسة والبحث خلال فترة أو فترات معينة غير أننى أرى ـ من تجاربى الخاصة ـ أن تشعب هذه الدراسة يؤدى إلى تعقيدها أمام الطالب المبتدىء ويشتت أفكاره وقد يعجز أو يزهد فى دراسة التاريخ فى كثير من الأحيان كما أن الجمع بين هذه النواحى المختلفة فى مؤلف واحد يكاد يكون أمرا مستحيلا ، ولذا مازلت أعتقد ـ وقد أكون مخطئا ـ بأن دراسة التاريخ السياسى دراسة مستقلة عما عداها تتيح للطلاب فرصة فهم المعالم الرئيسية للتاريخ الذى يدرسونه وتهيئهم للجمع فى دراستهم بين نواحيه المختلفة .

وأرجو أن يكون واضحا بأن هذا الكتاب يعد تنقيحا للكتاب الذى سبق أن قدمته لطلاب جامعة البصرة « موجز تاريخ الشرق الأدنى ـ البصرة ١٩٦٦ » وقد أضفت إليه بعض الإضافات التى تراءت لى ضرورتها حاليا والله ولى التوفيق ؟

د. محمد أبو المحاسن عصفور

محتويات الكتاب

صفحة

الفصل الرابع

الفصل الخامس

صفحة

قائمة بالأشكال والرسوم

صفحة

صفحة

الجـــداول

الخـــرائط

الاختصارات الواردة بالكتاب

ASA Annales du Service des Antiqnité de l'Egypte, Ls Caire, 1900

BIFAO Bylletin de L'instiut français d'archeologie orientale, Le Coioe, 1901ff.

Breasted, AR, J. E. Braested, Ancient Records of Egypt, Historical Documents from the Earliest Times to the Persian conquest (4 vols. + I index), Chicago, 1906-7.

Chr. d'Eg. Chronique d'Egpte, Bruxelles, 1926 ff.

Drioton & Vandier, L'gypte = E. Drioton and J. Vandier, L'Egypte (Les Peuples de L'Orieot Mediterréens II), (4e ed), Paris, 1962

JEA Journal of Egyptian Archaeology, London, 1914 ff.

Luckenbill, ABAR D.D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, (2 Vols.) Chicago, 19'62-7

Macadam, Kawa. M. F. L. Macadam, The Temoles of Kawa, (2 Vols.), Oxford, 1949, 1955.

Mem Inst. Fr. Memoires Publies par, les membres L'Intitut Français d'Archeolegie Oriental, Le Caire, 1902 ff.

PSBA Proceedings of the Society of Biblical Archaeology. London, 1879 ff

Rec. de Trav. Recueil de Travaux relatifs à la philologie et a l'archelogie égyptienne et assyrienne, Paris, 1870 — 1923

Sethe, Urkunden (or Urk.) K. Sethe, Urkunden des Aegyptischen Altertums, Leipzig, 1906 .— 9 & 1923 — 33.

الفصل الأول

منهج التاريخ

يقدر عمر الأرض بنحو ألفي مليون عام اصطلح الجيولوجيون على تقسيمه إلى أزمنة أو دهور طويلة وهذه قسموها بدورها إلى أقسام فرعية[١]، وقد أخذت الأرض منذ نشأتها تتجه نحو البرودة التدريجية بوجه عام ولكنها تعرضت لذبذبات طويلة الأجل تناوبت فيها فترات اشتدت برودتها فتقدم غطاء الجليد فيها نحو العروض ذات الحرارة المعتدلة حالياً وفترات مال المناخ فيها إلى الدفء نسبياً فتراجع الجليد إلى العروض الباردة ، وكانت آخر هذه الذبذبات هي تلك التي حدثت فى آخر الأزمنة الجيولوجية وتعرف لدى الباحثين باسم العصور الجليدية[٢] .

---

(١) هذه الأزمنة هى :

أ - أقدم الأزمنة (الدهر الأقدم) ويعرف باسم الزمن الأركى أو الايوزوى.

ب - الزمن الأول أو الباليوزوى وينقسم إلى عصور : الكامبرى، الأردوفيشى، السيلورى، الديفونى، الفحمى ، البرمى .

ج - الزمن الثانى أو الميزوى وينقسم إلى عصور : الترياسى ، الجوراسى ، الكريتاسى .

د - الزمن الثالث أو الكاينوزوى أو الترباسى وينقسم إلى عصور الأيوسين، الأوليجوسين الميوسين ، البليوسين .

هـ - الزمن الرابع أو البليوستوسين وهو أحدث الأزمنة .

(٢) حدثت هذه الذبذبات فى الزمن الرابع وسمى كل دور تقدم فيه الجليد باسم أحد وديان الألب حيث عثر على الركامات الجليدية فى تلك الوديان وهذه العصور الجليدية هى :

جنتز güntz ، مندل Mindel ، رس Riss ، فرم Würm على التوالى .

ولم تبدأ الحياة على سطح الأرض منذ نشأتها ، وحين بدأت كانت عبارة عن كائنات بسيطة التكوين ثم أخذت الكائنات المعقدة فى الظهور ، وبعد ذلك وجدت كائنات شبيهة بالانسان ولكنها كانت أقرب إلى القردة العليا (١) ثم ظهرت كائنات تعد أسلافاً للانسان الحديث (٢) إلا أن تلك المخلوقات الشبيهة بالانسان وهذه الأسلاف انقرضت قبل الانسان الحديث ولا يوجد من الأدلة القاطعة ما يؤكد صلتها به .

ولا شك فى أن تاريخ الانسان يبدأ منذ اللحظة التى ظهر فيها على سطح الأرض ، كما أنه لم يتوصل إلى ما نشاهده من حضارة إلا بعد آلاف عديدة من السنين ، ولم يتدرج فى مراحل الرقى بسرعة واحدة فى مختلف أنحاء العالم كذلك لم يمر فى كل المناطق بكل المراحل الحضارية التى مرت بها جهات أخرى

---

(١) يمكن تقسيم هذه الكائنات الى :

أ - سلالات أشبه بالقردة العليا وقد وجدت بقايا هياكلها العظمية فى جاوه (انسان جاوه) وفى الصين (انسان الصين) وغيرها .

ب - سلالات أقل شبها بالقردة العليا من السلالات السابقة وقد وجدت بقايا هياكلها العظمية فى نياندرثال «انسان نياندرثال» وفى هيدلبرج «انسان هيدلبرج» بألمانيا وفى روديسيا «إنسان روديسيا» .

ويعرف إنسان هاتين المجموعتين من السلالات باسم الانسان العامل Homo Faber

(٢) هذه السلالات قريبة الشبه بالانسان الحديث وحجم المخ لديها أكبر منه لدى السلالات السابقة وقد عثر على بقايا هياكلها العظمية فى أماكن مختلفة من العالم مثل جالى هل فى انجلترا وشتاينهيم فى ألمانيا وجبل الكرمل فى فلسطين وكرومانيون فى فرنسا وجريمالدى فى ايطاليا وغيرها . ويعرف الانسان فى هذه السلالات والانسان الحالى بأنه الانسان العاقل Homo Sapiens

وفى بعض الجهات كان الانسان لا ينتقل من مرحلة حضارية إلى المرحلة التالية لها بنفس الترتيب الذى سار فيه الانســـان فى تلك الجهـات ولم تـكن الفترة التى قضاها فى إحدى المراحل الحضارية بجهة ما مساوية للفترة التى قضاها فى نفس المرحلة فى أماكن أخرى .

وقد درج الباحثون على تقسيم تاريخ الانسان إلى قسمين رئيسين : القسم الذى سبق معرفته للكتابة والقسم الذى عرف فيه الكتابة ، وأطلقوا على الأول اسم « ما قبل التاريخ » وأطلقوا على الثانى « العصر التاريخى » على اعتبـــار أن الانسان فى هذا القسم من حياته توصل إلى التدوين وبذلك وجد التاريخ ، إلا أن تسمية القسم الأول باسم « ما قبل التاريخ » لا تتفق مع ما يعرف من أن تاريخ الانسان يبدأ منذ لحظة ظهوره على الأرض ومن الأفضل أن يطلق عليه اسم « عصر ما قبل الكتابة أو التدوين» أو « العصر قبل التاريخى » للتفرقة بينه وبين « العصر التاريخى » أو « عصر الكتابة أو التدوين » ، ومع كل فان اصطلاح « ما قبل التاريخ » أصبح من الشيوع بحيث لا يشك أحد فى المقصود به .

ومن الطبيعى - وقد مر الانسان بمراحل حضارية مختلفة - أن يختلف أسلوبه فى هذه المراحل وأن تختلف المظاهر العامة لهذه الحضارات ، وعلى هذا تعددت تقسيمات الباحثين فى تاريخ الانسان وحضـــاراته واختلفت وجهات نظرهم فى هذا الشأن - وعلى العموم يمكن تقسيم تاريخ الإنسان على حسب المادة التى صنع منها أدواته إلى مرحلتين :

« دور استعمال الحجر » ، « دور استعمال المعـادن » وهذا الأخير ما زلنا نعيش فيه إلى اليوم - أو أن نقسمه على أساس إقتصادى إلى : « مرحلة جمع الطعام » ، « مرحلة انتاج الطعام » ، وقد نضيف إلى ذلك

فنعتبر أول إنتاج للطعام ثورة صناعية يطلق عليها « مرحلة الثــورة الصناعية الأولى » لما صاحب هـــذا الانتاج من صناعات جديدة كالفخار ، وتمييزا لها عن النهضة الصناعية التي حدثت في القرن الثامن عشر الميلادى التي يمكن اعتبارها الثورة الصناعية الثانية حيث تبدأ مرحلة صناعية أخرى هي « مرحلة التصنيع » ، ومع كل فما زال مختلف الباحثين يقسمون تاريخ البشر حسب أسس متباينة وفق اختصاصاتهم والدراسات التي يهتمون بها - وهذه التقسيمات جميعها تهدف إلى تيســير دراسة تاريخ الإنسان والادوار الحضارية التي مر بها ، إلا أنه ينبغى أن ندرك بأنه لا توجد حدود زمنية فاصلة بين قسم وآخر في كل من هذه التقسيمات التي لا يخلو أى منها من نقائص ولكنها على كل حال تتيح لنا تتبع المراحل التي مر بها الإنسان في تاريخه الطويل ، وهي - وإن اختلفت في الأسس التي بنيت عليها - تتفق فيما بينها الى حد كبير بحيث يمكن مطابقة أحد أقسام أى من هذه التقسيمات على مراحل واضحة المعالم في التقسيمات الاخرى إذ من الممكن مثلا التوفيق بين « مرحلة جمع الطعام » والجزء الأول من « دور استعمال الحجر » الذى يعرف باسم « الدور الحجرى القديم » ، وبين « مرحلة انتـــاج الطعام » و « الجزء الأخير من عصر استعمال الحجر » و « دور استخدام المعادن » أى أنها تبدأ بأوائل « الدور الحجرى الحديث وتستمر الى وقتنا الحالى وذلك اذا ما تغاضينا عن فترة الانتقال بين « الدور الحجرى القديم » و « الدور الحجرى الحديث » وهي التي يطلق عليها اسم « الدور الحجرى المتوسط » ، وإن كان البعض يجعـــل « مرحلة انتاج الطعام » قاصرة على الفترة التي مرت على الانسان ابتداء من « الدور الحجرى الحديث » الى بداية « العصر التاريخى » .

ويبين المخطط التالى تقسيم تاريخ البشر الى الأقسام الرئيسية العامة :.

تاريخ الإنسان

ماقبل الوثائق المكتوبة
(العصر قبل التاريخى)

(مرحلة جمع القوت)

العصر الحجرى القديم

الأسفل

الحضارة الشيلية

الحضارة الأشولية

تحدث الظروف المناخية فى معظم البقاع التى سكنها الانسان فأنتج حضارات متشابهة

الأوسط

الأعلى

الحضارة الأوريغناسية

الحضارة السولترية

الحضارة المادلينية

تظهر لكل بيئة خصائص معينة فتختلف الحضارات التى تسودها تبعا لذلك

مرحلة إنتاج الطعام

العصر الحجرى المتوسط

العصر الحجرى الحديث

عصر استعمال المعادن

تزداد الاختلافات بين البيئات المختلفة فتنتج حضارات متباينة ويصبح من المستحيل وضعها تحت أسماء موحدة أو تجمعها مدلولات عامة

عصر الوثائق المكتوبة
(العصر التاريخى)

وإذا كان فى مقدورنا الآن أن نؤرخ الأحداث حسب وقت حدوثها بالنسبة لنقطة معينة واصطلح العالم المسيحى على جعل ميلاد المسيح أساسا للتأريخ واصطلح العالم الاسلامى على جعل هجرة الرسول عليه السلام أساسا للتأريخ ، فإن الأمر لم يكن كذلك فى العالم القديم فمثلا اتخذ سكان بلاد النهرين من كل حادثة مهمة أساسا يؤرخون به ماحدث فى سنتها أو السنوات اللاحقة لحدوثها وبالطبع اختلفت هذه الأسس باختلاف المدن ثم جعلوا من حكم كل ملك تقويما مستقلا أو أطلقوا على السنين أسماء كبار رجال الدولة الذين عاشوا فيها واتخذوها أساسا يؤرخون بالنسبة له ، أما المصريون القدماء فقد جعلوا من حكم كل فرعون تقويما قائما بذاته .

وقد توصل معظم أهل الحضارات القديمة إلى التوقيت وتقسيم الزمن بصورة أو بأخرى إذ عرف أهل العراق الشهور القمرية وكانوا يضبطون تقويمهم باضافة بضعة أشهر كل عدة سنوات (١) أما المصريون فقد عرفوا السنة على أساس ٣٦٥ يوما أى بفارق ¼ يوم فى السنة عن تقويمنا الحالى ، وعلى هذا لاتكاد تعترض المؤرخ صعوبة فى تأريخ الأحداث التى أشارت إليها الوثائق والنصوص القديمة إذا ما أمكن ربطها بعهد ملك من الملوك حيث أصبح فى الإمكان تأريخ حكم معظم ملوك الشرق الأدنى القديم

---

(١) بما أن السنة القمرية تنقص عن السنة الشمسية ١١ يوماً فمن المرجح أنهم كانوا يضيفون ثلاثة أشهر كل ثمانية أعوام أحدها من ٣٠ يوماً والشهران الآخران كل منها ٢٩ يوماً .

بتتبع قوائم الملوك وتسلسلهم ومدة بقـاء كل منهم على عرش بلاده فى الأقطار التى وصلتنا منها وثائق ونصوص تشير إلى ذلك، كما يمكن أيضا التوصل إلى تأريخ حكم الملوك المعاصرين لهؤلاء فى الأقطار الأخرى . أما إذا كانت هناك حلقات مفقوده فى قوائم الملوك وتسلسلهم وارتبطت الاحداث المراد تأريخها بتلك الحلقات المفقودة أو أريد تأريخ ظاهرة أو حضارة تمثلهـا آثار لاتعززها وثائق مكتوبة مثل تلك التى خلفتهـا الحضارات السـابقة لمعرفة الكتـابة فإن المؤرخ يستعين بالوسائل الآتية :-

أولا : فى العصور التاريخية عند وجود حلقات مفقودة فى قوائم الملوك إذا ماأشار أحد النصوص إلى حدوث ظاهرة فلكية معينة . حينئذ يلجأ المؤرخ الى الاستعانة بعلم الفلك ، فمثلا لم يكن من اليسير تحديد تأريخ عهد حمورابى ولكن كان من المعروف أنه عاصر الملك الاشورى « شمشى - أدد الاول » وقد أشار أحد النصوص الاشورية الى حدوث كسوف للشمس فى عهد أحد خلفاء هـذا الاخير ويدعى « آشور دان الثـالث » وعند تأريخ حدوث هذه الظاهرة فلكيا وجد أنها ترجع الى عام ٧٦٣ ق.م - ومن تتبع قوائم ملوك آشور وتسلسلهم فيما بين « آشوردان الثالث » « وشمشى - أدد الاول » واحتساب مدة حكم كل منهم أمكن تأريخ عهد هذا الملك الاخير وبالتـالى أمكن تقدير عهد حمورابى بالفترة مابين عامى ١٧٢٨ ، ١٦٧٦ ق . م .

ثانيا : فى العصور السابقة للكتابة أو فى حالة عدم وجود وثائق مكتوبة وعند العثور على مخلفات حضارية يمكن الالتجاء إلى طرق المقارنة والنسبية ، وأهم هذه ما يلى : -

١ — **دراسة الطبقات** التى توجد بها المخلفات الحضارية وتقدير عمرها جيولوجيا وبالتالى يمكن تأريخ الآثار التى توجد فى هذه الطبقات ، ومن أهم مايعتمد عليه الجيولوجيون فى تقدير عمر الطبقات احتساب معدل الإرساب فى حالة الطبقات الرسوبية أوتقدير عمر الحفريات الموجودة فى فى الطبقة المراد تأريخها ويمكن الاستعانة بعلم النبات القديم وبعلم الحيوان الوصفى ، ومن ذلك يمكن أيضا استنتاج الظروف المناخية التى كانت تسود فترة قيام الحضارات التى تدرس آثارها ومخلفاتها بل ومن الممكن عند وجود آثار مصنوعة من الاشجار تقدير الزمن الذى إستغرقته الحضارة التى انتجت هذه الآثار بدراسة حلقات نمو تلك الأشجار وتقدير عمرها .

٢ — **دراسة الطرز ومقارنتها(التيبولوجيا)**Typology من المسلم به أن تشابه آثار جهة من الجهات مع آثار جهة أخرى يوحى بان الحضارات المنتجة لها كانت متعاصرة أما اختلافها فيدل على أن إحداها كانت أسبق من الأخرى وعلى هذا يمكن إستنتاج تأريخ آثار مختلف المناطق بالنسبة إلى بعضها البعض وأن نحدد على أساس مانشاهده من تطور فى صناعة آثار معينة أى الحضارات المنتجة لهذه الآثار كانت أسبق من غيرها كما يمكن

ترتيب الحضارات التى توجد آثارها فى منطقة من المناطق على حسب التطور الذى يحدث فى طراز وصناعة هذه الآثار ، وأول من استعمل هذه الطريقة الأثرى الانجليزى سير فلندرز بترى Sir Flinders Petrie حيث اتخذ من الفخار الذى عثر عليه عند التنقيب على الآثار فى منطقة نقادة بجنوب مصر أساسا لتأريخ هذه الآثار وذلك بترتيب الفخـــار الذى وجد معها على حسب ماشاهده من تطور فى أشكاله وصناعته وبذلك تمكن من ترتيب الحضـــارات المنتجـة لهـذه الآثار وتأريخهـا بالنسبة إلى بعضها البعض .

٣ — طريقة الكربون ١٤ : [1] — هى أحدث طريقة ولكن لا يمكن إجراؤها إلا على المواد العضوية وخاصة المواد النبـاتية ، وهى مبنيـة على أساس أن كل مادة عضوية بها كربون ١٤ المشع وكربون ١٢ غير المشع بنسبة ثابتة — ويكتسب النبات كربون ١٤ المشع من تفاعل الأشعة الكونية بالغلاف الجوى المحيط به وحينما تنتهى حياة النبات يأخذ فى فقد كربون ١٤ الموجود به لأنه يتحول بسرعة ثابتة بهيئة متوالية هندسية إلى كربون ١٢ غير المشع فتنخفض كميته فى هذا النبات إلى النصف بعد فترة تقـــدر بنحو ٥٥٦٨ مع احتمال زيادتها أو نقصها عن ذلك بمقدار ٣٠ سنة ، وبعد فترة مماثلة يفقد النصف الباقى نصف كميته أى يصبح كربون ١٤ فى النبـات ربع كميته الأصلية وبعد

W. F. Libby, Radiocarbon Dating. (Chicago 1952) (1)

نحو ٣٣٤٠٨ سنة يصبح $\frac{1}{64}$ من كميته الأصلية وهكذا ، وبذلك يمكن تأريخ الآثار التي تدخل في صناعتها مواد عضوية على أساس قياس كمية كربون ١٤ المتخلفة فيها وبالتالي يمكن تأريخ الحضارات التي أنتجتها .

وقد أدخلت تحسينات متوالية على التأريخ بهـــذه الطريقة منذ اكتشافها وأصبح في الإمكان تقدير عمر البقايا التي تعامل بهذه الطريقة حتى ٤٤٫٠٠٠ سنة مع احتمال زيادة أو نقص يقدر بنحـــو ٣٧ سنة فقط .

الفصل الثانى

نشأة الحضارة وتطورها

أشرنا إلى أن أقدم السلالات البشرية ظهرت بقاياها فى جهات متفرقة من العالم (١) وكانت هذه الجهات لا تكاد تختلف فى ظروفها الطبيعية أو المناخية بعضها عن البعض الآخر ولذا لم تختلف المراحل الأولى لحياة الإنسان فى أى جهة من الجهات عنها فى الجهة الأخرى - ثم أخذت الظروف الجغرافية فى التغير كما اختلفت السلالات البشرية عن سابقاتها وأخذت الجماعات البشرية تتفاعل وبيئاتها التى عاشت فيها وظلت تعمل من أجل بقائها ورفاهيتها وتطورت أساليب حياتها ومظاهر حضارتها إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه فى وقتنا هذا وقد سبق أن أوضحنا مادرج عليه الباحثون من تقسيم تاريخ البشر (٢) حتى أصبح فى الإمكان تتبع المراحل الحضارية الرئيسية التى مر بها الإنسان .

ومن اليسير أن نتصور بأن الانسان بدأ حياته إما هارباً من وجه عدو من الانسان والحيوان أو مطارداً لفريسة منها وقد استمر كذلك فترة طويلة لم يتوصل فيها إلى شىء من الأسس الحضارية ، وكان الكل سواء فى أنهم كرسوا حياتهم لجمع القوت الضرورى لطعامهم وأخذوا

---

(١) أنظر أعلاه صفحة ٢

(٢) أنظر أعلاه صفحة ٣ ـــ ٥

ببعض قطع ملائمة من الاحجار أو فروع الأشجار يلتقطونها من الطبيعة ويستخدمونها كما هى دون تهذيب فى أغراضهم المحدودة لجمع القوت والدفاع عن النفس والصيد ، ويميل بعض الباحثين إلى جعل هذه المرحلة من حياة الانسان مرحلة حضارية قائمة بذاتها ويطلقون عليهـــا اسم « فجر الدور الحجرى » أو « العصر الايوليثى » ولكن غالبية العلماء لا يرون مبرراً لذلك بل يدمجون هذه المرحلة من حياة الانسان فى أولى مراحل العصر الحجرى ـ ومن مخطط تقسيم البشر (ص ٥ أعلاه) يتبين لنـا أن عصر استعمال الحجر ينقسم إلى رئيسيين : « الدور الحجرى القديم » و « الدور الحجرى الحديث » وقد يكون بينهما « دور حجرى متوسط » ولكن كثيرا ما لا يعثر على آثار لهذا الدور فى جهات مختلفة من العالم ـ وينقسم « الدور الحجرى القديم بدوره إلى ثلاثة أقسام حسب الترتيب الطبيعى للطبقات التى عثر على آثاره المتباينة فيها ، وهذه الاقسام هى : الدور الحجرى القديم الأسفل والدور الحجرى القديم لأوسط والدور الحجرى القديم الأعلى .

وقد ظل الانسان ينعم بمناخ ملائم تتشابه ظروفه فى انحاء العالم التى عاش فيها أثناء الدور الحجرى القديم الاسفل حيث يرجح أنه يتفق وفترة تراجع الجليد الثانية التى حدثت بين عصر تقدم الجليد الثانى (مندل Mindel) وعصر الجليد الثالث (رس Riss) ولذا تشابهت الحضارات خلاله ، وفى الدور الحجرى القديم الأوسط انقسم العالم القديم إلى قسمين كبيرين : أوراسى وأفريقى إذ أخذت الظروف المناخية تتغير لتقدم الجليد خلال عصر الجليد الثالث إلى العروض الوسطى واختلفت تبعاً لذلك مظاهر

الحضارة فى كل منها واستمر الحال كذلك طول عصر الجليد الثالث وفترة الإنحسار التى تلته وعصر الجليد الرابع (فرم Würm) - وازدادت الإختلافات المناخية بعد هذا العصر الأخير حيث تراجع الجليد فكانت لكل إقليم ظروفه الخاصة وتباينت تبعاً لذلك الحضارات التى سادت خلال الدور الحجرى القديم الأعلى - ثم أخذ الجفاف يتزايد فى العروض الوسطى والمدارية فاشتد تباين الظروف الطبيعية حتى تميزت البيئات المحلية بعضها عن البعض وأصبحت لكل منها ظروفها الخاصة فى العصور التالية ، ولذا فان ما يشاهد من مظاهر حضارية فى بيئة ما لا يمكن العثور على نظائر لها فى بيئات أخرى إلا إذا تشابهت الظروف أو عند انتقال هذه المظاهر من بيئاتها الأصلية إلى تلك البيئات ، وعلى ذلك فمن المستحسن أن تدرس الحضارات البشرية ابتداء من ذلك الدور فى كل بيئة على حدة .

ولما كانت المراحل الأولى لحياة البشر لا تكاد تختلف فى جهة من العالم عنها فى الجهات الاخرى كما أشرنا [١] فقد اشتركت أقدم الحضارات الإنسانية فى مظاهرها الرئيسية كما يلى :

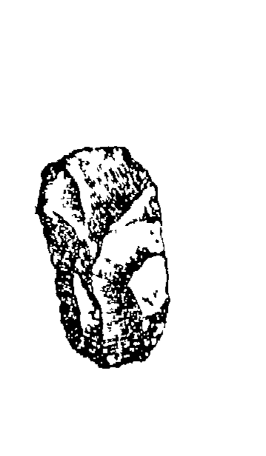
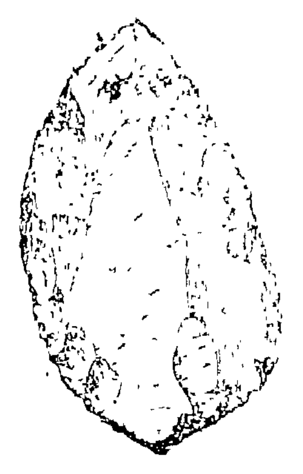
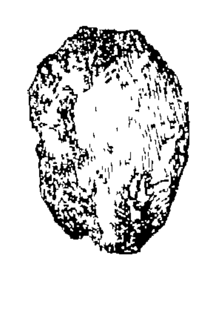
---

(١) أنظر أعلاه ص ١٠

أولا : فى الدور الحجرى القديم الأسفل

ا ـ الحضارة الشيلية :

نسبة إلى بلدة Chelles على نهر المارن، وفى أثنائها أخذ الانسان يحاول الإفادة بما يلتقطه من قطع حجرية وفروع أشجار فى الدفاع عن نفسه وفى الصيد وجمع القوت ، وقد أخذ يهذب القطع الحجرية كى تصبح مناسبة لقبضة اليد وانصبح ذات حافة حادة فى نفس الوقت ، فكان يتخذ كتلة كريه من الحجر الصلب بمثابة مطرقة يهذب بها قطعة صوانية يريد تهذيبها ويبدأ بطرق حافات هذه القطعة الصوانية من أحد وجهيها بعناية ثم يقلبها على الوجه الآخر ويطرقها على النحو السابق بحيث تصبح كمثرية الشكل ويكون حوالى ثلثا محيط القطعة حاداً كالمبراة بينما يبقى

شكل (١) فئوس يدوية شيلية

الثلث الباقى بقشرته الأصلية دون تهذيب وذو شكل مستدير فى الغالب لكى تتمكن اليد من القبض عليه ، وقد عرفت هذه الآلة باسم الفأس اليدوية Coups de poing (Hand Axe) (شكل ١) ومن هذا يتضح أن الآلة كانت تتخذ من النواة نفسها .

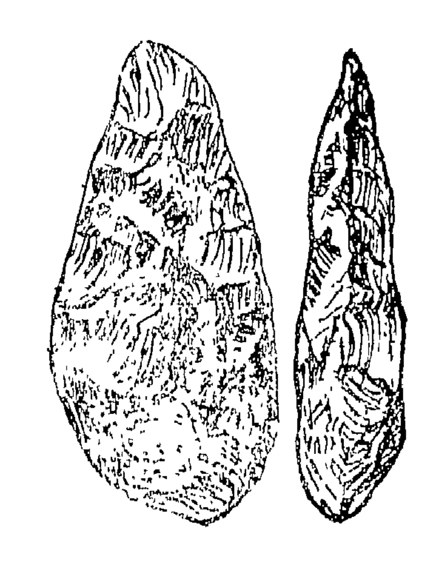
ومن المحتمل أن المكاشط scrpers وجدت فى هذه الحضارة إلى جانب الفئوس اليدوية وهذه كانت عبارة عن قطع من الصوان تمتاز بحافة حادة مستقيمة وكانت تستخدم فى تقطيع اللحم وكشط الجلد ، وربما وجد الإنسان نفسه فى أواخر هذه الفترة فى حاجة إلى ثقب الجلد فجعل بعض فئوسه اليدوية تدق وتستطيل بحيث أصبحت مثقابا borer .

وعلى العموم لا نجد تنوعا كبيرا فى شكل الآلات إذ كانت مطالب الانسان قليلة وكان يستعمل الآلة الواحدة فى عدد من أغراضه إلا أنه كان لا بد من أن يستعمل عددا كبيرا من هذه الآلات لأنه كثيراً ما كان يضطر إلى إلقائها على عدوه أو على فريسته .

وقد عاش الإنسان فى هذه الفترة فى العراء صيادا متجولا ينتقل من مكان لآخر إذ كان المناخ دافئا فلم يلجأ إلى الكهوف إلا حيث يشتد البرد ، وكانت قدرته على التفكير محدودة لأنه كان من تلك الأجناس قريبة الشبه بالقردة العليا ولم يعثر على آثار له إلا فى أماكن قليلة من العالم وربما كان ذلك لقلة أعداده نسبيا ، ومن المرجح أنه وصل فى هذا الدور إلى أوربا قادما من شمال أفريقية عن طريق جبل طارق ويستدل على ذلك من أن آثاره لم تكتشف فى وسط أوربا وشرقها ولم توجد إلا محطة شيليه واحدة فى شمال ايطاليا أما معظم آثاره فقد وجدت فى غرب أوربا وأسبانيا .

ب — الحضارة الأشولية :

لا نكاد نجد فارقا كبيرا بين هذه الحضارة وسابقتها ، فقد ظل الإنسان يستعمل الفأس اليدوية ولكنها كانت أكثر اتقانا من الفأس الشيلية



شكل ٢ ـ فئوس يدوية أشولية

وأصغر منها حجما إذ أن الإنسان الأشولى لم يكتف بتهذيب حافة الآلة بل كان يهذب سطحها كله تاركا أقل مساحة ممكنة من القشرة الأصلية فى أسفل الأداة لكى يجعل شكلها متناسقاً (شكل ٢) ولم يكتف باستعمال الفأس اليدوية المأخوذة من النواة وحدها بل بدأ يستغل كذلك بعض الشظايا فاتخذ منها بعض أدواته ، كما استعمل بعض الآلات الخشبية والعظيمة وكثر عدد المكاشط والمثاقيب التى استخدمها .

ويبدو أن المناخ ظل على حالته السابقة من الدفء وكثرة التساقط ولكنه أخذ بعد ذلك فى البرودة والجفاف ولذا نجد أن آلات الإنسان التى عثر عليها من ذلك العصر كانت مختلطة أحيانا ببقايا حيوانات من التى تعيش فى أجواء دفيئة وفى أحيان أخرى كانت مختلطة ببقايا حيوانات من ذات الفراء ، ولكن مع ذلك لم يكن المناخ عموما من القسوة بحيث يضطر الإنسان إلى الالتجاء إلى الكهوف ، ولذا ظل يعيش فى العراء صيادا وكان يفضل القرب من مجارى المياه بدليل وجود معظم آثاره عندها ـ وربما كان اشتداد البرودة أحيانا هو الذى أدى به إلى اختراع النار واستعمالها فقد وجدت بين أدواته مخلفات المواقد ولكنها كانت قليلة .

ويرى البعض تسمية صناعات هذه الحضارة بأسماء مختلفة على حسب الأماكن التي عثر فيها على مخلفاتها في بعض جهات أوربا نظرا لوجود اختلافات طفيفة فيها[١] ولكنها على العموم لاتخرج عن كونها صناعات أشولية .

وقد ظلت السلالات البشرية البدائية تعيش خلال هذه الفترة ويمثلها في أوربا إنسان هيدلبرج وفي أفريقيا إنسان روديسيا ، أما في الشرق فلم يوجد من البقايا العظمية ما يبين نوع إنسان هذا العصر بصفة مؤكدة وإن كان من المرجح أنه من السلالات التي تعد سلفا للإنسان الحديث وإليها تنسب بقايا عظمية وجدت في فلسطين (في جبل الكرمل)[٢] وفي بلاد النهرين (في كهف شاندر)[٣] وفي السودان (في سنجا)[٤] ولكن هذه كلها مازالت في حاجة إلى المزيد من الدراسة .

ثانيا : في الدور الحجرى القديم الأوسط

الحضارة الوستيرية

تتميز هذه الحضارة عن سابقاتها بأن معظم أدواتها من الشظايا وهذه كانت تشكل على كتلة من الصخر ثم تفصل عنها بطرقة واحدة وبعد ذلك تهذب حافتها كي تكون أداة فعالة ، ولا يوجد في هذه الحضارة إلا أدوات

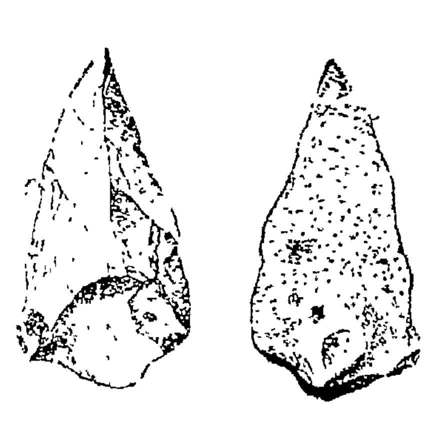
---

(١) مثل الصناعة الكلاكتونية في انجلترا والصناعة السفيلية في بلجيكا والليفالوازية في فرنسا .

(٢) Dorothy A. E. Garrod' TheStone Age of Mount Carmel (Oxford 1937)

(٣) مجلة سومر سنة ١٩٥١

(٤) A. J. Arkell, Bate,Wells, & Lacailles, The Fossil Mammal of Africa II. The Pleistocene Fauna of two Blue Nile sites (london 1951)


شكل (٣) ـ آلة مستيرية

قليلة من النواة (شكل ٣) ـ وقد تعددت أشكال الشظايا الموستيرية وبدأت تظهر فيها المكاشط الجانبية التى شظيت من أحـــد جانبيهـا فقط ورؤوس الحراب مما أدى إلى تضاؤل شأن الفأس اليدوية ، ونظراً لاشتـــداد البرودة فإن الإنسان لجأ الى الكهوف فى أوربا وربما اضطرته هذه الظروف الى التكدس فيها فأتاحت له هذه الحياة الجماعية فرصة لرقيه الاجتماعى وتقدمه فى التفكير وفرضت عليه قسوة المناخ مطالب جديدة كصنع الملابس من الجلود اتقاء البرد .

ويستدل من البقايا البشرية التى عثر عليها فى جهات كثيرة من غرب أوربا على أن انسان هـذا العصر كان مازال من السلالات التى تنتمى الى انسان نياندرثال ، ويعتقد البعض أن أعدادا كبيرة منه هاجرت الى أفريقيا ـ لاشتداد البرد ـ عن طريق جبل طارق ومالطة وصقلية وانتشر هذا الانسان الى وادى النيل أيضا[١] ـ ولكن مع هذا يبدو أنه قد انقرض تماما بعد هذا العصر وظهر الانسان الحديث (أى الانسان العاقل

---

(١) د . ابراهيم رزقانه : الحضارة المصرية فى فجر التاريخ (القاهرة سنة ١٩٤٨) ص ٤١ .

Homo sapiens) فى العصر التالى أى فى العصر الحجرى القديم الأعلى ، ومنذ ذلك الحين أخذت الحضارة الانسانية فى التطور والتشعب الى وقتنا هذا .

بدء الاختلاف الحضارى

أخذت ملكات الانسان العقلية والفنية تنمو إبتداء من أواخر الدور الحجرى القديم ولكنه ظل كغيره من الكائنات التى عاشت معه يعتمد كلية على ماتجود به الطبيعة من مأوى ولباس وطعام ، ونظرا لأنه كان لا يضمن الحصول عليها بصفة دائمة فقد ظل فى حركة دائبة وكان كل ما يقتنيه وما يمتلكه عائقاً له ولا يستثنى من ذلك أبناؤه إذ لا شك فى أنه كان يحدد من يتبعه منهم - ولذا فإن أهم تغيير طرأ على الانسانية بدأ عندما أخذ الانسان يتحكم فى بيئته الطبيعية وبعد أن تمكن من الاستقرار فيها حيث أصبح فى الامكان اقتناء الكثيرة من الأشياء والمنشئات وأصبحت الآثار الثابتة تستحق التشييد والبناء وأمكن للأطفال أن يعيشوا فى الأماكن التى يعيش فيها آباؤهم ويرثونهم ولا يحول حائل دون زيادة عددهم .

ومن العلامات المميزة لأولى مراحل الاقتصاد الزراعى إقامة القرى المستقرة كما أن فكرتى بذور البذور بقصد انتاج المحاصيل وتربية صغار الحيوانات التى من أصل برى لا بد وأنها تحققتا فى أوقات مختلفة فى الأماكن المختلفة خلال التاريخ ، ويرجح كثير من الباحثين أن المشاريع والاكتشافات التي أدت الي جعـــل الزراعة موردا لمعيشة جماعة قروية

مستقرة تعتمد عليها إعتماداً كلياً قد نشأت فى منطقة معينة من العالم القديم ومن ثم انتقلت هذه الأفكار الجديدة هى والبـــذور الصالحة للزراعة والحيوانات الداجنة إلى مناطق أخرى [1] عن طريق الاقتباس وانتقال الثقافة وعن طريق التحركات البشرية - وما زال الباحثون يحاولون التعرف على هذه المنطقة ولكنهم لم يتوصلوا بعد إلى رأى قاطع فيما يختص بذلك وربما كانت هذه الاكتشافات قد أخـــذت فى الظهور فى جهات مختلفة وفى وقت واحد أو فى أوقات متقاربة .

ويبدو أن هذه الثورة الجديدة التى تعرف باسم ثورة الدور الحجرى الحديث قد استمرت فترة طويلة ، كما أنها لم تصل من موطنها أو مواطنها إلى الاماكن البعيدة فى غرب أوربا وفى شرق آسيا إلا بعد فترة تقرب من ثلاثة أو أربعة آلاف سنة - والواقع أن غرب أوربا شهد عصر البرونز ونشأة المدن الصغيرة قبل أن تصل إليه هذه الأفكار الجديدة ، ولا يقصد بهذا الدور فترة زمنية محددة تقع بين تواريخ ثابتة وإنما يقصد به الفترة التى تقع بين الوقت الذى كان الأفراد فيه يعتمدون على حياة الصيد والوقت الذى بدأ فيه اقتصاد يقوم على استخدام كامل للمعادن أى أنه يدل على الفترة التى نشأت فيها الزراعة وانتشرت ببطء فى كثير من جهات أوربا وآسيا وشمال أفريقيا .

واقتصاد الدور الحجرى الحديث يعتمد بصفة عامة على زراعة مختلطة بالرعى ، فأقدم المواقع الاثرية التى عثر عليها من هـذا العصر كانت

---

(١) أنظر ص ١٨ .

تعتمد على كل من استئناس من الحيوان وزراعة الحبوب ولم يعثر على موقع يستدل منه على وجود أيها مستقلا عن الآخر أو أن أهل هذا الموقع اعتمدوا فى حياتهم على أحدهما فقط . ومع أن الجماعات التى تعتمد على الرعى وحده تنتشر فى العالم الآن إلا أنه لا شك فى أن حياة الرعى لم تستقر كنظام يتبع إلا فى فترة متأخرة نسبياً ، أى بعـــد مرور بضعة آلاف من السنين على وجود أول مجتمـع اعتمد فى حياته على الزراعـة المختلطة بالرعى .

ومع أن ممارسة الزراعة والمعيشة فى قرى مستقرة تعد أول علامات ثورة الدور الحجرى الحديث إلا أن مظاهر حضارية أخرى غالبا ما تشترك معها ولابد من الإشاره اليها كمميزات عامة لحضارة الدور الحجرى الحديث ، ومن هذه : الفئوس المصقولة المصنوعة من الصخور النارية أو الصوان والمنجل المستقيم أحيانا ، على أن صناعة الفخار والنسيج سرعان ما برزت أهميتها وأصبحت أهم ما أوجدته حضارة الدور الحجرى الحديث ولـكنها مـع ذلك من المميزات الثانوية التى تعد من مقتضيات حياة الزراعة بما فيها من جديد .

وكان لابد لإنسان الدور الحجرى الحديث بعد أن يبذر بذوره من أن تتعلق آماله بما تجود به الطبيعة ولذا كان من السهل أن يعتقد بأن الأرض ما هى إلا إلهة للخصب والنماء ، وتطلع إلى ما حوله من كائنات بحثا عن من يحاكى هـذه الأرض الطيبة فلم يجـد خيراً من الأم الرؤوم تحنو على أبنائهـا ، وهكـذا تمثل فى الأرض الأمومة وتعبد اليها حيث

رمز إليها بتماثيل فى هيئة آدمية على شكل أمرأة فى غالب الأحيان أو فى هيئة الحمام أحياناً (١) .

وبالطبع لم يقف التطور الحضارى عند دور الحجرى الحديث بل أخذ الإنسان إبتداء من هذا الدور يسرع الخطى نسبيا فى تطوره الحضارى ، لأن حياة الزراعة هيأت للإنسان الطمأنينة والأمن أكثر من ذى قبل إذ كفلت له الرزق بصورة أكثر دواما وانتظاما فأتاح له ذلك فرصة التأمل والتفكير والترقى وهكذا انتقل لانسان إلى دور بدء استخدام المعادن ثم إلى الدور الكتابى أو العصر التاريخى .

التطور الحضارى والشرق الأدنى

من العسير تحديد مكان وزمان نشأة القرى المستقرة التى اعتمدت فى حياتها على الزراعة واستئناس الحيوان (أى ثورة الدور الحجرى الحديث) التى تعد الجذور الأولى التى اعتمدت عليها الحضارات الانسانية فى تطورها الى وقتنا الحاضر وذلك لأن هذه النشأة كانت حقيرة غير واضحة المعالم ، كما يتعذر تحديد موطنها الأصلى بدقة تامة لأن أفكارا مثل بذر البذور وتربية الحيوان يمكن انتشارها بسهولة ويسر الى درجة يصعب معها تحديد مصدرها إذ أنها فى الواقع أيسر انتشارا من انتشار المظاهر الحضارية الأخرى وخاصة المادية منها مثل الأخذ باستخدام نوع من الآلات أو تغيير الأدوات المألوفة فسرعان ما تتقبل الشعوب ـ

---

(١) كما حدث فى سورية فى دور بداية استخدام المعادن .

وإن اختلفت تقاليدها - ثورة مثل هذه (ثورة الدور الحجرى الحديث) إذا ماكانت البيئه التى تعيش فيها ملائمة والمناخ مناسبا ، ويصبح من اليسير عليها أن تكيف حضارتها تبعا لذلك .

وعلى هذا فقد اختلف الباحثون فى أى الاماكن تعد أقدم مراكز الزراعة المصحوبه باستئناس الحيوان ، ومنهم من ذهب إلى أنها الحبشة ومنهم من رأى أنها جنوب غربى آسيا ، وتحمست غالبيتها لهذا الرأى الأخير حيث اكتشفت فى هذه المنطقة آثار أنواع برية من النباتات والحيوانات التى تعد أسلافا للحبوب والحيوانات التى تعيش فيها الآن بينما لم يعثر فى أفريقيا على ما يناظر هذه الأنوع البرية ، غير أن العثور على هـذه الآثار فى منطقة دون غيرها لا يكفى لحل المشكلة إذ أن الأبحاث الأثرية ما زالت غير كافية فى كثير من بقاع العالم بصفة عامة .

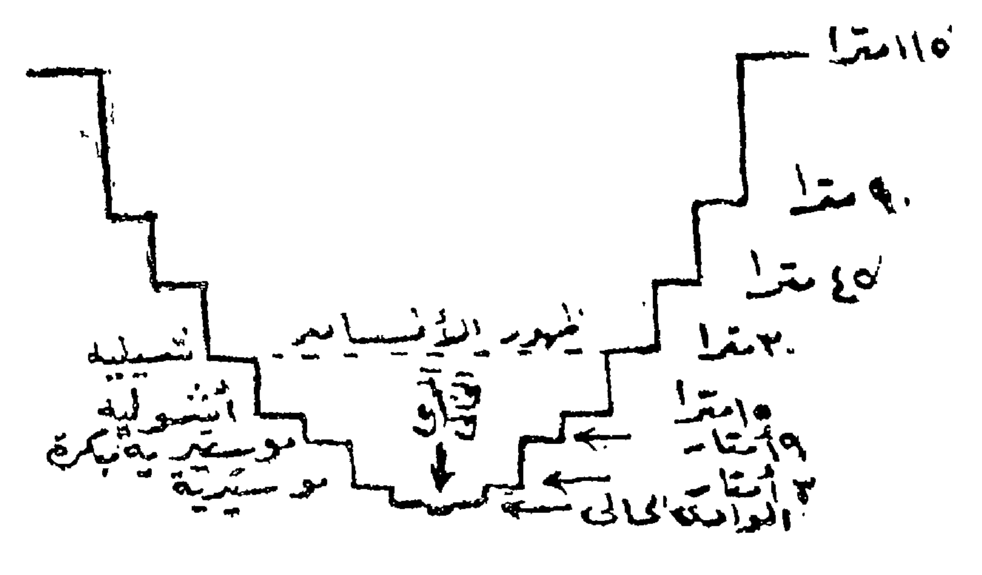
ومع هذا فإننا إذا ماتأملنا ظروف العالم القديم فى الازمان السحيقة لوجدنا أن العروض المداريه كانت أحسن جهاته ملاءمة فى مناخها وبيئاتها لنمو هذه الحبوب والحيوانات وخاصة فى الادوار الحجرية حيث أنها لم تتعرض لذبذبات مناخية شديدة التطرف ، ولذا فإن أقدم مراكز ثورة الدور الحجرى الحديث لاتخرج عن نطاق هذه العروض ولا تتمثل جنوب خط الاستواء فى العالم القديم إلا فى بعض جهات أفريقيا واستراليا ، لأن هذه الجهات بحكم تضاريسها وموقعها أبعد من أن تكون أقدم مراكز تلك الثورة ، كما أن توصل هـذه الجهات إلى أى مظهر حضارى لا يحتم انتقاله منها إلى غيرها أو أن يؤثر فيها بالضرورة أما فى شمال خط الاستواء فإن الجهات التى تقع فى العروض المدارية أكثر احتمالا

لأن تكون أقدم مراكز هذه الثورة ، وهذه الجهات تتمثل فى النطاق الممتد عبر شمال أفريقيا وشبه جزيرة العرب وشمال الهند والهند الصينية أى بين المحيط الاطلنطى غربا والمحيط الهادى شرقا بما فى ذلك من صحارى واسعة ووديان أنهار إذ أن هذا النطاق لم يكن على حالته الراهنة من الجفاف والجدب بل كان ينعم فى العصور السحيقة بكمية من الرطوبة والتساقط هيأت للجماعات البشرية التى انتشرت فيه حياة نباتية وحيوانية ملائمة ، لأن عصور تقدم الجليد إلى العروض المعتدلة والفترات الدفيئة التى تخللتها كانت تقابلها أدوار مطيره فى العروض لمدارية وأن فترات تراجع الجليد الباردة كانت تقابلها قلة فى التساقط فى هذه العروض كما سبق أن أشرنا (١) - ومع أن بوادر الجفاف أخذت تحل فيه ابتداء من نهاية الدور الحجرى القديم إلا أن هذا الجفاف لم يصل إلى ذروته من الشدة الا فى العصر الرومانى ، وعلى هذا يمكن القول بأن صحارى هذا النطاق ظلت تنعم بمناخ ملائم الى أوائل العصر التاريخى على الأقل ، وبالرغم من انتشار الانسان فى أرجاء هذا النطاق الواسعة إلا أنه كان يحرص على أن يظل قريبا من مجارى المياه التى كانت تتمثل فى الانهار العظيمة الحالية وكثير من أودية الصحراء التى أصبحت جافة الآن - وحينما أخذ التساقط فى القلة وبدأ الإنسان يشعر بوطأة الجفاف صار لا يبعد كثيراً فى إقامته عن المجارى المائية الدائمة والانهار العظيمة مثل نهر النيل ونهرى دجلة والفرات وأنهار سوريا وآسيا الصغرى وغيرها ، ونظرا لأن تلك الانهار لم تعمق مجاريها إلا بعد وقت طويل ولأن كمية التساقط كانت

(١) أنظر أعلاه ص ١ .

أكبر منها الآن فان السهول الفضية لتلك الأنهـــار كانت أكثر ارتفاعا وأكثر إمتدادا على الجـانبين ، وكلما عمق النهر مجراه وقل التساقط كلما أخذت سهولة الفيضية تنخفض ويقل امتدادها أى أن مياهه كانت تنحسر عن جانبيه تدريجيا ـ وكان الانسان بالطبع يتبعهـا دائما حيث يظل يهبط من الأماكن المرتفعة أو الهضـاب التى عاش فيها ليقيم على جانبى النهر تاركا وراءه مخلفاته وبعض آثاره ـ وهكذا نجد أن أقدم ما عثر عليه من الآثار فى مثل هـــذه الحالة وجدت فى مناطق أبعد فى قلب الصحراء ومنسوب طبقاتها أكثر ارتفاعا من تلك التى وجدت بها الآثار الأحدث منها ، أى أن أقرب الآثار فى تاريخها إلى عصرنا الحالى تـكون فى طبقات أقرب إلى الوادى وهى فى منسوبهـا أقل ارتفاعا من تلك التى ترجع الى عهود أقدم ، وعلى ذلك تـكون آثار الحضارات المختلفة فى مدرجات على جانبى النهر ويـكون ترتيبها عكسيا بالنسبة لترتيب الطبقات التى توجد بها آثار فى أماكن بعيدة عن وديان الانهار اذ أن أقـــدم الآثار فى هذه الاماكن توجد فى أسفل الطبقات وتعلوها الاحدث منها وهكذا وفق ترتيبها الزمنى ، ومن خـير الامثـلة للمدرجات النهرية التى توجدبها آثار الحضارات المختلفة فى ترتيبها العكسى مدرجات النيل (شكل ٤) .

ومن البديهى أن مناطق العروض المدارية شمال خط الاستواء فى العالم القديم لم تتطور فى حضارتها بسرعة واحدة ولم تؤثر جميعها فى حضارات غيرها أو تتأثر بهم بدرجة واحدة بل كانت بعضها أسرع فى تطورها وأكثر تأثيرا فى غيرها وتأثرا بهم من البعض الآخر ، ولاشك



شكل (٤) رسم يبين مدرجات النيل

فى أن المناطق المتطرفة والبعيدة مثل الهند الصينية والهند وشمال غرب أفريقيا كانت أقل شأنا من بقية المناطق فى هذه الميادين .

ولو نظرنا إلى إقليم الشرق الأدنى بصفة عامة لوجدناه يتميز بعوامل هيأت له سرعة التطور وجعلته أسبق مناطق ذلك النطاق المدارى وأبعدها أثرا فى مضمار الحضارة والرقى وهذه العوامل تتلخص فيما يلى : —

(١) وقوعه فى مركز متوسط من العالم القديم مما سهل اتصاله بغيره من الأقاليم فأمكن انتقال المؤثرات الحضارية منه وإليه بسهولة .

(٢) وجود أنهار عظيمة ومجارى مائية دائمة فى مختلف أقطاره مما أدى الى استقرار الجماعات البشرية التى سكنت قريباً منها وأتاح لها ذلك فرصة النهوض والرقى . (أنظر خريطة رقم ١) .

(٣) سهولة اتصال أجزاء هذا الاقليم فيما بينها لعدم وجود فواصل طبيعية مانعة تحول دون ذلك حيث أتيحت لها فرصة الاحتكاك بعضها بالبعض فانتشرت مظاهر حضارية مختلفة فيما بين دجلة والبحر المتوسط[١] ووصلت بعض العناصر الحضارية الى وسط آسيا الصغرى من مواطن لا يقل بعدها عن ٣٠٠ ميل تقريبا[٢] كما جاب أهل حضارة سيالك فى ايران أنواعا من الأصداف من أماكن تبعد عنهم نحو ٦٠٠ ميل تقريبا إلى غير ذلك من المظاهر التى تدل على نشاط احتكاك أهل المناطق المختلفة فى هذا الاقليم بعضهم بالبعض الآخر.

(٤) بالرغم من وجود التشابه بين البيئات فى أحواض الأنهار التى تجرى فى هذا الإقليم فإن كلا من أقطاره تميز بأنواع معينة من الموارد التى لا تتوافر فى بقية أقطار هذا الإقليم مما أدى إلى تشابك مصالحها ودعم الاتصال فيما بينها ، والواقع أن هذا الإقليم فى مجموعة وجدت به كل الاحتياجات الضرورية لنشأة الحضارة وتطورها ـ وكانت كل دولة تحصل على ما تريد من موارد طبيعية لدى الدول الأخرى عن طريق التجارة أو عن طريق الحرب إن وجدت لديها القوة الكافية لذلك.

وكثيراً ما يذهب الباحثون إلى أن قطراً من بين أقطار إقليم

---

(١) مثل فخار حضارة حسونة (بالعراق) الذى وجد مايماثله فى سوريا.

(٢) أنظر Seton Lloyd «Early Anatolia» (Pelican 1956), p.53.

الشرق الأدنى كان أسبق من غيره فى الوصول الى ثورة حضارية معينة وخاصة تلك التى حدثت ابتداء من عصره الحجرى الحديث أو الى مقدمات عصره التاريخى ويستندون فى ذلك الى احتمال انتقال بعض المظاهر الحضارية من هذا الجزء الى غيره من أجزاء هذا الاقليم ، وكثر الجدل حول أسبقية كل من العراق ومصر فى هذا المضمار إلا أن انتقال بعض المظاهر الحضارية - بفرض ثبوته - لا يكفى لتأكيد أسبقية القطر الذى انتقلت منه الى القطر الآخر ما دامت هناك عناصر حضارية أخرى أصيلة قد تطورت داخليا وتلقائيا فى القطر الذى وجدت به المظاهر الحضارية التى يفترض أنها منقولة اليه [1]- وكل ما يمكن قوله بأنه لا يمكن تأكيد أسبقية أحد أقطار اقليم الشرق الأدنى إلى ثورة الحجرى الحديث بصفة قاطعة فكلها تنعم بمناخ ملائم وكانت تسكنها شعوب من أصل واحد أو من أجناس متشابهة ومن المعروف جغرافيا أن البيئات المتشابهة التى تسكنها أجناس متشابهة تنتج حضارات متشابهة .

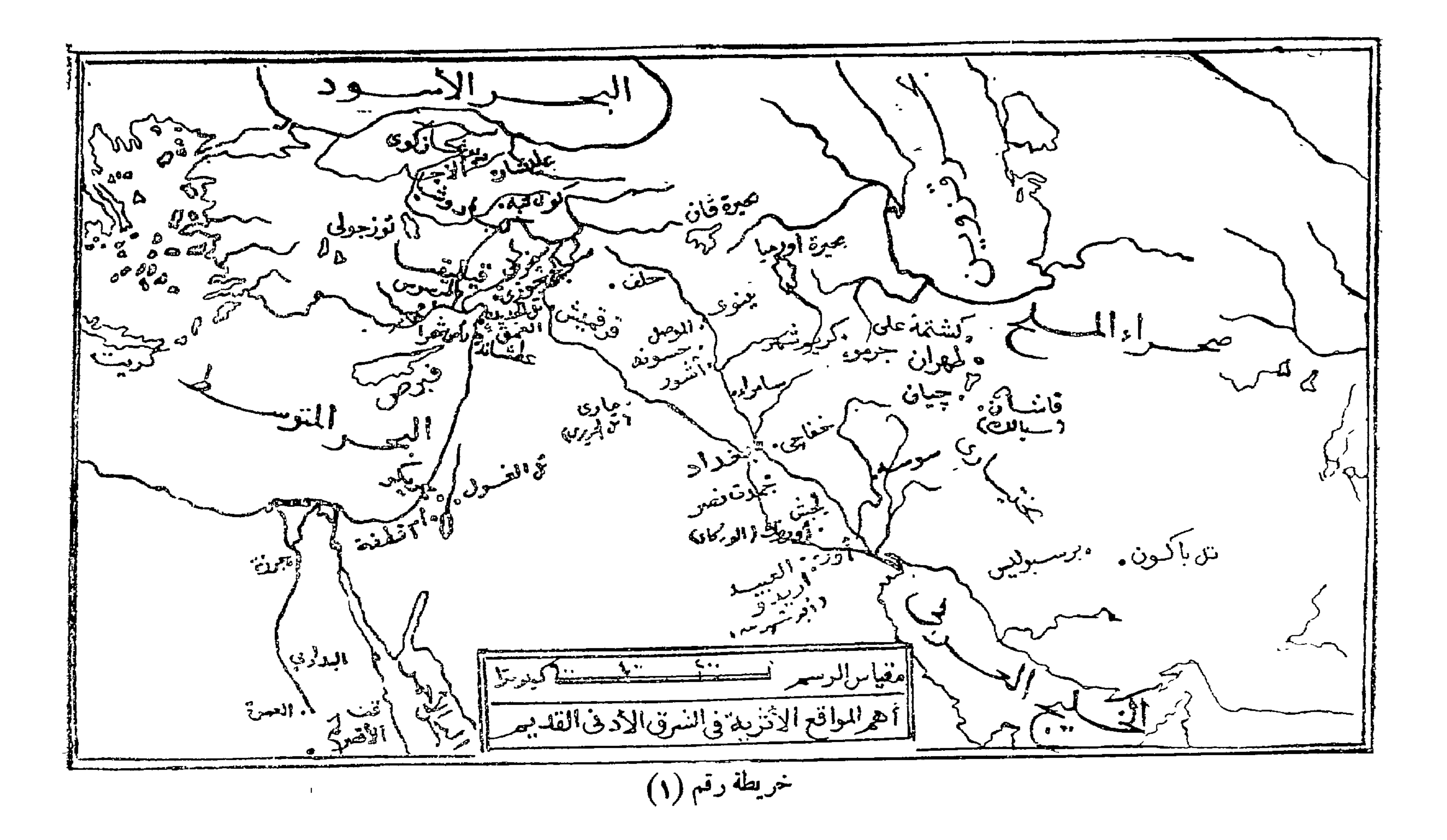
وكان من الطبيعى أن يتجه إنسان الدور الحجرى الحديث إلى تحسين انتاجه وأن يبحث عما يهىء له شيئا من الرفاهية واقتصاد

---

(١) كانت الدكتورة باو مجارتل على رأس المتشيعين إلى أن زراعة الحبوب واستئناس الحيوان فى دور الحجرى الحديث فى مصر ترجع الى تأثير حضارى من غرب آسيا — أنظر E. Baumgartel, (The Cultures of Prehistoric Egypt) I, P. 22-3 ولكنها عادت فأرجعت ذلك إلى أصل أفريقى فى الجزء الثانى من كتابها السابق — أنظر E. Baumgartel, op. cit, II (1960), P. 140,

بعض الجهد فى عمله ، وسواء كان توصله إلى استخدام المعادن قدحدث عن طريق الصدفة البحتة أو عن طريق التجربة فإنه أخذ يستغلها فى أغراضه وانتقل إلى دور بدء استخدام المعادن ـ وكان استقراره فى القرى لا شك داعيا إلى تشابك مصالحه مع غيره وتعقد علاقاته الإنسانية فاضطرته الحاجة الى إيجاد وسيلة يتذكر بها بعض ما يتعلق بشئونه وبعلاقاته مع الآخرين خشية أن تخونه الذاكرة ، وعلى هذا حاول تدوين ذلك برسم أو نقش يصور به ما يريد أن يتذكره بقدر الإمكان فابتدع الكتابة التصويرية التى يكاد يكون وقت التوصل اليها واحدا فى كل من العراق ومصر مما دعا إلى الظن بأنها من اختراع جنس جديد دخل الى كل منهما فى نفس الوقت ، إلا أنه لا شك فى خطأ هذا الرأى نظراً لأن هذه الكتابة لم توجد فى أى قطر آخر فى تاريخ أسبق لحدوثها فى هذين القطرين ـ وقد بدأ العصر التاريخى فى كل منهما بعد فترة وجيزة من التوصل للكتابة ـ أو قبلها بقليل .

وبالرغم مما أشرنا اليه من جدل الباحثين حول أسبقية العراق ومصر فى مضمار الحضارة ينبغى أن لا يتبادر الى الذهن بأن أقطار الشرق الأدنى القديم الأخرى كانت قليلة الأهمية فى المضمار الحضارى أو لم تكن ذات أثر على التراث الانسانى فربما كانت قلة المعلومات عنها نظرا لقلة الأبحاث الأثرية التى أجريت فيها نسبيا هى السبب الذى من أجله درج العلماء على تكريس القسط الأكبر من اهتمامهم نحو العراق ومصر نظرا لزيادة النشاط الأثرى فيهما عنه فى غيرهما من


أهم المواقع الأثرية في الشرق الأدنى القديم
مقياس الرسم
البحر الأسود
البحر المتوسط
الخليج
صحراء الملح
بحر قزوين
بحيرة فان
بحيرة أورميا
قبرص
حلف
نينوى
الموصل
حسونة
أشور
سامراء
بغداد
خفاجي
سوسة
جرمو
تهران
كشتمة على
قاشان
(سيالك)
جيان
تل باكون
برسبوليس
أور
العبيد
اريدو
جمدة نصر
تل الغول
أم قطفة
البداري
العمرة
قفط
الأقصر
توزجولي
قرقميش
تل حلف
عطشانة
رأس شمرا
ماري
تل الحريري
تل العبيد
اريدو
أبو شهرين
ياري
جزيرة
جيبيل

خريطة رقم (١)

أقطار الشرق الأدنى القديم فبرزت أهميتها ، ومع كل فإننا سنتتبع تاريخ وحضارات هذا الاقليم حسب ما وصلت اليه معلوماتنا الحالية من الغرب إلى الشرق قدر الإمكان وان خرجنا على ذلك أحيانا لتيسير ترابط الموضوع ودراسته على القارىء — على أنه يجب أن لا يفهم من تقديمنا دراسة قطـــر على آخر أنه يفوقه أهمية أو أنه أسبق منه فى ميدان الحضارة .

الفصل الثالث

مصر

تحتل مصر الركن الشمالى الشرقى لأفريقيا وتشغل الحوض الأدنى لنهر النيل ، وهى عموما عبارة عن وادى منبسط تحف به الصحارى من الجانبين الشرقى والغربى ولولا وجود النهر لأصبحت هى الأخرى جزءا من الصحارى المحيطة بها ولذا وصفها هيرودوت بعبارته الشهيرة « مصر هبة النيل » .

وقد هيأت ظروفها الطبيعية للجماعات التى استقرت بها فرصة للنهوض والرقى ، ففى الشمال يوجد البحر المتوسط الذى لم يكن من اليسير عبوره الا بعد أن تمكن الإنسان من ركوب البحر الى مسافات بعيدة ، وفى الشرق والغرب صحارى واسعة يصعب اجتيازها ، وفى الجنوب توجد منطقة صحراوية صخريه تعد من أجدب بقاع العالم وتعترض النهر فيها جنادل وصخور تجعل الملاحة فيه متعذرة غير يسيرة - وهكذا كفلت البيئة المصرية الأمن والهدوء لاهلها ، واذا ما حدث أن وصلت اليها جماعات جديدة فإن هؤلاء الوافدين الجدد لا يغامرون بالخروج منها مرة أخرى ويندمجون فى محيط السكان الاصليين ويتأقلمون تأقلما تاما ، ومن جهة أخرى تتمتع البيئة المصرية بمناخ معتدل وسماء صحو دائما ونادرا ماتتعرض للأعاصير وتسودها الرياح الشمالية « التجارية » بينما يجرى النهر المنتظم الفيضان كل عام من الجنوب الى الشمال - وهذه الظروف جميعها أتاحت للجماعات التى عاشت على جانبى النهر سهولة التجوال فيه ، شمالا بمساعدة

تياره وجنوباً بمساعدة الرياح السائدة ، فاحتكت بعضها بالبعض ونشأت بينها مصالح مشتركة وخاصة لأن فيضان النهر السنوى المعتاد غالبا ما كان خيرا مشتركا يتعاون الجميع فى الإفاده منه ونادرا ما كان خطرا مشتركا يعمل الجميع على مجابهته سواء فى حالة انخفاضه أو ارتفاعه عن المستوى الملائم لسد حاجياتهم ، وقد يحدث النزاع بين تلك الجماعات أحيانا فتعمل القوية منها على السيطرة على غيرها من الجماعات وهكذا إلى أن انتهى الأمر بتوحيدها فى مملكتين إحداها فى الدلتا والأخرى فى الوجه القبلى وما لبثتا فى النهاية أن توحدتا فى مملكة واحدة ، ومع أن كلا من قسمى مصر الجنوبى (الوجه القبلى) والشمالى (الدلتا) انفرد ببعض مظاهر خاصة فى حضارات ما قبل العصر التاريخى إلا أن هذه الحضارات كانت تشترك فى طابعها العام ومميزاتها الرئيسية .

ومن المرجح أن توحيد مصر فى مملكة واحدة سبق أى قطر آخر من إقليم الشرق الأدنى وأنه لم يتم بمساعدة أية قوى خارجية وقد أدى ذلك لأن تصبح مصر فى أقدم عصورها التاريخية أقوى أقطار الشرق الأدنى ومن أكثرها نهوضا ورقيا وسنتناول فيما يلى تاريخها وحضارتها بصفة عامة .

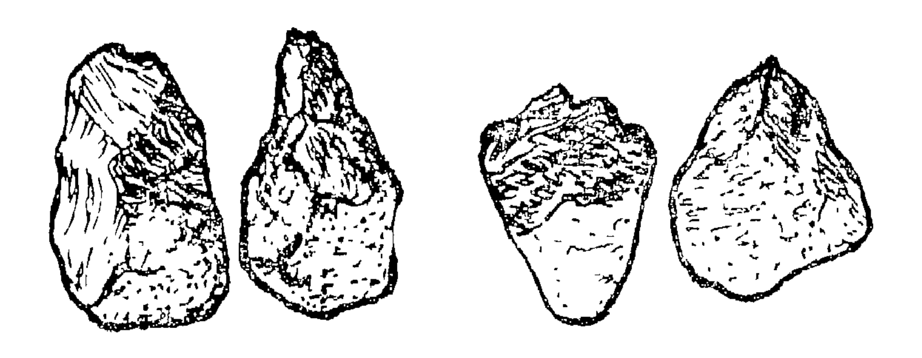
أولا ـ العصور قبل التاريخية

ا ـ الدور الحجرى القديم

(١) الدور الحجرى القديم الاسفل

أ ـ الحضارة الشيلية :

وجدت آثار هذه الحضارة فى مناطق مختلفة من القطـــر المصرى ومعظمها مناطق بعيدة فى الصحـارى أو فى التلال التى تحف بالوادى ، وهذه الآثار لا تخرج عن كونها آلات حجرية تشبه تلك التى عثر عليها فى أوربا أى فئوس حجرية وإن كان بعضهـا يهـــذب بحيث تصبح الآلة ذات أوجه ثلاث (كمنشور ثلاثى فى جزئها المشغول) بدلا من أن تكون ذات وجهين كما فى الفئوس الشيلية الأخرى ، وربما كان اختيار النـواة من الحصى المربع هو السبب فى إنتـاج هذا الشكل لأن الإنسان كان يكتفى بتشظيتها من أعلاها بضربة واحـدة أو ببعض الضربات فتصبح ذات شكل هرمى ، على أنه يجب أن لا يعتبر هذا النوع من الأدوات مميزاً للصناعة الشيلية فى مصر إذ أن الفئوس اليدوية الأخرى



شكل ٥ ـ آلات شيلية من مصر

لا تختلف عن زميلاتها فى سائر انحاء العالم القديم ، وقد وجدت فئوس أقل إتقانا من تلك التى سادت فى هذه الحضارة يود البعض إرجاعها إلى ما قبل الحضارة الشيليـــة ويطلقون عليها إسم الصناعة الشالوسية ولكنها لا تخرج عن كونها صناعة شيلية بدائية ولا داعي لاعتبارها صناعة مستقلة .

ب ـ الحضارة الآشولية :

إزدادت العناية بالفئوس الهرمية فشذبت حافتها وصغرت فى الحجم واستطالت فأصبحت رفيعة خفيفة ولها حد مستقيم مشطوف كما وجدت فئوس أخرى من الشكل المعتاد فى الصناعة الآشولية فى أوربا (شكل ٦) وظهرت بعض الأدوات الأخرى مثل المخارز المدببة الأطراف والأسلحة



شكل ٦ ـ آلات آشولية من مصر

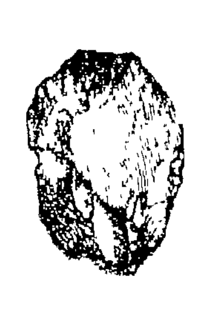
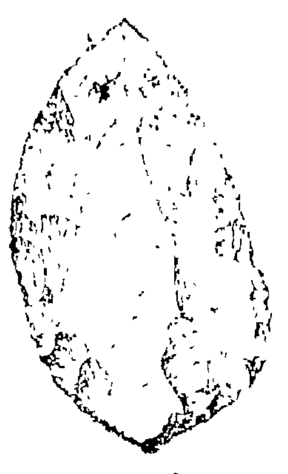
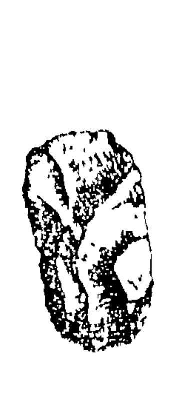
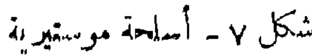
الحجرية ذات الحدود المتعرجة أو المستقيمة وبعض مكاشط قليلة العدد ـ ولم يكتف بصناعة هذه الآلات من الصوان بل استعملت بعض أنواع أخرى من الأحجار فى صناعتها كذلك .

هذا ولم يعثر على بقايا عظمية يستدل منها على السلالات التى عاشت

فى وادى النيل خلال الدور الحجرى القديم الأسفل ولكن وجدت بقايا حيوانية فى بعض المناطق يستدل منها على أن المناخ كان يشبه ما كان سائدا فى أوربا وإن كان من المرجح أنه كان أكثر ميلا إلى الدفء وكثرة الرطوبة بدليل العثور على بقايا تماسيح وفيلة وأفراس النهر .

(٢) الدور الحجرى القديم الأوسط :

سبق أن بينا أن تغير الظروف المناخية قد أدى إلى تنوع الحضارات[١] فانقسم العالم خلال هذا الدور إلى قسمين كبيرين : أوراسى وأفريقى . وأن الإنسان فى أوراسيا آوى إلى الكهوف بينما ظل فى أفريقيا يعيش فى العراء ، ومع كل فإن الأدوات التى اتخذها الإنســـان فى مصر فى أوائل هذا الدور لم تختلف عن مثيلاتها فى أوربا أى أنها كانت تمثل الصناعة الموستيرية ومعظمها من الشظايا وهى عبارة عن رقائق من الحجر تمثل نصالا مدببة ومحتات scrapers وغيرها (شكل ٧) .

شكل ٧ ـ أسلحة موستيرية

(١) أنظر ص ١١

ومن المرجح أن هذه الصناعة استمرت فى مصر فترة أطول من استمرارها فى أوربا ولكنها أخذت تتطور وتنوعت أدواتها لتفى بأغراض الإنسان المتزايدة وصغرت فى حجمها واتخذت أشكالا هندسية أى أن الصناعة فى مصر فى أواخر هذا العهد تميزت بمميزات خاصة ولذا أطلق عليها اسم الصناعة الموستيرية المصرية أو « ما قبل السبيلية »(١)

والواقع أن هذه الحضارة تمثل مرحلة مبكرة من حضارة الدور الحجرى القديم الأعلى فى مصر — ويرى البعض أن الحضارة العاطرية (التى ظهرت صناعاتها فى الواحات الخارجة والفيوم خلال هذا الدور) ما هى إلا مظهر من مظاهر الحضارة الموستيرية المصرية بينما يرى فريق آخر من الباحثين أن الحضارة السبيلية هى التى تعد مظهرا من مظاهر الحضارة العاطرية وأنها ظهرت بعدها ولكن لا يمكن تأكيد ذلك بصفة قاطعة .

ولم يعثر على بقايا يستدل منها على جنس الانسان الذى عاش فى مصر خلال هذه الفترة وإن كان من المرجح أن الإنسان الحديث كان قد أخذ يعيش فى وادى النيل بالفعل كما يستدل على ذلك من أدواته المتقدمة التى تركها خلافا لما عرف فى أوربا حيث ظل إنسان نياندرثال يعيش فى كهوفها طوال هذا العصر ولكنه انقرض بعد ذلك وحل محله الإنسان الحديث فى العصر التالى أى الدور الحجرى القديم الأعلى .

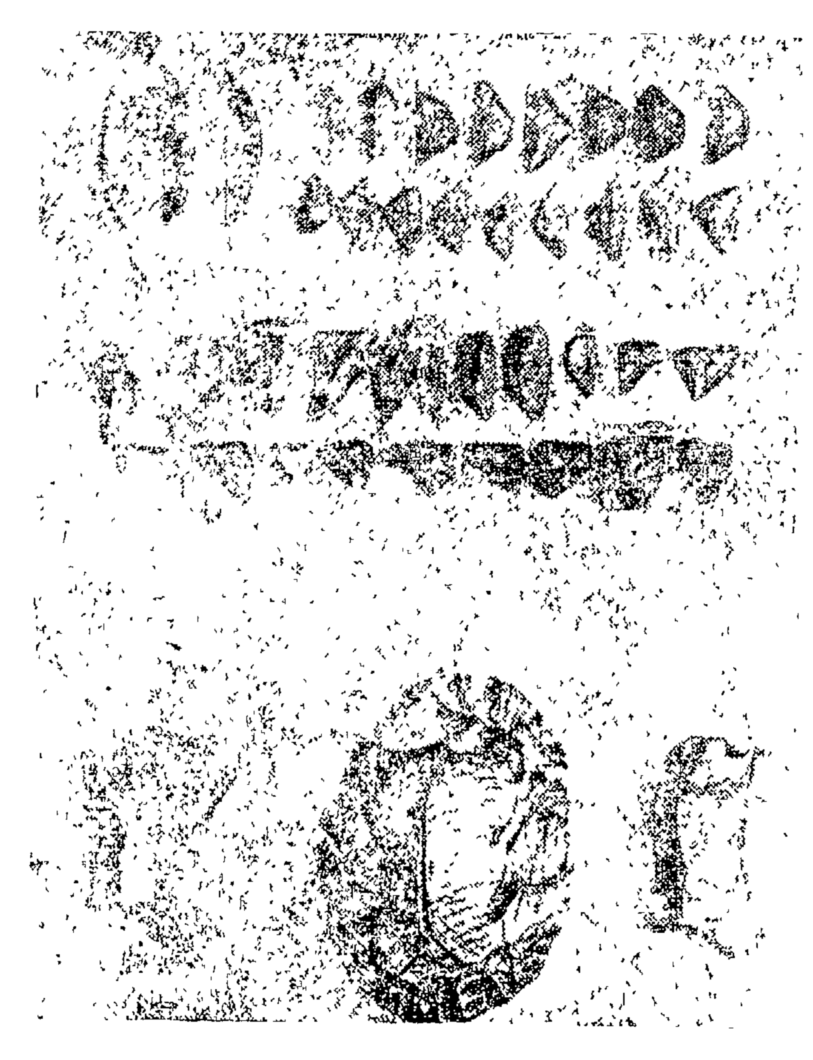
---

(١) الحضارة السبيلية نسبة إلى قرية السبيل قرب كوم أمبو وسنشير إلى هذه الحضارة فيما بعد — أنظر ص ٣٨ — ٤٠ .

(٣) - الدور الحجرى القديم الاعلى .

ازداد التباين بين أوربا وأفريقيا فبينما أخذت البرودة تشتد فى أوربا ظل المناخ فى أفريقيا ملائما لأن يعيش الإنسان فى الهواء الطلق ولكنه أصبح أقل أمطاراً وأكثر جفافا من فترة الحضارة الموستيرية فانخفض مستوى الماء فى الأنهار والمجارى المائية وقلت الحياة النباتية وتبدلت أنواع الحيوانات فى مساحات واسعة من العالم القديم وأخذ الإنسان فى هجرها إذ رأى أنها تتحول إلى صحارى مجدبة. فحصر إقامته فى الأماكن القريبة من مجارى المياه - ولم يترك إنسان أفريقيا فى هذا الدور آثارا تعادل فى مستواها من الناحية الفنية تلك التى تركها زميله المعاصر له فى أوربا ولم تتعدد مظاهر حضاراته فى المناطق المختلفة التى وجدت بها كما حدث فى أوربا بل سادت كل شمال أفريقيا حضارة واحدة هى الحضارة القفصية (نسبة إلى قفصه فى شمال تونس) التى استمرت إلى ما بعد الدور الحجرى القديم الأعلى أى إلى ما يقابل الدور الحجرى المتوسط ، إلا أن مصر - نظرا لظروف بيئتها الخاصة - انفردت فى حضارتها بمظاهر مميزة مما دعا إلى تسميتها باسم « الحضارة السبيلية » وإن كانت فى واقع الأمر متفرعة عن الحضارة القفصية - ويرى البعض أن الحضارة القفصية قد مرت بأربعة مراحل تتفق الثلاثة الأولى منها وأقسام الدور الحجرى القديم الاعلى أما المرحلة الرابعة والأخيرة فقد عبروا عنها باسم مرحلة الانتقال إلى الدور الحجرى الحديث أى أنها تتفق والدور الحجرى المتوسط - كما يرى البعض تقسيم الحضارة السبيلية فى مصر الى ثلاثة مراحل تقابل حضارات الدور الحجرى القديم الاعلى والدور الحجرى المتوسط فى أوربا أى أن المرحلة

الاخيرة منها تمتد الى ما يقابل الدور الحجرى المتوسط ، ومهما كان الامر فإن الآلات التى اتخذت فى هذه الحجارة كانت صغيرة على العموم وتغلب فيها الاشكال الهندسية (شكل ٨) ، ولدقة هذه الآلات أطلق عليها اسم الآلات الميكروليثية Microlithic ـ وقد كشف عن عدة مواقع تنتمى الى



شكل (٨) أدوات سبيلية « موستيرية مصرية »

إلى هذه الحضارة فى مصر ومن أهمها قريه السبيل والتى نسبت اليها هذه الحضارة كما سبقت الاشارة الى ذلك[1] .

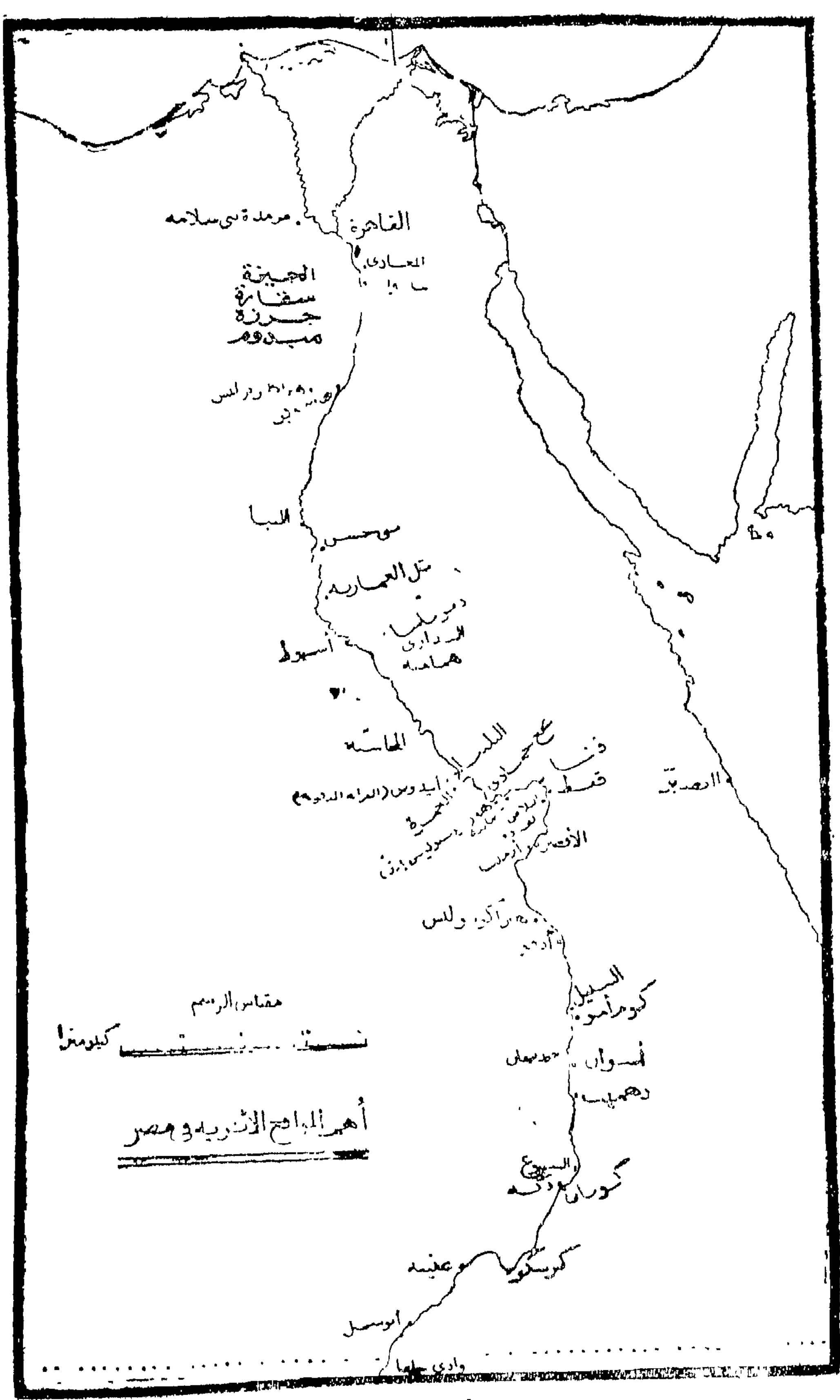
ب - الدور الحجرى المتوسط

يعد هذا الدور مرحلة الانتقال بين حضارات الدور الحجرى القديم الأعلى والدور الحجرى الحديث فى أوربا ولم تستغرق هذه المرحلة زمناً طويلا بل وكثيراً ما نجدها تختفى فى كثير من المناطق ولا نكاد نلمسها فى شمال أفريقية ومصر فالقفصية فى الأولى والسبيلية فى الثانية تمتدان إلى ما يقابل هـــذه المرحلة ولذا لا يشار إليها فى دراسة الأدوار الحجرية لتلك المناطق .

هذا وقد درجت غالبية العلماء على تقسيم الفترة التى تقع بين الحضارة السبيلية وبداية العصر الفرعـونى (عصر الأسرات) فى مصر إلى دور حجرى حديث وعصر ما قبل الأسرات - ولكن نظرا لأن الحضارات التى ترجع إلى ما بعد السبيلية لم تدرس بدقة تامة كما أنها جميعا عرفت المعادن فإن فريقا من العلماء يفضل إعادة النظر فى دراستها حتى يمكن تأكيد ترتيبها الزمنى ، وهم يرون كذلك بأنها جميعا تدخـــل ضمن عصر ما قبل الاسرات لأن وجود المعادن فيها يجعل انتساب بعضها إلى الدور الحجرى الحديث غير صحيح ، ومع هذا فسوف نتبع فى دراستها التقسيم الذى ما زال مألوفا لدى معظم الباحثين .

---

(١) أنظر أعلاه ص ٣٧ .



خريطة (٢) أهم المواقع الاثرية فى مصر

جـ - العصر الحجرى الحديث

ازداد تغير المناخ فى العالم القديم فأصبحت الاختلافات بين البيئات المحلية أكثر وضوحا وازداد الجفـــاف فى الشرق الأدنى وبذلك اضطر الانسان أن يقترب من الوديان أكثر من ذى قبل ، ولم يغامر بالابتعاد عن الأنهار فاستقر فى جماعات بالقرب منها وألجأته الحاجة لضمان غذائه إلى استئناس الحيوان ومعرفة الزراعة ، وكان من الضرورى - وقـــد عرف الزراعة - أن يختزن محصوله فعرف صناعة الأوانى وبذلك أقام حياته على أسس اقتصادية ثابتة .

وانتقل أهل مصر من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار وأتاحت لهم ظروف بيئتهم الطبيعية فرصة الاتحاد فى مملكتين إحداهما فى الوجه القبلى والأخرى فى الوجه البحرى كما أشرنا[1] - ويختلف الوجه القبلى والوجه البحرى كل عن الآخر : فالأول (الوجه القبلى) عبارة عن شريط ضيق من الأراضى الزرعية على جانبى النهر تحف به هضبتان صخريتان من الشرق والغرب ، أما الثانى (الوجه البحرى) فتتسع أراضيه الزراعية إلى درجة كبيرة وتـكثر بها المستنقعات وتتخللها البحيرات والقنوات ، وهذه المساحات الواسعة من الأراضى الزراعية بعيدة فى معظمها عن الصحارى - كذلك يتميز الوجه البحرى عن الوجه القبلى بأنه أقرب منه نسبيا إلى آسيا وأوربا

---

(١) أنظر ص ٣٣ .

ولذا كانت الحضارات التى نشأت فى كل من هذين الاقليمين تتسم بمظاهر خاصة تجعلنا نميز فيما بينها - وتعد الفيوم أشبه بواحة فى الصحراء بين هذين القسمين من مصر ولكن نظرا لأنها أقرب إلى الوجه البحرى فقد اشتركت حضارتها (فى صفاتها) مع حضاراته أكثر من اشتراكها مع حضارات الوجه القبلى ولذا ألحقناها به وإن كنا نميل إلى جعلها حضارة قائمة بذاتها .

وتمثل هذا الدور (العصر الحجرى الحديث) فى الوجه القبلى حضارتى ديرتاسا (التاسية) والبدارى ، وفى الوجه البحرى حضارات حلوان الأولى (العمرى) ومرمدة بنى سلامة [1] ومع أن كلا منها تنفرد بمميزات خاصة إلا أنها جميعا تشترك فى تقدم صناعة الفخار وصقل الآلات الحجرية ، ومن المخلفات التى عثر عليها أمكن التوصل إلى أن المستنقعات كانت تسود الدلتا والأحراش كانت منتشرة فى الوجه القبلى وأن الحيوانات الكبيرة الحجم كالزراف والضباع وأفراس النهر كانت مألوفة لدى المصريين وسنتكلم بإيجاز عن كل حضارة على حدة .

(١) عن مواقع معظم هذه الاثار وأهم المناطق الأثرية فى مصر انظر الخريطة رقم (٢)

حضارات الوجه القبلي

(١) الحضارة التاسية[١] :

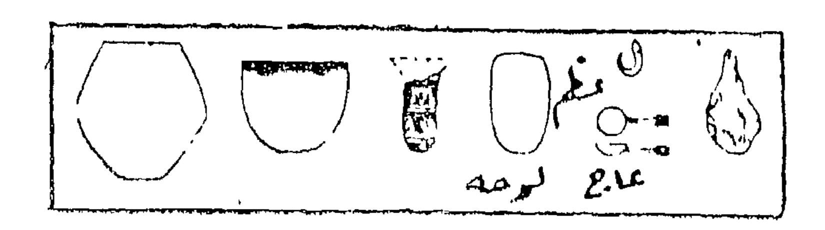
هي أقدم حضارات العصر الحجري الحديث في الصعيد ، وتنسب إلى ديرتاسا التي تقع إلى شمال البداري ، ويستدل من آثارها على أن أهل هذه الحضارة عرفوا زراعة الحبوب ولكنهم لم يعيشوا معيشة استقرار تامة فكانوا يمارسون الصيد إلى جانب الزراعة البدائية وعرفوا النسيج واتخذوا الحلي من أصداف البحر المثقوبة والخرز الأسطواني المصنوع من العظم أو العاج تحلية خطوط متقاطعة واستعملوا الأساور ، وفي مخلفاتهم عثر على صلايات من المرمر والحجر الجيري والأردواز لصحن الدهنج والمغرة وعلى مراحي وبعض الحبوب وعدد من السنانير (الشصوص) وطبق من الخوص ودبابيس وإبر من العظام ، ومن المرجح أنهم استعملوا الوسائد إذ وجد تحت رؤوس عدد من الموتى بعض التبن أو القش الذي كان لاريب داخل كيس ، جلد أو كتان ، ولكنه فني مع الزمن ، كما يرجح أن الأشجار الكبيرة والمستنقعات كانت منتشرة في ذلك العهد إذ وجدت فؤوس من أحجار مختلفة لا بد وأنها استخدمت من أجلها ، أما فخار ديرتاسا فيمكن تقسيمه إلى نوعين .

«١» يرى أولئك الذين يجمعون الحضارات التالية للسبيلية وتسبق عصر الاسرات جميعها تدخل في عصر واحد هو ماقبل الاسرات بأن الحضارة التاسية تعد من صميم حضارة البداري أنظر :— E Baumgartel , op cit,, 20 ff

أولا : بنى ذو سطح خشن عادة وهو خال من التموجات إلا فى بعض القدور النادرة التى نجد بها تموجات مائلة أو عمودية .

ثانيا : أسود رمادى أملس عادة ذو تموجات عمودية والبعض القليل مصقول ، ومن أوانى هذا النوع أقداح ذات شفـــة مقلوبة على شكل البوق . وهى سوداء مصقولة تحلى سطحها الخارجى وشفاهها من الداخل خطوط محفورة مليئة بعجينة بيضاء تمثل خطوطا أفقية بينها مثلثات مخططة لتثبيت المادة البيضاء فيها .

وفخار هذه الحضارة خلو من علامة الصانع أو صاحب الإناء ، ومن بين هذا الفخار بعض المغارف غير العميقة ذوات لسان مسطح بارز من الحافة بمثابة مقبض (شكل ٩) .



شكل ٩ ـ أدوات وأوانى فخارية من تاسا

وكانت مقابر القوم عبارة عن حفر كبيرة بيضاوية فى الغالب والقليل منها ذو جوانب مستقيمة بزوايا مستديرة وفى جانبها الغربى دخلة (طاقه) تتسع لآنية ، وكان الميت يدفن فى وضع مقرفص أشبه بالجنين ورأسه إلى الجنوب ووجهه إلى الغرب ويوضع معه بعض الفخـــار إلى جانب يديه أو ركبتيه وجثته نغطى بجلد حيوان بحيث يكون الشعر أو الصوف

إلى الداخل ، ويلف بعد ذلك فى حصير وتوضع الرأس فوق ما يشبه الوسادة من القش ثم يحاط الميت بتقفيصة من الأغصان .

وهذه المقابر كانت بعيدة عن المساكن وقد وجد بعضها مختلطا بمقابر البداريين ، ولذا يمكن القول بأن التاسيين كانوا أقرباء أو أسلاف البداريين وهذا هو ما دعا بعض الأثريين إلى أن يلحقوا هذه الحضارة بحضارة البداريين ويعتبرونها جزءا منها .

(٢) - البـــدارى :

كان البداريون أرقى من أى جماعة عاشت فى الدور الحجرى الحديث إذ استقروا فى قرى منتظمة يزرعون الحبوب ويستأنسون الماشية وأنواعا من الأغنام والماعز فضلا عن صيد الـــبر والبحر وكانوا مهرة فى كل صنـــاعات هذا الدور ، ومع أن بعض حيواناتهم يظن أنها تنتمى إلى غربى آسيا إلا أن من المرجح أنهم وفدوا إلى مصر من منطقة تبعد عن البدارى كثيرا إلى الجنوب .

واستعمل البداريون طريقة التشظية بالضغط فى صناعة آلاتهم الحجرية ، وقد امتازوا عن أسلافهم بمعرفة النحاس فاستعاضوا بالفأس النحاسية عن الفأس الحجرية التى سادت فى الحضارات السابقة كذلك يتمثل رقيهم عن من سبقهم فى أنهم استخدموا السهام والقسى وعصى الرماية Boomerang (شكل ١٠) ودبابيس القتال ذات الرؤوس التى على شكل القرص وعرفوا السنانير وتفوقوا فى صنـــاعة اللوحات الأردوازية وبعض لوحات من المرمر ، وقد عثر بين آثارهم على ثلاثة تماثيل صغيرة لسيدات أحدها

---

(١) انظر هامش ص ٤٤

من الطين والآخر من الطين المحروق والثالث من العاج وليست هذه التماثيل دقيقة الصنع وبعض أجزائها مفقود .

واتخذوا حلياً من أحجار مختلفة ومن الأصداف والنحاس كان أهمها الخرز والأساور والأحزمة والأمشاط الطويلة الأسنان من العاج ، ومن المرجح أنهم عرفوا صناعة السلال والحصر حيث عثر على أجزاء منهـا فى مقابرهم كما يبدو أنهم كانوا على دراية بنسيج الكتان لأن بعضا من الإبر المصنوعة من العظام وجدت بين آثارهم ومن بينها مجموعة وجدت فى جعبة صغيرة صنعت من ساق فرس النهر ـ ولم يقتصر البداريون فى صناعة أوانيهم على الفخار بل كانت لديهم أوانى عاجية منهـا إناء على شكل فرس النهر وأوانى حجرية من البازلت أيضا .

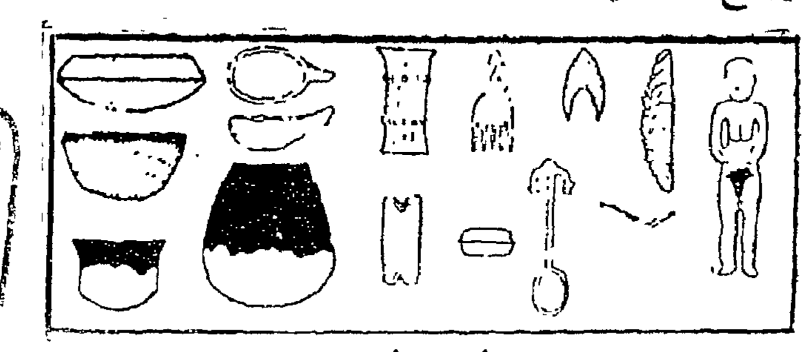
وفخار البدارى أرقى من فخار الحضارات السابقة إن لم يكن أرقى أنواع الفخار فى مصر القديمة على الإطلاق ، وهو يمتاز بما يحلى جدرانه من تموجات تشغل السطح الخارجى بأكمله أو نصفـه الأعلى أو تكون شريطا يحيط بحافة الإناء ، كذلك قد توجد هذه التموجـات بالسطوح الداخلية لبعض الأوانى الواسعة ومع أنه مصنوع باليد ـ إذ لم تكن عجلة الفخار قد عرفت بعد ـ إلا أنه يمتاز برقة الجدران وهو على سبعة أنواع يمكن حصرها بصفة عامة فيما يلى :

١ ـ أوانى ذات لون بنى أو أحمر مصقول ولها حافة سوداء غالبا .

٢ ـ أوانى ذات سطح أملس مصقول لونها بنى أو أسود .

٣ ـ أوانى ذات سطح خشن لونها بنى أو سود كذلك .

وأشكال هذا الفخار متشابهة ومحدودة وذلك باستثناء عدد قليل من الأوانى ذات الأشكال العجيبة كانت تغطى أحيانا بقطع من الخوص المضفور ، وقد عثر على قدح ملفوف بقماش الكتان ـ وفخار البدارى على العموم خلو من علامة الصانع أو المالك وكان يوضع غالبا عند رأس الميت أو قرب يديه أو مرفقيه أو عند ركبتيه ، وفى أحيان نادرة كان يوضع خلف الميت .



شكل ١٠ ـ أوانى وأدوات من البدارى

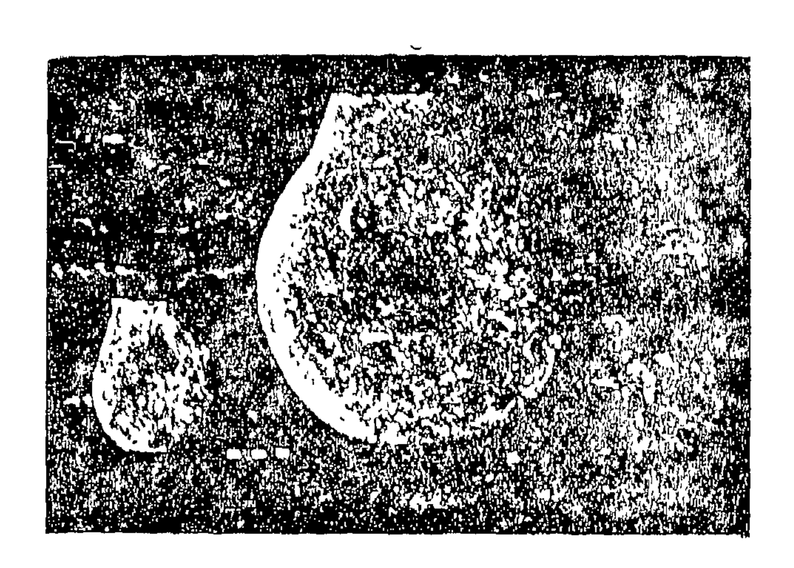
عصى رماية من البدارى

ومقابر البدارى تقع فى شرق منطقة المساكن فى جهة يسهل حفرها بالآلات البسيطة ، وهى غالبا بيضاوية الشكل أو مستديرة ونادرا ما تكون جوانبها مستقيمة وأركانها مستديرة وكانت تغطى بالحصير كما أستعملت العصى فى تسقيفها أحيانا ، وكان الميت يوضع على ما يشبه الأريكة أو (تقفيصة) ويحيط بالجثة حصير يعتمد على عصى على شكل خيمة تحمى الميت من إنهيار الحصى والرمال عليه ، وكان يدفن عادة على جانبه الأيسر ورأسه إلى الجنوب وهو متجه إلى الغرب ويديه بالقرب من رأسه وتوضع إلى جانبه الأدوات التى كان يستعملها فى حياته الدنيا وأدوات زينته وبعض التمائم ـ وقد عنى بدفن الثور والكلب والشاة وغيرها مما يدل على تقديس تلك الحيوانات والاعتقاد بوجود حياة أخرى وبالبعث .

حضارات الوجه البحرى

١ ـ العمرى « حلوان أ » :

عثر على آثار هذه الحضارة فى منطقة تقع فى شمال حلوان وقد سميت كذلك لأن شخصا يدعى أمين العمرى هو الذى أرشد إلى موقعها الأثرى ، وفيها تم الكشف عن آثار مساكن مستديرة فى وسط كل منها موقد ووجدت بها مقابر مستقلة عن المساكن فهى فى هذا تشبه حضارة ديرتاسا ولكنها تتميز بما وضع فوقها من أحجار وهى ظاهرة لم تتمثل فى الحضارات الأخرى التى ترجع إلى هذا الدور ـ وكان الميت يوضع فى وضع الجنين وإلى جانبه توضع قرابين قليلة لا تعدو إناء من الفخار عبارة عن قدر أو طاجن ـ وفخار العمرى على العموم يشبه فخار مرمدة فى أنه من لون واحد أسود (شكل ١١) ، وقد عثر على ما



شكل ١١ ـ أوانى من العمرى

يشبهه فى طرة وقرب الأهرام مما يوحى بأنه انتشر فى الدلتا إلا أن مدى انتشاره ليس واضحا .

٢ - مرمدة بنى سلامة :

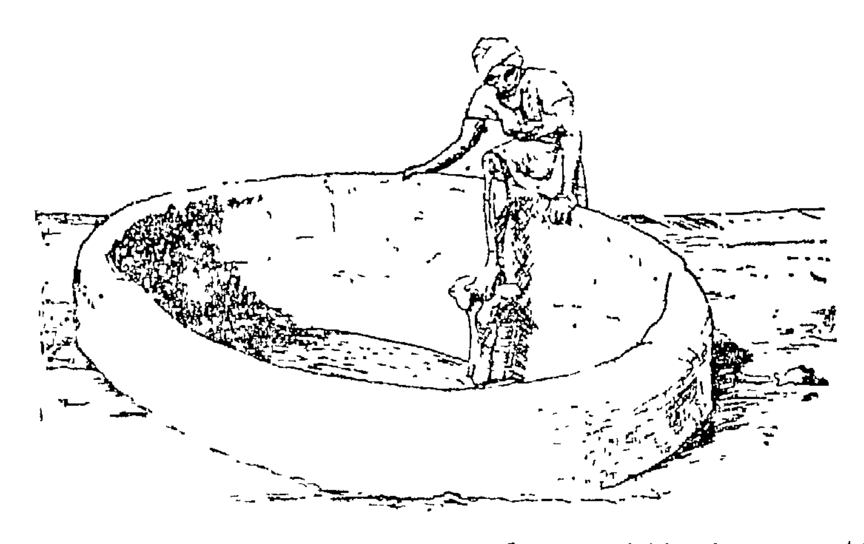
تقع مرمدة بنى سلامة على بعد نحو ٥٠ كم إلى شمال غربى القاهرة ، وقد عثر فيها على آثار ترجع إلى أواخر الدور الحجرى الحديث وجدت نظائر لها عند الحافة الشمالية للفيوم وخاصة فى منطقة قصر الصاغة ، وهى التى عرفت باسم حضارة الفيوم ب - وكان المعتقد بأنها ترجع إلى أواخر الحجرى الحديث وأوائل ما قبل الأسرات ، ولكن يبدو أنها ترجع إلى عهد أحدث من ذلك كثيرا [١] .

وفى مرمدة بنى سلامة وجدت آثار ثقوب محفورة فى الأرض فى مجموعات غير منتظمة يستدل منها على أنها كانت موضع أعمدة لأشجار تقام عليها أكواخ من البوص أو ستائر من الحصير تحمى من الرياح الشديدة ، كما عثر على آثار مساكن بيضاوية يعلو نصفها سطح الأرض ولكل منها مدخل خاص به وهو عبارة عن قطعة من ساق فرس النهر مثبتة داخل الجدار لتساعد على الهبوط إلى داخل المسكن (شكل ١٢) الذى تنحدر أرضيته إلى مكان منخفض ثبت فيه إناء ليتسرب فيه ما يدخله من ماء ، وبأسفل الإناء ثقب لتصريفه فى باطن الأرض - أما الجدران فكانت تبنى من كتل من الطين يوضع بعضها فوق بعض ، كما كشف

---

(١) E. Baumgartel, op. cit., pp.17f and 43

عن أهراء للحبوب فى هيئة حفر قليـلة الغور مسورة بسور من الطين تختزن الحبوب فيها بوضعها فى سلال تطمر فى داخلها .



شكل ١٢ – منظر لما كان عليه مسكن بيضاوى من مرمدة وطريقة الهبوط اليه

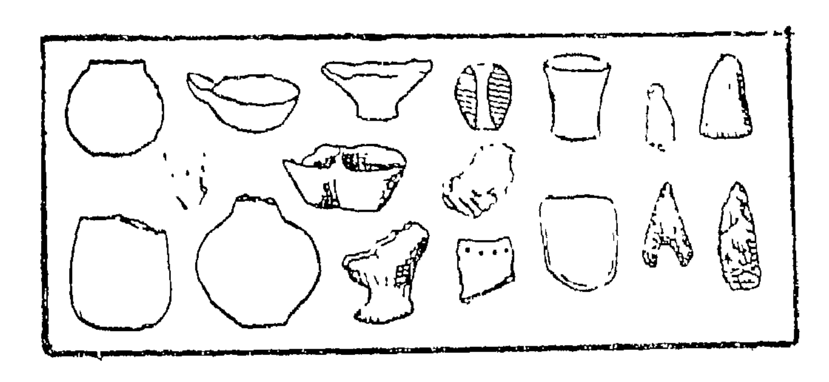
ومن الآثار التى عثر عليها يمكن استنتاج أن أهل مرمدة كانوا يربون الماشية والخنازير ويطحنون الغلال على الرحى وفخـارهم كان أسود غالبا والقليل منه بنى أحمر ، وهو إما مصقول أو ناعم أو خشن – وأوانيهم منها القدور الكبيرة التى يحتمل أنها كانت للطبخ ولبعضها بروزات لإمساكها بها أو تعليقها ولبعضها ثقوب ولبعضها قواعد تستقر عليها ، ومنهـا ما يشبه القـارب ومنها المغارف ذات المقابض العريضـــة أو السميكة المستديرة – وهذا الفخار خلو من النقوش والرسوم على العموم ولو أن بعض الاوانى تحليها خطوط بارزة أو عدد من البروزات عند الحافة ، وإلى جانب الأوانى الفخارية صنع أهل مرمدة أوانى حجرية من البازلت .

وقد اتخذوا رؤوسا للسهام مثلثة الشكل أو مقوسة القاعدة بعضها له

سنخ ودبابيس قتال كمثرية الشكل (طراز البحر الأبيض) أو شبه كرية، واستعملوا فى الصيد نوعا من الشص المصنوع من قرن الحيوان وهو أكثر إستواء من خطاطيف الفيوم. ويبدو أنهم اتخذوا الملابس إذ وجدت لديهم فلكات مغازل ومسلات وإبر، وكانوا يتزينون بحلى فى هيئة أساور من العاج وخواتم وخرز حلق أو أسطوانى من الأصداف وبلط صغيرة تعلق على شكل تمائم واستعملوا صلايات من الرمر والبازلت لصحن المساحيق (أنظر شكل ١٣).

وكان الميت يدفن على جنبه بين المساكن، مقرفصاً فى وضع يشبه الجنين ووجهه إلى الشرق ومعظم الهياكل العظمية التى عثر عليها كانت لنساء وكن أطول قامة من نساء الوجه القبلى. ولم توضع مع الموتى قرابين فى العادة وربما كان ذلك لاعتقادهم أنه كان يشارك أهله طعامهم إلا أن بعض الحبوب وجدت فى أحوال قليلة ملقاة أمام فم الميت ولكن ربما كان ذلك شيئا رمزيا فقط.

ومع أن مظاهر قليلة من حضارة مرمدة كانت تشبه بعض نواحى حضارتى



شكل ١٣ ـ أدوات وأوانى من مرمدة

الفيوم والبدارى إلا أن من المرجح أن مرمدة قد ورثت هذه المظاهر لأنها فى أغلب الظن متأخرة عنها فى الزمن .

الفيوم

يستدل من الآثار التى اكتشفت فيها على وجود مرحلتين حضاريتين . الفيوم « ا » والفيوم « ب » ويؤرخها غالبيـــة الأثريين بالدور الحجرى الحديث ، وعصر ماقبل الأسرات على التوالى ولكن الفروق بينها ليست من الضخامة بحيث توحى بأن الفـارق الزمنى بينها كان كبيرا ، وباعادة النظر فى آثار الفيوم ودراسة الصناعات التى سادت فيها أصبح الاعتقاد سائداً بأنها لاتسبق حضارة نقادة الثانية (التى ترجع إلى ماقبل الاسرات) كثيرا فى الزمن (١) ، وعلى ذلك يمكن أن ندخل حضارتى الفيوم ضمن عصر ماقبل الاسرات وأن ندرسها كوحدة قائمة بذاتهـــا وخاصة لأنها تأثرت بكل من حضارات الوجه القبلى والوجه البحرى وإن كان تأثرها بحضارات الأخير أكثر منه بحضارات الوجه القبلى .

ولم يكشف فى منطقـة الفيوم إلا عن منطقة السكن إذ لم يعثر على قبر واحد فيها وتدل الآثار المكتشفة على أن الفيومين عرفوا الزراعة غير أن جل اعـــتمادهم كان على الصيد أى أنهم كانوا فى ظروف تشبه

---

(1) Bnumgartel, op. cit., 20 ft.

ظروف الزراع البدائيين - وكانت لديهم مجموعتان من المطامير لخزن الحبوب بالقرب من المساكن ، وهذه كانت عبارة عن حفر قطر معظمها من قدم إلى أربعة أقدام وعمقها من قدم إلى ثلاثة ومعظمها مكسو من الداخل بغشاء من قش القمح المضفور يكسو جوانبها وقاعها - واستخدموا مناجل من الصوان ورحى لطحن الحبوب من أحجار مخالفة ولكن يبدو أن تربية الحيوان لم تلعب دورا كبيرا فى حياتهم .

وفى هذه المنطقة عثر على رؤوس سهام مثلثة ذات قاعدة مستقيمة أو مستديره أو ذات سنخ (مثل سهام مرمدة) ، كما وجدت سكاكين من الصوان وهى طويلة مقوسة من طرفها الأعلى وبعضها محزز عند القاعدة - أما رؤوس دبابيس القتال فمنها المخروطى ومنها القرصى والبعض الآخر كرى الشكل تقريبا غير أن هذه الأخيرة صغيرة الحجم إلى درجة تدعو إلى الظن بأنها كانت فلكات مغازل - ولم يعثر على شص من النوع الذى عرف فى مرمدة ولذا يحتمل أن الاسماك كانت تصاد بخطاف من العظام .

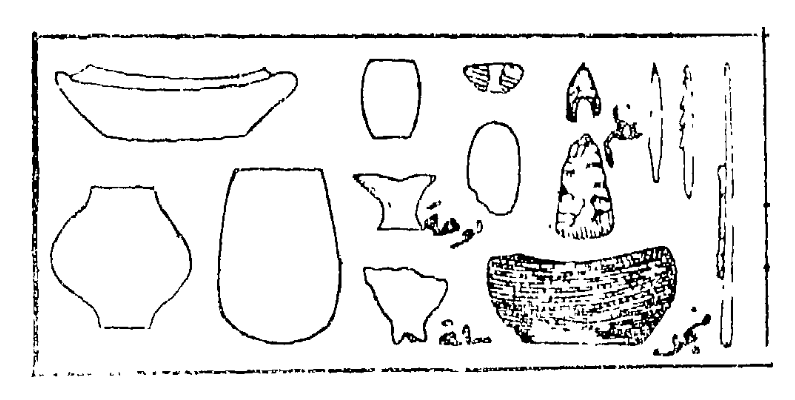
وفخار الفيوم كان يصنع باليد ، من صلصال خشن مخلوط بنسبة كبيرة من التبن ولذا كان من النادر إخراجه فى شكل متناسق وهو إما أحمر مصقول أو أسود مصقول أو بنى أملس أو خشن وهذا الأخير هو الشائع - ولايخرج فخار الفيوم عن كونه طواجن وقدور كبيرة للطبخ أو طواجن وأقداح صغيرة ذات قاعدة بارزة للخارج قليلا أو مفصصة ، ومنه كذلك ماهو فى هيئة صحاف مستطيلة حوافها مرتفعة

عند الأركان ، وبعض أوانى الفخار مثقوبة عند الحافة وجميعه خال من الرسوم أو النقش أى أنه يخلو من علامة الصانع أو المالك - وقد تميزت آنية واحدة ببروزات قرب حافتها .

ولاشك فى أن أهل الفيوم عرفوا صناعة السلال والنسيج حيث عثر فى آثارهم على بعض سلال (على شكل قارب أو على شكل برميل) وعلى بعض أطباق مسطحة من الحشائش المضفورة ، كما وجدت قطعة من قماش الكتان داخل قدر من الفخار وعثر على دبابيس ومخارز من العظام .

أما فيما يختص بأدوات الزينه فقد تحلى القوم بدلايات من الخرز الذى كان على شكل القرص أو على شكل برميل أو من الأصداف التى تعلق مفردة أو تنظم فى عقود ، كذلك عثر على سوار صغير وتميمه على شكل بلطة صغيرة من الصدف - وكانت لديهم صلايات بسيطة بيضاوية الشكل لصحن المغرة (شكل ١٤) .

هذا وقد عثر على آلات صوانية تشبه آلات الفيوم والبدارى



شكل ١٤ - أدوات وأوانى من الفيوم

فى الواحات وفى غرب وادى النيل وخاصة بالواحة الخارجة وجنوب تونس مما يوحى بأن الفيوم والمناطق الجنوبية من مصر كانت منبعاً استمد منه شمال غربى أفريقيا بعض مظاهر حضارته وإن كانت هناك بعض الآراء التى تناقض ذلك .

ـ د ـ عصر ماقبل الاسرات

يطلق اسم « عصر الاسرات » أو « عصر السلالات » على العصر التاريخى لكل من مصر والعراق ابتداء من الزمن الذى نشأت فيه أول سلالة حاكمة فى كل منهما إلى وقت إنهيار الإمبراطورية الفارسية على يد الاسكندر الأكبر تقريبا ، وذلك لأن كلا منهما حكمتها أسرات أو سلالات حاكمة خلال هـــذه الفترة وقد اصطلح الباحثون على تسمية الفترة التى سبقت قيام الاسرات الحاكمة فى مصر ـ وتقـابل عصر بداية استخدام المعادن فى الأقطار الأخرى ـ باسم عصر ما قبل الأسرات نظرا لما تميزت به من مظاهر حضارية مهدت لقيام الحضارات العظيمه التى شهدتها مصر فى عصورها الفرعونية ، ففى هـذه الفترة ترقى صناعة الفخـــار وتتأصل المعتقدات الدينية ويكثر استعمال المعادن نسبيا ويأخذ فن الرسم والنقش طابعه الذى تميز به طوال العصور الفرعونية ومنه نشأت الكتابة ، وفى هذه الفترة أيضا نشأت وحدة سياسية فى كل من الوجه القبلى والدلتا مهدت لاتحادهما الطويل الذى بدأه مينا مؤسس الأسرة الأولى .

وتمثل حضارات هذا العصر فى الوجه القبلى العمرة ، جرزة ، سماينة أما فى الوجه البحرى فتمثلها حلوان «ب» والمعادى .

وقد وجدت آثار هذا العصر فى نقادة وهى تمثل حضارات الوجه القبلى فى مراتبها المختلفة ـ ونظرا لأنها خلت من الكتابة (إذ أن هذه لم تكن قد عرفت بعد) فقد اتبع فى ترتيب آثار هذه الحضارات طريقة المقارنة والنسبية أى أنها أرخت بالنسبة إلى بعضها البعض ، وقد عرفت هذه الطريقة باسم « التوقيت المتتابع » أو « التاريخ التتابعى » .

التوقيت المتتابع أو التاريخ التتابعى :

كان الأثرى الانجليزى السير فلندرز بترى Sir Flindrs Petrie يشترك فى التنقيب عن الآثار فيما بين بلاص ونقادة حيث وجدت منطقة غنية بالآثار التى تنتمى إلى عصر ما قبل الاسرات فأطلق على الحضارة التى تمثلها هذه الآثار اسم حضارة نقادة ، ولما شاهد أن هذه الآثار تختلف فيما بينها بحيث يبدو أنها لا تنتمى إلى فترة قصيرة محدودة رتب الأوانى الفخارية والآثار التى كانت موجودة معها حسب تدرج التطور فى صناعة هذه الأوانى الفخارية فتمكن بذلك من ترتيب الآثار حسب ترتيب ظهورها محاولا إيجاد علاقة تاريخية بينها ـ وقد لجأ أولا إلى تقسيم الاوانى الفخارية إلى أنواع يمثل كل منها مرحلة حضارية خاصة عاشت فى مرحلة زمنية من عصر ما قبل الاسرات الذى رمز لمدته بأرقام تشمل الاعداد من ١ إلى ١٠٠ وبدأ أقدم أنواع الفخار والآثار التى اكتشفها معه بالرقم ٣٠ تاركا الارقام إلى ٢٩ خاليا عساه يجد من الاكتشافات ، كما ترك أيضا الارقام من ٨٠ إلى ١٠٠ لنفس الغرض ـ وقد أعد بترى بطاقة خاصة لكل مقبرة وقسم كل بطاقة إلى تسعة أنهر أو أقسام خصص كلا منها لنوع معين من الفخار .

وحينما أدرج الآثار التى اكتشفها مع الفخار المصاحب لها فى الأقسام الخاصة به أمكنه أن يقسم تلك الآثار فى أول الأمر إلى قسمين يمثل كل منها مرحلة حضارية هما نقادة « ١ » ونقادة « ٢ » على الترتيب ، ثم وجد أن حضارة نقادة « ٢ » بدورها تمثل حضارتين هما نقادة ٢ ا ، نقادة ٢ ب أى أنه انتهى إلى تقسيم الحضارات التى تمثلها هذه الآثار إلى ثلاثة مراحل هى نقادة « ١ » ونقادة « ٢ ا » ونقادة « ٢ ب » على التوالى .

وقد كشف الأثريون عن ثلاثة حضارات بالصعيد تماثل آثارها تلك التى وجدها بترى أى أنهـا تتفق والأقسام التى توصل اليها فالأولى وهى حضارة العمرة تمثل المرحـلة من ٣٠ إلى ٣٧ والثانيـة وهى جرزة تمثل المرحلة من ٣٨ إلى ٦٠ أما الثالثة وهى سماينة ـ فتمثل المرحلة من ٦١ إلى ٧٥ + .

ويجب أن لا يفهم من هذا التوقيت المتتابـع أن الأرقام أو الفترات التى اتبعها بترى تدل على تاريخ محدد أو أن المدة بين فترة وأخرى تعادل فى الزمن المدة بين فترتين حيث لا يدل الرقم الواحد على قدر ثابت من السنين وكل ما فى الأمر أن هذا التقسيم يسمح بترتيب كل من هذه الحضارات بعضها بالنسبة إلى البعض الآخر .

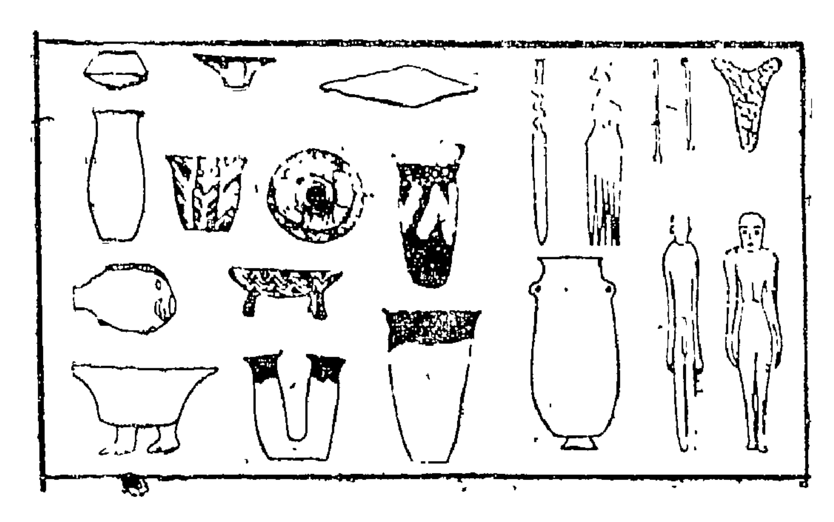
حضارات ماقبل الاسرات فى الوجه القبلى

(١) حضارة العمرة ٣٠ - ٢٧ (نقادة « ١ ») .

تقع العمرة جنوب شرقى أبيدوس وقد عثر فيها على آثار تشبه أقدم ما وجد فى نقادة إلا أن هـــذه الحضارة تمثل عهدين مختلفين : أوائل العمرة وأوخر العمرة ـ وفى الفترة الأولى ظهـر الفخار الأحمر المصقول المحلى برسوم باللون الأبيض أو الأصفر ، وهذه الرسوم عبارة عن أشكال تحددها خطوط مستقيمة وتملوهـا خطوط متقاطعة تمثل فى مجموعها أشكالا هندسية مختلفة كالمثلث والمعين والنجوم أو تمثـــل أشكالا مختلفة من النبات والحيوان ومناظر الصيـد والقتال رسمت باختصار وفى أسلوب بسيط وإلى جانب هذا النوع من الفخار عثر على فخار أحمر مصقول أو أحمر مصقول ذو شفة سوداء خلت سطوحه الخارجية من التموجات التى تميز فخار البدارى ـ كذلك بدأت علامة الصانع أو علامة الملـكية تميز أوانى هذه هذه الفترة فى هيئة صور حيوانات أو نباتات أو خطوط ـ وقد وجدت بعض الأوانى الحجرية من البازلت والحجر الجيرى ، وكانت الصلايات من الأردواز على شكل معين أو فى أشكال حيوانات مختلفة كفرس النهر والسلحفاة ، أما رؤوس الدبابيس فكانت مخروطية الشكل مقوسة قليـلا إلى الدخل .

وفى الفترة الثانية من هذه الحضارة اختفى الفخار المحلى برسوم باللون الابيض واستمر الاحمر المصقول ذو الشفة السوداء كما عثر على أوانى محلاة برسوم باللون الاحمـر تشبه فخار جرزة ، ومن بين العلامات المميزة لفخار تلك الفترة علامة تمثل تاج الوجـــه البحرى وعلامة تمثل صورة

صقر - وهو الطائر الذى أعتبره المصرى رمزاً للاله حورس - على واجهة قصر وهذه العلامة كانت تتخذ كخانة يكتب فيها اسم الملك فى زمن الفراعنة ، ومن هذا يتضح أن علامات الملك أخذت تستقر - وقد تطورت صناعة الأوانى الحجرية التى من البازلت كثيرا وأصبحت أشكال الصلايات أقل تعددا إذ أنحصرت تلك الأشكال فى الشكل المعين الذى ينتهى عند أحد طرفيه بما يشبه الهلال أو شكل السمكة ، ومن الصلايات أيضا ما كانت تنتهى فى أعلاها بشكل يمثل رأسى طائرين - أما دبابيس القتال فكانت تشبه نظائرها فى الفترة الأولى لهذه الحضـــارة - وقد أتقنت صناعة الظران ومن الأدوات المصنوعة منه وجدت سكاكين طويلة ذات حدين وسهام ذات شوكتين (شكل ١٥) . وقد اعتقد أهل هذه الحضارة فى الحياة بعد الموت بدليل ما عثر عليه من أدوات وضعت إلى جوار الموتى - ولم يكشف حتى الآن عن حضارة من هذا العهد فى الدلتا.



شكل ١٥ - أدوات وأوانى من العمرة

(٢) حضارة جرزة ٣٨ - ٦٠ (نقادة ٢ ، ١)

تقع جرزة شمال ميدوم التى تبعـــد نحوا من ٤٠ ميلا إلى جنوب سقارة وتمثل آثارها حضارة مستقلة تماما عن حضارة العمرة إذ وجدت فى همامية قرب البدارى آثار تمثل حضارة جرزه فى طبقات منفصلة تماما عن الطبقات التى وجدت بها آثار حضارة العمرة ، وآثار هذه الحضارة أوسع انتشارا من آثار سابقتها فى مصر الوسطى .

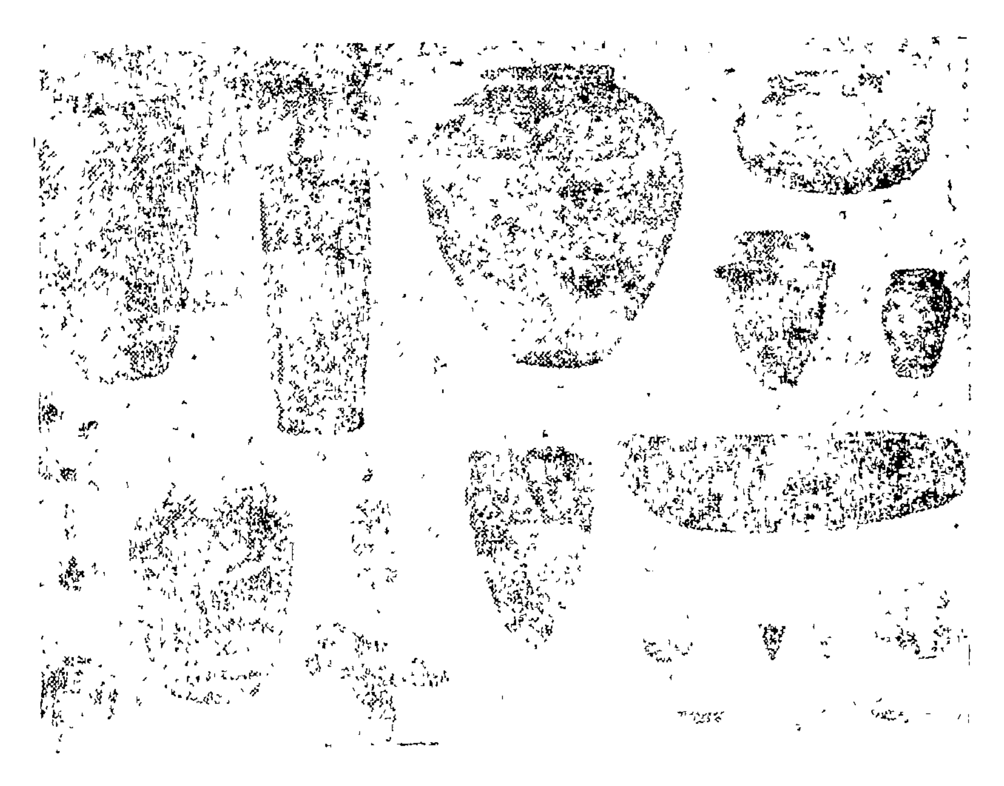
وتتميز هذه الحضارة بفخار ذو لون أصفر برتقالى وعليه رسوم وأشكال باللون الأحمر ، وهذه الرسوم عبارة عن خطوط منحنية غالبـاً ما تـكون حلزونية وصور مثلثات متتالية وبعض المراكب والحيوانات التى تظهر بصورة منفردة ولا تملأ أشكالها خطوط متقاطعة كما تتميز بالفخار ذى الأيدى المتموجة ، وكل من هذين النوعين من الفخار على صلة بالآخر إذ قد يحلى ذو الأيدى المتموجه برسوم حمراء .

هذا وقد استمر الفخار الأحمر المصقول وذو الشفة السوداء (وهما من فخار العمرة) فى هذه الحضارة أيضا ، وفى بدء هذه الحضارة بدأ ظهور الفخار المتأخر ويمتاز بصلابته وملاسته وهو رمادى فاتح أو بنى أحمر أو أصفر يخلو من أية حلية إلا أنه لم ينتشر إلا فى أواخر عهد ماقبل الأسرات وفى الأسرتين الأولى والثانية .

وتـكثر فى هذه الحضـــارة الأوانى الحجريه المختلفة ذات الألوان الجميلة التى كانت بعض أوانى الفخار تصنع على غرارها ، وقد أخذ دبوس

القتال الذى كان شائعا فى العمرة (ذو الرأس المخروطى المضغوط الجوانب يقل تدريجيا ابتداء من عهد جرزة حيث أخذ الدبوس ذو الرأس الكمثرى يحل محله ، ومع هذا فقد بطل استعمال هذين النوعين من الدبابيس فى القتال منذ الأسرة الأولى ولكنهما ظلا يستعملان فى العصور التاريخية لأغراض دينية وجنائزية .

وأخذت الصلايات التى على شكل معين فى الاختفاء لتحـل مكانها صلايات ذات أشكال هندسية أخرى كالمستطيل والبيضاوى والمربع واستمرت بعض الصلايات فى شكل بعض الحيوانات كالفيل والسمك والطيور وبعض الصلايات البيضاوية كانت تعلوها صورة طائرين أيضاً ،



شكل ١٦ ـ أوانى وأدوات من جرزة

وقد أخذت هذه الصلايات تدق فى سمكها وكسيت سطوحها بالنقوش وصنع بعضهـــا من مواد لاتصلح للصحن منذ أواخر ماقبل الاسرات ، ولذا يمكن القول بأنها أصبحت شيئاً رمزياً يوضع فى المقبرة لتذكر بتقليد قديم متوارث - هذا وقد ظهرت فى عهد جرزة بعض التمائم على شكل حورس وبعضها على شكل ثور وهى رموز تدل على مقاطعات بالوجه البحرى (شكل ١٦) مما دعا إلى الظن بأن حضارة جرزة ترجع أصلا إلى الوجه البحرى وإن لم يعثر على حضارة تماثلها فيه ، كما يستدل من ذلك أيضا على حدوث توحيد لشطرى الوادى قبل عهد مينا مؤسس الأسرة الأولى.

(٣) حضارة سمانية ٦٠ - ٧٥ + : (نقادة ٢ «ب») .

تمثل آخر الحضارات المصرية فى عهد ماقبل الأسرات وأهم الآثار التى تمثلها وجدت فى سماينة وهى إحدى القرى القريبة من نجع حمادى.

وتتميز هذه الحضارة بزيادة استخدام النحاس وقلة الفخار ذو الشفة السوداء والفخار الأحمر المصقول تدريجياً إلى أن اختفيا ، أما الفخار ذو الرسوم الحمراء فقد اختفت منه الأشكال التى كانت سائدة فى عهد جرزة وحلت محلها أشكال جديدة عليها رسوم مختلفة ، ومن هذه الاشكال أوانى على شكل البرميل لها حافة داخلية يستقر عليها الغطاء وقدور عالية رسمت عليها خطوط قصيرة فى أشكال ومجموعات مختلفة - أما الأوانى المتموجة الأيدى فقد أخذت تضيق فى السعة ويتلاشى مقبضها حتى أصبح كشريط على حافة الإناء بالقرب من الشفة ، وأكثر فخار هذه الحضارة من النوع المتأخر وقد ظهر فيه المصب (البزبوز) وله أحيانا رقبة واضحة ، وأهم ماصنعت منه أوانى التخزين (قـــدور عالية ذات فوهات واسعة)

(شكل ١٧) ، ومع كل فإن الفخار فى عهد سماينة على اختلاف أنواعه كان أقل إتقاناً وجودة منه فى العصور السابقة ، وربما كان سبب ذلك أن الاغنياء أقبلوا على صناعة الأوانى من النحاس والأحجار كما أن زيادة الإقبال على حياة المدن التى اتسعت وانتشرت هى التى جعلت صانع الفخار يتوخى سرعة الانتاج وكثرته فبعد عن الإتقان - وقد استمرت صناعة الأوانى من الأحجار وكثيرا ما استخدم المرمر alabaster فى صنعها وينتشر استخدامه بعد ذلك فى العصور التاريخية . أما الصلايات فمنها ماكان على شكل الحيوان ومنها ماكان يحلى جزءة العلوى رأسا طائرين ومنها ماكان بيضى الشكل تحلى حافته خطوط متقاطعة ومنها ما كان على شكل مستطيل تحلى حوافيه خطوط مستقيمة أو متقاطعة وبعض هذه الصلايات كان فاخرا تحليه نقوش مختلفة .



شكل (١٧) أدوات وأوانى من سماينة

حضارات ماقبل الأسرات فى الوجه البحرى

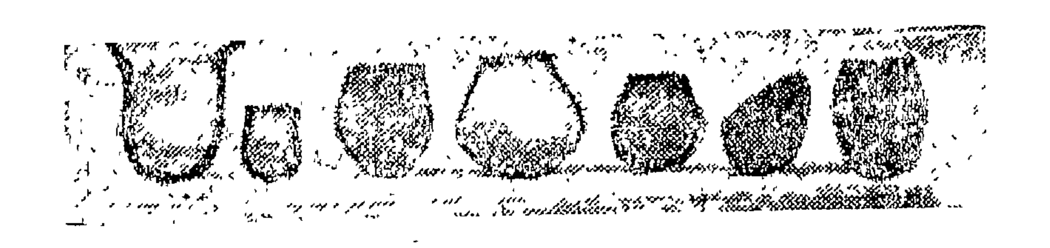
(١) حضارة حلوان «ب»

تضم منطقة العمرى (١) مجموعتين من المقابر ومجموعة من المساكن وهى على بعد ٣ كم شرق حلوان - ومن التنقيب فى منطقة المساكن تبين أن مساحة القرية كانت كبيرة مثل مدن الدلتا التى عثر عليها فى مرمدة

(١) أنظر ص ٤٩

والمعادى بعكس مدن الوجه القبلى المحدودة المساحة ، وكانت مساكنها إما أن تبنى بحيث يكون جزء منها تحت مستوى سطح الأرض بيضية الشكل تحيطها جدران من الحصير المغطى بالطين . أو أن تقوم بأكملها فوق سطح الأرض كما يستدل على ذلك من وجود بقايا أعمدة خشبية مغروسة فى الأرض - وربما كان النوع الاول من المساكن يستخدم كمخازن أما النوع الثانى فكان للسكنى ، وقد حفرت بعض مساكن النوع الأول فى الأرض الصخرية مما دعا إلى الظن بأن أهل حلوان عرفوا استغلال المحاجر فى ذلك الوقت إلا أن هذا بعيد الاحتمال .

والأوانى الفخارية فى هذه الحضارة إما رقيقة الجدران مصقولة حمراء وسوداء وسمراء أو خشنة ذات جدران سميكة ، وكان لبعضها مقابض - ومنها ما يشبه أوانى مرمدة ومنها ما يشبه أوانى المعادى كما وجدت أشكال جديدة اختصت بها هذه الحضارة (شكل ١٨) .



شكل ١٨ - أوانى من حلوان ب

أما السهام التى عثر عليها فى حلوان فانها كانت إما مقعرة القاعدة كسهام الفيوم أو على شكل مثلث متساوى الضلعين ، وقد عثر على بعض السكاكين والمناجل والمناشير من الصوان وأحجار للرحى وأوعية من قشر بيض النعام وآلات من العظام من بينها شص من قرن حيوان ، كما عثر

على جلود وحصير وحبال وسلال تدل على معرفة النساجة - واستخدم أهل حلوان أصداف البحر وعظام السمك وأنواع من الأحجار البراقة فى الحلى وعرفوا صناعة العقود والدلايات وزراعة الحبوب كالقمح والشعير وكانوا على علاقات مع الخارج حيث وجدت فى آثارهم أصداف من البحر وبعض المواد الأخرى التى لا توجد فى وادى النيل .

وقد دفنوا موتاهم فى أماكن السكنى فى وضع مقرفص ومعظم رؤوسهم إلى الجنوب والوجه متجه إلى الغرب ، وفى أغلب الأحيان كانت توضع آنية فخاوية بجانب الميت وكانت الجثة تكفن بجلد حيوان أو حصير أو قماش ، وعثر مع إحدى الجثث على صولجان من الخشب .

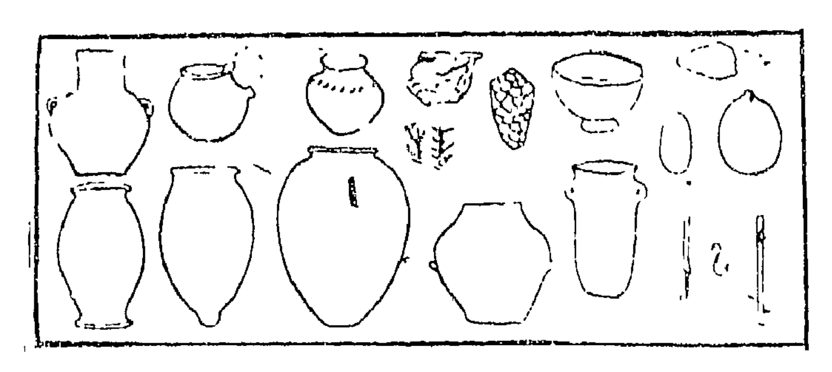
وربما كانت هذه الحضارة تتوسط فى الزمن بين حضارتى مرمدة والمعادى إذ أنها تشبه حضارة مرمدة فى طقوسها الجنزية وفى بعض صناعاتها الحجرية وبعض أوانيها الفخارية كما تشبه حضارة المعادى فى نصالها الحجرية وبعض أوانيها الفخارية أيضا .

(٢) حضارة المعادى :

عثر على آثار هذه الحضارة فى شرق المعادى الحالية وهى ذات موقع فريد إذ أنها تتوسط بين الصعيد والدلتا وتربطها بشبه جزيرة سينا وغرب آسيا مما أثر فى حضارتها وجعلها ذات صفات خاصة تميزها عن الحضارات السابقة - وكان يظن أنها أقدم من حضارة نقادة الثانية ولكنها ما زالت تحتاج إلى كثير من الدراسة وخاصة لأن الشك بدأ يساورنا فى أنها

ترجع إلى عصر بداية الاسرات (١) .

وفخار المعادى (شكل ١٩) متعدد الأشكال والألوان إلا أن أهمه نوعان : أحمر اللون غير مصقول لكنه أملس وقاعدته حلقيـة وجسمه



شكل ١٩ - أدوات وأوانى من المعادى

بيضاوى مستطيل ، وأسود مصقول ذو جسم كرى - ومن بين الأوانى التى عثر عليها آنية كبيرة اسطوانية وبحافتها العليا مقابض عدة كما وجدت بعض الأوانى التى يميل لونها إلى البياض وبسطحها بروزات كالحبوب أو مزودة بمقـابض فهى تشبه الأوانى السورية ، كذلك وجـدت أيضا بعض أوانى تشبه أوانى العمرة (ذات حافة سوداء) وأوانى تشبه أوانى مرمـدة (توأمية) ، أما الأوانى المزدانة بالرسوم فقـد أصبحت قليلة - ومن هـذا تتبين صلة المعادى بحضارات كل من الوجـه البحرى (مرمدة) وسوريا والوجه القبلى (العمرة) ويرجع هـذا إلى مركزها الجغرافى حيث يسهل الاتصال بينها بين تلك الجهات .

---

(1) Camdridge (Ancient History) (2nd ed.), Vo I. 1 Chapt. x (MSS) .

وقد عثر فى المعادى على عدة أوانى حجرية كبيرة متقنة الصنع ولوحات من الاردواز والحجر الجيرى وفلكات مغازل ودبابيس ومصاحن ، وعلى الكثير من المكاشط ورؤوس السهام والحراب والمناشير الصوانية وبعض الآلات من الصخر البلورى والكوارتز والجرانيت كما وجدت فيها مجموعة من الأدوات الخشبية مثل عصى الرماية Boomerang وعصا قصيرة وبعض المثاقب والأطباق والجفنات والملاعق يندر وجـــود مثلها فى الحضارات المصرية المعاصرة إلى جانب آلات كثيرة من العظام وخاصة المثاقب ، أما فيما يختص بأدوات الزينة فان أهل المعادى عرفوا صناعة الخرز من الأحجار المختلفة وقد عثر على عقد كامل من ٥٤ حبة من الخرز كلها بيضاء ما عدا ٨ منها سوداء كما وجدت أصداف مثقوبة وأمشاط من عظام الحيوان ومواد التلوين من المغرة والملاخيت والمنجنيز الأسود .

وعرف أهل المعادى استغلال المعادن حيث عثر على عدد من الأدوات المعدنية كالسنانير والمثاقب والأزاميل ورأسى فأس وكلها من النحاس الذى عثر على سبائك منه أيضا كما وجدت بعض مقـــادير من المنجنيز ومن القار (جلب من منطقة البحر الميت) .

وأخذت النزعة الفنية ترقى كما يستدل على ذلك من وجود قطعة من الصلصال المحروق يظن أنها تمثل رأس جمل (١) . وقطعة أخرى تمثل رأس

---

(١) يظن أن الجمل وجد فى مصر لفترة وجيزة قبل أو فى بداية عهد الاسرات ثم انقرض منها ولم يصبح استخدامه شائعا إلا لأسباب اقتصادية فى العهد اليونانى ـ أنظر .
J. Capart "Primitive Art in Egypt" 1905, pp. 189,202, H.Kees "Ancient Egypt" Translated by Morrow (London 1961), p. 53.

حيوان غير واضح وعثر على بيضة نعام إزدان سطحها بأشكال هندسية محفورة باتقان وملونة باللون الأسود ، كذلك عثر على هيكل قارب من الفخار ورأس تمثال صغيرة من الفخار الأحمر يمثل شخصاً من غـــرب آسيا ويتضح ذلك من شكل الرأس والذقن .

أما مساكن المعادى فانها تركزت حول وسط القرية وكانت متعددة الأشكال فمنها ما كان يبنى من قوائم من جذوع أشجـــار تلف حولها أغصان رفيعة ثم تطلى بالطين وأبوابهـا نحو الجنوب للحماية من الرياح الشمالية السائدة ومنها ما كان على شكل كلمة pr الهيروغليفية التى تعنى « منزل » مما يدل على أن رسم هذه الكلمة منقول عن الشكل الغالب فى مساكن عصر ما قبل الأسرات ، وقد وجدت عدة كهوف عثر فيها على آثار تدل على أنها كانت للسكنى .

وكانت المواقد إما صغيرة تقـــام داخل المنازل أو كبيرة تقام أمام المنازل ، وكان الموقد عبارة عن أحجار متراصة تحصر بينها الوقود . أما المخازن فكانت على شكل حفر يتراوح عمقها بين متر أو مترين وكان بعضها يزود بسياج يحيط بالحفرة وله سقف يقوم على قوائم من الخشب ، وإلى جانب هذه المخازن كان القوم يخزنون المؤن احيـانا فى قدور كبيرة او سلال .

وكان البالغون من اهـل المعادى يدفنون فى جبانة تقع فى بقعة منخفضة إلى جنوب القرية أما الاجنة فكانت تدفن فى قدور كبيره أو حفر غير عميقة فى المساكن نفسها ، وكان الميت يوضع مقرفصا إلا فى حالات

قليلة وجـــدت فيها الهياكل ممددة ، ولم يكن للرأس أو الوجه اتجاه ثابت كما لم يعثر على شيء مع الجثة سوى بقايا حصير أو جلد أو قماش مما كانت تغطى به ، وفى بعض المقابر عثر بجوار المتوفى على إناء واحد من الفخار ـ وكان لكل عائلة قسم خاص من الجبانة ، كما عثر على حيوان يشبه ابن آوى مدفون بعناية مما يوحى بعبادة هذا الحيوان الذى عبده فراعنة العصور التاريخية كإله حارس للجبانة ـ ويدل وجود آنية الفخار على اعتقادهم بالحياة الثانية كما يدل وجود الجبانة بعيدة عن المساكن على أنهم كانوا فى مرتبة حضارية أرقى من مرتبة أهل مرمدة وحلوان الثانية .

ومن كل ما سبق يتبين لنا أن أهل هذه الحضارة عرفوا الزراعة والرعى والنسيج وكانوا على علاقات تجارية وثقافيـــة مع الحضارات الشرقية والجنوبية ولا شك فى أنهم وصـــلوا إلى مرتبة حضارية لا بأس بها .

ثانيا ـ العصر التاريخي

كانت معلومات العالم المتحضر عن تاريخ مصر الفرعونية ضئيلة مشوهة تعتمد فى أساسها على ما دونه كتاب اليونان وغيرهم من الرحالة والمغامرين الذين أعتمدوا فى كتاباتهم على ما قصه عليهم الرواة من أنباء تبدو فيها الطرافة ولا تخلو من الخطأ والخرافة .

وقد حاول كثير من العلماء التعرف على تاريخ مصر الفرعونية من مصادرة الأصلية أى من الكتابات والنقوش التى تركها الفراعنة ، وذلك عن طريق حل رموز اللغة المصرية التى شاهدوها على الآثار ولكنهم ذهبوا فى ذلك مذاهب خيالية ولم تسفر جهودهم عن نجاح يستحق الذكر .

وكان مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١ م) بقيادة نابليون بونابرت فاتحة عهد جديد إذ عثر أحد ضباط الحملة على حجر بالقرب من رشيد نقشت عليه نقوش ثلاثة : أحدها باليونانية والآخرين باللغة المصرية كتبت بخطين مختلفين ـ الهيروغليفى والديموطيقى ـ وقد انكب العالم الفرنسى شامبليون على محاولة حل رموز الخط الهيروغليفى وكالت جهوده بالنجاح بعد عمل مضنى ومقارنة كثيرة لنقوش مختلفة ، ومما يسر له السبيل أن الفراعنة اعتادوا كتابة أسماء الملوك والملكات داخل إهليج « إطار » بيضى مستطيل الشكل يعرف بالخرطوش ـ وقد بدأ شامبليون بقراءة أسماء الملوك فى النقش اليونانى بحجر رشيد وعرف أنها لبطليموس وكليوباترا واتضح له اشترك الاسمين فى بعض الحروف كما هى مدونة بالهجائية اليونانية فى خراطيشهما بالنص اليونانى فطبق ذلك على ما شاهده من تشابه فى الرموز الدالة عليها فى الخراطيش الموجودة

فى النص الهيروغليفى وأمكنه التوصل إلى معرفة بعض الحروف والعلامات الهيروغليفية ، وبمحاولة قراءة كل خرطوش ملكى يقع تحت بصره على أساس ما يعرفه من أسماء الملوك التى وردت فى كتابات اليونان وغيرهم استطاع معرفة حروف ورموز أخرى وتوصل إلى الأصوات والمعانى التى تدل عليها وهكذا - ثم توالت بعدئذ جهود العلماء إلى أن أصبح فى الإمكان قراءة اللغة المصرية ووضع معاجم وقواعد لها .

اللغة المصرية :

ما زال الإختلاف قائما بين العلماء حول أصل اللغة المصرية إذ أن صلتها باللغات الحامية واضحة كما أن علاقاتها باللغات السامة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها - وإذا ما تتبعنا كتابتها نجد أن أقدم المحاولات فى كتابتها تتمثل فى زخارف الأوانى والأدوات المستعملة حيث صورت فيها أشكال أشخاص وحيوانات وسفن وما أشبه ، فالكتابة بدأت حينما بدأت الرغبة فى التعبير بالرسم عن أشياء يمكن للرائى معرفة ما تدل عليه ، وهذه الأشكال كان لا بد للرائى من ترجمتها إلى أصوات معبرة فى اللغة - وقد حدث ذلك فى مصر حينما تمكن المصرى من رسم صور مصغرة ومختصرة للأشياء المادية والكائنات يمكن تمييزها عن صورها الكاملة التى تدل على نفس هذه الأشياء والكائنات المعروفة مثل الأسلحة والنباتات والحيوانات والبشر بل والآلهة كذلك ، ويمكن القول أيضا بأن الظروف اقتضت ظهور الكتابة وتطورها حينما وجدت الرغبة لدى الناس للتعبير عما لا يمكن التعبير عنه بكيانه مثل الاعداد وأسماء الاشخاص والكائنات وغير ذلك وأخذت فى النمو كلما وجد أن الرسوم والمناظر فى حاجة للتفسير ، وقد ظل هذا الاتجاه طول العصور الفرعونية حيث ظل الفراعنة يدونون على المناظر

التى يمثلونها ما يوضحها بعبارات مكتوبة - وهكذا حتى أصبح فى الإمكان التعبير بالكتابة عن كل ما يرغب الانسان التعبير عنه .

واللغة المصرية كانت تكتب فى أول الأمر برموز تمثل كائنات أو أجزاء من كائنات فى صورة قريبة من الواقع وقد وأطلق عليها اليونانيون اسم الهيروغليفية أى الكتابة المقدسة وذلك لأنهم شاهدوها مدونة على جدران المعابد والنصب التذكارية المختلفة ، فهى فى الواقع كتابة إعلام أو كتابة زخرفية ، وقد ظلت مستعملة فى النصب المختلفة حتى نهاية العصور العصور الفرعونية وإن كانت رموزها قد أختلفت فى مدلولاتها أحيانا - ولم تستعمل هذه الكتابة وحدها بل صاحبتها منذ نشأتها تقريبا كتابة أخرى مختصرة عنها عرفها اليونانيون باسم الهيراطيقية أى الكتابة الكهنوتية نظرا لأنهم اعتقدوا بأن الكهنة وحدهم هم الذين كانوا يعرفونها ، وربما كان سبب ذلك أن المدارس فى مصر القديمة كانت عادة تلحق بالمعابد ، ويرجع أقدم ما عثر عليه من نصوص كتبت بالهيراطيقية إلى عهد الأسرة الثانية تقريبا - ولما تعددت مطالب الحياة وازداد نشاط التعامل بين الأفراد ظهرت كتابة ثالثة - أشد اختصاراً هى الكتابة الديموطيقية «أى الكتابة الشعبية» .

ويمكننا أن نشبه - مع الفارق - هذه الكتابة بخطوط اللغة العربية فالهيروغليفية تقابل الخط الثلث وغيره من خطوط الزخرفة والاعلام والهيراطيقيه تقابل الخط النسخ والديموطيقية تقابل الخط الرقعة .

وحوالى الوقت الذى طغت فيه المسيحية على الديانة المصرية الوثنية فى مصر استعملت الحروف الهجائية اليونانية فى كتابه اللغة المصرية ، ولكن نظراً لأن هذه تميزت بأصوات ليس لها مقابل أو شبيه فى اللغة

اليونانية ـ وخاصة الأصوات الحلقية (مثل الحاء والعين وغيرها) ـ فقد أضيفت إلى هذه الهجائية سبعة أحرف من أصل مصرى لاستكمال هذه الكتابة الجديدة التى عرفت خطأ باسم اللغة القبطية والأحرى أن يطلق عليها الكتابة المسيحية للغة المصرية لأنها وإن استعملت فيها بعض ألفاظ غير مصرية إلا أنها فى مجموعها لاتخرج عن كونها اللغة المصرية كتبت فى هيئة جديدة .

ومما سبق يتضح لنا أن الكتابة المصرية فى نشأتها تشبه نشأة الكتابة فى بلاد النهرين ولا يستبعد وجـــود علاقة فعلية بينهما ، وربما يؤيد ذلك اشتراكهما فى بعض مدلولات الصور التى تعبر عن كائنات واحدة فى كل من الكتابتين إلا أن الفرق شاسع بينهما فى مراحل تطورهما ، فالكتابة فى بلاد النهرين ـ نظراً لاستخدام قلم مدبب فى كتابتها ـ أخذت تبتعد سريعاً عن أن تبين صوراً يمكن التعرف عليها ، بينما ظلت الكتابة المصرية فى هيئة صور لكائنات معروفة ولم تفقد هذه الخاصية إلا جزئياً فى الخطين الهيراطيقى والديموطيقى ، ولهذا ظلت رموز كثيرة تستخدم فى الدلالة على ما تمثله ، أى أن بعض الرموز ظلت مستعملة للدلالة على معانى قائمة بذاتها .

المصادر التى اعتمد عليها المؤرخون :

كانت عقيدة المصرى فى البعث والتمتع فى العالم الآخر بحياة مماثلة للحياة الدنيا خير معين للمؤرخين ، لأن هؤلاء أفادوا من النقوش التى تركها المصريون فى مقابرهم وعلى نصبهم وآثارهم المختلفة حرصا منهم على تسجيل أعمالهم الجيدة ومظاهر نشاطهم فى حياتهم العادية أملا فى أن يقوموا فى آخرتهم بنفس الأدوار التى قاموا بها فى حياتهم الدنيا فجاءت هذه تراجم

لأصحابها، وقد استقى منها المؤرخون معظم معلوماتهم التى ألقت كثيرا من الضوء على مختلف نواحى الحياة المصرية من حربية واقتصادية واجتماعية ودينية وسياسية وأوضحت صلات القربى بين بعض الافراد ممن كان لهم أهمية تاريخية خاصة وغير ذلك من المعلومات التى لا غنى عنها لكل مؤرخ .

ومن المصادر الهامة التى استقى منها المؤرخون بعض معلوماتهم التاريخية أيضاً ماسجله بعض الموظفين فى نقوش على صخور المناطق التى ارتادوها فى بعثات للتعدين أو فى حملات عسكرية أو جولات تفتيشية وغيرها مما يعد سجلا حافلا يفيد منه كل باحث . هذا فضلا عما عثر عليه من وثائق ومحفوظات مختلفة كالبرديات التى دون عليها ما يشير إلى بعض الأحداث التاريخية أو بعض القضايا والمنازعات أو فصول فى الادب والعلوم والفنون المختلفة مما أفاد فى التعرف على نواحى أخرى من نواحى الحياة المصرية ، أضف إلى ذلك ما عثر عليه من محفوظات كتبت بلغات أجنبية مثل الألواح التى عثر عليها فى تل العمارنة والتى كتبت بالخط المسمارى وكان لها أكبر الفضل فى إماطة اللثام عن كثير من الشئون الخارجية والعلاقات الدولية فى عهد الدولة الحديثة .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن ماكتبه اليونان عن مصر كان يعتمد على ما ذكره الرواة لهؤلاء فجاءت كتاباتهم مليئة بالأخطاء ، ومع ذلك فقد أفاد منها الباحثون قدر الإمكان وخاصة فيما يتعلق بالشطر الأخير من تاريخ الفراعنة إذ أنه كان أقرب العهود لهؤلاء الكتاب ولم تكن روايات الرواة قد تناولته بكثير من التشويه . وفى عهد بطليموس الثانى دون كاهن مصرى يدعى مانيتون تاريخا لمصر قسم فيه الملوك الفراعنة إلى ٣١ أسرة حاكمة إلا أن ما وصلنا من هذا التاريخ لا يزيد على بعض الفقرات التى نقلها عنه بعض مؤرخى اليونان .

ولا شك فى أن تسلسل الملوك وتتابعهم كان من أكبر العقبات التى صادفت الباحثين وذلك نظرا لأن المصرى كان يؤرخ الأحداث الهامة على حسب السنين التى حكمها الملك المعاصر ولا يشير إلى من سبقه أو لحقه من الملوك إلا فى أحوال نادرة، ولم يشذ عن ذلك إلا ملوك الأسرة الثانية عشرة والملوك القلائل الذين أشركوا معهم أولياء عهودهم فى الحكم ولكن لحسن الحظ ترك لنا المصرى بعض الآثار الهامة التى بينت لنا ترتيب حكم الملوك فى كثير من العهود — وهذه الآثار عبارة عن قوائم كتبت فى عهد بعض الملوك وهى تروى أسماء الملوك الذين سبقوهم على عرش مصر على حسب ترتيبهم المعروف وقتئذ وبعض الأحداث الهامة التى حدثت فى عهودهم وهذه القوائم هى : —

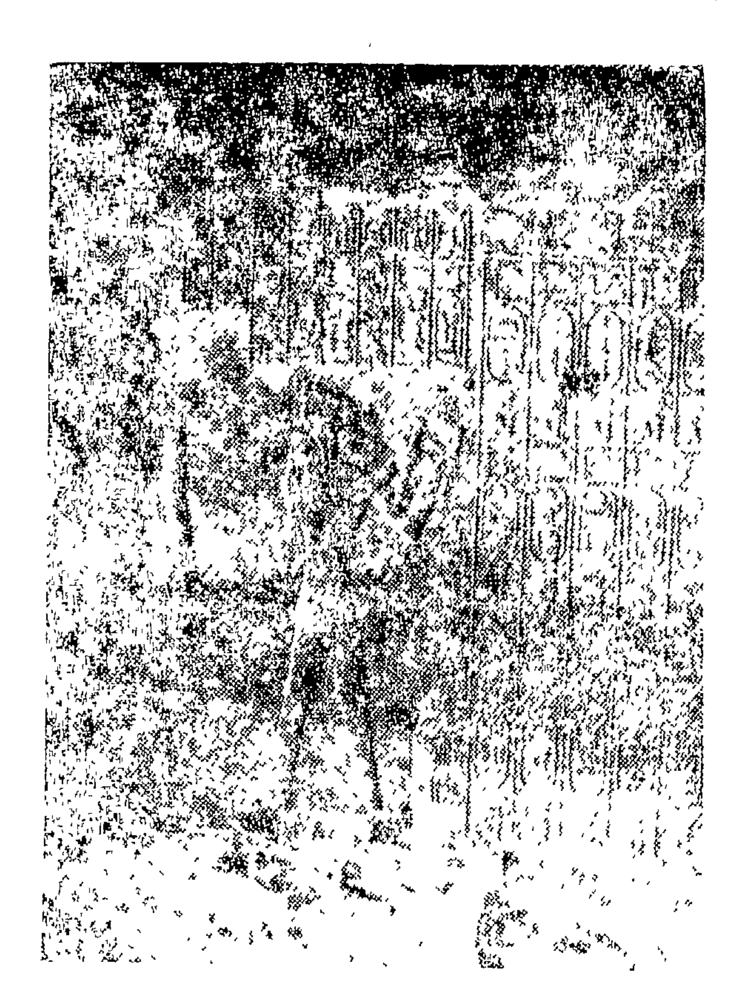
١ — حجر بلرمو : عرف بهذا الاسم إلى نسبة إلى متحف بلرمو المحفوظ فيه ، وهو عبارة عن جزء من قطعة من الديوريت دونت عليها حوليات الملوك من أقدم العصور حتى منتصف الأسرة الخامسة تقريباً — ويشير هذا الأثر كذلك إلى بعض ملوك سبقوا مينا ممن كانوا يحكمون فى الدلتا وأطلق عليهم اسم أتباع الإله حور — وقد وجدت بعض القطع المماثله لهذا الأثر ولكن ليس من المؤكد أنها تنتمى لنفس الأثر الأصلى الذى منه القطعة السابقة — ومن بين هذه القطع الأخيرة قطعة دونت عليها أسماء خمسة ملوك من أتباع حور (السابقين للملك مينا) حكموا فى الجنوب .

ويذكر حجر بلرمو والقطع المماثلة اسم كل ملك والحوادث الهامة فى كل سنة من سنوات حكمه وارتفاع الفيضان فيها .

٢ — قائمة الكرنك : وترجع إلى عهد تحتمس الثالث (الأسرة الثامنة عشرة) وكانت فى حجرة من معبد أقامه فى منطقة الكرنك ، وهى تذكر

أسماء بعض الملوك الذين لم يذكروا فى قوائم أخرى وقد نقلت هذه القائمة إلى متحف اللوفر .

٣ — **قائمة أبيدوس** : - وهى عبارة عن نقش يشكل معظم جدار إحدى حجرات معبد سيتى الأول فى أبيدوس (العرابة المدفونة) ، وتعرف باسم لوحة الأجداد لأنها تمثل سيتى الأول يقدم ولده رعمسيس الثانى (الأسرة ١٩) إلى أسماء أجداده ملوك مصر وهى تشمل ستة وسبعين اسما تبدأ بالملك مينا فهى تغفل ذكر أسماء بعض الملوك وربما كان ذلك لعدم الاعتراف بشرعية حكمهم لمصر (شكل ٢٠) .



شكل ٢٠ - جزء من قائمة أبيدوس

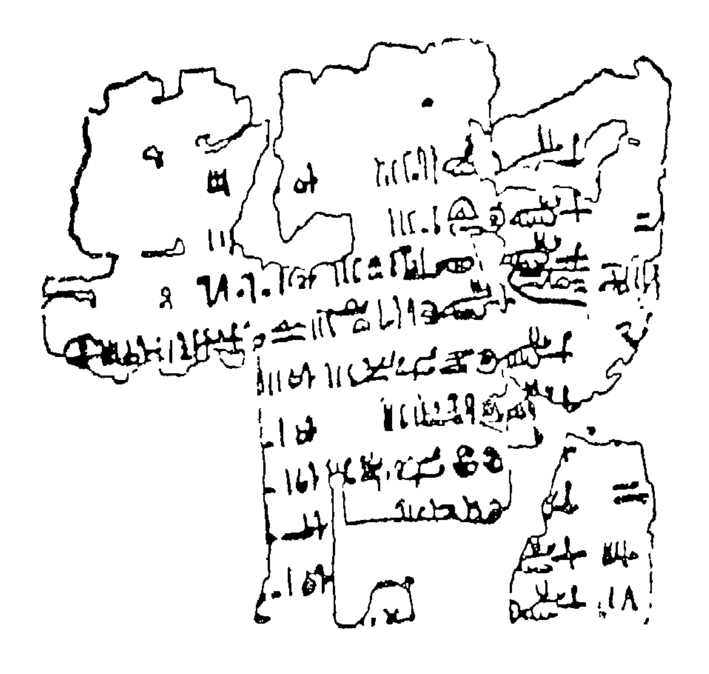
٤ — **قائمة سقارة :** ـ وجدت فى إحدى مقابر عهد رعمسيس الثانى وتختلف الأسماء فيها فى بعض المواضع عن الأسماء التى وردت فى لوحة أبيدوس ولكنها تتفق كثيراً مع الأسماء التى وردت فى بردية تورين التالية .

٥ — **بردية تورين :** ـ يحتمل أنها من عهد رعمسيس الثانى أيضا وهى محفوظة الآن فى متحف تورين وتذكر أسماء حكام مصر فى العصور السحيقة التى سبقت قيام الأسرة الأولى وقد نسبتهم إلى السماء ، أى اعتبرتهم من الآلهة ثم ذكرت أسماء الملوك الآدميين (عهد الأسرات) ـ وهى تذكر مدة حكم هؤلاء الملوك بالسنين والشهور والأيام وقد وجدت هذه مطابقة تقريبا لما ورد فى الآثار فى بعض الحالات ومن أمثلة ذلك أنها ذكرت أن الأسرة الثانية عشرة ظلت تحكم مصر ٢١٥ سنة ولاتختلف آثار هذه الأسرة كثيرا عن ذلك حيث تدل على أنها حكمت نحو ٢١٣ سنة ، ومع هذا فإن هذه البردية لاتخلو أيضا من بعض أخطاء طفيفة (شكل ٢١) .

التاريخ والتقويم :

جرت عادة المصرى على أن يؤرخ الحوادث على حسب الزمن الذى وقعت فيه بالنسبة لحكم الملك المعاصر أى أن مدة حكم كل ملك كانت تقويما قائما بذاته ، فمثلا يخبرنا سنوهى فى قصته أن الملك أمنمحات الأول توفى فى السنة الثلاثين من حكمه كما يلى :

السنة الثلاثين فصل الفيضان الشهر الثالث اليوم التاسع دخل الإله أفقه وطار أمنمحات إلى السماء واتحد مع الشمس ... الخ .



شكل ٢١ - جزء من بردية تورين

وقد استطاع المصرى أن يتوصل إلى حساب الزمن حسابا لايكاد يختلف عن حسابنا له إلا بقدر طفيف ، فقد لاحظ منذ أقدم العصور أن الفيضان يأتيه منتظما فى كل عام وفى موعد معين - وحدث أن صادف أول يوم فى الفيضان ظهور نجم الشعرى اليمانية فى المجال الشمسى وقت الشروق مع الشمس فى الأفق الشرقى تجاه منفيس ، وربط المصرى بين هذه الظاهرة وظاهرة الفيضان واعتبرها بداية السنة ، وراقب ظهور نجم الشعرى اليمانية وجعل دورته السنوية وحدته الزمنية ثم قسمها على أساس الظواهر المتعلقة بنهر النيل وفيضانه إلى ثلاثة فصول : فصل الفيضان ، فصل الزرع ، فصل الحصاد - وكل من هذه الفصول قسمه إلى أربعة شهور متساويه كل منها ثلاثين يوما ، ولما كان نجم الشعرى اليمانية يظهر

فى الأفق الشرقى كل ٣٦٥ يوما فإن المصرى أضاف خمسة أيام فى نهاية فصوله الثلاثة وسماها الشهر الشهر الصغير احتفل فيها بأعياد مختلفة أى أنه اعتبر السنة ٣٦٥ يوما - وحيث أن الشمس لاتظهر فى نفس موضعها السابق إلا كل ¼ ٣٦٥ يوما ، أى أن السنة الشمسية تزيد على دورة نجم الشعرى اليمانية بمقدار ¼ يوم فإن ذلك قد أدى إلى اختلاط الأمر على المصرى وأحس به لأن السنة التى يعرفهـا كانت تنقص يوما عن السنة الشمسية فى كل أربعة سنوات ومعنى هذا أن نجم الشعرى اليمانية لايعاود الظهور مع الشمس فى الأفق الشرقى فى نفس اللحظـــة إلا كل (٤ × ٣٦٥ =) ١٤٦٠ سنة ، وقد ورد فى كراسة تلميذ من عهد الأسرة التاسعة عشرة مايدل على الحيرة من التباين بين التقويمين الشمسى والمصرى المبنى على دورة الشعرى اليمانية حيث جاء فيهـــا « خلصنى (يا إلهى) من السنة المضطربة . إن الشمس لم تعد تشرق فالشتاء يحل محل الصيف وتسير الشهور القهقرى » .

وقد لاحظ المؤرخون أن المؤرخ سانسريون Censerion سجل ظاهرة إجتماع الشعرى اليمانية والشمس وقت الشروق سنة ١٤٠ م ومعنى هـذا أن تلك الظاهرة حدثت قبل ذلك سنة ١٣٢٠ ق.م ، سنة ٢٢٨٠ ق م وهكذا - وقد قدر هؤلاء المؤرخون أن المصريين توصلوا إلى معرفة السنة على أساس ٣٦٥ يوما (دورة الشعرى اليمـــانية) منذ أن اجتمع هـذا النجم مع الشمس فى الأفق الشرقى فى المرة السابقة لبدء العصر التـاريخى على الأقل (حوالى سنة ٤٢٤٠ ق م) ، أى أن المصرى بدأ تقويمه منذ المرة التى حدثت فيها هذه الظاهرة قبل معرفة الكتابة وقبل

العصر التاريخى ولكن ليس لدينا مايؤكد هذه الفكرة وإنما هى مرجحة على أى حال .

ومما هو جدير بالذكر أن المؤرخين اصطلحوا على أن الأسرة الأولى بدأت حوالى سنة ٣٢٠٠ ق م وظلوا متفقين على هذا التأريخ كبداية للعصر التاريخى فى مصر مدة طويلة ولكن هذا الرأى تعرض للتعديل أكثر من مرة ، وآخر الآراء وأحدثها تميل إلى جعل بداية هذه الأسرة ترجع إلى عام ٣١٠٠ ± ١٥٠ ق . م تقريبا وقد بنى ذلك على أساس مقارنة بعض تواريخ ملوك بلاد النهرين بالنسبة لتواريخ معاصريهم من ملوك مصر ، ومع ذلك فمازال هذا التاريخ موضعا للبحث وخاصة بعد الاستعانة ببعض التجارب العلمية المبنية على الإشعاع الذرى وأثره فى المواد العضوية واستخدام ذلك فى تقدير عمر الآثار من مختلف البقاع ومن مختلف العصور وعلى هذا يعاد النظر فى بداية عهد الاسرات المصرية ولم يستقر الأمر بعد بصفة قاطعة .

[illegible] الفرعونية

سبق أن أشرنا إلى أن مانيثون Manethon قسم تاريخ الفراعنة حسب حكم الملوك إلى إحدى وثلاثين أسرة وقد تبعه معظم المؤرخين فى هذا التقسيم - ولكن تيسيراً لدراسة هذا التاريخ يمكننا أن نقسمه حسب ما أصاب البلاد من قوة وضعف إلى أربعة أدوار رئيسية من النهوض أعقب كلا منها دور من أدوار الفوضى أو الاضمحلال كما يلى :-

١ - عهد الدولة القديمة وهو حكم الأسرات ابتداء من الأسرة الأولى حتى الأسرة السادسة (٣١٠٠ - ٢١٨١ ق . م) .

٢ - عهد الفوضى الأول وهو يشمل حكم الأسرات السابعة إلى الحادية عشره (٢١٨١ - ٢١٣٤ ق . م) .

٣ - عهد الدولة الوسطى وهو يشمل حكم الأسرات من الحادية عشرة إلى الثالثة عشرة (٢١٣٤ - ١٧٨٦ ق.م) .

٤ - عهد الاضمحلال الثانى وهو يشمل الأسرات الثالثه عشرة إلى السابعة عشرة وفى خلاله حكم الهكسوس فى مصر (١٧٨٦ - ١٥٨٠ ق . م) .

٥ - عهد الدولة الحديثة أو عصر الامبراطورية وهو يشمل الأسرات الثامنة عشره إلى العشرين (١٥٨٠ - ١٠٨٧ ق . م) .

٦ - عصر الاضمحلال الثالث وحكم الكهنة والليبيين والنبتاويين وهو يشمل حكم الأسرات الحادية والعشرين إلى الخامسة والعشرين (١٠٨٠ - ٦٦٤ ق . م) .

٧ - عهد النهضة وهو يشمل حكم الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٤ - ٥٢٥ ق م) .

٨ - عهد الفوضى الأخير وهو يشمل حكم الأسرات السابعة العشرين إلى الحادية والثلاثين حيث بسط الفرس سلطانهم على مصر فى معظم هذه الفترة (٥٢٥ - ٣٣٢ ق.م) .

ومما تجدر ملاحظته أن وجهات نظر المؤرخين تختلف فى تحديد

بداية ونهاية بعض هذه الأدوار ، كما أن بدء الأدوار لا يتطلب - بالضرورة وفى كل حالة - انتهاء حكم الأسرة التى كانت قائمة فى الدور السابق ، وفى تتبعنا لهذه الأدوار إنما نأخذ برأى غالبية العلماء ، على أنه من الممكن أن نقسم التاريخ المصرى - قبل الثـــورة الحديثة - بأكمله إلى قسمين كبيرين : الأول قامت فيه مصر بدور إيجابى وهو يبدأ من أقدم العصور وينتهى بنهاية الدولة الحديثة والثانى قامت فيه بدور سلبي على العموم وهو يبدأ من نهاية الدولة الحديثة وينتهى بقيام الثورة الحديثة فى يولية سنة ١٩٥٢ التى تعد بداية القسم الثالث من التاريخ المصرى الذى بدأنا فى بنائه ونعيش فيه الآن ، فتاريخ الفراعنة على هذا الأساس يشمل القسم الأول وجزءا من القسم الثانى حيث قامت مصر بدورها الايجابى معظم القسم الأول من تاريخها ثم عاشت فترة من القسم الثانى من تاريخها فى دورها السلبي وهذا التاريخ هو الذى سنقوم بدراسته وفق أدوار القـوة والضعف التى سبقت الإشارة اليها .

١ - عهد الدولة القديمة

فى عصر ما قبل الأسرات اتحدت أقاليم مصر المختلفـــة فى إقليمين كبيرين أحدهما فى الوجه القبلى والآخر فى الوجه البحرى - وتشير بعض المصـــادر التى تحدثنا عنها فيما سبق (١) إلى حـــكم مارك من الآلهة وأنصاف الآلهة لهاتين المملكتين - وقد اختلفت الآراء بشأن التوحيد الذى قامت على أساسه الأسرة الأولى ولكن مازلنا نأخذ بالرأى القائل بأن مملكة الوجه البحرى - قبل بداية العصر التاريخى -

(١) أنظر أعلاه ص ٧٤ - ٧٨

استطاعت أن تخضع مملكة الوجه القبلى ثم انفصلت هذه عنها ، إلا أن مملكة الوجه البحرى عادت إلى القوة من جديد ووحدت البـــلاد للمرة الثانية ولكن الوجه القبلى انفصل مرة أخرى ثم أستطاع أن يظفر بالقوة وأن يقوم هو باخضاع الوجه البحرى وأن يوحد البلاد التوحيد الثالث والأخير الذى قامت على أثره الأسرة الأولى .

ويبدو أن ملكا قبل مينا أو نعرمر (الذى اصطلح المؤرخون على جعله مؤسس الأسرة الأولى وتضعه بعض القوائم على رأس الأسرات الفرعونية) حاول توحيد المملكتين وربما نجح فى ذلك بعض النجاح ويعرف هذا الملك باسم الملك العقرب إذ كتب إسمه برمز يبين صورة هذا الحيوان إلا أن مينـــا أو نعرمر كان صاحب الفضل فى أول توحيد قام على دعائم ثابتة .

ويصف بعض المؤرخين الأسرتين الأولى والثـــانية بأنهما ثينيتان ويضعهما فى عهد قائم بذاته أطلقوا عليه اسم « العصر الثينى » نسبة إلى طينه Thinis القريبة من أبيدوس وذلك لأنهم شاهدوا إختلافا واضحا بين حضارة هاتين الأسرتين وحضارة الأسرة الثالثة ، ولأن الاعتقاد كان سائدا بأن ملوك هاتين الأسرتين قد دفنوا فى أبيدوس واحتمال أن عاصمتهم كانت طينة ـ ولكن نظرا لأن التطور الذى حدث فى الأسرة الثالثة وإن كان عظيما بحيث يبدو الفرق واضحا بين حضارتها وحضارة الاسرتين السابقتين فان هذا التطور يعد نتيجة حتمية لحياة الاستقرار التى سادت عصر هاتين الاسرتين ولا داعى لتمييزهما عن العهد التالى الذى يرتبط بهما ارتباطا وثيقا ـ كذلك أصبح من المشكوك فيه الآن أن ملوك

الاسرتين الأولى والثانية قد دفنوا فى أبيدوس ، وعلى هذا فان وصفهما بالأسرتين الثينيتين أصبح لامبرر له - أما إذا دعت الحاجة إلى تمييز عهد هاتين الاسرتين عن العهد التالى له لما شهده هذا الأخير من تطور ضخم فى ميدان الحضارة فلا بأس من أن نطلق عليه الاسم الذى اختاره نفر قليل من المؤرخين وهو إسم « عصر الاسرات الباكر » أو « باكورة عصر الاسرات » ، ومهما يكن من أمر فإننا سنعتبر عهد الدولة القديمة يبدأ من عهد الأسرة الأولى وينتهى بعهد الاسرة السادسة وسنتناوله بالدراسة على حسب الاسرات كما يلى :

الاسرة الأولى — مينا :

اختلف المؤرخون كثيرا حول شخصية هذا الملك - ومهما كان أمر هذا الاختلاف فإن غالبية الباحثين تنسب اليه توحيد مصر وأنه حول مجرى النيل وأنشأ فى المكان المتخلف عن مجراه الأصلى عاصمة جديدة عرفت باسم منف أى الحائط الأبيض - ومن المرجح أنه قام بحروب ضد الليبيين والنوبيين واحتفل ببعض الاحتفالات الدينية وخاصة تلك التى تتعلق بمراسيم التتويج - ومن النصوص ما يشير كذلك إلى تشييده بعض المعابد ومن المحتمل أنه تزوج من الوجه البحرى من أميرة تدعى نيت حتب .

وربما كانت الإشارة إلى بناء العاصمة الجديدة منف مما يؤيد أن ملوك الأسرتين الأولى والثانية قد حكموا فى هذه العاصمة وليس فى طينه كما كان الإعتقاد سائدا من قبل وبالتالى يؤيد ما ذهبنا اليه من

عدم وجـــود ما يبرر تسمية عهـد هاتين الأسرتين باسم العهـد الطينى (١) .

جسر :

لم يكن هذا الملك أقل نشاطا من سلفه فقد عثر على اسمه منقوشا على صخور جبل الشيخ سليمان(٢) بالقرب من وادى حلفا ويبدو أنه انتصر على أهل النوبة مما يوحى بأن ملوك الاسرة الأولى بدأوا فعـلا فى الإحتكاك ببلاد النوبة بقصد تأمين حدودهم الجنوبية أو رغبـــة فى الاستيلاء على بعض حاصلات الجنوب .

جيت (و ادجيت) :

وصلت مصر فى عهد هذا الملك إلى درجة لا بأس بها من الرقى فقد عثر على آثار من عهده يتجلى فيها الإتقان والروح الفنية العالية كما وجد اسمه مكتوبا على صخور أحد الوديان التى تربط بين أدفـــو وساحل البحر الأحمر مما يدل على النشاط فى إرسال البعثات التجارية أو بعثات استغلال المحاجر والمناجم من منطقة الصحراء الشرقية .

دن

ظل هذ الملك يعرف باسم « دن » أو « أودمو » ولكن النطـق الأول لاسمه يفضل على النطق الثانى (٣) وقـــد استدل من الآثار

(١) أنظر أعلاه ص ٨٤

(٢) Arkell, JEA 36, pp. 28 - 9

(٣) Sir A. Gardiner, Egypt of the Rharaoahs (oxford 1961) pp. 401-2

التى ترجع إلى عهد هذا الملك على أنه كان عظيم النشاط إذ حارب البدو الذين فى شرق مصر واحتفل بعيد جلوسه على العرش ، وقد اتخذ لقباً يرمز إلى اتحاد الوجهين برمزين جديدين هما نبات البوص (الغاب) للدلالة على الصعيد والنحلة (اليعسوب) للدلالة على الدلتا - وربما كان فى ذلك ما يدل على حدوث اضطرابات تهدف إلى انفصال المملكتين فاستطاع أن يقضى عليها واتخذ هذا اللقب الجديد لتأكيد تمكنه من حكم البلاد بأجمعها وإعادة الوحدة اليها .

عدج ايب :

يبدو أنه حارب البدو كما يشير إلى ذلك حجر بلرمو - وقد قام برحلة إلى مكان لم يتمكن المؤرخون من تحديده بعد . وانتصر عن سكان هذا المكان ، كذلك احتفل بعيد جلوسه على العرش وأمر بعمل أول إحصاء معروف فى التاريخ كما قام ببعض الاحتفالات الدينية وتأسيس بعض المدن .

وقد تبع هذا الملك ملكان لا تشير آثارهما إلى ما يستحق الذكر وإن كانت الدلائل تشير إلى حدوث نزاع بين أفراد الأسرة المالكة انتهى بالإطاحة بها .

الاسرة الثانية :

لا ندرى هل كانت هذه الاسرة تمت بصلة القرابة إلى الأسرة السابقة أولا ؟ والمهم أن مانيثون بدأ أسرة جديدة يحتمل أنها نشأت على إثر حدوث نزاع عائلى فى الأسرة الأولى أدى إلى زوال حكمها - ومازال تاريخ

الأسرة الثانية يشوبه بعض الغموض فجداول الملوك تشير إلى ثمانية ملوك على الأقل حكموا فى هذه الأسرة .

ومما تجدر ملاحظته أن ملوك هذه الأسرة لم ينتسبوا جميعا إلى إله رئيسى واحد فبعض الملوك لم ينتسب للاله حور الذى اعتاد الملوك أن ينسبوا إليه مما يوحى بحدوث بعض المتاعب أو الثورة على المعبود الرسمى أثناء حكم هذه الأسرة - فمن المعروف أن الإله حور كان صاحب النفوذ فى المملكة الموحدة وأن الإله ست كان صاحب النفوذ الأول فى الصعيد ، وقد درج الملوك على عادة انتمائهم للاله حور إذ كانوا ينقشون رمز هـــذا الإله قبل أسمائهم للدلالة على أنهم ينتسبون إليه وبدأوا يهتمون بالعاصمة الشمالية منف ويستقرون فيها ، وربمـا كان ذلك سببا فى إثارة كهنة الإله ست الذين شعروا بتضاؤل نفوذهم القديم فبذروا بذور الفتنة وأشعلوا نيران الثورة ضد هذه الإتجاهات الجديدة مما جعل أحد ملوكها وهو برإيب سن يحذف رمز الإله حور قبل إسمه ويضع رمز الإله ست فى مكانه أى أنه أعلنها صريحة بأنه ينتمى إلى الإله ست وليس للإله حور ، وربما كان هذا هو السبب الذى من أجله حذف اسم هذا الملك من بعض قوائم الملوك باعتبـاره خارجا على عبادة حور وهو المعبود التقليدى الذى ظل الفراعنة فى غالبية العهود يدينون له بالولاء .

ومع أن عهد الأسرة الثـانية قد حفل بالإختلافات السياسية وربمـا بحدوث منافسات على العرش أيضـــا إلا أن التقدم فى مرافق الدولة لم يقف عند حد فقد استقرت جذور الحضـــارة المصرية منذ عصر ماقبل الأسرات وأخذ الصناع والفنانون ينهضون بما تخصصوا فيه وبلغـــوا

فى ذلك درجة كبيرة من الإتقان والرقى ، وقد بدأت صناعة التماثيل الملكية فى عهد أحد ملوكها ويدعى خع سخم .

التطور فى عهد الاسرتين الاولى والثانية

تدل الآثار التى أكتشفت من ذلك العهد على أن المصرى استعمل كل ما صادفه من أحجار مناسبة فى صنع الأدوات والأوانى اللازمة له كما استعمل النحاس وإن كان ذلك بدرجة محدودة ، واستخدم العاج والأصداف فى تطعيم مصنوعاته الخشبية وارتقى بفن النسيج فتوصل إلى صناعة منسوجات دقيقة راقية وتدل آثارهم كذلك على أنهم تأنقوا فى زينتهم وفى طعامهم إلى درجة الترف .

ومع أن مصر ظلت طوال عهودها الفرعونية تنقسم من الناحية الإدارية إلى شطريها القبلى والبحرى (إشارة إلى المملكتين اللتين تكونتا فى عصر ما قبل الأسرات) إلا أن الملك خلال عهد هاتين الأسرتين كان مطلق السلطة فى كليهما وله صفة الألوهية إذ كان يعتبر صورة الإله الحية على الأرض وكان عليه يقع عبء الدفاع عن مصر وعليه رفاهية شعبه فيأمر بحفر الترع وإقامة الجسور وينشر العدالة بين الناس - يعاونه فى ذلك عدد كبير من الموظفين على رأسهم وزير ربما كان أصل اختصاصه أن يكون حلقة الاتصال بين الملك وبين موظفيه الذين كانوا ينقسمون من حيث الاختصاص إلى موظفين مختصين بمملكة الجنوب وآخرين مختصين بمملكة الشمال فمثلا كان هناك حامل أختام ملك الجنوب وآخر يحمل لقب حامل أختام ملك الشمال وكانا يرأسان بيت المال المزدوج أى بيت مال

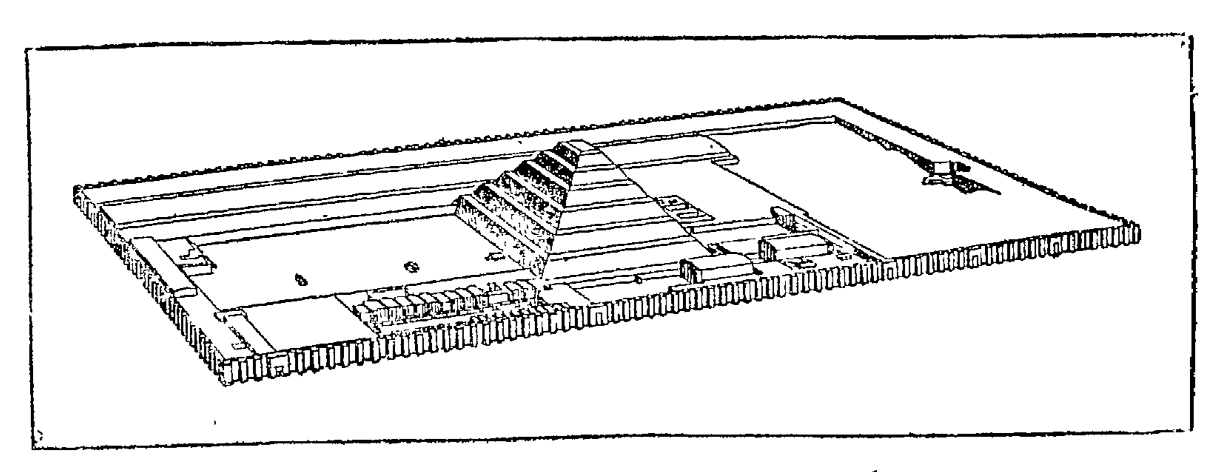
الجنوب وبيت مال الشمال - وفضلا عن ذلك كانت مصر تنقسم إلى مقاطعات يرأسها حكام أو أمراء ، يعاونهم على تصريف الامور فيها عدد من الموظفين الذين كانوا يعنون بتدوين إرتفاع الفيضان لتقدير الضرائب على الزراعة المحتملة ويقومون بعمل التعداد الذى كان يعمل كل سنتين - وكانت بكل مقاطعة هيئه تشرف على القضاء وعلى سائر الأعمال الإدارية وتشرف على عملية الإحصاء وتراقب الفيضان فكانت على الأرجح تجمع بين اختصاص المحلفين واختصاص أعضاء مجالس المدن أو المحافظات .

ولاشك أن المصرى قد عرف طريقه إلى بعض البلدان المجاورة منذ أقدم العصور وتبادل معها التجارة ، ولم يكن هذا التبادل ليتم طوعا فى كل الأحيان بل كثيرا ماكان الحصول على سلع الجيران يتم عن طريق الإغارة عليهم أيضا .

الاسرة الثالثة :

يعد عصر الأسرة الثالثة بداية عصر بناة الأهرام ومن المحتمل أن زوسر وضع على رأس هذه الأسرة الجديدة (مع أنه كان ابنا لآخر ملوك الأسرة الثانية) نظر لما اشتهر به من همة ونشاط من جهة ، ولأن عصره يعد بداية تطور حضارى ضخم وخاصة فى فن المعمار الذى تمثل فى بناء أول هرم مدرج فى التاريخ من جهة أخرى - وكان الفضل فى هذا البناء لوزيره إيمحتب الذى يحتمل أنه بدأ تقلده للوظائف منذ أواخر الأسرة الثانية ، وقد خلد اسمه فى التاريخ إلى درجة أنه أله ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد على الأقل إلى نهاية عهد البطالمة ، فقد كان إلى جانب شهرته

فى ميدان الهندسة كبيرا لكهنة الشمس ورئيساً للمثالين ومشرفاً على القصر ونابغـــة فى الطب حتى أن اليونان وحـــدوه مع إله الطب عندهم (اسكاليبوس) ، وتتجلى عبقرية إيمحتب فى إشرافه على بناء هرم سقارة المدرج الذى شيـده لمليكه زوسر وهو يعــد عمـلا فريدا من حيث أنه أول بناء ضخم من الحجر ، ويكفى للتدليل على عظمة مهندسة وعلو كعبه فى فنه أن نتصور الوسائل البدائية التى كانت تستخـــدم فى البناء وقطع الأحجار ونقلها فى هـــذا العهد السحيق ، فلاشك أن قـدرة إيمحتب على حشد العـــدد الهائل من العمال اللازمين للعمل وتنظيمهم قد بلغت أقصى حد - والهرم عبارة عن ستة مصاطب بعضها فوق بعض وارتفاعه ستون مترا تقريبا والسور المحيط به والمبانى الملحقة به يبلـغ طوله ٥٤٤ مترا وعرضه ٢٧٠ مترا . وقد عثر فى دهاليزه على أوان من الأحجار مختلفة معظمها مهشم عن قصـــد وقد قدر عددها بنحو ٣٠٫٠٠٠ آنية .



شكل ٣٢ هرم زوسر المدرج بسقارة وملحقاته

ولا يقتصر نشاط زوسر المعمارى على سقارة بل وجدت له آثار فى جهات أخرى ، كما يبدو أنه عمل على تأمين البلاد من إغارات البدو وأرسل حملة لتأديب بدو سينا ومما ينسب إلى عهده أن مجاعة حدثت فى البلاد بسبب توقف الفيضان عن الوصول إلى منسوبه المعتاد ، وبعد استشارة حاكم الإقليم الجنوبى من مصر أمر زوسر بأن توقف الأراضى الواقعة على جانبى النيل من جزيرة سهيل إلى قرب الدكة فى بلاد النوبة للإله خنوم وبذلك عاد الفيضان - كما تشير القصة التى تحدثنا عن هذه المجاعة - إلى سابق عهده ولكننا لانستطيع أن نؤكد ماجاء فى هذه القصة التى نقشت على صخور جزيرة سهيل لأن كهنة خنوم هم الذين دونوها فى عهد البطالمة (١) وربما كان ذلك للاشادة بفضل إلههم والدعاية له .

سخم خت (زوسر الثانى) :

وجدت لهذا الملك ثلاثة نقوش فى وادى مغارة بسينا ظل الأثريون إلى عهد قريب ينسبونها خطأ إلى ملك من الأسرة الأولى هو « سمرخت » كما أن اسم سخم خت كان ينطق سانخت ولكن بعد اكتشاف هرمه المدرج فى سقارة (بالقرب من هرم زوسر) سنة ١٩٥٤ تمكن الباحثون من قراءة اسمه

---

(١) كان النص الذى يشير إلى قصة هذه المجاعة والذى نقش على صخور جزيرة سهيل ينسب إلى عهد بطلميوس العاشر ولكن أحدث الأراء تنسبه إلى عهد بطلميوس الخامس (إيفان) أنظر Baraguet, " la Stéle du Famine a Sehel" (Bibl. d'Etudes, T 24) Le Caire 1953. p. 33 n. 1.

على سدادت أوانى فخارية عثر عليها بالهرم وعرف أن صحة قراءة اسمه « سمرخت »(١) .

وتاريخ هذه الأسرة يشوبه بعض الغموض وما زال عدد ملوكها موضع خلاف ، وقد قام حونى وهو آخر ملوك الأسرة بتحصين إليفانتين إذ يبدو أن الحالة على الحدود الجنوبية لم تكن مطمئنة فى عهده ، ومن الشخصيات الهامة التى عاشت فى أيام الأسرة الثالثة أحد كبار الموظفين ويدعى « متن » ، تدرج فى عدد كبير من الوظائف وكان من المعمرين حيث بدأ حياته الوظيفية فى عهد زوسر وامتد به العمر إلى أوائل الأسرة الرابعة ، وقد نقلت مقبرته بأكملها إلى متحف برلين ومن نقوشها عرف الشىء الكثير عن التنظيم الإدارى للبلاد فى ذلك العهد .

الأسرة الرابعة :

تكاد المصادر التاريخية تتفق جميعها على عدد ملوك هذه الأسرة ويبدو أن العرش انتقل اليها من الأسرة الثالثة عن طريق المصاهرة فمؤسسها « سنفرو » تزوج على الأرجح من ابنة حونى وبذلك أصبح صاحب حق شرعى فى اعتلاء العرش .

سنفرو

امتاز هذا الملك بالنشاط إذ أنه قام بحملة إلى النوبة وأخرى إلى ليبيا جلب منها عددا كبيرا من الأسرى والماشية كما قام بحملة أو بضعة

---

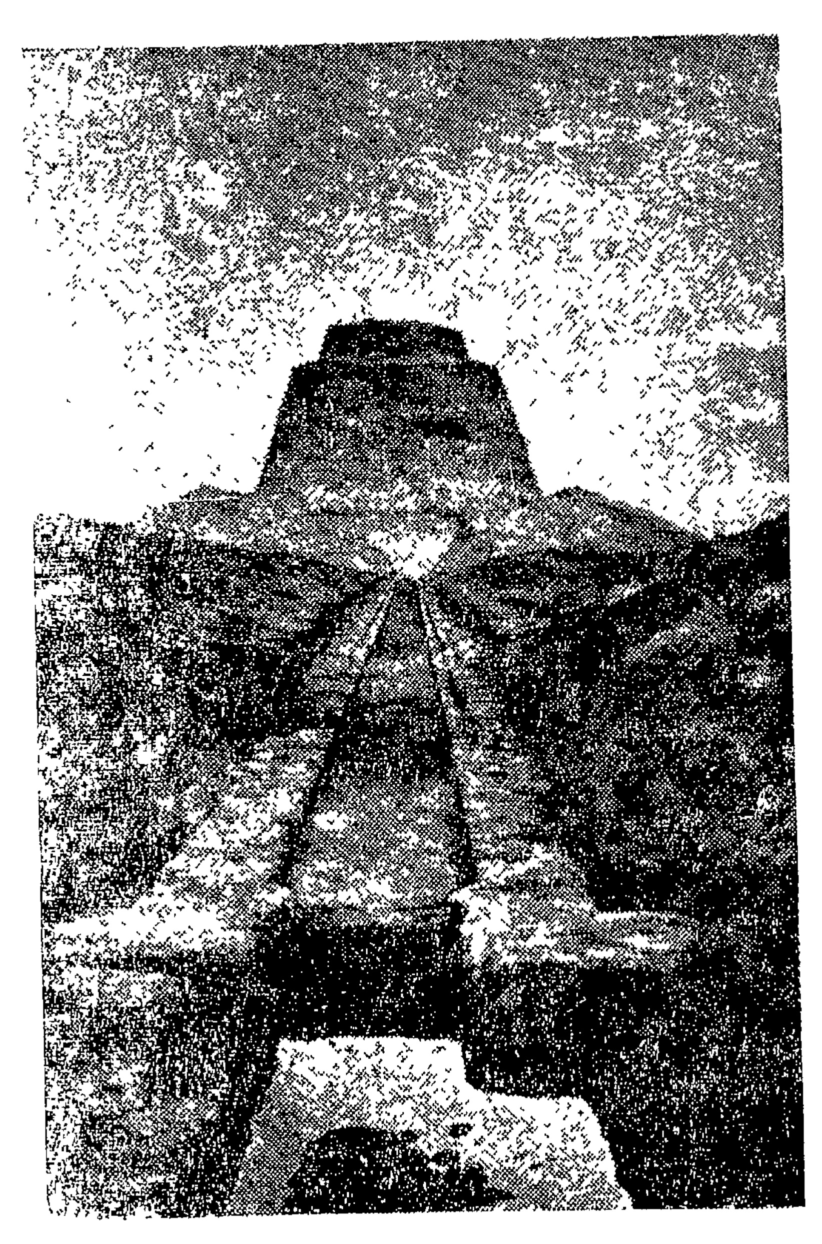
(1) I. Edwards, "The Pyramids of Egypt" (Pelican A. 168,) p. 80

حملات على سينا إذ تمثله النقوش الصخرية فى وادى مغارة وهو يقضى على أحد البدو - وربما كان الغرض من الإغارة على سينا هو استغلال مناجم النحاس فيها - ويشير حجر بالرمو إلى أنه أرسل كذلك أربعين سفينة لإحضار كتل من خشب الأرز من لبنان ، ومما يؤيد ذلك أن كثيرا من تلك الأخشاب قد عثر عليها فى هرمه القبلى فى دهشور - ومن المرجح أن أعماله الحربية وإرساله السفن إلى لبنان قد جعلته حاكما مرهوب الجانب ، ومع هذا فقد كان ملكا عطوفا رحيما كما يستدل على ذلك من كثير من النصوص التى أشارت اليه ولذلك أله بعد موته بنحـــو ستمائة عام .

وقد جرت العادة على أن ينسب إلى هـذا الملك هرمين فى دهشور أحدهما الهرم المنحنى الذى يعرف لدى العامة باسم الهرم الكاذب (شكل ٢٣)، كما ينسب اليه هـرم ثالث هو الهرم الناقص فى ميـدوم (شكل ٢٤)



شكل ٢٣ - الهرم الكاذب (أو المنحنى) فى دهشور



شكل ٢٤ — هرم ميدوم

الذى كان ينسب أصـــلا إلى حونى آخر ملوك الأسرة الرابعـــة (١) .

وقد اشتهر عهد الاسرة الرابعة عامة وعهد سنفرو بصورة خاصة بتقدم الفن ، ومن بين القطع الرائعة الموجودة فى المتحف المصرى وتنتمى إلى هذا العهد تمثال « رع نفرت » وزوجها « رع حتب » الذى يرجح أنه أحد أبناء سنفرو ـ كما تدل رسوم مقبرة الأميرة « نفر معات » وخاصة رسم مجموعة الأوز المعروف باسم أوزميدوم على مبلغ ما وصل اليه الفن من رقى ، كذلك كان الأثاث الجنزى للملكة حتب حرس (زوجة سنفرو) الذى وجد مكدسا فى بئر قريبة من هرم ولدها خوفو من أروع ما عثر عليه من آثار الفراعنة ـ ومن المحتمل أن هذه الملكة كانت قد دفنت أولا فى دهشور بالقرب من زوجها سنفرو ولكن لصوصا سطوا على مقبرتها واكتشف أمر هذه السرقة فنقلت المحتويات الباقيـــة فى المقبرة إلى تلك البئر المشار اليها بما فى ذلك تابوتها الذى عثر عليه الأثريو خاليا رغم أن غطاءه كان محكما فوقه ولذا يرجح أن أمر سرقة جثـــة الملكة قد أخفى عن ولدها خوفو .

وحكم سنفرو نحو أربعة وعشرين عاما سادت البلاد فيها مظاهر الغنى

---

(١) قارن أحمد فخرى « مصر الفرعونية » (القاهرة ١٩٥٧ ص ٦٧ ـ ٦٩ ،
Sir, A, Gardiner, op. cit, p. 78; I. Edwards. op. cit., pp. 114-115.

والرفاهية وأصبحت مملكة وطيدة الأركان يديرها موظفون مدربون، ومن بين هؤلاء « متن » الموظف الذى سبقت الإشارة إلى أنه تدرج فى وظائف الدولة فى عهد الأسرة الثالثة ، فقد عاصر هذا الموظف ملوكها ابتداء من عهد زوسر ولم يمت إلا فى عهد سنفرو .

خوفو :

تلا والده سنفرو على العرش وأفاد من الاستقرار والنظام اللذين وضع أسسها والده فنعم بحكم وطيد هيأ له الفرصة للقيام بأعمال ضخمة حيث عثر على اسمه فى كثير من الجهات بسينا .

ويبدو أن التجارة بين مصر وفينيقيا كانت مزدهرة منذ عهد الاسرة الثانية ولكنها نشطت فى عهد الأسرة الرابعة حيث وجدت أحجار من معبد أقيم فى ببلوس (جبيـــل) تحمل اسم خوفو ، مما يوحى بوجود جالية مصرية أقامت فى هذه المدينة للتجارة .

ويشتهر خوفو ببناء هرم الجيزة الأكبر الذى خلد اسمه فى التاريخ إذ أنه كان أحد عجائب الدنيا [1] ، وقد فاق هذه العجائب جميعاً فى أنه الوحيد الذى ظل قائماً حتى الآن — ومن ضخامة هذا الهرم يتضح لنا

---

(١) عجائب الدنيا السبع التى اشتهرت فى العالم القديم هى : أهرام مصر ، حدائق بابل المعلقة ، معبد أرتيميس (إلهة الصيد لدى اليونان) فى إفيسوس ، تمثال زيوس الذى أقامه فيدياس ، الموزيليوم (مقبرة موزولوس ملك الكاريين) فى هاليكارناسوس ، وتمثال هليوس إله الشمس فى رودس ، منارة الاسكندرية على جزيرة فاروس .

أن تشييده تطلب عددا هائلا من العمال والمهندسين وأنه استغرق عدة سنين ، ويذكر هيرودوت أنه سمع من الكهنة أن العمال الذين أستخدموا فى البناء كانوا مائة ألف عامل يعملون ثلاثة أشهر فى العام وأن عملية البناء استغرقت نحو ثلاثين عاما ، وهو يصف خوفو بالقسوة ونسب اليه أنه سخر شعبه فى بناء مقبرته ، وقد وجدت هذه الفكرة صداها لدى الكثير من المحدثين ولكننا لو تأملنا ظروف مصر فى ذلك العهد لو وجدنا أن بناء الهرم بهذا الوصف كان ـ على النقيض مما ذكره هؤلاء ـ عملا إنسانيا حيث أن الزراعة فى مصر كانت تتعطل مدة الفيضان ، وفى هذه الفترة من كل عام كان الفلاح يعيش فى شظف من العيش ويتعذر عليه الحصول على القوت فكان قيامه بالعمل فى بناء مقبرة الفرعون لقاء غذائه وكسائه مما يساعده على تحمل أعباء الحياة فى تلك الفترة من السنة ، كما أنه لاشك كان يرحب باشتراكه فى عمل من أجل مليكه الذى يعتبره إلها ويغتبط لذلك مهما كلفه من جهد ووقت ومازلنا نرى حتى الآن أن المصرى المعاصر يتحمس لدينه ويتفانى فى العمل من أجل رفعته.

والهرم الأكبر وقت بنائه كان يرتفع ١٤٦ متراً ولكن جزءا منه تهدم فأصبح إرتفاعه الآن حوالى ١٣٧ مترا وهو يشغل مساحة قدرها ١٢ فدانا تقريبا واستعملت فى بنائه نحو ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ كتلة من الحجر متفاوتة الوزن ـ ولقد قدر بعض الرياضيين أن هذه الأحجار لو قطعت إلى قطع صغيرة حجم كل منها قدم مكعب ووضعت متلاصقة لأمكن أن تغطى خطا يبلغ طوله نحو ثلثى محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء . هذا ولم يتم بناء الهرم على أساس تصميم واحد بل غير التصميم

الأصلى أثناء العمل - ولفرط ضخامته ودقة بنائه والإحساس بإعجازه كثيراً ما يربط بعض الناس بين الأحداث العالمية التى حدثت فيما سبق والتى يتكهنون بأنها ستحل بالعالم وبين أطوال الهرم وزواياه ويؤكدون وجود علاقه وثيقة فيما بينها وأن هذا الهرم مستودع عجيب للأسرار ، ولكن كل ما يذكر فى هذا الصدد عبارة عن وهم خاطىء مبنى على الخرافة وليس له أى أساس علمى صحيح .

ولا شك أن خوفو قد وفق إلى أبعد حد فى المحافظة على هيبة الملكية ومراعاة النظام إذ لم يعثر من عهده على تماثيل للأفراد بل ولم يعثر له هو شخصياً إلا على تمثال صغير لا يتجاوز ارتفاعه عشرة سنتيمترات تقريباً ، وربما كانت إقامة التماثيل فى نظره قاصرة على الآلهة فقط وعلى الملوك باعتبارهم ممثلين لهم فى الأرض أو أكبر كهنتهم - وتتجلى مراعاة النظام والدقة فى عهده فيما نراه من انتظام مقابر المقربين من أهله ورجال بلاطه وكبار الموظفين حول هرمه فى صفوف متراصة تفصلها طرقات مستقيمة وكلما كان صاحب المقبرة أقرب إلى الملك كلما كانت المقبرة أقرب إلى الهرم وهكذا - وقد عثر على مقابر كثيرة لم يتم بناؤها ولم تنقش جدرانها كما أن بعضها محيت من نقوشها أسماء أصحابها مما يوحى بأن خوفو تزوج بأكثر من زوجة وأن الأبناء اختلفوا فيما بينهم وحدثت مؤامرات حول العرش .

ولا بد أن عنصراً من دم شمالى أوليبى وفد إلى مصر فى ذلك الحين أو أن البيت المالك المصرى تصاهر مع أفراد من هذا العنصر على الأقل لأننا نجد مقبرة من مقابر جبانة الجيزة فى عهد خوفو حوت

رسوما وتماثيل لصاحبتها « مرسعنخ » ووالدتها وهما تلبسان ملابس تختلف عن ملابس المصريات ولون شعرهما أشقر مشوب بالحمرة كما أن عيونهما زرقاء .

كذلك لا بد وأن نفوذ كهنة رع أخذ يزداد ابتداء من عهد خوفو على الأقل ، كما يستدل على ذلك من دخول اسم رع فى تركيب أسماء أبناء خوفو والإشارة فى القصة المعروفة فى الأدب المصرى باسم قصة خوفو والساحر « ددى » إلى زيادة نفوذ هؤلاء الكهنة حيث تذكر القصة أن الساحر أخبره بأن أبناء أحد كهنة رع سيتولون العرش بعد أن يحكم ابنه ثم حفيده من بعده وهذه القصة وردت فى بردية تعرف باسم بردية وستكار .

ددف رع :

يبدو أن ولى العهد الشرعى مات فى عهد والده خوفو فتولى ددف رع الذى يحتمل أنه كان ضحية لمؤامرة من المؤامرات إذ أنه لم يستمر فى الحكم أكثر من ثمانية أعوام ويبدو أنه خرج على بعض التقاليد المألوفة لأنه لم يشيد هرمه بالقرب من هرم والده وخلفائه بل بناه فى أبو رواش .

خفرع :

تولى العرش بعد أخيه ددف رع وبنى هرمه خلف هرم أبيه فى الجيزة وهو يبدو أعلى من الهرم الأكبر ولكنه فى الواقع مشيد على ربوة أكثر إرتفاعا من تلك التى بنى عليها هرم خوفو ، ويعد هذا الهرم ومجموعة المبانى الجنزية المحيطة به أكمل ما عثر عليه من مجموعات جنزية

كما أن التماثيل التى عثر عليها وخاصة تمثاله المصنوع من حجر الديوريت تعد آية من آيات الفن المصرى التى وصل فيها فن النحت الى القمة .

وينسب تمثال أبو الهول إلى خفرع ويرجح أنه كان عبارة عن صخرة كبيرة كانت تعترض الطريق الموصل بين المعبد الجنزى القائم فى شرق الهرم وبين معبد الوادى المقام على حافة الهضبة فاستغلت هذه الصخرة فى تجميل المنطقة ونحتت فى شكل تمثال هائل على هيئة أسد رابض رأسه فى صورة رأس خفرع - وقد عبد هذا التمثال فيما بعد على اعتبار أنه رمز لمعبود آسيوى كان يدعى « حورون » وعرف المكان الذى أقيم فيه باسم « بوحول » وهو الذى حرف إلى الإسم الحالى « أبو الهول » ومن بين الأسماء التى عرف بها « ششب عنخ » أى « الصور الحية » أو « التمثال الحى » وهذا الإسم هو الذى حرفه اليونان إلى كلمة اسفنكس "Sphinx" التى مازالت تستعمل فى اللغات الأجنبية الى الآن .

منقرع (منكاورع) :

مازال الاختلاف قائماً بين المؤرخين حول تتابع ملوك الأسرة الرابعة فمنهم من يرى وضع « ددف رع » سالف الذكر فى نهاية الأسرة بدلا من أن يكون تاليا لخوفو ، وبالمثل يظن فريق من المؤرخين أن منكاورع لم يخلف والده خفرع فى اعتلاء العرش مباشرة وإنما سبقته مدة لم يستقر فيها الحكم تمكن فيها واحد أو اثنين من إخوة خفرع من تولى العرش فيها .

ومهما كان الامر فإن منكاورع حكم نحو ٢١ عاما أو أكثر ومع هذا لم يتمكن من اتمام هرمه الصغير ومجموعته الجنزية فأتمهـــا ابنه شبسسكاف -- ويبـدو أن مبـانى أسلافه كانت عبئـا كبيرا على الخزانة وكذلك كانت المنازعات الداخلية ولذا تأثرت حالة البلاد الاقتصادية فى عهـــده .

وحينما فتح هرمه سنة ١٨٣٩ عثر فيه على تابوت الملك ومنه نقل الى سفينة تسمى أوريجون لتحمله إلى انجلترا ولكن هذه السفينة غرقت بمـا فيها أمام شواطىء أسبانيا .

شبسسكاف :

تولى بعد والده منكاورع ولكنه لم يعش بعد ذلك أكثر من أربعة سنوات ، ويظهر أنه واجه خلال حكمه القصير نفوذ كهنة رع الذى أخذ يشتد منذ عهـد خوفو على الارجح (١) - وربمـا أراد شبسسكاف أن يتخلص من نفوذ هؤلاء الكهنة بدليل عدم تشييده لمقبرته (التى بناها فى سقاره) على هيئـة هرم لأنه الشكل الذى يرتبط بعبـــادة الشمس (رع) بل جعل مقبرته فى هيئة تابوت كبير وهى تعرف حاليا باسم مصطبة فرعون - ومن المرجح أن محاولته هذه لم يكن لها من نتيجة سوى التعجيل بنهاية الأسرة .

---

(١) أنظر أعلاه ص ١٠٠ .

خنت كاو اس :

يحتمل أنها كانت زوجة شبسسكاف وشهدت محاولته فى الحد من نفوذ الكهنة ولكن من المرجح أنها كانت ذات أثر كبير فى نهاية حكم الأسرة الرابعة لأنها بعد وفاة شبسسكاف لم تستطيع القبض على زمام الأمور حيث يبدو أن نزاعا حدث حول العرش ، وتمكن أحـــد أفراد الأسرة المالكة ويدعى « بتاح ددف » من الاستيلاء على الحكم ولكنه لم يستمر سوى عامين تمكن بعدها « وسر كاف » من اعتلاء العرش مؤسساً الأسرة الخامسة ـ وهذا الأخير يرجح أنه لم يكن من البيت المالك ، وتشير قصة خوفو والساحر ددى إلى أنه كان رئيساً لكهنة رع (إله الشمس) قبل أن يعتلى العرش ، وقد تزوج خنت كاو إس التى أنجبت منه « ساحورع » ، نفر إيركارع » اللذان خلفاه على العرش ولو أن القصة المشار إليها تذكر بأنها أخواه وليس ولديه .

الأسرة الخامسة :

تمتاز هذه الأسرة بأن ملوكها كانوا من أتباع (رع) وقد نشروا نفوذ هذا الإله إلى درجة جعلت ديانته ذات أهمية كبرى طوال العصور الفرعونية التالية بعد أن كانت عبادته قاصرة منطقة هليوبوليس فقط ــ وقد سبقت الإشارة (١) إلى بردية وستكار التى كتبت فى عهـــد الدولة الوسطى والتى تذكر قصة الملك خوفو والساحر ددى وهى تشير إلى أن هـــذا الساحر أخبر الملك بأن كاهنا لإله الشمس فى هليوبوليس واسمه « وسررع » سينجب ثلاثة أبناء سيكون أكبرهم رئيسا لكهنة الشمس

---

(١) أنظر أعلاه ص١٠٠ .

ثم يعتلى العرش ويتلوه بعد ذلك أخواه وأن الملك قد انزعج لذلك ولكن الساحر طمأنه بأنه سيستمر على عرشه وسيتلوه ابنه فى الحكم ثم ابن ابنه كذلك ، وبعدئذ يأتى هؤلاء الذين أشار اليهم الساحر من قبل (أى أبناء كاهن إله الشمس الثلاثة) - ومن المرجح أن هذه القصة من قبيل الدعاية لكهنة الشمس لاننا لا نجد أى دليل على أن أوسركاف كان قبل اعتلائه للعرش يشغل وظيفة كبير كهنة عين شمس .

وسركاف :

كان لورع هذا الملك أثره فى نشاطه الدينى فقد قام بتشييد المعابد فى مختلف أنحاء مصر وبنى هرماً فى سقارة عثر فى معبده على تمثال ضخم من الجرانيت لهذا الملك ، ومن المرجح أنه أول من بنى معبداً للشمس فى أبو صير - وقد حكم نحو سبعة أعوام ثم تلاه على العرش أخوه ساحورع .

ساحورع :

هو أول ملوك الأسرة الخامسة الذين بنوا أهرامهم فى أبو صير وكان هرمه صغير الحجم غير متقن البناء نسبيا بينما كان معبده فخما زينه بأعمدة من الجرانيت تاج كل منها يمثل حزمة من النخيل ، وقد صور على جدران هذا المعبد لوحات بها مناظر تمثل انتصاره على الليبيين وعلى الآسيويين ومن بينها ما يشير إلى رحلة بحرية إلى فينيقيا ، ومناظر سفر الأسطول وعودته لا تدل على أن هذه الرحلة كانت حملة حربية ولذا لا نستطيع أن نتبين الغرض الذى من أجله أرسل الأسطول فى هذه المهمة .

ويشير حجر بلرمو إلى أن هذا الملك أرسل حملة إلى بونت وأن هذه الحملة عادت ومعها مقادير كبيرة من البخور والذهب « وأعواد الخشب » التى ربما كانت عبارة عن قطع من الأبنوس - ومن نقش صخرى قرب بلدة توماس (ببلاد النوبة) يمكن أن نستنتج أنه أرسل كذلك حمله إلى الجنوب .

وهكذا نجد أن عهد هذا الملك امتاز بنشاط خارجى عظيم خرجت فيه مصر عن عزلتها واحتكت بجيرانها ، ومن الأدلة على ذلك مانشاهده فى مقبرة أحد أشراف عهده فى دشاشه من مناظر حربية منها ما يمثل كيفية استيلاء المصريين على أحد الحصون فى آسيا .

نفر اير كارع :

بدأ هذا الملك بتشييد هرم له أكبر من هرم أخيه ولكنه مات قبل أن يتم جميع أجزاء المجموعة الجنزية المحيطة به - ويعرف عن هذا الملك أنه كان متدينا طيب القلب إذ يسجل حجر بلرمو الأوقاف التى منحها للآلهة فى السنة الأولى من حكمه ، كذلك نعلم أنه أصدر بعد ذلك مرسوما يحمى حقوق المعابد ويرعى مصالح رجال الدين مما يوحى بأن سلطان الكهنة أخذ فى الازدياد وربما كان هؤلاء قد استغلوا طيبته وتدينه فعملوا على زيادة نفوذهم وسلطانهم .

ومما يدل على شدة عطفه على موظفيه ورجال حاشيته أن وزيره « واش بتاح » كان يشرف على بناء إحدى المنشآت الملكية وسقط مغشيا عليه أثناء زيارة الملك للمكان فأمر بنقله حالا إلى القصر وحاول أن يجد له علاجا ولكنه مات فأمر بأن يصنع له تابوت من خشب الأبنوس

المطعم كما أمر بأن يحنط أمامـــه — ولم يقتصر على ذلك بل عين ولده الأكبر فى بعض الوظائف الكبرى .

كذلك نتبين دماثة خلق هذا الملك وشدة عطفه مما أظهره نحو أحد رجال حاشيته ويدعى « رع ور » — ففى أحد الاحتفالات كان « رع ور » هـــذا يقف إلى جوار الفرعوى وحدث أن لطمت عصا الفرعون ساق « رع ور » دون قصد فذعر الملك لذلك واعتذر عما بدر منه وأمر بتدوين الحادث ليكون ذلك « شهيدا على مكانة هـذا الشريف عنده » — وقد تولى بعد هـــذا الملك ملكان لم يتركا آثارا هامة ومن بعدهما تولى الملك التالى .

نى أو سررع :

حكم هذا الملك أكثر من ثلاثين عاما وبنى هرما ومعبدا للشمس فى أبو صير تدل نقوشه على أنه قام بحروب فى سوريا وضـــد الليبيين وإن كان بعض الأثريين يميل إلى أن هذه المناظر مستوحاة من مناظر معبد ساحورع سالف الذكر .

وقد عثر فى سقارة على مقابر هامة كثيرة من عهد هذا الملك تعطى نقوشها فكرة واضحة عن الحياة الاجتماعية فى ذلك العهد .

من كاو حور :

اعتلى العرش بعد « نى أو سررع » وقـــد حكم نحو ثمانية أعوام وتشير بعض النقوش فى وادى مغارة إلى أنه أرسل حملة إلى سينا — وقد شيد هرما لنفسه ولكن لم يعثر عليه حتى الآن (١) .

---

(١) أحمد فخرى « المرجع السابق » ص ١٠٥ هامش .

اسيسى (زدكارع) :

لايقل حكم هذا الملك عن ثمانية وعشرين عاما ويبدو أنه كان نشطا قويا أمن حدود بلاده إذ أن نقـــوشا تحمل اسمه وجدت فى توماس بالنوبة وفى وادى مغارة بسيناء وفى وادى الحمامات ـ وتدل نصوص الرحالة حرخوف الذى عاش فى عهد الأسرة السادسة على أن أحد رجال هذا الملك ويدعى « باأوردد » استطاع أن يجلب له قزما من بلاد بونت فكافأه من أجل إحضاره ، وهذا مما يؤيد وجود نشاط مصرى تجارى على الأقل مع الأقطار الجنوبية ـ وقد كشف عن هرم هذا الملك ومعبده وأهرام بعض أفراد أسرته ومما عـــثر عليه فى هذا المعبد تماثيل لبعض الحيوانات ولبعض الأسرى الأجانب ، ويبدو أن الدولة فى عهـده حفلت بالكثيرين من مشاهير الرجال ومن بين هؤلاء الحكيم « بتاح حتب » الذى أشرف على تربية هذا الملك وكان من بين كبار الموظفين فى عهده ـ و حين تقدمت به السن استأذن الملك فى اعتزال الخدمة ، فلما أجيب إلى طلبه كتب تعاليمه لولده الذى خلفه فى وظيفته ، وقد أصبحت هذه التعاليم ثروة أدبية عظيمة القيمة وخاصة لما تحويه من مثل أخلاقية عليا .

اونـاس :

آخر ملوك الأسرة الخامسة وإن كان بعض المؤرخين يرى اعتبـاره أول ملوك الأسرة السادسة لأن بعض التغـــيرات الجوهرية قد حدثت فى عهده وكان ، « تيتى » الذى خلفه على العرش وفيا له فأتم مالم يستطع إتمامه من مبانيه مما يوحى بوجود صلة قوية بينهما .

ومن أهم ما حـدث فى عهد أوناس ذلك التجـديد الذى حدث

نقوش الأهرامات ، فبعد أن كانت النصوص الدينية لا تكتب على جدران الحجرات الداخليـــة بدأت هذه النصوص منذ عهد أوناس تكتب على جدران الحجرات الداخلية وحجرة الدفن وأصبحت هذه النصوص تعرف لدى الأثريين باسم نصوص الأهرام :

وقد كشف عن جزء كبير من الطريق الذى كان يصل بين المعبد الجـــنزى ومعبد الوادى لهرم أوناس ومنه أمكن أن نستنتج أن هذا الطريق كان مسقوفا بالأحجار وينفذ اليه الضوء خلال كوات بالسقف الذى زين بحيث كان يبدو فى هيئة السماء المرصعة بالنجوم ، أى أنه طلى بلون أزرق ومثلث فيه أشكال النجوم بلون أبيض ـ أما الجدران فقد نقشت بمناظر دينية ومدنية مختلفة ، فمن النقوش الدينية مناظر تمثل الملك وهو يؤدى بعض الطقوس وبعض المناظر الأخرى التى تمثل الزراعـــة والحصاد والصيد فى البر وفى الماء ، والبعض يبين بعض خطوات العمل فى بناء المعبد ونقل الجرانيت إليه فى سفن تسير فى النيل ، كذلك نجد بعض المناظر التى تشير إلى حدوث مجاعة وإلى وفود بعض الأجانب إلى مصر .

وقد حكم أوناس ما يقرب من ثلاثين عاما مما يوحى باستقرار الأمور ، ولكن يبدو أن نفوذ ملوك الأسرة الخامسة كان قد أخذ فى الاضمحلال وأدى ذلك إلى انتقال الحكم إلى أسرة جديدة ـ فمن المعروف أن الأسرة الخامسة جاءت من نسل كهنة هليوبوليس أو بإيحائهم ولذا كان من الطبيعى أن يغـــدقوا الهبات وأن يكثروا من الأوقاف

على المعابد ، وازداد ثراء الكهنة وسلطانهم وبالتالى أخذت سلطة الملوك المطلقة تقل وبدأت قبضتهم تتراخى عن الشئون الإدارية وخاصة فى الأقاليم حيث تمكن أمراؤها من الحصول على كثير من الامتيازات وتطورت أفكار الشعب عامة بما كان له أكبر الأثر فى عصر الأسرة السادسة التى لاندرى كيف انتقل الملك إليها ولا الأسباب التى أدت إلى ذلك .

الأسرة السادسة

سبق أن أشرنا إلى غموض بداية هذه الأسرة - ولا نعرف صلة « تيتى » الذى يعده غالبية المؤرخين مؤسس الأسرة السادسة بملوك الأسرة الخامسة وإن كان من المرجح أنه كان يمت لبعض أفرادها بصلة القرابة أو على الأقل تزوج بأميرة تنتمى إلى هذه الأسرة — ويبدو أن ملوك الأسرة الجديدة أرادوا التخلص من نفوذ الإله رع فانصرفوا إلى « بتاح » إله منف .

تيتى :

يظهر أن هذا الملك أسرف فى عدائه للإله رع أو أنه كان مغتصبا للعرش حيث يذكر مانيثون أنه لم يمت ميتة طبيعية بل قتله حراسه بعد حكم دام نحو ستة أعوام على الأرجح وقد دفن فى هرمه الذى شيده فى سقاره .

وسر كارع :

تولى بعد تيتى ولكنه لم يستمر فى الحكم إلا مدة قليلة ، ويبدو أنه كان مغتصبا للعرش لأنه لم يذكر فى قائمة سقارة ولم يعترف به مانيثون

ومع أنه (كما يتضح من اسمه) كان فى الغالب من أتباع « رع » إلا أنه مالأ كهنة بتاح إذ بنى هرمه فى منف مركز عبادة هذا الإله - ولا بد أن كهنة بتاح استطاعوا أن يثبتوا فى الميدان أمام كهنة رع وأخذ نفوذهم يزداد إلى درجة كبيرة فانتشرت الأسطورة التى تنسب إلى بتاح خلق الكون .

بيبى الأول :

يبدو أن المتاعب التى تعرض لها البيت المالك منذ نهاية عهد الأسرة الخامسة ظلت مستمرة فى عهد هذا الملك أيضا - فمع أنه حكم نحو خمسة وعشرين عاما نعمت فيها مصر بشىء من الرخاء والازدهار وارتقت فيها الفنون — فإن حياته العائلية تعرضت لبعض المؤامرات حيث يشير « أونى » الذى كان من أكبر موظفى الدولة فى عهد الأسرة السادسة إلى أن الملك عينه بين المحققين الذين أسند اليهم التحقيق مع زوجة الملك فيما نسب اليها . (١)

وقد سبقت الإشـارة إلى أن سلطان الملوك المطلق أخذ يتزعزع وربما شعر بذلك بيبى الأول وأراد أن يعمل على توطيد مركزه إذ رأى زيادة نفوذ أمراء الأقاليم وحكام المقاطعات فصاهر إحدى عائلات الصعيد القوية حيث تزوج من ابنة أمير منطقة أبيدس التى انجب منها ولده وخليفته على العرش « مرى إن رع » - ومن المحتمل أن والدة

---

(1) Sethe, Urkurden I, pp. 100 - 101

هذا الامير توفيت وهو صغير فتزوج والده من شقيقتها وهذه أنجبت ولداً آخر تولى العرش بعد أخيه .

ويبدو أن عهد بيبي الاول شهد نشاطا من بعض العناصر المجاورة لمصر وخاصة فى الشمال وربما كانت هذه العناصر من بدو سينا وجنوب فلسطين استطاعت أن تهدد الحدود المصرية (١) وقد استطاع بيبي الاول أن يتخلص من تهديد هذه العناصر حيث تمكن قائده « أونى » من جمع جيش كبير من الوجه القبلى ومن النوبة قضى به على المتاعب التى تهددت مصر فى الشمال .

ولابد أنه أكثر من تشييد العمائر ونشط فى إرسال البعثات لاستغلال المحاجر والمناجم حيث عثر على كثير من نقوشها فى مختلف الجهات . ولما مات بيبي الأول كان ولده « مرى إن رع » فى السابعة من عمره تقريبا وولده الآخر « بيبي الثانى » فى الثانية من عمره تقريبا .

مرى ان رع :

اعتلى العرش وهو صغير إذ كان فى نحو الثامنة عند وفاة والده - ومات بعد أن حكم فترة وجيزة تكاد لاتزيد على أربعة سنوات ، وأهم مانعلمه من عهده جاءنا عن طريق نصوص الوزير أونى ، ومنها نتبين أن هذا الملك أمره بحفر خمسة قنوات فى منطقة الشلال الأول لتسهيل مرور

---

(1) Sir A. Gardiner, op. cit., pp. 95 - 98

السفن ، كذلك يشير أونى إلى أنه استغل أخشاب الأشجار فى النوبة لعمل سفن كبيرة استغلها فى شحن أحجار الجرانيت اللازمة لبناء هرم الملك ، وإلى أنه أحضر تابوت الملك وغطاءه من محاجر حاتنوب ، وتوحى هذه النصوص بأن الملك أو بالأحرى ديوانه شعر بخطر حكام الاقاليم فعين هذا الموظف النشيط حاكما عاما على الوجه القبلى ـ ولم يكن لهذه الوظيفه مثل هذا الدور العملى فى مراقبة حكام الأقاليم إلا فى عهد هذا الملك لأن لقب حاكم الجنوب أصبح بعد ذلك لقبا شرفيا ولم تكن له قيمة عملية ؛

ويدل نصان فى منطقة الشلال الأول على أن الملك ذهب الى هناك بنفسه حيث تقبل خضوع زعماء بعض القبائل النوبية .

ولابد أن الاهتمام بالاتجار مع النوبة قد ازداد فى عهد الأسرة السادسة إذ لاشك فى أن مصر كانت تحصل على منتجات النوبة فى أول الأمر عن طريق الرحالة والمغامرين ثم بدأت هذه التجارة تنتظم وأخذ ملوك الأسرة السادسة يعهدون بها إلى بعثات تجارية يرأسها أحد كبار الموظفين أو إلى أمير الأقليم الجنوبى من مصر (١) وهؤلاء كان الواحد منهم يلقب عادة بلقب يدل على رئاسة فرق من المرتزقة (٢) حيث يبدو أن عددا من هؤلاء أو من الجنود النظاميين كانوا يرافقون تلك البعثات

---

(١) أنظر كتاب المؤلف « علاقات مصر بالشرق الأدنى القديم » (الاسكندرية ١٩٦٢) ص ٢٩ — ٣٢ .

(2) H. Goedicke, J E A 46, pp. 60 - 64

لحمايتها . و من أشهر رؤساء البعثات فى ذلك العهد « حرخوف » الذى يعد عظم رحالة الدولة القديمة حيث و صل فى أسفاره الى منطقة بعيدة تدعى يام (١) ، وقد بدأ أولى رحلاته فى عهد هذا الملك وكان فيها يصاحب والده « ارى »

بيبى الثانى

تولى العرش وهو فى السادسة من عمره وكانت والدته أشبه بوصية على العرش فى أثناء السنوات الأولى من حكمه ، ومن المرجح أن قوة الامير « جعو » (خال الملك) وعظم مركزه هى السبب فى رعاية مصالحه كملك طفل ومصالح أمه الملكة الوالدة - وقد عاش هذا الملك الى أن بلغ من العمر أرذله ويكاد يجمع المؤرخون على أنه ظل يحكم نحو أربعة وتسعين عاما .

وأهم ماحدث فى عهده توالى الرحلات التى كان يقوم بها أمراء الاقليم الجنوبى الى النوبة ووصلوا فيها الى مناطق لم يسبق للمصريين أن وصلوها من قبل ، ورغم النجاح الباهر الذى صادفوه فى أول الامر فإن بعض الرحالة قد لقوا حتفهم فى تلك البلاد فيها بعد مما يدل على أن هيبة مصر فى أواخر عهد هذا الملك تعرضت إلى الاستهانة بها

---

(١) مازال موقع هذا البلاد موضع بحث وإن كان من المتفق عليه أنها تبعد جنوبا عن الشلال الثالث أنظر D. M. Dixon, JEA 44, pp 40 ff

لأن ما أصاب البلاد من ضعف كان النوبيون يشعرون به دون ريب فبعض النصوص المتأخرة من عهده تشير إلى ذلك ، إذ يفهم منها أن النوبيين بدأوا يظهرون روح العــداء نحو مصر ولذا أخذ قواد القوافل يستميلونهم بالهدايا (١) .

وربما كان وصول هذا الملك إلى سن الشيخوخة واستمراره مدة طويلة كحاكم ضعيف واهن مما أدى إلى ضعف سلطان الملك وانهيــار الإدارة المركزية ، ولم يقدر لمصر أن يجلس على عرشها ملك قوى إلا بعد نحو مائتى عام حينما تأسست الدولة الوسطى إذ لم يتبع هذا الملك فى الحكم من ملوك الاسرة السادسة إلا « مرى ان رع الثانى » الذى لم يحكم إلا سنة واحدة ثم تبعته على العرش « نيت إقرت » التى ذكرها مانيثون باسم « نيتوكريس » ولم تبق هى الأخرى إلا نحو عامين ثم اندلعت نيران الثورة فى البلاد وانتهت بذلك الدولة القديمة .

ولم يكن النوبيون وحدهم هم الذين يشعرون بما ينتاب مصر من ضعف بل إن بعض العناصر الآسيوية المجاورة كانت هى الاخرى تشعر بالحالة الداخلية فى مصر ، ومن المرجح أنها كانت ترقبها دائما وتتحين الفرص للاغارة على الدلتا أو على الاقل تحاول الهبوط إلى أراضى الوادى الغنية للاستقرار فيها .

---

(١) يمكن تتبع ضعف مصر فى هذه الفترة من نصوص الرحالة الذين ذهبوا إلى النوبة فى عهد بيبى الثانى أنظر كتاب المؤلف السابق ذكره ص ٣١

٢ ــ عصر الاضمحلال الأول

ما أن دبت عوامل الضعف فى كيان الدولة المصرية فى عهد الأسرة السادسة حتى أخذت بعض العناصر الآسيوية المجاورة تنشرة نفوذها فى بعض أجزاء الدلتا ، وما أن وافى عصر سيادة هيرا كليوبوليس (الأسرتين التاسعة والعاشرة) إلا وأصبحت الدلتا خارج نطاق النفوذ المصرى وخاضعة للآسيويين .

وقد سبق أن أشرنا إلى الثورة التى نشبت فى نهاية عهد الأسرة السادسة ، فما أن انتهت هذه الأسرة حتى عمت الفوضى وبدأ العصر الذى يعرف باسم « عصر الإضمحلال الأول » أو « عهد الفوضى الأول » وبذلك لما أصاب مصر أثناء ذلك العهد من فوضى واضطراب حيث يبدو ذلك واضحا فى نصوص بعض البرديات التى تصف ذلك العصر ، ومن هذه بردية ترجع إلى بداية هذه الفترة عرفت لدى الأثريين باسم « تحذيرات حكيم [١] » وهى على لسان شخص يدعى « إبوور » وفيها يصف ما آلت إليه حالة البلاد من قلب فى الأوضاع الاجتماعية ومما ورد فيها : إن اغنيات العازفين تحولت إلى أناشيد حزن وقتل الرجل أخاه وسلب اللصوص المارة وصار الفقراء يروحون ويغدون فى القصور دون استحياء

Sir A. Gardiner, " The Admonitions of an Eqyptian (1) Sage, " (Leipzig 1909).

أو خجل بعد أن ذبحوا الموظفين . وهكذا تشرد الاغنياء وساد الفقراء وأصبح الناس فى ذعر ولم يعد هناك راع مسئول ... الخ » ، وتشير بردية أخرى - من عهـــد الأسرة العاشرة وتعرف باسم قصة الفلاح الفصيح [1] - إلى ظلم صغار الموظفين للناس ولكنها من جهة أخرى تدل على تطور اجتماعى كبير إذ نجد فيها أن الفلاح فى شكواه لرئيس الديوان يحذره من عدم العدالة مذكرا إياه بأنه سيحاسب على ذلك فى آخرته ، ولم يعثر فى وثائق الدولة القديمة على ما يدل على أن أحدا من العامة كان يجرؤ على مخاطبة نبيل أو عظيم بمثل هذا الأسلوب والوعى ، ولا بد أن ذلك قد نتج عن الثورة التى حدثت فى أعقاب الأسرة السادسة .

ولا شك أن أثر هذه الثورة كان عميقا من الناحية الفكرية فقد حفل الأدب بموضوعات شتى تبدو فيها النزعة الفلسفية من جهة وروح القلق التى سادت فى أعقابها من جهة أخرى ونتبين من هذه الموضوعات أن المجتمع نفسه لم يكن غافلا عما كان يسوده من مساوىء بل كان هناك شعور عام بها ، ومن المرجـــح أن أهل هـــذا العصر أو عقلاءهم على الأقل كانوا يحاولون التخلص من تلك المساوىء ويعملون على إصلاح ما فسد من الأمور إذ تصور لنا إحـــدى البرديات [2] حواراً شيقا دار بين شخص كان يرغب فى الانتحار وبين روحه التى كانت تحاول اقناعه بالتخلى

---

(1) Vogelsang, Kommentar 3u den Klagen des Bauern (Leipzig 1913).

(2) Berliner Papyrus der Mittleren Reiches 1879,. Erman, Die Literatur des Aegypter. (Leipzig 1923), pp. 122 ff; JEA 42, pp. 21ff

عن هذه الفكرة بينها يرد عليها بما يفيد أنه ضاق بحياته وبرم بها ، ويمكن أن نستشف من هذا الحوار صورة ما أحاط هذا الشخص من ظروف فاسدة جعلته لا يقبل الحياة بالرضى والتفاؤل ـ كذلك نجد فى مقبرة أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة منظرا (٢) لحفل يغنى فيه ضارب العود للمدعوين أغنية تحض على الاستمتاع بالحياة قدر الإمكان ، ولا بد أن هذه الأغنية ترجع إلى عصر سابق للأسرة الحادية عشرة أى أنها من صميم الفترة التى نحن بصددها وخاصة لأنها تشترك مع البردية التى تصور حوار الشخص (الذى سئم الحياة) مع روحه فى التعريض بما وراء الموت كما أنهما يثيران الشك فيما سيلقاه الموتى من مصير .

ولم يقتصر التطور الفكرى على الناحية الأدبية وإنما نلاحظ أثر ذلك فى المعتقدات الدينية أيضا فقد كان الملك المتوفى يمثل الإله أوزير الذى جعلت منه الأساطير حاكما على عالم الموتى ، وكانت النصوص الدينية والتعاويذ التى تيسر للمتوفى مصاحبة إله الشمس فى رحلته فى العالم السفلى وتهىء له حياة خالدة مع الآلهة فى العالم الآخر قاصرة على الملوك وحدهم وقد أخذوا يدونونها فى أهرامهم ابتداء من نهاية الأسرة الخامسة ، ولكن هذا الحق انتقل بعد ذلك إلى النبلاء والأشراف ، ثم أصبح كل ميت فى عهد الدولة الوسطى يوحد مع الإله أوزير وأصبحت التعاويذ الدينية تنقش على توابيت الأفراد وعرفت هذه باسم نصوص التوابيت ـ ولا بد أن هذا التطور قد حدث نتيجة للثورة الاجتماعية حيث أخذت الفوارق الاجتماعية

---

(1) Pap. Harris 500; Erman, op. cit. pp. 177f

بين الطبقات تخف حدتها ، وكل طائفة كانت تحاول الحصول على المزيد من الحقوق التى اكتسبتها . ولذلك لا يدهشنا أن نجد مقابر أفـــراد الطبقة الوسطى بل ومقابر الفقراء أيضا تفوق مثيلاتها فى عهد الدولة القديمة من حيث الفخامة والتجهيز إذ أنها حوت من الأشياء الثمينة وخاصة من المصنوعات الذهبية نسبة أعلى بكثير مما كان مألوفا قبل ذلك ، أى أن توزيع الثروة أصبح يختلف عن ذى قبل ولم تعد الحياة كلها تتركز حول البيت المالك كما كان الشأن قديما .

ومن نصوص الأسرة العاشرة تطالعنا نصائح الملك خيتى لولده مرى كارع (١) بما يشعرنا بأن الظـــلم والمحاباة كانا متفشيين وأن المجتمع كان سقيما فاسداً - وتذكر بردية تعرف ببردية « نفر - روهو » (٢) . بأن الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة طلب إلى أحـــد الكهنة أن يخبره عما سيحدث فى المستقبل فعرفه بسوء حالة ما تصير إليه مصر وأن الذى سينقذها من هذه الحالة بعدئذ ملك يأتى من الجنوب أمه نوبية وهو يدعى « إميني » ، ولكن من المرجح أن هذه البردية كتبت فى أوائل عهد الأسرة الثانية عشرة وأنها كانت من قبيل الدعاية السياسية إذ أن اختصار اسم « امنمحات الأول » مؤسس هذه الأسرة هو « إميني » .

ولا شك فى أن أمراء الأقاليم أخذوا فى زيادة نفوذهم منذ عهد

---

(١) A. Volten, Zwei altägyptische politsche Schriften (analecta aegyptiaca IV) (Copenhagen 1943).

(٢) Erman, op. cit., pp. 151 ff.

الأسرة الخامسة . وقد أحس ملوك الأسرة السادسة بهذا الخطر وحاول بعضهم العمل على تلافيه ولكن دون جدوى ـ وقد تغالى حكام الأقاليم فى إظهار سلطانهم ونزعتهم الانفصاليـــة عن البيت المالك حتى أصبح حاكم كل إقلـــيم يؤرخ الحوادث بالنسبة لتاريخ توليه زمام السلطة فى إقليمه أو مقاطعته ، ويبدو أن البيت المالك نفسه أصبح عاجزا إزاء هؤلاء الحـــكام إلى درجة أنه لم يستطع عزلهم أو نقلهم كما أن معظم هؤلاء كانوا يتولون حكم أقاليمهم عن طريق الوارثة مما زاد من تمكنهم من السلطة ، وفى أغلب الأحيـــان كان الملوك يعملون على مرضاتهم بإغداق الهبات عليهم كما كانوا يضطرون إلى معاملة كبار الموظفين بالمثل حتى يضمنوا ولاءهم جميعاً ـ وقد أدى ذلك بالطبع إلى زيادة ضعف الملوك وأصبح حاكم كل إقليم هو صاحب السلطان المطلق فيه وله جيشه الخاص وكذلك أسطوله أحيانا ، وكثيرا ما كانوا يستعينون بالمرتزقة وخاصة من النوبيين وتتمثل فى نقوش مقابرهم مظاهر الترف والبذخ التى كانوا ينعمون بها ـ ورغم أن كلا منهم كان يدعى بأنه أقام العدل وأصلح من شأن إقليمه بحيث كفل لمواطنيه السعادة والرفاهية وينفى وجـود شىء من سوء النظام أو الاضطراب إلا أن شواهد الأحوال لا توحى باستتباب الأمور حيث أنه لا شك فى أن هؤلاء الحـكام ـ وقد بهرهم السلطـان تنافسوا فيما بينهم وأصبح كل منهم يحاول أن يوسع من رقعـة إقليمه على حساب الآخرين وأخذ هذا التنافس يشتد وتحالف بعضهم ضد البعض الآخر إلى أن انحصر النزاع بين بيتين كبيرين « بيت إهناسيا » ، « بيت طيبة » وقد انتهى النزاع آخر الأمر بتفوق بيت طيبـــة

وبدأ عصر جديد من النهوض هو عصر الدولة الوسطى كما سنشير إلى ذلك فيما بعد .

الأسرة السابعة

يغلب على الظن أن هذه الأسرة أسطورية أى لم تكن هناك أسرة حاكمة على الإطلاق فقد ذكر مانيثون أن عدد ملوكها سبعين ملكا حكموا سبعين يوما فقط وربما كان يقصد أن سبعين حاكما من الحكام فى الأقاليم المختلفة كانوا يتقاسمون السلطة وكونوا ما يشبه هيئة حاكمة ولكنهم اختلفوا فيما بينهم فزال سلطانهم وانفضت هيئتهم الحاكمة سريعا ، وقد يرجع زوال سلطانهم إلى عدم تقبل المصريين هذا النظام من الحكم فقاوموه بشدة إلى أن قضى عليه

الأسرة الثامنة

معلوماتنا عن هذه الأسرة ضئيلة وتختلف المصادر القديمة فى عدد ملوكها ، وعلى أى حال فإن أرجح الآراء تدل على أن الأسرة الثامنة لم تحكم أكثر من ثمانية وثلاثين عاما وكان مقرها منف ولا نعرف عن حكمها إلا أسماء بعض ملوكها وبعض الإشارات العابرة عن إرسال بعثات لاستغلال المحاجر أو إلى شمال بلاد النوبة .

وبداية الأسرة الثامنة ونهايتها غير معروفتين ومن المرجح أن ملوكها أخذوا فى الضعف إلى درجة أن سلطانهم لم يكن ليتجاوز حدود إقليم عاصمتهم إلا إسميا - وقد نازعتهم فى نهاية الأمر أسرة قوية فى اهناسيا وأسرة أخرى فى طيبة ، وقدر لأمراء اهناسيا أن يدعوا الملكية

واعتبرهم المؤرخون مكونين للأسرة التاسعة ثم للأسرة العاشرة وكان يعاصرهم حكام طيبة الذين أسسوا الأسرة الحادية عشرة فيما بعد .

ملوك اهناسيا (الأسرتان التاسعة والعاشرة)

ا — الاسرة التاسعة

من المرجح أن أمراء اهناسيا كانوا على صلة بالبيت المالك فى منف أى بملوك الأسرة الثامنة ، فلما وجدوا أن ملوك هذه الأسرة قد ازدادوا ضعفا فى حين أنهم أصبحوا من القوة بحيث يمكنهم الوقوف أمامهم نازعوهم هؤلاء سلطانهم ولما استفحل الأمر بين هذين البيتين الكبيرين انتهز الفرصة « خيتى الاول » وأعلن نفسه ملكا فى إهناسيا مؤسساً بذلك الأسرة التاسعة - ويروى مانيثون عن هذا الملك أنه كان ظالما طاغية أصيب فى أواخر أيامه بالجنون وانتهت حياته عندما فتك به أحد التماسيح .

ولا نعرف شيئاً عن ملوك الأسرة التاسعة ولا كيف بدأ النزاع بينها وبين الأسرة الثامنة فى منف - وكل ما يمكن أن نذكره هو أن عدد ملوك الأسرة التاسعة كما ورد فى بردية تورين هو ثلاثة عشر ملكا حكموا ما يقرب من ١٠٩ سنة .

والظاهر أن هؤلاء الملوك استعانوا بحكام بعض الأقاليم لمؤازرتهم ولا شك فى أنهم كانوا يخطبون ودهم ويزيدون فى امتيازاتهم ولذلك نجد أن الحالة تظل كما كانت فى عهد الأسرة الثامنة ، أى أن حكام الأقاليم

كانوا شبه مستقلين يعتمدون على أنفسهم فى حماية أقاليمهم وظلت الدلتا خارج النفوذ المصرى ولم يتمتع الملوك فى واقع الأمر بسلطان خارج عاصمتهم إهناسيا اللهم إلا مجرد نفوذ اسمى فقط ، وظل الملوك على هذا الضعف إلى أن زال حكم هذه الأسرة وتلتها الأسرة العاشرة .

ب — الاسرة العاشرة

من المرجح أن ملوك هذه الأسرة كانوا خمسة فقط حكموا ما يقرب من ٨١ سنة وأنها وجدت ـ منذ ظهورها ـ منافسة قوية من أمراء طيبة ودارت بينهم وبين هؤلاء الأمراء حروب طاحنـــة أطاحت بسلطانهم وانفرد أمراء طيبة بالملك .

ومما تجدر الإشارة إليه أن المؤرخين مازالوا يختلفون فى عدد وترتيب الملوك الذين كانوا يحملون اسم خيتى بل ولم يجمعوا على ترتيب الملك خيتى الذى أسدى نصائحه المعروفة (باسم تعليمات الملك خيتى) لولده « مرى كارع » ـ(١) ولكن يبدو أنه كان مؤسس الأسرة العاشرة وكان ملكا نشيطا أخذ يطهر الدلتا من عصابات البدو ومن النفوذ الآسيوى إلى أن استتب له الأمر ثم أراد أن يتخلص من امراء طيبة فى الجنوب ونشبت الحرب بين الفريقين ، وكان أمراء أسيوط يعاونونه فانتصر على الطيبيين فى موقعة بالقرب من أبيدوس إلا ان هؤلاء تمكنوا من ان يسترجعوا ما فقدوه وتقدموا شمالا حتى بلغوا حدود أسيوط .

---

(١) أنظر أعلاه ص ١١٨

وفى عهد « مرى كارع » خليفة « خيتى » كان يحكم فى طيبة حاكم قوى هو « منتوحتب الاول » ، استـأنف الحرب وقضى على أمراء أسيوط ثم تقدم شمالا واستولى على الأشمونين .

وفى عهد آخر ملوك الأسرة ، وكان يدعى خيتى أيضـاً ، عاودت طيبة هجومها على مملـكة اهناسيـا إلى أن قضت عليها وأخضعت مصر كلها لسلطانها فعادت الوحدة القديمة إلى البلاد ، وقد تم ذلك فى عهد منتوحتب الأول « منتوحتب الأول » ملك طيبة ولذا يمكن اعتبـاره المؤسس الحقيقى للدولة الوسطى .

ومن الملاحظ أنه لم يعثر على مقابر لملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة فى إهناسيا ومن المرجح أن منف ظلت العاصمة الإدارية للبلاد بينما كانت إهناسيا تمثل مقر الملك فقـط ولذلك دفن كثير من الملوك ورجال لبلاط فى جبانة منف ـ أما أمراء الاقاليم فقد ظلوا يدفنون بالقرب من عواصم أقاليمهم فى مقابر منحوتة فى الصخر .

الأسرة الحادية عشرة :

ذكرنا أن حكام الاقاليم ازداد نفوذهم منذ نهاية عهد الدولة القديمة وأصبحت وظائفهم تورث لأبنائهم . وقـد اشتهرت من بيوت هؤلاء الحـكام أسر فى مناطق مختلفة منهـا أسرة نشأت فى طيبة كان مؤسسها يدعى أنتف .

انتف الأول (١)

لا يعرف الكثير عن هذا الملك قبل أن يعلن نفسه ملكا ويتخذ الألقاب الملكية ، ولكن من المرجح أنه حينما كان مجرد حاكم لإقليم طيبة على صلات طيبة مع ملوك الشمال ، وكان إلى جانب إمارته للإقليم كبيرا للكهنة كما كان مسئولا عن حماية الحدود الجنوبية لمصر لأنه كان يلقب « حارس الحدود الجنوبية » حيث يبدو أن الأقاليم الجنوبية من مصر كانت تكون اتحادا فيما بينها بزعامة طيبة ، وربما كان هذا هو السبب الذى من أجله منح هذا اللقب . ولا شك فى أن انتقال الملك من الأسرة التاسعة إلى الأسرة العاشرة وضعف هذه الأخيرة جعلا أنتف يرى أنه لا يقل قوة وأحقية فى الملك عن ملوك الشمال فادعى الملك ووضع اسمه فى خانة ملكية وأحاط نفسه بحاشية ملكية ودفن فى مقبرة كبيرة نحتت فى الصخر بجهة الطارف فى البر الغربى للأقصر ، ولا بد أنه حظى بمكانة عظيمة بين معاصريه مما كان له أثر كبير فى تبجيله وتقديس ذكراه فيما بعد حتى أن سنوسرت الأول (٢) أقام تمثالا لتخليده فى معبد الكرنك ونسب نفسه إليه على اعتبار أنه سلفه العظيم . ومع أنه أصبح يعرف فى التاريخ باسم « أنتف الأول » فإن اسمه ورد فى قائمة الكرنك دون أن يوضع فى خانة ملكية ولكن أشير إلى أنه « الحاكم والأمير الوراثى أنتف المبجل » أى أنه فى هذه الحالة ذكر على اعتبار أنه مؤسس الأسرة الحادية عشرة فحسب .

---

(١) أصبح اسم أنتف يقرؤ الآن أنيوتف Iniotef

(٢) ثانى ملوك الاسرة الثانية عشر .

أنتف الثانى :

تولى الحكم بعد والده وكانت الأقاليم الخمسة الجنوبية من مصر خاضعة لسلطانه ، وظل فى الحكم نحو خمسين عاما حاول خلالها أن يتوسع شمالا ولكن بيت إهناسيا استطاع أن يحـد من جهوده وخاصة لأن أمراء أسيوط كانو حلفاء لهذا البيت ولا شك أنهم اشتركو فيما نشب من حروب بين الفريقين كما نستدل على ذلك من نقوش أمير أسيوط « خيتى » الذى افتخر فى مقبرته بأنه جمع الجنود وأعد فرق الرماة وأشاد بالأسطول ومع هذا لا نجـد فى العبارات المنقوشة بالمقبرة ما يدل على حرب صريحة أو وقائع معينة بين صاحبها « خيتى » والطيبيين .

ويمكن تلخيص الحالة فى مصر فى تلك الأثناء بأن السيادة فيها كانت تتنازعها مملكتان : شمالية يحكمها بيت إهناسيا وجنوبية يحكمها بيت طيبة بينما كان بعض الأمراء الذين يحكمون أقاليم داخل نطاق المملكة (وقد أحسوا بضعف ملوك إهناسيا) يؤرخون الحوادث بتـاريخ حكمهم لأقاليمهم أى أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم مستقلين فى أقاليمهم ومن هؤلاء أمراء بنى حسن وأمراء البرشه .

ويبدو أن أطماع بيت طيبـة فى التوسع شمالا ظلت قائمة وتوالت محاولاتها فى هذا السبيل حيث نجد أن « تف إيب » الذى أعقب والده « خيتى » فى إماره أسيوط قد نقش فى مقبرته ما يدل على حروبه مع الطيبين أعداء الملك بالقرب من أبيدوس وادعى بأن زعيم الطيبيين وقع فى الماء وتفرقت سفنه إلا أن معلوماتنا من مصادر أخرى كثيرة تدل

على أن طيبة قد انتصرت فى هذه الحرب واستولت على الإقليم السادس (١) وبذلك وسعت رقعتها شمالا .

ومن المرجح أن أنتف الثانى كان من الحكام الذين امتازوا بالدراية وحسن الإدارة نشيطاً إذ أقام بعض المبانى ورمم بعض الهياكل المتداعية وبنى لنفسه قبرا كان يعلوه هرم من الطوب وأقام أمامه لوحة نقش عليها منظر يمثله وأمامه خمسة من كلابه وهى الآن بالمتحف المصرى .

انتف الثالث :

طال حكم أنتف الثانى إلى خمسين عاماً كما ذكرنا فيما سبق (٢) فلما تبعه ابنه « انتف الثالث » كان هذا قد تقدم فى السن فلم يبق إلا زمنا قصيراً ولا نعلم عن عهده شيئاً يذكر وربما كان تقدمه فى السن سببا فى عدم إقباله على الكفاح فلم تتجدد المناوشات بين بيتى إهناسيا وطيبة فى عهده .

---

(١) الإقليم السادس فى الوجه القبلى كانت عاصمته دندره غربى النيل أمام قنا .
(٢) أنظر أعلاه ص ١٢٥

٣ - الدولة الوسطى

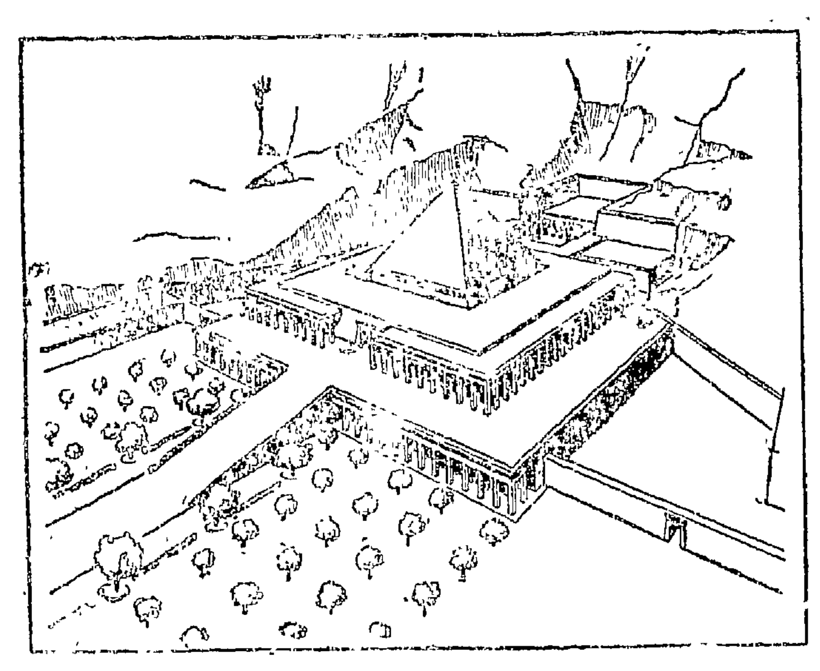
منتوحتب الاول :

اختلف المؤرخون كثيرا فى شأن هذا الملك ولكن لاشك فى أنه كان صاحب النصر النهائى على بيت إهناسيا وتوحيد البلاد وبدء عهد الدولة الوسطى .

فمن المرجح أن بيت إهناسيا أراد الاستيلاء على إقليم أبيدوس وإعادة تبعيته لمملكتهم وكان ذلك فى عهد مليكهم خيتى الرابع ولكن الموقعة التى نشبت بين هذا الأخير وبين منتوحتب الأول بالقرب من أبيدوس لم تكن فى صالح بيت إهناسيا إذ قتل « هرونفر » أحد أبناء خيتى الرابع وانتصر منتوحتب ، وربما كان فى انتصاره هذا إغراء كاف للتقدم شمالا ومواصلة الكفاح حتى تمكن فى النهاية من القضاء على بيت إهناسيا وتوحيد البلاد تحت سلطانه ولابد أنه قد بذل مجهوداً ضخما لإخضاع سائر أنحاء مصر ، كما يرجح أنه حارب فى الدلتا وفى الصحارى المتاخمة لمصر شرقاً وغربا ضد البدو المقيمين فيها وأرسل بعض البعثات أو الحملات إلى النوبة وبعثات أخرى إلى وادى حمامات لاستغلال المحاجر أو للقيام منه الى بونت .

وبعد أن استقرت الأمور واستتب الامن فى البلاد تفرغ منتوحتب الأول للأعمال العمرانية فبنى معبده الجنزى و مقبرته التى نحتها من تحته فى الصخر بمنطقة الدير البحرى فى البر الغربى للأقصر (شكل ٢٥)

وهذه المجموعة الجنزية تعد فريدة فى تصميمها وقد اقتبست عنها حتشبسوت (فى الأسرة الثامنة عشرة) فيما بعد حيث شيدت معبدها المعروف باسم « معبد الدير البحرى » بجوار هذه المجموعة ، وهو يشبه فى



شكل (٢٥) منظر تخيلى لما كانت عليه مجموعة منتوحتب الأول الجنزية

كثير من الوجوه معبد منتوحتب الجنزى - كذلك أصلح هذا الملك بعض الهياكل القديمة وأقام أخرى جديدة فى جهات مختلفة من القطر .

ويستدل من الآثار التى اكتشفت من هذا العصر وخاصة مقابر الأشراف وكبار الموظفين وزوجات الملك ومحظياته أن مصر قد تمتعت فى عهده بالأمن والرخاء والرفاهية وارتقت فيها الفنون والآداب ومن أهم ما اكتشف من هذا العهد رسائل كان قد كتبها أحد الأفراد ويدعى

« حقانخت » لولده الأكبر واسمه « مرسو » يفهم منها أن الأب كان كاهنا لمقبرة الوزير « ايبى » وكان من طبيعة عمله أن يدير الأوقاف التى أوقفها الوزير للانفاق على مقبرته ومن بينها ضيعتان بالقرب من منف ولذا كان يضطر للسفر الى هاتين الضيعتين تاركا لولده مهمة الإشراف على بيته وأملاكه وكان يرسل اليه تعليماته عن كل مايتعلق بهذه الشئون [١] ـ وقد ألقت رسائله هذه كثيرا من الضوء على الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى هذا العهد .

ومن المرجح أن ولى عهده منتوحتب الاول الذى كان يدعى « أنتف » قد توفى فى حياة والده فتولى من بعده ولده الثانى منتوحتب الثانى .

منتوحتب الثانى :

اتبع سياسة والده فى التعمير فنشطت حركة البناء فى الدلتا والصعيد وتقدمت الفنون فى عهده ـ وقد أرسل بعثة إلى وادى حمامات برئاسة مدير البيت الملكى (رئيس الديوان ؟) وكان تعدادها ثلاثة آلاف شخص فلما وصلوا الى شاطىء البحر الأحمر صنعوا سفنا ذهبوا بها إلى بونت وعند عودتهم أحضروا معهم بعض الأحجار الممتازة فى صناعة التماثيل اللازمة للمعابد .[٢]

---

(١) Winlock, Bulletin of the Metropolitan Museum of Art, (1921 - 2), pp 38 ff

(٢) J Couyant &. Montet, Les Inscrtiptions hierog= lyphiques et hieratiques du 'Ouadi Hammamat (Mem. Inst. Fr. 34—Le Caire 1912— 3), No. 114.

ويبدو أنه لم يعمر طويلا اذ أنه حينما أراد أن يبنى مقبرته ومعبده على غرار ماشيدة سلفه لنفسه لم يتمكن إلا من إعداد الأرض للبنـــاء وتمهيد الطريق إليها ، والظاهر أن المنية وافته حينما بدأ حفر القبر وبعد أن وضعت بعض الودائع فى الأســاس ، وعلى ذلك دفن فى مقبرة بسيطة أعدت على عجل .

وقد عثر على مقابر بعض العظماء من عهده وهى تلقى - بما حوت - كثيرا من الضوء على نواحى الحيـاة المختلفة فى هذا العصر ومن أهمها مقبرة « مكتى رع » التى حوت نمـاذج لسفن ومنـازل ومصانع وفرق من الجيش وغير ذلك .

منتوحتب الثالث :

يبدو أن فترة من عدم الاستقرار حدثت بعد عهد منتوحتب الثانى حيث تمـكن بعض الحكام من اغتصاب العرش لمدة سبعة سنوات تقريبا ، ثم تولى بعد ذلك منتوحتب الثـــالث الذى يحتمل أنه كان هو الآخر مغتصبا للعرش - ولم يعش هذا الاخير طويلا بعد اعتلائه على العرش بل ويحتمل أن حكمه لم يزد كثيرا على عامين ، ومع ذلك فقد أرسل خلاله بعثتين إحداهما إلى وادى حمامات بقيادة وزيره « امنمحات » (وهو الذى تولى العرش من بعده وعرف فى التاريخ باسم « امنمحات الاول » مؤسس الأسرة الثانية عشرة) ، وكان تعداد رجال هذه البعثة يفوق ثلاثة أمثال عدد أفراد البعثة التى أرسلت إلى تلك الجهة فى عهد منتوحتب الثانى ، وقد عادت هذه البعثة بعد أن أحضرت الأحجار

اللازمة فى تشييد بعض المعابد واصنع تابوت للملك ـ أما البعثة الثانية فقد أرسلها منتوحتب الثالث إلى وادى الهودى (جنوب شرق أسوان) لجلب كتل من الأماتيست (حجر نصف كريم) [١].

الاسرة الثانية عشر :

أشرنا إلى عدم الاستقرار الذى حدث قبل اعتلاء منتوحتب الثالث على العرش ولكن يظهر أن هذا الاخير تمكن من إعادة الأمن والهدوء إلى البلاد خلال حكمه القصير ، فلما انتهت الاسرة الحادية عشرة بموت هذا الملك لم تتأثر وحدة البلاد التى وضع أسسها منتوحتب الاول وعلى ذلك أتيحت الفرصة لمصر كى تقوم بنهضة شاملة جنت ثمارها فى عهد الأسرة الثانية عشرة ـ وربما كانت تلك القلاقل التى ظهرت فى أواخر عهد الأسرة السابقة من الاسباب التى أدت إلى ظهور طائفة من الرجال الاقوياء الذين تفانوا فى العمل على استتباب الأمن وتهيئة الظروف المواتية للرقى والنهوض وكان على رأس هؤلاء امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة الذى كان وزيرا فى عهد الأسرة السابقة .

امنمحات الاول

سبق أن أشرنا الى نبوءة « نفرروهو » (أنظر ص ١١٨) ، وهى لاشك تدل على سوء الحالة فى أواخر عهد الأسرة الحادية عشرة ،

---

(١) Dr. Ahmed Fakhry, "The Inscriptions of the Amethyst Quarries at wadi-el-Hudi, Nos. 1 ff, pp. 19-25.

وربما بلغت الحالة من السوء حدا جعل بعض العناصر الآسيوية تهدد شرق الدلتا - وكان تنظيم الأمور الداخلية فى البلاد هو أول ما وجه امنمحات عنايته إليه فقام بتحديد الحدود بين الأقاليم المختلفة وأبقى كل أمير موال له فى منصبه ، أما من حاول الوقوف فى سبيله من أمراء الأقاليم فكان ينحيه عن منصبه ويولى بدلا منه أميرا آخر ممن يثق بهم ، ويبدو أن أمراء الأقاليم قد ارتضوا الوضع الجديد وقبلوا مافرضه عليهم امنمحات الاول من شروط فأتيحت الفرصة للحكومة المركزية لأن تشرف على الشئون الداخلية فى الأقاليم المختلفة .

وما أن استقر الأمر لأمنمحات الأول حتى قام بتحصين شرق الدلتا وغربها بعد أن حارب جماعات البدو التى كانت تغير عليها . ونقل العاصمة من طيبة إلى عاصمة أخرى فى مركز متوسط وأطلق عليها إسم « إيثت تاوى » (أى القابضة على الارضين أى المهيمنة عليها) وهى قرب اللشت الحالية فى شمال الفيوم ، ومع ذلك فقد ظل يهتم بطيبة وأقام بها المعابد تمجيدا للاله آمون إلهها المحلى وهو الذى أصبح الإله الرسمى للامبراطورية المصرية فى عهد الدولة الحديثة ، ولم يقتصر نشاطه المعمارى على العاصمة وعلى طيبة بل انتشرت آثاره فى كثير من جهات مصر وخاصة فى الفيوم وشرق الدلتا وسينا ، وقد بنى لنفسه هرما ومجموعة جنزية فى اللشت ولكنه مع الأسف استعمل فى بناء هرمه كثيرا من الأحجار التى جاء بها من معابد ومقابر قديمة ومن بينها أحجار منقوشة لمعابد بعض ملوك الأسرتين الرابعة والخامسة (١)

---

(١) أحمد فخرى « مصر الفرعونية » القاهرة ١٩٥٧ ص ١٧٢

رغم أنه نشط فى استغلال المحاجر وأرسل البعوث لجلب الأحجار من وادى حمامات (١) .

هذا وقد أرسل بعض الحملات إلى النوبة واستطاع أن يخضع جزءها الشمالى لسلطانه (٢) - أما سياسته تجاه أمراء الأقاليم فكانت تختلف باختلاف الاحوال لأننا نجد أنه من جهة كان يخطب ود الكثيرين من الأمراء (الذين كانوا على الارجح من الأقوياء) حتى لايثيروا المتاعب إذا ما غفلت الحكومة المركزية عن نشاطهم بعض الوقت فأبقى على ثرواتهم ونفوذهم بل وربما منحهم بعض الهبات أو المزيد من الامتيازات حيث يبدو أثر هذا واضحا فى المقابر العظيمة التى بنوها لأنفسهم فى أقاليمهم ويتمثل ذلك بصفة خاصة فى إقليم بنى حسن ، ومن جهة أخرى كان لايتوانى عن استعمال الشدة مع بعض الامراء الآخرين - والظاهر أن عهده كان لايخلو من المتاعب وخاصة فى الجزء الاخير منه وربما كان ذلك هو الذى دعا إلى إشراكه ولده سنوسرت الأول معه فى الحكم ابتداء من السنة العشرين من عهده بعد أن تقدمت به السن وعجز عن مواصلة نشاطه فى الخارج والداخل ، ولذلك كان ولده هو الذى يتولى أمر الحملات الحربية بينما ظل معظم النفوذ فى يد هذا الملك الشيخ - وكان البيت المالك نفسه لايخلو من وجود بعض الحاقدين على الملك أو الحاسدين لولى العهد كما يستدل على ذلك من النصوص المعروفة

---

(١) Couyant & Montet, op. cit , No. 199.

(٢) Breasted, AR. I, §§ 472—3.

باسم « نصائح امنمحات إلى ولده » إذ أنه يوصيه فيها بما يجب عليه اتباعه في إدارة شئون المملكة ويحذره ممن حوله وألا يثق في أخ ولا يعتمد على صديق ويذكره بما تعرض له هو شخصياً ، ويوضح له كيف أنه على الرغم من عطفه على المحتاجين واليتامى والمساكين لم يسلم من أذى أولئك الذين أحسن إليهم إذ يقول في هذا الصدد : « الذى أكل طعامى هو نفسه الذى استطاع أن يحدث بواسطتها الفزع » ـ وتسترسل هذه النصائح في بيان كيفية تدبير مؤامرة إغتياله وهو مستلق على فراشه بعد أن تناول طعام العشاء وكيف تمكن من الدفاع عن نفسه ـ ولكن يشتم مما ورد في هذه النصوص أن المتآمرين نجحوا في إصابته إصابة قاتلة وإن كان من المرجح أنه لم يمت إلا بعد أن أملى هذه النصائح لكى تبلغ إلى ولده ، وفيها نتبين ما كان يساوره من الأسى والألم لعدم تمكنه من القضاء على المتآمرين وهو يعدد ما قام به من جلائل الأعمال التى تتصف بالشجاعة والإقدام ثم يختتمها بتحية ولده وتمنياته له بالتوفيق ويناشده عمل الخير والنشاط في إقامة المعابد الفخمة .

ومما يؤكد ماورد في هذه النصائح تلك النصوص المعروفة باسم « قصة سنوهى » (١) ، لأنها تروى أن سنوهى كان مع ولى العهد سنوسرت (الملك سنوسرت الأول فيما بعد) في حملة على ليبيا حينما وصل

---

(١) تناول كثير من الباحثين هذه القصة بالترجمة والتعليق ويمكن الرجوع في ذلك إلى :
Wilson ed. by Pritchard, Ancient Near Eastern Texts [Princeton 1950] pp. 18—23.

رسول من القصر وأبلغ الأمير برسالة سرية عاجلة بأن الملك امنمحات الأول قد مات ، وقد أتيحت الفرصة لسنوهى كى ينصت إلى الرسالة (ومن المحتمل أنه كان على علاقة مع المتآمرين) فخشى على حياته وفر هارباً إلى فلسطين حيث أقام هناك وتزعم إحدى القبائل إلى أن وصل إلى سن الشيخوخة وحينئذ صدر أمر من السراى بالعفو عنه فعاد إلى وطنه - ويغلب على الظن أنه كان يمت بصلة القرابة لزوجة الملك أو ينتمى إلى أحد أفراد البيت المالك ولذا صدر أمر العفو عنه بعد أن زال أثر المؤامرة من النفوس وخاصة لأنها لم تنجح تماماً ، حيث يبدو أن المتآمرين كانوا يهدفون إلى القضاء على امنمحات الأول وإجلاس شخص آخر غير ولده سنوسرت على العرش أثناء قيام هذا الاخير بحملة ليبيا ولكن امنمحات رغم إصابته البالغة ظل فترة على قيد الحياة تمكن فيها أعوانه من أن يمهدوا السبيل لعودة ابنه سنوسرت وجلوسه على العرش .

سنوسرت الاول

تابع سنوسرت الأول سياسة والده وتمكن من أن يحكم البلاد بخبرة ودراية إذ لم يكن حديث عهد بإدارة شئون البلاد حيث أن والده أشركه معه فى الحكم فى العشرة أعوام الاخيرة من عهده .

وكان سنوسرت نشيطا طوال مدة حكمه التى بلغت نحو ٤٥ عاما فقد أرسل عددا من البعثات، إلى المحاجر والمناجم فى الصحارى المصرية والنوبة جلبت الفيروز والنحاس من سيناء والمرمر من حاتنوب والاحجار الصلبة

والجرانيت من وادى حمامات وأسوان والذهب (١) من وادى علاقى (فى صحراء النوبة السفلى الشرقية) والديوريت من محاجر صحراء النوبة الغربية على بعد نحو ٥٠ ميلا إلى الشمال الغربى من توشكى (٢) والاماتيست (الجمشت) من وادى هودى (٣) كما أنه شيد كثيرا من المبانى فى جهات مختلفة من الدلتا والصعيد وفى الفيوم والنوبة التى كان جزء كبير منها قد خضع للنفوذ المصرى حينئذ لأن الدولة الوسطى اتبعت تجاه النوبة سياسة تختلف عن تلك التى اتبعتها الدولة القديمة بشأنها ، فبينما كانت هذه تكتفى بإرسال بعثات تجارية للإتجار مع النوبيين وتعمل على حماية بعثاتها بإرسال بعض القوات العسكرية معها نجد أن الدولة الوسطى بدأت سياسة احتلال فعلى للنوبة حتى تتمكن من استغلال مواردها وفق مشيئتها من جهة ولكى تؤمن حدودها الجنوبية تأمينا مؤكدا من جهة أخرى وذلك لأن مجموعة من العناصر قوية الشكيمة الخليطة بالدماء الزنجية أخذت تتوغل فى النوبة شمالا وأصبح يخشى من تقدمها نحو مصر نفسها .

ويعد سنوسرت الأول بحق أول من اتبع سيـــاسة حاسمة النوبة لأنه مد الحدود المصرية إلى وادى حلفـا على الأقل وإليه ينسب تشييد ما لا يقل عن ثلاثة قلاع فى هذه الجهات .

---

(١) ربما كان هذا هو أول ذهب يأتى من النوبة إلى مصر حيث لم تشر إليه النصوص التى من عهود سابقة

(٢) عثر فى هذه المحاجر على أسماء الملوك خوفو و ددف رع وساحورع وإسيسى من عهد الدولة القديمة كذلك ـ أنظر ASA 33, pp.65 ff

A.Fakhry, op. eit., 20 ff ;nes. 6 ff (3)

وفى آخر حكمه أشرك معه ولده « امنمحات الثانى » لمدة ثلاثة أعوام انفرد بعدها هذا الأخير بالحكم .

امنمحات الثانى

كان للنشاط الذى بذله سنوسرت الأول أثره فى استتباب الامور وأصبحت الحالة الداخلية فى البلاد تمتاز بالأمن والهدوء ، كما أن جهوده فى بلاد النوبة قد أوقفت المتاعب على الحدود المصرية فأفاد من كل ذلك امنمحات ووطد صلاته بجيران مصر حيث أرسل الهدايا إلى أمراء سوريا وتلقى بعض الهدايا فى مقابل ذلك - ورغم أنه لم يكن فى نشاط والده أو جده فقد أرسل البعثات إلى جهات مختلفة لاستغلال المناجم والمحاجر أو لجلب بعض الحاصلات التى تحتاجها مصر وفى هذا السبيل وصل رجاله إلى سينا والنوبة وبلاد بونت .

واتبع نفس السياسة التى نهج عليها والده وجده فيما يختص بإشراك ولى العهد فى الحكم فأشرك معه ولده سنوسرت (الثانى) فى نهاية حكمه ، ومن المرجح أن مدة هذا الحكم المشترك قد طالت إلى نحو ستة أعوام .

سنوسرت الثانى

أفاد سنوسرت الثانى كما أفاد والده من قبل من الهدوء والسكينة التى نعمت بها البلاد واتبع نفس السياسة الداخلية التى اتبعها والده ولكنه بذه فى قيامه بمشروعات رى كبيره فى الفيوم - والظاهر أنه اهتم بهذه المنطقة اهتماما بالغا فبنى هرمه قرب مدخلها ، وعثر فى جوار هذا الهرم عل مجموعة من مقابر الاميرات من أهم ما عثر عليه فى إحداها

مجموعة كاملة من الحلى داخل صندوق موضوع فى فجوة بأحد جدران المقبرة وبذلك غاب عن أعين اللصوص (١) .

ومن الكشوف الهامة التى عثر عليها فى عهده تلك القرية التى أقيمت للعمال والموظفين الذين كانوا مكلفين ببناء هرمه حيث أنها تعطينا فكرة واضحة عن تخطيط القرى فى عهد الدولة الوسطى وعن عماره المبانى المعدة للسكن .

ومما تميز به هذا العهد كذلك وفود بعض الساميين إلى مصر فمن نقوش مقبرة « خنوم حتب » فى بنى حسن نتبين أن جماعة من الرجال والنساء والأطفال الساميين قدموا إلى مصر بزعامة شخص يدعى إبشا (ى) للاستقرار فى شرق الدلتا أو بقصد الاتجار مع المصريين. وربما كان وفود وهولاء الساميين مقدمة لتغلغل النفوذ السامى فى مصر الذى بدا بوضوح فى عهد الهكسوس .

هذا ولم يستمر سنوسرت الثانى طويلا فى الحكم وتبعه « سنوسرت الثالث »

سنوسرت الثالث

ظفر هذا الفرعون بشهرة كبيرة فى التاريخ لأن نشاطه الكبير من جهة وطول مدة حكمه من جهة أخرى أتاح له فرصة تشييد كثير من الآثار التى خلدت ذكراه ، وكان اهتمامه البالغ ببلاد النوبة سببا فى تشييده لعدد كبير من العمائر بها فإليه تنسب أهم المعابد والحصون الحربية التى ترجع إلى عهد الدولة الوسطى ببلاد النوبة .

---

(١) أحمد فخرى « مصر الفرعونيه » (القاهرة ١٩٥٧) ١٧٧ — ٨

والظاهر أن بعض العناصر المناوئه كانت قد أخذت تثير المتاعب فى تلك الجهات فما كان منه إلا أن كال لها ضربات متتالية حتى أخضعها خضوعا تاما وشيد سلسلة من الحصـــون فى مناطقها المختلفة ليضمن استمرارها فى قبضته .

ولم تقتصر جهوده الحربية على النوبة وحدها بل نجده كذلك يوجه حملة إلى فلسطين ، وربما كانت هذه الحملة بسبب إغارة بعض القبائل الآسيوية أو بدو الصحراء المتاخمين لفلسطين إغارة مفاجئـــة على مصر فوجه اليهم هذه الحملة التى كسرت شوكتهم - ويحتمل أنه وجه كذلك حملة إلى ليبيا ، وأصبح سنوسرت بعد هذه الحملات بطلا أسطوريا فى نظر الأجيال التالية .

أما فى داخليـــة البلاد فيبدو أنه لم يرض بالوضع القائم بالنسبة لامتيازات أمراء الأقاليم ولذلك جردهم من الألقاب التقليدية التى كانوا يورثونها لأبنائهم كما جردهم من الكثير من امتيازاتهم وأصبحوا فى عهده كموظفين عاديين — ومع أنه اهتم بالفيوم كأسلافه إلا أنه لم يشيد هرمه هناك بل شيده فى منطقة دهشور ، وقد عـــثر على بعض مقابر لأميرات بيته بالقرب من هذا الهرم عـــثر فيها على مجموعات عظيمة من الحلى .

وقد أشرك معه ابنه امنمحات الثالث فترة قصيرة توفى بعدها فانفرد هذا الأخير وحده بالحكم .

أمنمحات الثالث

كان عهده أطول من عهد أي ملك آخر في هذه الأسرة حيث ظل جالساً على العرش نحو ثمانية وأربعين عاما ومع هذا كان عهده عهد رخاء وطمأنينة لأن حروب والده وإصلاحاته قد هيأت له تلك الظروف الملائمة فانصرف إلى الأعمال الداخليـــة ونهض بالكثير من المشروعات العمرانية حيث شيد كثيرا من المباني في مختلف البلاد ونظم شئون الري ولذا وجه عنايته إلى منطقة الفيوم ، وأرسل بعثـــات متتالية إلى مناطق المناجم في سيناء والى المحاجر في وادي حمامات وطره كما كان يستحضر الذهب من بلاد النوبة .

وبلغ من اهتمامه بشئون الزراعة أن سجل ارتفاع الفيضان في معظم سنوات حكمه في قلعتي سمنة وقمه بقصد التصرف في مياه النهـــر حسب ظروف الفيضان ووفقاً لما تقتضيه مشروعاته في إصلاح بعض الأراضي وخاصة في منطقة الفيوم .

وقد أقام هرمه الى بالقرب من هوارة وشيد الى الشرق منه معبده الشهير الذي عرف فيما بعد باسم اللابيرانث[1] ـ وقد عثر في سنة ١٩٥٦ على مقبرة لإحدى بناته وتدعى « نفروبتاح » وجدت فيهـا ثلاثة أواني كبيرة من الفضة نقش عليها اسمها واسم والدها كما وجد تابوتها سليما ولكن المومياء

---

(١) سمى كذلك لأنه كان يشبه قصر الملك مينوس في كريت (الذي بناه ديد الوس) من حيث أنه كان في تعدد حجراته يشبه التيه يضل الانسان طريقة فيه .

تحللت بفعل مياه الرشح وكانت الحلى التى عثر عليها معها قليلة ، ويبـــدو أنها دفنت على عجل والظاهر أن الأحوال الداخلية أخذت فى الاضطراب والتـــدهور .

امنمحات الرابع

اشترك مع والده فى العام الأخير من حكمه ثم انفرد بعد ذلك بالعرش ولكنه لم يستمر إلا نحو تسعة أعوام ، والظاهر أنه لم يكن فى نشاط أسلافه أو فى مهارتهم السياسية والادارية ـ ومعلوماتنا عن عهده قليلة وإن كانت آثاره تدل على أنه أرسل بعثات إلى المحاجر والمناجم فى وادى الهودى وسينا وأنه شيد بعض العمائر فى الفيوم وطيبة وغيرها .

ويبدو أن نجم الأسرة الثانية عشرة قد أخذ فى الأفول ، ومع هذا ظلت بلاد النوبة فى قبضة مصر كما يتضح ذلك من وجود نقوش فى قلعة قمة تسجل ارتفاع الفيضان فى عهده ، والظاهر أنه لم يترك وريثا حيث خلفته ملكة تدعى « سبك نفروع » .

سبك نفروع :

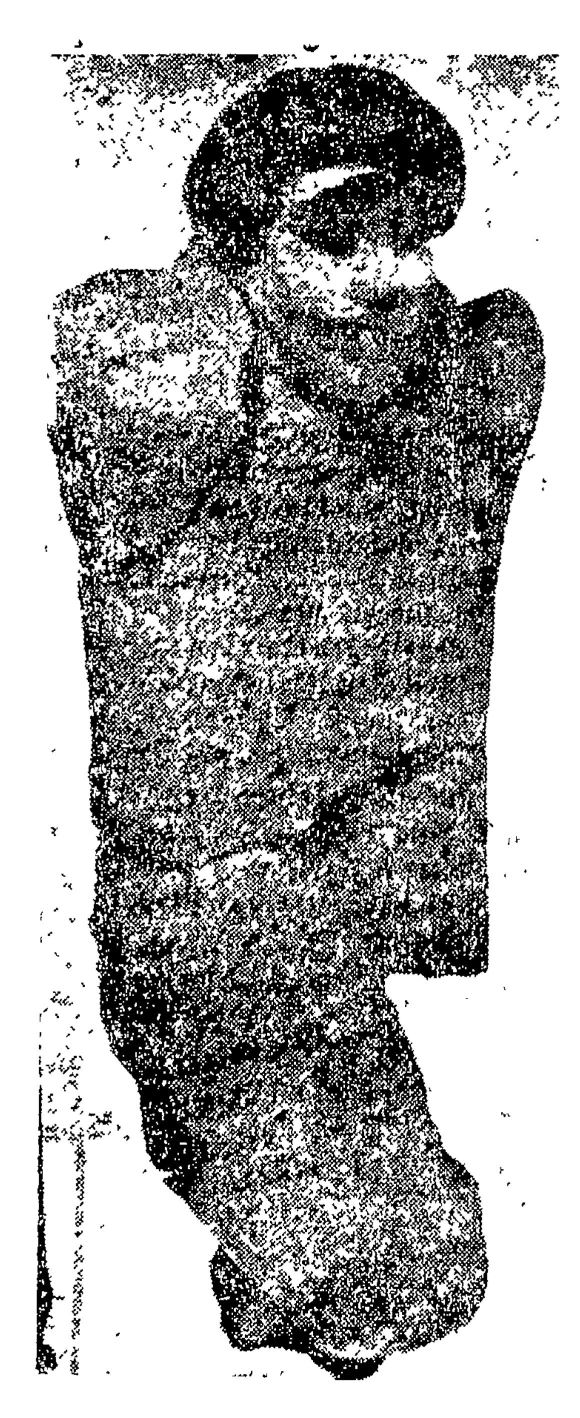
لا ندرى هل كانت هذه الملكة شقيقة لامنمحات الثالث وزوجة له فى نفس الوقت أو أنها كانت أخته فقط ؟ وكل ما نعلمه عن هـــذه الملكة أن حكمها كان قصيرا لم يزد عن ثلاثة أعوام إلا قليلا وأنها شيدت هرمها بالقرب من هرم امنمحات الثالث فى هوارة ، وقد عثر على بعض آثار أخرى لها بالقرب منه أيضا .

وبانتهاء عهد هذه الملكة انتقل الملك إلى الأسرة الثالثة عشرة ولا ندرى شيئاً عن الأسباب التى أدت الى ذلك ، وربما كان هذا الانتقال نتيجة لحدوث اضطرابات داخلية أو المنازعات بين أفراد البيت المالك أو أن آخر ملك فى الأسرة الثانية عشرة لم يترك وريثاً للعرش كما لم تترك « سبك نفروع » التى تلته فى حكم البلاد وريثاً هى الأخرى .

وكانت الفترة التى أعقبت عهد الأسرة الثانية عشرة فترة ضعف حكمت فيها الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة وبعدئذ تولى حكم مصر ملوك أجانب يعرفون باسم الهكسوس تعاقبوا فى أسرات ثلاث هى الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة ، وهذه الأخيرة كانت تعاصرها أسرة سابعة عشرة أخرى مصرية مقرها فى طيبة - ومع كل فقد ظلت أصول الحضارة التى تميزت بها الدولة الوسطى ثابتة خلال تلك الفترة ولم يتناولها تغيير يذكر مما مكن الدولة الحديثة أن تبلغ القمة فى مضمار المدنية والرقى .

٤ - عصر الاضمحلال الثانى

سبق أن أشرنا إلى احتمال حدوث بعض الاضطرابات الداخلية أو المنازعات بين أفراد البيت المالك فى نهاية عهد الأسرة الثانية عشرة ويبدو أن هذه الحالة ظلت سيئة بعد ذلك ولم يكن الملوك من القوة بحيث يستطيعون القضاء على أعدائهم والتفرغ للنهوض بالبلاد إذ عثر



شكل ٢٦ ـ دمية فخارية دونت عليها نصوص سحرية معينه
واسم أحد أعداء الملك حطمت بقصد القضاء عليه

على كثير من الدمى والأوانى كتبت عليها أسماء بعض الذين يريد الملك أن يقضى عليهم بواسطة السحر ـ (شكل ٢٦) ـ ومما تجـــدر ملاحظته أن هذه الأسماء تضمنت أسماء لأمراء ساميين ونوبيين إلى جانب أسماء الأمراء المصريين ، مما يدل على أن أعداء الملك الذين لم يكن ليستطيع القضاء عليهم بالقوة كانوا ينتمون إلى طوائف مختلفة ، ومما لاشك فيه أن الحـــالة كانت سيئة بالنسبة لهؤلاء الملوك فى داخل وخارج البلاد على السواء . (١)

الاسرة الثالثة عشرة

ربما كانت هذه الأسرة تمت إلى الأسرة الثانية عشرة بصلة ، وقد حكمت فترة لاتزيد كثيراً على خمسة وخمسين سنة ـ ولم نعثر على آثار لبعض ملوكها ولكننا عرفنا أسماء الكثيرين من هؤلاء من بردية تورين ومما ذكره مانيثون إلا أن هذين المصدرين فيما يبدو لم تكن لهما دراية كافية عن هذا العصر .

ومن المحتمل أن ملوك هذه الأسرة كانوا يحكمون فى منف وقد ترك بعضهم آثارا فى مناطق أخرى بل وامتد نفوذهم إلى بلاد النوبة ووجدت آثار لهم فى خارج حدود المملكه منها بعض جهات لبنان إلا أن غالبية

---

(١) Posener, " Princes et Pays d' Asie et de Nubie ", (Bruxelles 1940)

ملوك هذه الاسرة كانوا ضعافا ، ومما يؤيد ذلك أن بردية من هـذا العهد تبين أن حاكم إقليم الـكاب تنازل عن منصبه إلى أحد أقاربه فى نظير مبلغ معين (١) ويدلنا هذا بالطبع على أن الاحوال كانت سيئة بصفة عامة وعلى أن الملوك لم يكن فى مقدورهم الإحتفاظ بسلطانهم على أمراء الاقاليم حتى أصبح فى إمكان هؤلاء أن يبيعوا مناصبهم ـ كذلك ينسب إلى الاسرة الثالثة عشرة ملك يدعى نحسى وصف فى بعض النصوص بأنه « حبيب الإله ست معبود أواريس » ، ولما كان ست هو المعبود الرسمى للهكسوس وأواريس عاصمة ملكهم فإنه لاشك فى أن نفوذ هؤلاء قد أخذ فى الظهور منذ عهد هذا الملك على الأقل ، كما يوحى اسم هذا الملك أيضا بأنه كان فى نفس الوقت يمت بصلة إلى النوبة وربما كانت أمه نوبية (٢) .

ومن المرجح أن أسرة قوية فى غرب الدلتا ادعت الملك أثناء حكم الأسرة الثالثة عشر ـ وهذه الأسرة القوية هى الأسرة الرابعة عشر التى كانت عاصمتها سخا .

ومما تجدر ملاحظته أن بعضا من الأسماء الغريبة غير المصرية وردت بين الأسماء الكثيرة التى ذكرت كملوك حكموا فى هذه الفترة ، ومن هذه

---

(١) لوحة رقم ٥٢٤٥٣ بمتحف القاهرة

(٢) Rec. de Trav. 15, pp. 97 - 101

ماهو ذو طابع سامى مما يؤيد فكرة أن حكم الهكسوس جاء نتيجة لغلبة هذه العناصر فى مصر وتغلغل نفوذهـا أى أنه كان على الأرجح نتيجة لتغير الحكام أو القادة وليس نتيجة لغزوة ساحقة (١).

هذا ومازال ترتيب ملوك الأسرة الثالثة عشر ومدى نفوذهم موضع خلاف حتى الآن .

الاسرة الرابعة عشرة :

تعطينا بردية تورين قائمة طويلة بأسماء ملوك هذه الأسرة كما يذكر مانيثون عدداً ضخما لهؤلاء الملوك ويذكر مدة حكم لهم عددا كبيرا من السنين ولكن يبدو أن هذه الأعداد جميعها مبالغ فيها كثيرا ، بل ومن المرجح كذلك أن هؤلاء الملوك لم يتمتعوا بنفوذ يذكر خارج حدود إقليمهم الذى كانت عاصمته سخا - وكانت الأسرة الثالثة عشرة تتدهور هى الأخرى إلى أن اضمحلت قوتها مما أدى فى النهاية إلى خضوع مصر للحكام الأجانب المعروفين باسم الهكسوس .

(1) JEA 37, pp. 56 - 61

الهكسوس

بالرغم من أن حدود الدلتا الشرقية كانت محصنة فى عهد الدولة الوسطى فان بعض العناصر السامية كانت تدخل إلى مصر من حين إلى حين إما للتجارة وإما للاستقرار ، ويبدو أن الامر لم يكن ليثير ريبة المصريين مادام هؤلاء القادمين مسالمين — وقد سبق أن أشرنا إلى الجماعة الآسيوية التى قدمت إلى مصر فى عهد سنوسرت الثانى ومثلت على جدران مقبرة « خنوم حتب » (١) ، والجدير بالذكر أن إبشا (ى) زعيم هذه الجماعه كان يلقب بلقب « حقا خاسوت » أى « حاكم البلاد الاجنبية » وهذا اللقب هو الذى أصبح بعد تحريفه إسما يدل على الهكسوس .

وتدل ظواهر الاحوال على أن منطقة الشرق الادنى القديم تعرضت لأحداث كثيرة متتالية فى الوقت الذى أشرفت فيه الدولة الوسطى على النهاية ، فقد قضت بابل على الممالك المجاورة لها كما أن المملكة « الكاشية » قد أخذت هى الاخرى تتطلع إلى غزو الأقطار المجاورة لها بينما أخذ « الحوريون » أو « الميتانيون » يستولون على بعض البلاد السورية — ولاشك فى أن هذه التحركات كانت ذات أثر فى هجرة وتسلل الكثير من العناصر الآسيوية إلى مصر التى استقرت جموعها فى المنطقة الأقرب إلى مواطنها الاصلية ، أى فى شرق الدلتا

---

١ ـ أنظر ص ١٣٨

على الأرجح - ولم يمض على استقرارهم وقت طويل إلا وأصبحوا قوة يخشاها المصريون واستفحل خطرهم وزاد إلى أن تمكنوا من فرض سلطانهم على مصر وجعلوا عاصمتهم أواريس .

ومع أن عهدهم كان موضع أبحاث كثيرة إلا أن الغموض ما زال يكتنفة وما زلنا لا نستطيع أن نجزم بأصلهم أو أن نؤكد كيفية إخضاعهم مصر لسلطانهم وخاصة لأن النصوص المصرية تحاشت ذكرهم إلا فى أحوال نادرة كانت تنعتهم فيها بصفات تدل على كراهية المصريين لهم ولعهدهم ، ومن ذلك مثلا ما تذكره حتشبسوت عنهم فى نقوش معبدها المنحوت فى الصخر ببنى حسن وهو المعروف باسم واسطبل عنتر Speos Artemidos حيث تقول إن « الآسيويين كانوا يحكمون فى أواريس فى الشمال وكانوا بجحافلهم المتجولة يعيشون بين الناس فسادا محطمين ما كان قائما ، إنهم كانوا يحكمون دون (اعتراف بسلطان) رع بل ولم تكن إرادته الإلهية تنفذ إلى أن جاء عهدى العظيم » (1) أما مانيثون فيقول فى هذا الصدد « فى عهد الملك توتيمايوس - ولا أدرى سبب ذلك - أصابتنا ضربة من الإله دون أن نتوقع ذلك حيث جاءنا غزاة من الشرق من أصل مجهول ساروا تملؤهم الثقة فى النصر ضد بلادنا وتمكنوا بقوتهم من الاستيلاء عليها بسهولة دون ضربة واحدة وبعد أن تغلبوا على البلاد حرقوا مدننا دون رأفة وهدموا معابد الآلهة من أساسها وعاملوا جميع الأهالى بعداء

---

(1) JEA 32 , pp. 45 ff

قاس فذبحوا البعض وأخذوا نساء وأطفال البعض الآخر ليكونوا إماءاً وعبيدا لهم ، وأخيرا عينوا واحدا منهم يدعى ساليتيس Salittis ملكا عليهم فأقام فى منف وفرض الضرائب شمال مصر وجنوبها وكان يترك حاميات فى المواقـــع المناسبة وبنى حصنا فى أواريس فى شرق الدلتا ترك فيه حامية من ٢٤٠٠٠٠ رجل مزودين بالأسلحة وكان يذهب لزيارة هذا الحصن ويتفقد رجاله فى شهور الصيف من كل عام »(١)

ومن هـــذه النصوص نتبين أن هؤلاء جاءوا من آسيا وأنهم كانوا يسيئون إلى المصريين فكرههم هؤلاء وعملوا على التخلص منهم ، ومن المرجح أن جاليـــات كبيرة من الهكسوس كانت تستقر فى أماكن مختلفة من سوريا وفلسطين وربما كانت أقرب مراكز استقرارهم هذه هى بلدة « شاروهن » حيث أننا نعلم بأنهم حينما طردوا من مصر لجأوا إلى هذه البلدة وتحصنوا فيها ثلاثة سنوات (٢) .

ويقسم حكام الهكسوس عادة إلى ثلاثة مجموعات على النحو الآتى : -

الاولى وتشمل ستة ملوك ويعتبرهم المؤرخون الأسرة الخامسة عشرة وقد حكموا نحو ١٠٨ .

والثانية وهى أقل أهمية وتكون الأسرة السادسة عشرة .

أما الثالثة فهى الأسرة السابعة عشرة وكانت معاصرة للأسرة السابعة عشرة المصرية فى طيبة .

---

(١) W.G. Waddel "Manito" (1940), pp. 79 ff

(٢) أنظر بعد مطاردة أحمس للهكسوس ص ١٥٥

ويبدو أن الثلاثة ملوك الأخيرين فى المجموعة الأولى وهم أبو فيس ، خيان ، شيشى أو إسيسى قد حكموا مصر كلها والنوبة السفلى لأن آثارهم وجدت موزعة فيها إلا أنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بنفوذهم طويلا فى الجنوب وإن كان من المرجح أنهم ظلوا على صلة بأمراء النوبة كما يستدل على ذلك من لوحة عثر عليها بالكرنك سنة ١٩٥٤(١) تصف كفاح كاموزا (٢) ضد الهكسوس فى أواخر عهدهم إذ تتبين منها أن ملك الهكسوس كان على صلة بأمير النوبة . والظاهر أن تجارة الهكسوس ظلت رائجة فى النوبة ونفوذهم ظل قائما فى الصعيد إلى أن بدأ الأمراء المحليون فى الصعيد يعارضون هذا النفوذ وازدادت مقاومتهم له فى عهد الأسرة السابعة عشرة .

ولا شك أن بعض ملوك الهكسوس وصلوا إلى درجة عظيمة من القوة والسلطان وخاصة ملوك المجموعة الأولى ومن أشهرهم « خيان » سالف الذكر حيث عثر له على آثار فى كثير من جهات مصر وسوريا وفلسطين بل ووجد جزء من تمثال فى هيئة الأسد يحمل اسمه عند أحد التجار فى بغداد، وفى حفائر أجريت فى كريت عثر على غطاء إناء من المرمر نقش على اسمه كذلك - ولا بد أن النشاط التجارى فى عهده كان عظيما وأن مصر كانت على صلة بمختلف تلك الجهات التى عثر على آثاره فيها .

ولا نعرف إلا القليل عن حكم الملوك الذين تلوا ملوك المجموعة الأولى (الأسرة الخامسة عشرة) كذلك لا نعرف كيف انكمش ملكهم

---

(١) Chr. d'Ég. 30, pp. 198 ff

(٢) آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة المصرية — أنظر ص ١٥٢ - ١٥٤

وأصبح المصريون يتطلعون إلى طردهم - ومن المؤكد على أى حال أن المصريين برموا بهم وضاقوا بوجودهم بينهم حيث يبدو أن ظهورهم كان يصحبه اضطراب فى أحوال الشرق الأدنى بصفة عامة وقد أدى إلى وجود فترة عصيبة فى مصر فنزح بعض المصريين عنها إلى النوبة حيث عملوا فى خدمة بعض أمرائها المحليين (١) إذ أن النوبة حينئذ كانت قد تخلصت من النفوذ المصرى وأخذ يحكمها بعض أمرائها الذين استقلوا بأقاليمهم بينما أخذ الأمراء المصريون الذين أجبرتهم الظروف على مجابهة بعض الأخطار فى أقاليمهم يستعينون بالكثيرين من أبناء النوبة الذين قدموا إلى مصر كجنود مرتزقة واستقرت غالبيتهم فيها فى جاليات كبيرة إذ عثر على جباناتهم ومقابرهم منتشرة فى مصر العليا ووصل انتشارها شمالا إلى مصر الوسطى، وتتميز هذه المقابر بأنها على هيئة الجرس وقد عرفت لدى الأثريين باسم Pan Graves - وقد ظل هؤلاء المرتزقة النوبيون يؤدون خدماتهم فى مصر واستمر المصريون يستعينون بهم حتى فى حرب الاستقلال التى طردوا فيها الهكسوس بل وبعد ذلك أيضا .

ولا بد أن مصر والنوبة فى نهاية عهد الهكسوس كانتا تنقسمان إلى الأقسام الآتية (٢) : -

(١) مملكة طيبه (الأسره السابعة عشرة المصرية) التى كانت تمتد من اليفانتين (اقليم الشلال الأول) جنوبا إلى القوصية شمالا .

(٢) مملكة الهكسوس وكانت تحكم الدلتا ومصر الوسطى .

---

(١) JEA 35, pp. 50 ff

(٢) PSBA 35, p. 117, JEA 3, pp. 99- 110

مملكة النوبة التى يحكمها أمير نوبى وكانت تمتد شمالا إلى اليفانتين .

ومع أن الهكسوس تأثروا بالحضارة المصرية واندمجوا فى الحياة المصرية على العموم حيث اتخذوا الألقاب الفرعونية وعبدوا الآلهة المصرية وتركوا آثارا مصرية الطابع إلا أن حكمهم لم يكن مقبولا - ولا ندرى كيف بدأ كفاح المصريين ضدهم لأن معلوماتنا مستقاة من مصادر متأخرة ولا تمدنا بتفاصيل كافية عن هذا الكفاح ، ففى بردية ترجع إلى عصر الرعامسة تعرف باسم بردية ساليبه رقم (١) Sallier (1) [1] قصة بها الشىء الكثير من الخيال عن بدء حدوث المناوشات بين المصريين والهكسوس ، ومما جاء فيها « أن الطاعون قد اجتاح البلاد (كناية عن استيلاء الهكسوس على الحكم فيها) وأن البلاد قد خضعت لهم ، وقد جعل ملكهم أبو فيس من الإله سوتخ (ست) معبودا لمصر ولم يقدم قربانا لإله غيره ... وكان سقنن رع فى ذلك الوقت حاكما على طيبة ولم يقبل أن يعبد إلها غير الإله « آمون رع » - ثم تشير البردية بعد ذلك إلى أن رسولا من الملك أبو فيس جاء من أواريس إلى طيبة ليبلغ سقنن رع أن « أفراس النهر فى مياه طيبة تقلق نوم أبوفيس وهو فى قصره فى الدلتا » وهو يطلب إسكاتها أو أن تهجر ذلك المكان كما أبلغه كذلك بأن ابو فيس يحتم أن يعبد الإله سوتخ - ومن الواضح أن هذه الرسالة الملتوية تدل على ما كان يشعر به ملك الهكسوس من تفشى روح التمرد والثورة ضده فى جنوب مصر وأنه أراد أن يجبر أمير طيبة على إعلان خضوعه له - وقد فقدنا بقية هذه القصة عن كفاح مصر

---

(١) Gardiner, Late Egyptian Stories, pp. 87 ff.

ضـــد الهـكسوس لأن البردية تهشمت ولم يسلم منها سوى الجزء المدونة فيه هذه الرسالة ولـكن مما لا شك فيه أن هذه البردية إنما كتبت لتبين أن « سقنن رع » بدأ الـكفاح فعلا ضد الهـكسوس ولتبين والدور الجيد الذى قام به خلال هذا الـكفاح ، ومما يؤيد ذلك أن مومياءه تدل على أنه مات متأثراً بجراح أصيب بها فى رأسه وصدره مما يرجح أنه قتل أثناء حربه مع الهـكسوس .

ولا بد أن ملوك طيبة السابقين كانوا أشبه بولاة من قبل الهـكسوس وقد وردت أسماء ثمانية ملوك قبل « سقنن رع » ويظهر أن آخرهم بدأ بإعلان عصيانه عليهم وربما امتنع عن دفـع الضرائب المطلوبة لهم وبدأ يستنهض الهمم للوقوف فى وجههم ولـكن أجله لم يمهله حتى يبدأ النضال وقدر لخلفـه « سقنن رع » أن يقوم بذلك ثم تبعه فى تحمل أعباء هـذه المهمة كل من ولديه (كاموزا) (واحمس) على التوالى .

طرد الهكسوس

يبدأ طرد الهـكسوس فى الوصول الى مرحلة حاسمة فى عهد كاموزا خليفة (سقنن رع) كما يتبين ذات من لوحة خشبية مؤرخـة بالسنة الثالثة من عهده (١) وهى وإن كانت غير كاملة إلا أن ما دون عليها يدل على مواصلة كاموزا للـكفاح ضـد الهـكسوس ـ وقـــد عثر على جزء

---

(١) تعرف باسم لوح « كارنارفون ـ أنظر

Carnarvon & Carter, "Five Years' Exploration at Thebes,p.3; JEA 3, pp. 95-110, pls. XII , ,XIII 7, pp. 36-56

من لوحة من الحجر الجيرى بالكرنك (١) لا شك فى أنها كانت الأصل الذى نقلت عنه اللوحة السابقة وهى تذكر أن كاموزا جمع رجاله لاستشاراتهم فى الكفاح ضد الهكسوس ، محاولا أن يستنهض هممهم إذ يذكر لهم أنه يجد نفسه محصوراً بين عدوين (الهكسوس فى الشمال والنوبيين فى الجنوب) ولكن هؤلاء المستشارين كانوا متقاعسين راغبين عن القتال فى بداية الأمر إذ أنهم أجابوه بما يفيد أنهم لا يرون مبرراً للقتال ضدهم ما دامت حدود المملكة (المصرية من اليفانتين إلى القوصية) لم تمس ومادامت أراضيهم وأملاكهم سليمه لم يغتصب أحد منها شيئاً أو تنقطع عنهم إيراداتها ولم يعتدى على جزء من المملكة ، إلا أن كاموزا لم يقتنع بإجاباتهم وصمم على طرد هؤلاء الذين يشاركونه فى حكم مصر فى الشمال (أى الهكسوس) .

ولا شك فى أن ماورد فى لوحة الكرنك التى كشف عنها سنة ١٩٥٤ (٢) يعد مكملا لما جاء فى اللوحة التى أسلفت الإشارة إلى أنها الأصل الذى نسخت منه لوحة كارنارفون ، فمن نصوص هذه اللوحة الاخيرة يتبين لنا أن كاموزا انتصر انصارا حاسما على الهكسوس فى معركة نيلية كما تشير أيضاً إلى حملة على النوبة سبق أن قام بها كاموزا - كذلك توضح لنا كيف أن ملك الهكسوس أراد الاتصال بملك النوبة ليفاجىء هذا الاخير الملك كاموزا من الخلف أثناء انشغاله فى حربه ضد الهكسوس إلا أن رسول ملك الهكسوس

---

(١) ASA 5, p.III & 39pp. 245 ff.

(٢) أنظر أعلاه ص ١٤٩

إلى النوبة قبض عليه وهو في طريقه إليها فلم تنجح المؤامرة التي أريد تدبيرها ضد المصريين .

ولا ندرى إلى أى مدى وصل كاموزا فى كفاحه ولكن لا شك فى أنه نجح فى كسر شوكة الهكسوس وأنه مهد السبيل للانتصار الأخير الذى انتهى بطردهم من مصر على يد خلفه وأخيه أحمس الأول .

٥ — عهد الدولة الحديثة

اجلاء الأجانب و تكوين الامبراطورية :

سبق أن أشرنا الى أن كاموزا نجح فى كسر شوكة الهكسوس ومع ذلك فقد ظلت الأوضاع فى وادى النيل على ما هى عليه إلا فيما يختص بإقدام المصريين على مناوأة النفوذ الاجنبى وإعلاء شأن مملكتهم فى الجنوب حتى أصبحت المملكة الطيبية دولة ذات سيادة بعد أن كانت تعترف بنفوذ الهكسوس ، أى أنه من الممكن القول بأن عهد (كاموزا) وسلفه (سقنن رع) كان تمهيدا للنهضة التى بدأت بعدئذ والتى يوضع على رأسها (أحمس الاول) خليفة (كاموزا) ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة ، وقد تمكنت مصر فى نهضتها هذه من أن تكون إمبراطورية مترامية الاطراف بعد أن تمكنت من إجلاء الأجانب عن أراضيها وأصبحت أقوى أمم الشرق الادنى القديم نفوذا وسلطانا .

الاسرة الثامنة عشرة

احمس الاول :

لاندرى كيف انتهت حياة « كاموزا » وهل لقى مصرعه أثناء كفاحه ضد الهكسوس كما حدث لسلفه من قبل أو أنه مات ميتة طبيعية قبل أن يتمكن من إخراج الهكوس من مصر ؟ ومهما يكن من أمر فقد برز اسم أحمس الأول فجأة فى النصوص المصرية على أنه هو الذى طرد الهكسوس نهائيا من مصر .

وأحمس وإن كان من نسل ملوك الأسرة السابعة عشرة إلا أنه يعتبر مؤسسا الأسرة الثامنة عشرة ـ وقد استأنف الجهاد بعد سلفه « كاموزا » ومضى فى حربه ضد الهكسوس إلى أن سقطت عاصمتهم « أواريس » فى يده ، ثم طاردهم إلى فلسطين حيث تحصنوا فى « شاروهن » ولكنه حاصرهم فيها ثلاثة أعوام إلى أن سقطت هى الأخرى فى يده وبهذا تم انتصاره عليهم وقضى على قوتهم نهائيا .

ومن المصادر الهامة عن الأسرة الثامنة عشرة فى شطرها الأول بصفة عامة وعن عهد أحمس بصفة خاصة نصوص مقبرتين لضابطين معمرين اشتركا مع أحمس فى حروبه ضد الهكسوس واستمرا فى الخدمة العسكرية فى عهد خلفائه وكان كل منهما يدعى أحمس كذلك ، ولكن أحدهما كان يعرف باسم « أحمس بن نخب » أما الآخر فكان اسمه

« أحمس بن أبانا » (١) — وهذه النصوص تصف لنا بعض تفصيلات المعارك التى خاضها الملك أحمس فى كفاحه ضد الهكسوس كما تشير إلى حروبه فى النوبة ـ وقد وجدت آثار أخرى من عهده تثبت أنه أخضع شمال النوبة وشيد هناك إحدى القلاع وبدأ وضع سياسة لإدارة هذه البلاد بتعيين حاكم عسكرى عليها واسناد شئونها المالية والإدارية إلى أميرتخن (إقليم الكاب) .

ولاشك أن ثلاثة سيدات كان لهن أكبر الأثر فى حياة أحمس بصفة خاصة وفى تاريخ مصر فى تلك الآونة بصفة عامة . وأولى هذه السيدات هى « تتى شرى » جدة أحمس التى ظل وفيا لذكراها وبنى لها قبرا رمزيا فى أبيدوس وضع به لوحة تذكارية ، وثانيتهن هى والدته « إعح حتب » التى لعبت دوراً خطيرا فى الكفاح ضد الهكسوس يشير إليه ولدها أحمس فى لوحة أقامها بالكرنك بقوله « امدحواسيدة البلاد وسيدة جزر البحر المتوسط فاسمها مبجل فى جميع البلاد الأجنبية وهى التى تضع الخطط للناس ، زوجة ملك وأخت ملك وأم ملك وهى العظيمة القديرة ، وهى التى تهتم بشئون مصر ... جمعت جيشها وهيأت الحماية للناس وأعادت الهاربين وجمعت شتات المهاجرين وهدأت ماحل بالصعيد من خوف وأخضعت من كان فيه من العصاة ... ألخ » (٢) ـ ونظرا لما يبدو من تأثر بعض حلى هذه الملكة وخنجرها

---

(١) Urk IV, pp. 1 ff & 36 ff

(٢) Breasted, AR II, — 29 ; Urk. VI, 14 - 2 4

ببعض المظاهر الفنية التى سادت جزر بحر إيجة فإن نفرا من المؤرخين يميل إلى الاعتقاد بأن هذه الملكة تنتمى أصلا إلى جزيرة كريت ولكن لايوجد ما يؤيد ذلك وإنما يحتمل أن تلك المؤثرات كانت ترجع إلى وجود علاقات بين مصر وكريت فى ذلك الوقت بل ولا يستبعد أنهما كانا متحالفين ، وبمقتضى هذا التحالف قدم أهل كريت بعض المعاونة للمصريين فى كفاحهم ضد الهكسوس وأن « إعح حتب » لعبت دورا هاما فى هذه التحالف .

أما السيدة الثالثة فهى « أحمس نفرتارى » التى كانت زوجة لكل من أخويها « كاموزا » « وأحمس » على التوالى وقد عبدت منذ أواخر الأسرة الحادية والعشرين حيث أقيم لها معبد فى طيبة واعتبرت هى وولدها « أمنحتب الأول » الإلهين الحارسين للجبانة .

امنحتب الأول :

تولى العرش وهو صغير ولكنه كان خبيرا بالملك ومقداما كأسلافه فنصوص الضابطين المشار إليها فيما سبق (أحمس بن أبانا وأحمس بن نخب [1]) تشير إلى أنه ذهب فى حملة الى النوبة وتوغل فيها الى سمنه (جنوب الشلال الثانى) على الأقل حيث ترك « ثورى » الحاكم المصرى على النوبة فى عهده نصين أحدهما فى سمنة والثانى فى أورونارتى (جزيرة

---

١ — أنظر الصفحة السابقة هامش رقم ١ .

الملك) ، وهما مؤرخين بالسنة السابعة والسنة الثامنة من عهد أمنحتب على التوالى - ومن المرجح أنه السبب فى قيام الملك بهذه الحملة يرجع إلى حدوث ثورة فى النوبة . ويبدو أنه تعقب زعيم الثورة إلى الصحراء أو أن الثائرين كانوا من القبائل التى تعيش على حافتها لأن « أحمس بن أبانا » يشير فى نصوص مقبرته إلى أنه قاد الملك فى عودته إلى مصر من منطقة « البئر العلوى » فى يومين فقط ، فالإشارة الى « البئر العلوى » تجعل من المحتمل وصول هذا الملك الى منطقة صحراوية حينما قام بحملته هذه - ويذكر أحد كهنة آمون أن نفوذ هذا الملك وصل إلى منطقة « كاروى » ، أى إلى قرب « نبته » عند الشلال الرابع ولكن لايوجد لدينا من الأدلة مايؤيد وصول نفوذه إلى مثل هذا المكان البعيد - ولاتقتصر جهوده الحربية على النوبة وحدها فقد أشارت نصوص « أحمس بن نخب » إلى قيامه بغزوة ليبية ولكنه لم يذكر سبب هذه الحملة أو المكان التى وصلت اليه .

والظاهر أن الأمن كان مستتباً فى داخلية البلاد كما أن الحالة هدأت فيها فلم يعد الملك فى حاجة إلى مزاولة النشاط العسكرى وتفرغ للأعمال السلمية حيث قام بتشييد بعض المبانى وعم الرخاء فى عهده ، ويعد معبده الجنزى من أشهر مبانيه وقد شيده على الضفة الغربية للنيل أمام الاقصر .. كذلك ترك هيكلا من المرمر عثر على أحجاره ملقاة فى أنقاض مبانى الكرنك فجمعت وأعيد تركيبها ، وهو يعد من أجمل ماعثر عليه من هياكل الدولة الحديثة .

وقد مات امنحتب دون أن يترك من يخلفه على العرش فخلفه

تحتمس الأول الذى يرجح أنه كان من الأمراء وأنه اكتسب حق ولاية العرش عن طريق زواجه بإبنة امنحتب الأول وكان اسمها « أحمس » .

تحتمس الاول :

بدأ حكمه بإصدار مرسوم ينبىء عن اعتلائه للعرش وقد أرسل هذا المرسوم إلى « ثورى » حاكم النوبة ليعلنه على الملأ - ونكاد تلمس فى هذا المرسوم ما يشير إلى حدوث بعض النزاع على العرش قبل أن تستقر الأمور لتحتمس الاول الذى ما كاد ينتهى من ذلك قام فى السنة الثانية من حكمه بحملة إلى شمال السودان مد حدوده فيها إلى « كورجوس » Kurugus [1] (جنوب أبو أحمد) أو إلى « مروى » أى أنه توغل إلى أبعد من الأماكن التى وصل اليها أسلافه — ولا بد أنه كان يهدف إلى ضمان بقاء النوبة تحت السيطرة المصرية وخضوعها تماماً لسيادتها وأراد أن يتصل اتصالا مباشرا بالمناطق الغنية التى كانت تمد مصر بكثير من الحاصلات وأن يضمن بقاء الطريق التجارى إليها فى يده سواء كان ذاك عن طريق النيل أو بالطريق البرى ، ولهذا استولى على هذه الأماكن التى إلى جنوب الشلال الثالث وأمر بتطهير مجرى النيل عند الشلال الأول .

وقد اهتم تحتمس الأول كذلك بالجهات الواقعة فى شمال مصر وتوغلت فتوحاته فيها كثيرا حيث يرجح أنه وصل إلى منحنى الفرات

---

(١) J E A 36, pp. 36 - 8

الذى عرفه المصريون بأنه النهر ذو المياه المعكوسة (أى النهر الذى يجرى فى عكس الاتجاه الذى يسير فيه نهر النيل) ، وفى تلك البقعة التى وصل اليها انصرف إلى الصيد بعض الوقت وترك هناك لوحـة لبيان حدود مملكته ، ومن ذلك يتضح أنه كان يحكم إمبراطورية تمتـد من منطقة الشلال الرابع الى شمال سوريا عند منحنى نهر الفرات - وقد درج بعض فراعنة الدولة الحديثة فيما بعد على الذهاب لصيد الفيلة فى منطقة منحنى الفرات مما يدل على أن هذه المنطقة كانت حافلة بالأحراش فى تلك العصور .

ويحدثنا المهندس إنينى الذى عاش ابتداء من عهد امنحتب الأول بأن سيده تحتمس الأول كلفه ببنـاء مقبرته وأن هذه المقبرة نحتت فى الصخر فى بقعة لايعلمها غيره (١) ، والظاهر أن تحتمس الأول كان أول فرعون يقرر عـدم وجود بناء هرمى أو غير هرمى يعلو سطح الأرض فوق مقبرته حتى يخفى مكانها فلا تمتد إليها أيدى اللصوص - وهذه البقعة التى نحتت فيها مقبرة تحتمس الاول أصبحت جبانة لملوك الدولة الحديثة وهى المعروفة حاليا باسم « وادى الملوك » وتقع على الضفة الغربية للنيل أمام مدينة الاقصر - ومن المبـانى التى شيدها تحتمس كذلك معبده الجنزى الذى بناه على حافة الوادى بالقرب من مقبرته كما شيد معبداً كبيرا فى منطقة الكرنك أقام أمامه مسلتين كبيرتين وبنى بهوا عظيما به أعمدة مربعة على واجهاتها تماثيل أوزيرية (٢)

---

١ — Breasted, A R II, 90 - 98

٢ — أى تماثيل بهيئة الإله أوزير الذى اعتقد الفراعنة بأنه إله الموتى الحاكم فى العـالم الآخر وكانوا يمثلونه بهيئة إنسان ملتف بالاكفان ويمسك صولجاناً فى إحدى يديه وسوطا فى يده الأخرى وقد يقبض على عصى الراعى بالاضافة إلى ذلك .

وقد حكم هذا الملك نحوا من ثلاثين عاما كانت البلاد فيهما قوية يمتد نفوذهـا فى الجنوب والشمال ولكن أحوال القصر الداخلية كان يسودها الغموض مما دعا إلى الظن بأن أفراد البيت المالك قد انقسموا بعضهم على البعض الآخر - وربما كان سبب ذلك أن الملكة « أحمس » التى تزوجها تحتمس الأول - واكتسب بذلك حق إعتلاء العرش - لم تنجب ولدا بل أنجبت ابنتين كبراهما حتشبسوت أى أنها لم تنجب وليا للعهد ، فى حين أن زوجات أخريات قد أنجبن له أبناء من الذكور كان أكبرهم (تحتمس الثانى) الذى يرجح أنه كان ضعيفا إزاء أخته حتشبسوت إبنة الزوجة الشرعية لتحتمس الاول ، ولذا بدأت سلسلة من المؤامرات فانقسم موظفو القصر وكبار موظفى الدولة ورجالاتها إلى طوائف تؤيد كل منها أحد الطرفين ثم انتقل هذا النزاع بعد ذلك بين حتشبسوت وبين تحتمس الثالث مما أدى إلى اختلاف المؤرخين فى شأنهم وخرجوا بعدة آراء ونظريات عن صلة القرابة بين هؤلاء الملوك وترتيب حكمهم وخلقوا من ذلك مشكلة تعرضوا لها بالبحث بعض الوقت نظرا لأن اسم حتشبسوت أزيل من على بعض الآثار وكتب بدلا منه اسم تحتمس الأول أو الثانى أو الثالث ، ومهما كان الأمر فقد أصبح من المتفق عليه أن تحتمس الأول كان والد كل من حتشبسوت وهى من الزوجة الشرعية وتحتمس الثانى وهو من زوجة غير شرعية ، وأن تحتمس الثالث كان بالمثل إبنا لتحتمس الثانى من زوجة غير شرعية

أيضا (١) وأنه تزوج من أميرة من البيت المالك كانت تدعى حتشبسوت (مريت رع) هى الأخرى - وقد بدأ حكمه تحت وصاية عمته (حتشبسوت الكبرى) ثم انفرد بالحكم بعد ذلك .

تحتمس الثانى :

تزوج من أخته حتشبسوت واعتلى العرش ولكن سرعان مادب الخلاف بينهما واضطربت الأمور ، وربما كان لذلك أثره الملموس فى مستعمرات مصر الجنوبية فأراد الأمراء المحليون أن ينفضوا عنهم سلطان مصر وقامت الثورة فى السودان إلا أن تحتمس الثانى أرسل حملة إلى هناك قامت باخضاع الثورة وأحضرت بعض الرهائن ومن بينهم ابن أحد الزعماء - وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن جيوش تحتمس الثانى وصلت إلى جبل البرقل عند الشلال الرابع ولكن من العسير تأكيد ذلك ، كذلك يحتمل أن ثورة أخرى قامت أثناء حكمه فى شرق مصر فأدبها الجيش المصرى .

ورغم قصر المدة التى حكمها فاننا نجد اسمه منقوشا على كثير من الآثار مما يدل على أنه كان شديد الاهتمام بالمبانى ، وقد نعمت البلاد بشىء من الاستقرار فى جزء من عهده على الأقل .

---

١ — والدة تحتمس الثانى كانت ملكة أقل أهمية من الملكة الشرعية وكانت تدعى موت نفرت ، أما والدة تحتمس الثالث فكانت محظية لتحتمس الثانى وتدعى إيزيس - أنظر
Sir A. Gardiner, " Egypt of the Pharaoahs, " pp. 180 - 181

حتشبسوت :

بموت تحتمس الثانى بدأت فترة صراع بين حتشبسوت وأنصارها من جهة وبين تحتمس الثالث وأنصاره من جهة أخرى إذ ترك المهندس « إنينى » (١) المشار إليه نقوشا يفهم منها أن تحتمس الثالث تولى الملك بعد والده تحتمس الثانى ولكن حتشبسوت هى التى تدير شئون البلاد وصاحبة الأمر « لأنها البذرة الممتازة التى خرجت من الإله » - ويبدو أن تحتمس الثالث الذى يرجح أنه كان ابنا لتحتمس الثانى من زوجة أخرى غير حتشبسوت كان صبيا يشغل وظيفة كهنوتية صغيرة فى معبد الكرنك حينما توفى والده ، واشتد النزاع بين أنصاره وبين أنصار حتشبسوت فاستعان أنصاره بكبار كهنة آمون الذين أعلنوا أن الإله آمون (المعبود الرسمى للامبراطورية) قد اختاره ليجلس على العرش ، وتم إختيـــاره فعلا ولكنه كان طوال حياة عمته حتشبسوت (وزوجة أبيـه) مجرد شريك لا نفوذ له فى الحكم بينما وضعت حتشبسوت كل مقاليد الامور فى يدها ثم أصبحت هى كل شىء ولم يرد له ذكر إلى أن ماتت وانفرد هو بالحكم .

والظاهر أن الحرب كانت عنيفة بين حتشبسوت وزوجها تحتمس الثنى ثم بينها وبين ابن زوجها تحتمس الثالث حتى أنها لجأت إلى اختراع القصص التى تشير إلى حقهـــا المقدس فى الملك مع أن حكم الملكات فى مصر والشرق القديم لم يكن مستساغا بصفة عامة ،

١ — أ فار س ١٦٠

ووصلت فى ذلك إلى أبعد مدى فنقشت مناظر تفصيلية على جدران معبد الدير البحرى الذى شيدته فى البر الغربى لطيبة (الأقصر) تمثل فيها قصة مولدها التى ادعت فيها بأنها ليست ابنة تحتمس الأول بل إبنة الإله آمون نفسه الذى تشكل فى صورة أبيها وأنجبها من صلبه ، كما بينت فى بعض هذه المناظر أن أباها تحتمس الأول بايعها بالملك فى حياته وأن كبار الكهنة وكبار رجال الدولة قد وافقوه على ذلك ، أى أن كلا من تحتمس الثانى وتحتمس الثالث كانا طبقـا لتلك النقوش مغتصبين لحقها المشروع أو على الأقل لم يكن حكمها شرعيا كحكمها .

ومن المرجح أن هذه الفكرة كانت بإيحاء من أنصارها حيث يبدو أنها تمكنت من أن تحيط نفسها بحاشية من الرجال الأقوياء الذين تمكنت بفضلهم من الاستمرار صاحبـة للسلطان فى البلاد ، ومن أهم هؤلاء المهندس « سنموت » الذى أشرف على تربية ابنتها (نفروع) التى كانت تعدها لأن تخلفها على العرش ولكنها ماتت وهى صغيرة .

ومهما كان الأمر فإن عهدهـا كان عهد رخاء وطمأنينة ، ولا جدال فى أنها كانت قديرة فى الحكم استطاعت أن توجه نشاط الدولة إلى التجارة والأعمال الإنشائية إذ أرسلت حمـلة إلى بلاد بونت جلبت البخور وأشجار المر وبعض حاصلات المناطق الاستوائية وكميات كبيرة من الذهب من أجل معابد الإله آمون ، وقد صورت مناظر هذه البعثة على جدران معبدها فى الدير البحرى المشـار اليه ـ كذلك شيدت كثيرا من المبانى أهمها معبد من الجرانيت فى الكرنك وصالة كبيرة أماسها « لمتان

عظيمتان فى نفس المنطقة كما أنها أصلحت كثيرا من المبانى المتهدمة .

ويبدو أنها كانت من قوة العزيمة والنفوذ طوال مدة حكمها التى بلغت نحو ثمانية عشرة عاما بحيث أصبح تحتمس الثالث فى عهدها منزويا ويكاد يكون منسيا ، ولذا ينسب اليه أنه بعد وفاتها صب جام غضبه على ذكراها فمحا اسمها من معظم آثارها وحطم الكثير من تلك الآثار ومن آثار أنصارها ومعاونيها .

تحتمس الثالث

يبدو أن العهد السلمى الطويل الذى نعمت به مصر فى ظل حكم حتشبسوت قد أطمع البلاد الأجنبية الخاضعة لمصر فى أن تتخلص من سيادتها لأن عدم رؤية تلك البلاد للجيوش المصرية خلال هذه الفترة جعلها تتوهم أن مصر ضعيفة تعجز عن المحافظة على مستعمراتها ، ولذا أخذت تميل إلى الثورة بغية التحرر ولكن ـ لحسن حظ مصر ـ شاءت الأقدار أن يكون على عرشها تحتمس الثالث الذى لم يتوانى عن توطيد سلطانها ولم يدخر فى سبيل ذلك جهدا على الأطلاق ، فما أن انفرد بالحكم حتى خرج فى حملة إلى فلسطين حيث كانت جيوش بعض الإمارات بزعامة أمير « قادش » قد تجمعت عند مدينة « مجدو » ـ وبعد أن سار حوالى ١١ يوما وصل إلى بلدة « يحم Yehem » وهناك كانت أمامه ثلاثة طرق ليصل إلى مجدو حيث تجمع هؤلاء الأعداء : وأحد هذه الطرق قصير ضيق محصور بين سلسلة من التلال ولا يتسع لأكثر من عربة حربية واحدة أما الطريقان الآخران فطويلان يدوران حول سفح جبال الكرمل ، عندئذ جمع تحتمس الثالث مجلسا حربياً مع قواده الذين نصحوه بعدم تعريض الجيش للخطر

باتخاذ الطريق القصير ولكنه أصر على أن يفاجىء عدوه بالمسير فى ذلك الطريق حيث لا يتوقع العدو إقدامه على مثل هذه المخاطرة - وفى فجر اليوم التالى كان على رأس جيشه مسرعا باختراق هذا الممر ثم انتظر إلى أن تم تجمع الجيش وهناك عسكر بجيشه عند مدخل وادى قينا ، وفى فجر اليوم التالى هجم المصريون على مجدو حيث انتصروا على المدافعين عنها ولكنهم شغلوا بنهب معسكر الأعداء فأتاحوا لهؤلاء فرصة الهرب إلى داخل المدينة والتحصن وراء أسوارها وظل المصريون يحاصرون المدينة سبعة أشهر إلى أن استسلمت لهم ، ولكن زعيم قادش تمكن من الفرار ، أما بقية الزعماء فقد قدموا ولاءهم لتحتمس الثالث الذى تقدم بعد ذلك شمالا واستولى على كل ما صادفه من بلاد دون عناء إلا ثلاثة مدن يبدو أنها قاومته بعض المقاومة - ومن الغنائم التى وقعت فى أيدى المصريين يمكن أن تتصور مقدار الثراء الفاحش الذى كان يسود تلك البلاد حيث نجد أن من بين هذه الغنائم عربات حربية مصفحة بالذهب والفضة وأوانى ذهبية وخشب ثمين مصفح بالفضة .

وكانت هذه الحملة بداية طيبة إذ أن نجاحه الساحق فيها جعله يوالى نشاطه العسكرى فى تلك البلاد فكان يخرج إليها كل عام تقريبا حيث كان يذهب إليها فى أوائل الصيف ويعود منها عند إقبال الشتاء ، وقد بلغ عدد هذه الحملات التى خرج فيها إلى آسيا ستة عشرة حملة كان ينظم خلالها شئون البلاد ويشرف على تنفيذ ما كان يأمر به من معابد ومبانى .

وفى خلال حملاته الخمسة الأولى كان يستولى على بعض البقاع الجديدة وأعد بعض الموانى السورية لكى تكون قواعد لأسطوله ولضمان عدم الانقضاض

علـى قواته مـن الخلف عند توغلها فى الأراضى السورية نحو الفرات إذ أنه كان يهدف إلى الوصول إلى ذلك النهر ولكن عدم إستيلائه على قادش كان يحول دون ذلك ـ وما أن وافت السنة الحادية والثلاثين من حكمه حتى قام فى حملته السادسة وفيها تعاون الأسطول مع جيشه البرى إذ قام الأسطول بتموين الجيش ونقل المدد إليه وبذلك تمكن من الاستيلاء على قادش وأصبح من اليسير أن يصل إلى الفرات بعد ذلك ، وفى حملته الثامنة تمكن من الاستيلاء على مدينة قرقميش وأقام لوحة إلى جوار لوحة جده تحتمس الأول .

ومن المرجح أن هذه الحملة الأخيرة كانت ذات أثر كبير فى الممالك القوية المجاورة حيث بدأت تخطب وده ، فقدمت مملكة ميتانى ولاءها وهداياها إلى العاهل المصرى كما قدمت مملكة الحيثيين الهدايا الثمينة إليه طلباً لصداقته وكذلك فعلت ممالك آشور وبابل فأصبحت مصر الدولة الأولى وصاحبة النفوذ الأعلى فى غرب آسيا ، وكان أسطولها القوى يهيمن على ثغور فلسطين وسوريا ويجعلها تحت رحمته .

وكانت آخر حملات تحتمس الثالث فى آسيا فى السنة الثانية والأربعين من حكمه[١] لأن مدينة قادش أعلنت العصيان من جديد ، وفى هذه المرة كان يعاونها ملك ميتانى وأمير تونيب إلا أن تحتمس الثالث استطاع أن يحطمها للمرة الثانية وبذلك قضى على كل معارضة للنفوذ المصرى فى تلك الجهات

---

(١) عن حملات تحتمس الثالث جميعها ـ أنظر .

Urk. IV, pp.647 ff; Breasted, AR II §§ 408ff

حيث أننا نعلم أنه عاش بعد ذلك نحو اثنى عشر عاما لم يحدث خلالها أن اضطر للذهاب إلى هناك .

ويبدو أن الهدوء كان يسود أملاك مصر فى جنوب الوادى حيث تسير حوليات تحتمس الثالث بالكرنك إلى ورود جزيتها بانتظام ابتداء من حملته السابعة (أى من السنة الخامسة والعشرين من حكمه) إلى وقت حملته التى قام بها حوالى السنة التاسعة والثلاثين من حكمه ، غير أن لوحة عثر عليها فى جبـــل البرقل تدل على أن مصر قامت ببعض النشاط العسكرى فى السودان فى السنة الســـابعة والأربعين من حكمه ومن المرجح أنه لم يشترك شخصيا فى هذا النشاط بل كلف بعض قواده بالقيام به ولكنه قام بنفسه على رأس حملة إلى السودان فى السنة الخمسين من حكمه .

ولا شك فى أن تحتمس الثالث كان قائدا ممتازا لشعبه لم تقتصر ميزاته على كفاءته الحربية فحسب بل كانت له نواحى عظمته الأخرى التى مكنته من أن يحكم امبراطورية واسعة (خريطة رقم ٣) ويدبر شئونها ويشرف على كل ما يتعلق بتصريف الأمور فيها ويعرف ما يحـــدث فى مختلف أنحائها ، وقد اتبع من الوسائل ما يمكن أن نعده آخر صيحة فى الدبلوماسية الحديثة إذ أنه كان يحضر أبنـاء أمراء البلاد التى أخضعهـا لـكى ينشئهم فى مصر مع أبناء كبار رجال الدولة حتى يشبوا على حب مصر وصدا قتها[١] كما أنه حاول الإصلاح فى كافة النواحى وحاول الانتفاع بكل ما يمر به

(١) Urk. IV, p. 690; Breasted, AR. §467; T. Säve Soderbergh, Aegypten & Nubien, (Lund 1941), pp. 185, 228 — q, 231

ومن ذلك مثلا أنه أدخـــل إلى مصر كل ماوجده صالحا من نباتات وحيوانات غريبة . وربما كان يدخل كذلك إلى البلاد الأخرى ماكان يلائمها من نباتات وحيوانات مصرية ـ ومن المحتمل أنه كان يشجع بعض الأجانب على القدوم إلى مصر ولم يمانع فى بقائهم بها لأن مظاهر الفن والحضارة التى كانت سائدة فى سوريا وبلاد النهرين أخذت تظهر فى مصر بصورة واضحة .

وكان تحتمس الثالث حاكماً منصفاً يكافىء الممتازين من رجاله ويقدر ذوى المواهب ويحسن اختيار الاكفاء فقد كافأ أحـــد ضباطه ويدعى « أمن ام حب » لانه أنقذ حيـــاته حينما كان يصطاد فى سهل الفرات وهاجمه أحد الفيلة وكان ذلك فى أثناء حملته الثامنة . كما أنه أنصف سلفه العظيم سنوسرت الثالث (١) بتخليد ذكراه وخاصه فى بلاد السودان حيث اعتبره إلهـــا حاميا للنوبة — وكان حين يختار رجاله الاكفاء لشغل الوظائف الهامة يوجههم ويزودهم بنصائحه وتعلياته كما يتمثل ذلك عنـــدما أسند منصب الوزارة الى « رخ مى رع » ، وقد ظهر فى عهد هذا الملك عدد من كبار الشخصيات ذوى الكفاءات الممتازة ؛ ومن المناظر التى نقشت على جدران مقابرهم يمكن أن نتبين مظاهر الرقى فى الحيـاة الاجتماعية التى سادت عصره ومقدار الثراء الذى أخذ يتدفق على مصر فيه ـ ومما لا شك فيه أن قبرص وكريت وغيرها من أقطار ومنطقة حوض البحر المتوسط الشرقى التى لم تكن خاضعة له كانت تخطب ود مصر وتحرص على علاقات الصداقة معها .

---

(١) خامس ملوك الاسرة الثانية عشر ـ أنظر أعلاه ص ١٣٨ — ١٣٩



خريطة رقم ٣ ـ الامبراطورية المصرية فى عهد تحتمس الثالث

ومع أن تحتمس الثالث بذل جهـــودا ضخمة فى حروبه فإنه لم يهمل فى المشروعات العمرانية وشيد كثيرا من المبـانى فى مصر والنوبة من أهمها المعبد الـكبير الذى بنـاه فى الـكرنك وكانت بإحـدى حجراته قائمة الـكرنك التى أشير إليها فى المصادر التاريخيـة (١) ، كذلك كان من أهم مبانيه فى تلك البقعة صالة كبيرة للاحتفالات وأحـد الصروح الـــكبيرة يعرف فى الـكرنك بالصرح السابع ـ وقد أقام عددا كبيرا من المسلات فى مختلف أنحاء القطر وخاصة فى منطقة الـكرنك وبعض هـذه المسلات نقل إلى جهات مختلفـة من العالم مثل القسطنطينيـة وروما ولنـــدن ونيويورك .

امنحتب الثانى :

نشأ هذا الملك فى عهد وصلت مصر فيـــه غاية مجدها العسكرى ، وقد عنى والده بتدريبه على الرماية منذ الحداثة كما عنى بتثقيفه فأنشأ مدرسة فى القصر ليعلمه فيها مع أبناء كبـار الرجال الدولة وأمراء آسيا والنوبة وبذلك حقق والده هدفا هاما إذا ارتبط هؤلاء جميعا برباط الصداقة والود ، وقد عثر على لوحة بالقرب من أبو الهول تصف فروسيـة امنحتب الثانى وحبه للرياضة ومهارته فيها .

ولمـا تولى العرش لم يكد يسمع برغبة بعض الولايات السورية الشمالية فى الانفصال عن مصر حتى تقـــدم نحوها على رأس جيشة حيث هزم

(١) أنظر أعلاه ص ٧٦ — ٧٧

الثائرين ، وفى عودته إلى طيبه أحضر سبعة من أمراء المدن السورية الثائرة ، قتل ستة منهم فى طيبه وأرسل السابع إلى نباتا مقر الحكم المصرى فى السودان ليشنق هناك حتى يكون عبرة لمن تحدثه نفسه من أمراء السودان بالثورة على مصر - وبهذا احتفظ بهيبة مصر فتابعت البلاد الأجنبية إرسال هداياها وجزيتها . وفى السنة التاسعة من حكمه ذلم بفتنة صغيرة فى فلسطين فانتهز الفرصة وقام بجولة تفتيشية بعد أن أخمد الثورة ، وقد دون أخبار هاتين الحملتين على لوحتين إحداها بالكرنك والثانية عثر عليها فى ميت رهينة قرب سقارة (١) كما وصف فى هاتين اللوحتين بطـولته وقوته البدنية .

ويغلب على الظن أنه استطاع أن يمد النفوذ المصرى فى جنوب الوادى إلى أبعد من الحدود التى وصل إليها أسلافه : عثر على آثار له فى جهات كثيرة - وبعد أن حكم ستة وعشرين عاما مات وخلفه تحتمس الرابع .

تحتمس الرابع

يحتمل أنه لم يكن ولى العهد الشرعى كما يمكن أن يستنتج ذلك من اللوحة التى أقامها بين قدمى أبو الهول إذ يذكر فيها بأن الإله حور آختى (الذى يمثله أبو الهول) جاءه فى المنام وبشره بأنه سيصبح ملكا وطلب منه إذا تحقق ذلك أن يزيل الرمال التى تجمعت من حوله ، ويذهب بعض المؤرخين الى أن هذا يدل على أن تحتمس الرابع دبر

(1) ASA XLII (1943), pp. 1 - 13

مؤامرة مكنته من إبعاد أخيه ولى العهد عن العرش وأن هذه المؤامرة قد أغضبت عليه كهنة آمون وحدثت بينه وبينهم جفوة جعلته يتجه إلى كهنة الشمس ويحاول إحياء عبادة (رع) حور آختى كما شجع عبادة قرص الشمس (آتون) ، وهو أول من أمر برسم هذا الإله وهو يعطى الحياة وهذا الرمز الجديد هو الذى اتخذه فيما بعد حفيده اخناتون .

ومع كل فقد أثبت تحتمس الرابع أنه كان جديرا بالحكم حيث أنه قام فى بداية عهده بإخماد الثورة التى نشبت فى بعض المدن السورية كما أنه ذهب بنفسه إلى السودان حيث قضى على ثورة نشبت هناك .

وفى عهده كانت ممالك ميتانى وبابل وآشور وخيتا (الحيثيون) تتنافس فيما بينها على السيادة ولما شعرت مملكة ميتانى بخطر الحيثيين ازدادت تقرباً لمصر ـ وقد شجع تحتمس الرابع هذا التقارب ودعمه بالزواج من ابنة ملك ميتانى ، ويرى بعض المؤرخين أن ازدياد الصلات بين مصر وآسيا واختلاط دم الفراعنة بالدماء الآسيوية كان من الأسباب التى أدت إلى إدخال الليونة أو النعومة وحب الملذات فى دماء الملوك ـ هذا ولم يحكم تحتمس الرابع أكثر من تسع سنوات كان فيها نشطاً للغاية سواء من الناحية العسكرية أو من ناحية تنظيم شئون البلاد الداخلية وترك آثارا فى كثير من الجهات .

امنحتب الثالث

الظاهر أن امنحتب الثالث لم يجد ما يعكر صفو مملكته إذ أنها عاشت طوال عهده تقريبا وهى تنعم بالسلم والرخاء، ولانكاد نجد ما يدل على خروجه فى حملة حربية إلا فى السنة الخامسة من عهده حيث ذهب إلى النوبة

وتوغل فيها كثيرا حتى ليظن بأنه وصل إلى المطبرة (١) . ولكن مما لا شك فيه أن ملكه قد امتد إلى «كاروى» عند الشلال الرابع تقريبا ـ ولم يجد بعد ذلك ما يضطره إلى الخروج فى أية حملة حربية فى عهده الطويل ، ومع أنه أغرم بالصيد وقتا ما إلا أنه لم يكن محبا للحرب .

ولما كان الأمن قد استتب فى أنحاء الدولة فإن الجزية والهدايا تدفقت إلى مصر بانتظام وأصبحت خزائن فرعون مليئة بالذهب والفضة ـ وكان الملك الشاب محبا لحياة الترف والبذخ فانغمس فيها وأدت هذه الحياة به طبعا إلى الانصراف عن نشاطه العسكرى والرياضى أيضا ـ كذلك أقبل رجال الحاشية على نفس الاتجاهات التى أقبل عليها مليكهم فنعموا بحياة كلها ترف وبذخ مما أضعف من شأن مصر وأثر فى سمعتها فى الخارج وكان لذلك أثره السيء فيما بعد .

ومع أن امنحتب الثالث كان ميالا إلى الاستمتاع فى حياته وتغالى فى ذلك إلى أبعد حد إلا أنه كان على درجة كبيرة من الذكاء والمهارة السياسية ـ فحينما تولى الملك أراد أن يبرر جلوسه على العرش ـ لأن أمه كانت آسيوية وزوجته « تى » كانت من عامة الشعب وهما أمران لم يعتدهما المصرى فى فراعنته ـ عمد إلى بناء معبد الأقصر وصور على جدرانه قصة تحاكى القصة التى سبق لحتشبسوت وأعوانها أن يخترعوها للتدليل على شرعية اعتلائها للعرش حيث أنه بالمثل ادعى بأن الإله آمون اتصل

(١) مازال أمر وصول أمنحتب الثالث إلى المطبرة مشكوك فيه ـ قارن
T. Säve Soderbergh, op. cit, pp. 160ff &' Breasted, AR II, 846

بوالدته وأنجبه ، فأصبح بذلك من سلالة آمون (الإله الرسمى للدولة) نفسه أى أنه لم يكتسب حقا شرعيا فى الملك فحسب بل ومقدسا أيضا ـ هذا وقد أقبل على مصاهرة ملوك الممالك المجاورة وعمت صلاته بهم إلا أن ميله الغريزى نحو النساء لم يكن ليقف عند حد وتزوج من أميرات من ميتانى وبابل وآشور فضلا عمـــا كان يرسله إليه حكام بعض المدن السورية من فتيات جميلات مع الجزية ـ ولا شك فى أن علاقات الود التى أوجدها مع الملوك لم تكن خالصة لأن هؤلاء كانوا يأملون دائمـا فى الحصول على بعض الخيرات التى كانت تتـــدفق إلى مصر وخاصة من الذهب ، فمثلا كان ملك ميتانى كثيرا ما كان يرسل إلى صهره (امنحتب الثالث) طالبا المزيد من هذا المعدن مشيراً فى خطاباته إلى كثرته فى مصر الى درجة أنه كان « كالتراب فى وفرته » .

ومن المعروف أن ملوك الأسرة الثامنه عشرة كانوا ينسبون أنفسهم للإله آمون ، وقد اتبعوا سنة تقديم الهدايا لهذا المعبود عقب كل نصر يحرزونه وشيدوا له معابد هائلة أوقفوا عليها أوقافا ضخمة فزاد ذلك من ثراء كهنته وعظم نفوذهم إلى درجـــة أن بعض الملوك كانوا يدينون لهم باكتسابهم حق اعتلاء العرش ، وبالطبع وجد هؤلاء أنفسهم مضطرين للإسراف فى مكافآتهم حتى شعر فريق من الملوك بأن نفوذ كهنة آمون قد أصبح من الخطورة بحيث يهدد سلطان الملك ـ وقد رأى امنحتب الثالث بثاقب فكره أن هذا الامر أصبح يتطلب علاجا فعالا وخاصة لأن سلفه تحتمس الرابع قد بدأ يشجع بعض العبادات القديمة ، وربما كان لتغلغل النفوذ الآسيوى فى البلاط أثره فى محاولة التخلص من سيطرة كهنة آمون والإقلال من شأن معبودهم ، كما أن اتساع رقعة الامبراطورية كان مما يدعو

الى التفكير فى إيجاد معبود يقبله الجميع ويدينون له عن رضى وارتياح وهذا لا يتسنى فى حالة الإله آمون اذ كانت عبادته يكتنفها الغموض والإبهام ، وعلى ذلك اتجهت الانظـــار إلى تشجيع عبادة إله الشمس لأن نعمه وأفضاله كانت ظاهرة واضحة لجميع الشعوب التى شملتها الإمبراطورية . وبالفعل بدأت هـــذه المحاولات منذ عهد تحتمس الرابع على الأقل إذ أنه أعاد الاهتمام بشأن الإله رع حور أختى وحاول أن يوحد بين عبادة آمون وعبـادة قرص الشمس حيث يشير فى أحد النصوص إلى قرص الشمس على أنه هو الإلة آمون ، وحينما تولى امنحتب الثالث كان كهنة الإله آمون مازالوا يتمتعون بالنفوذ الأعلى ولذا أخذ يشجع الديانات الأخرى وخاصة عبـادة الشمس التى كانت ذات مركز عظيم لامن عهد تحتمس الرابع فحسب بل من عهد الدولة القديمة أيضا - ولم يكتف امنحتب الثالث بمجرد تشجيع المعبودات القـــديمة بل أخذ يعلى من شأنها وحاول إيجاد بعض العبادات الجديدة رغبة منه فى الإقلال من شأن آمون ، فأطلق على زورق كان يتنزه فيه اسم « إشراق آتون » وعين أكبر أبنـــائه (وكان يدعى تحتمس) كبيرا لكهنة الإله بتاح فى منف ، ومع كل فقد ظل نفوذ آمون وكهنته على شدته غير أن مقاومة هذا النفوذ لم تكن لتجد تشجيعاً أو قبولا لدى عامة المصريين ، وعلى ذلك نجد أن امنحتب الثالث حينما استحدث عبـادة شخصه الحى وعبادة زوجته « تى » لم يجرؤ على البدء بها علانية فى مصر بل بدأهما بعيدا فى السودان وخاصة لأن عبـــادة الملك الحى لم يسبق لهـا وجود فى مصر .

وكان امنحتب الثالث ميالا إلى تشييد العمائر التذكارية والمعابد والمبانى الفخمة ومن أهمها تلك المعابد التى شيدها فى طيبة سواء فى الشاطىء الشرقى أو الغربى للنيل والقصر الذى بناه لزوجته « تى » على الضفة الغربية للنيل قرب معبده الجنازى ، وقد ألحق بهذا القصر بحيرة كبيرة كان يخرج للتنزه فيها مع زوجته فى قاربه الذى سماه « إشراق آتون » وهو الذى أشرنا اليه فيما سبق .

وفى أواخر عهده أشرك معه فى الحكم ولده الثانى « امنحتب الرابع » الذى عرف فيما بعد باسم « اخناتون » لان أكبر أبنائه الذى أشرنا إلى تعيينه كبيرا لكهنة بتاح توفى دون أن يعتلى العرش ، وفى تلك الأثناء كانت مملكة الحيثيين تقوى وتشتد وأخذت تستولى على بعض الإمارات التى كانت خاضعة لمصر أو حليفة لها ، وكان الأمر يتطلب وجود ملك قوى من طراز تحتمس الثالث أو امنحتب الثانى لكى يحافظ على الامبراطورية لكن امنحتب الثالث كان قد أصبح شيخا محطما ولم يلبث أن مات وترك ولده الضعيف يحكم البلاد .

امنحتب الرابع :

تدل شواهد الأحوال على أن امنحتب الرابع حينما اشترك مع والده فى الحكم كان متأثرا بفكرة إحياء عبادة الشمس فى صورة « آتون » ولكنه كان يفهم هـــذا المعبود لاعلى أنه « قرص الشمس » بل على أنه القوة الكامنة فيه ، وقد أقام لهذه الديانة معبدا فى طيبه التى كانت تعد مقر عبادة الإله آمون . ولا بد أن كهنة آمون لم يشعروا بالارتياح لهذا الاتجاه ونظروا إليه كخطر يتهدد نفوذهم وأخذوا يثيرون المتاعب

فى وجه الملك حتى لايتمادى فيه ولكن الملك كان عنيدا فاشتط فى مسلكه وبدأت الحرب العوان بين الفريقين .

والواقع أن امنحتب الرابع لم يكن فى أول أمره متعصبا كل التعصب للإله « آتون » بل كان يحترم كافة المعبودات ولكنه كان يميل بصفة خاصة إلى تلك التى تتصل بعبادة الشمس مثل « رع » و « آتوم » « حور آختى » . أى أنه لم يكن مخترعا لهذه الديانة حيث أنها عرفت من قبل ولكنه رمز إلى معبودها بصورة جديدة جعلته فى هيئة قرص الشمس الذى تتدلى منه أشعة تنتهى بأيدى تهب رمز الحيـــاة وفى ذلك إشـــارة إلى أن القوة الكامنة فى الشمس تعطى الحياة للكائنات جميعها .

وعبادة الشمس هذه كانت تختلف عن عبادة آمون من حيث أنها عبادة عامة يمكن أن يشترك فيها العالم لأنها تتعلق بظاهرة طبيعية يدركها البشر جميعاً ، وقد جعل اخناتون من نفسه كبيرا لكهنتها ولم يكن يدخل النساء فى خدمتهـــا - ولما بلغ النزاع أشده بين كهنة آمون وبين الملك اشتط هذا الأخير فى محاربته لدين «آمون» متجها بكليته نحو « آتون » حتى أنه لم يكن يعترف بآلهة غيره ، ولكى يبتعد عن طيبة - مقر الإله آمون - أنشأ عاصمة جديدة توخى أن تكون فى بقعة لم يعرف لها إله محلى من قبل وهذه العاصمة هى تل العمارنة الحالية وقد أطلق عليها اسم « اخيتاتون » كما غير اسمه إلى « اخناتون » .

وبلغ من حقده على آمون أن أمر عماله بإزالة اسمه من كل ما يقع

تحت أيديهم من الآثار ، ولاشك فى أن هؤلاء قد بذلوا قصارى جهدهم فى تتبع اسم هذا الإله حتى أنهم محوه من أسماء الملوك إن كان يدخل فى تركيبها .

وكانت الأناشيد التى وضعت لمدح الإله آتون تشبه بعض مزامير التوراة مما جعل بعض المؤرخين يقارنها بها ، ويرى البعض أن اخناتون كان أول مبشر بالتوحيد ولذا اعتبروه عبقريا وأنه يمثل أعظم فلاسفة العالم القديم إلا ان هذا غير صحيح نظراً لأن اخناتون كان فى أول عهده يحترم كل العبادات ، ومع أنه لم يعترف بغير آتون فيما بعد فإنه لم يحارب غير دين آمون وظل يسمح بمباشرة العبادات القديمة الأخرى - ولا شك فى أنه أساء التصرف لأنه لم ينل من السياسة التى اتبعها سوى سخط الكهنة والعسكريين حتى أن أهل عصره لقبوه بعد وفاته بلقب « مجرم آتون » .

ومهما اختلفت الآراء بشأن هذه الثورة الدينية وفى الحكم على شخصية « اخناتون » فإن أحوال مصر الداخلية وظروفها الخارجية لم تكن لتتفق وقيام مثل هذه الثورة ، ولم يكن « اخناتون » بالشخصية المناسبة لتولى عرش البلاد فى تلك الآونة على الاطلاق إذ أنه فى أغلب الظن كان شخصية ضعيفة مهزوزة وألعوبة فى يد أهل بيته ، نشأ محروما من الصفات التى جعلت من أسلافه ملوكا ممتازين فلم يؤت من الكفاءة الحربية أو المهارة السياسية ما يمكنه من مجابهة الأحداث والظروف التى تعرضت لها البلاد ولذا حاول أن يغطى ضعفه بالتفرغ كلية للشؤون الدينية ولم يلتفت لأى أمر من أمور الدولة وأهمل الأعباء الملقاة على عاتقه كملك

لمصر فأخذت الأحوال فى المستعمرات المصرية فى جنــوب غربى آسيا تزداد سوءا وخاصة لأن الحيثيين كانوا قد كونوا مملكة قوية عملت على ضم الولايات السورية إلى ممتلكاتها ونجحت فى إخضاعها لسلطانها الواحدة تلو الأخرى ، كما أن مدنا كثيرة فى فينيقيا وفلسطين أخذت تستقل عن مصر ونشبت الحروب والمنــازعات فيما بينها ولم يبق على الولاء لمصر إلا بعض الولايات الضعيفة التى أخذت تستنجد بفرعون وأرسلت له عديدا من الرسائل ليعمل على حمايتها ولكنه أصم أذنيه ولم يحرك ساكنا .

ولا شك فى أن طائفة من المخلصين وذوى المطامع وجدوا أن الظروف السائدة كانت تدعو إلى التخلص من هذا الملك وسواء كان ذلك بغية إصلاح الأمور أو تحقيقاً لأهداف ومطامع خاصــة فقد دبر هؤلاء مؤامرات لاغتياله ولكن حراسه كانوا دائمى اليقظة والحذر ، ومن المرجح أن اخناتون قد أغضب الكثيرين من المحيطين به ، بل ويحتمل أن زوجته نفرتيتى قد غضبت منه هى الأخرى حتى أنه فى نهاية عهده عزف عن الاتصال بالناس وانتحى بعيدا عنهم فى قصره بينما أقامت نفرتيتى فى طرف آخر من المدينة ، ولا يعرف حتى الآن كيف انتهت حياته ولكن مما لاشك فيه أنه لم يترك وريثاً للعرش إذ كانت كل ذريته من البنات ـ ويرى بعض المؤرخين أن الملكة « تى » والدة اخناتون قد ذهبت إليه فى اخيتاتون وحاولت اقناعه بمهادنة كهنة آمون ولكن المرجح أن جهودها فى هذا السبيل لم تكن موفقة كل التوفيق ، وقبل وفاته بقليل أشرك معه فى الحكم زوج كبرى بناته المدعو « سمنخ كارع » .

ولئن كان عهد اخناتون يمثل فترة من فترات الضعف والفوضى إلا أنه

كان من جهة أخرى يمثل عهداً من العهود التى تميزت بظهور نوع من الفن لم يعرف فى مصر من قبـــل وهو الذى اصطلح على تسميته باسم فن مطابقة الحقيقة Realism حيث أصبح الفنانون يمثلون الأشخاص على حقيقتهم فمثلوا اخناتون بعيوبه الجسمانية ولم يكن هذا متبعا من قبل وخاصة فى تماثيل ونقوش الملوك الذين كانوا يمثلون فى صورة أقرب إلى الكمال الجسمانى ، فمهما بلغوا من الكبر كانوا يمثلون فى شرخ الشباب كما أقبـــل الفنانون على تزيين القصور والمبـــانى بالرسوم والنقوش التى تمثل مناظر الطبيعة فى أجمل صورها ، ولكن ما أن انتهى عهد العمارنة حتى رجع الفنانون إلى صرامة التقاليد القديمة وانتهى عهد هذا الفن الجديد .

سمنخ كارع :

مازلنا نجهل أحداث عهده ولكن من المتفق عليه أنه رجع إلى طيبة(١) وأنه لم يعمر طويلا وتبعه فى الحكم « توت عنخ آمون » .

توت عنخ امون :

كان اسمه « توت عنخ آتون » وهو الصهر الثانى لاخناتون حيث أنه كان متزوجا من ابنته الثالثة ، ويبدو أنه عاش مع نفرتيتى أثناء انفصالهـا عن زوجها اخناتون ـ وقد أسرع هو وزوجته بالعودة إلى طيبـــة بعد وفاة اخناتون وغير اسمه إلى « توت عنخ آمون » واعتلى العـرش وهوحديث السن ولكنه لم يعمرطويلا إذ أنه مات بعد أن حكم نحو ثمانية أعوام

---

(١) JEA XIV; pp. 3-9

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان حينئذ فى الثامنة عشرة من عمره تقريباً ، ومع هـذا فقد حظى بشهرة عظيمة وخلد اسمه فى التاريخ إذ كان لاكتشاف مقبرته (١) دوى هائل فى جميع أنحاء العالم نظراً لما حوته من أثاث وكنوز تعد أثمن عاديات المتحف المصرى بالقاهرة .

والظاهر أن ديانة آتون كانت فى طريقها إلى الزوال منذ أواخر عهد اخناتون وأصبحت أضعف من أن تقف على قدميها بعد وفاته لأن أحداً من خلفـائه لم يحاول على الإطلاق أن يهتم لشأنها بل عادوا إلى ديانة آمون الذى أصبح نفوذه أقوى مما كان (٢) ، ولاشك فى أن ضعف اخناتون وخلفائه كان من أهم العوامل التى أدت إلى ضعف سلطان البيت المالك وإلى القضاء على ديانة آتون فاستطاع بعض رجال ذلك العهد الوصول إلى مركز الصدارة ، ومن أهم هؤلاء « آى » الذى تولى العرش بعد توت عنخ آمون وخليفته « حور محب » الذى يعد مؤسسا للأسرة التاسعة عشرة .

---

(١) أكتشفت هذه المقبرة فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٢٢ ــ أنظر
H. Carter, The Tomb of Tut Ankh Amen (London 1923-33)

(٢) لاشك فى أن الاساليب التى اتبعت فى عبادة «آتون» كانت لاتصادف هوى فى نفس المصرى القديم الذى تعود أن يرى صورة مجسمة للاله فى هيئة إنسانية أو حيوانية كذلك كانت معابد آتون مكشوفة وطقوسه تقام أمام الملأ ولايكتنفها الغموض ولا الإبهام الذى يحيط عبادة الآلهة الأخرى التى كانت معابدها فى أجزاء منها على الأقل بعيدة عن رؤية العامة مما يبعث فى نفوسهم الرهبة وينسبون اليها الاسرار العميقة ولذا كان من المتوقع أن تختفى ديانة آتون ويعود المصريون إلى الديانة التى ألفوها وهى ديانة آمون .

وكان « آى » فى بداية الأمر من رجال الحرب ثم تحــول إلى الكهنوت قبل أن يعتلى العرش أما حور محب فكان قائدا ومشرفا على بيت الملك وشئون القصر .

ويبدو أن البلاد أخذت تحاول النهوض من جديد منذ أن عاد البيت المالك إلى طيبة وبدأ توت عنخ آمون بإصلاح بعض المعـــابد وإنشاء معابد أخرى فى مصر والنوبة وإعادة اسم آمون على الآثار التى محى منهــا ، ومن المرجح أن قائد جيشه حور محب استطاع أن يقضى على بعض الثورات التى نشبت فى فلسطين كما يحتمل أنه أعاد ضم بعض الولايات التى كانت مصر قد فقدتها .

وقد أشارت بعض المصـادر التاريخية إلى أن أميرة مصرية أرسلت إلى ملك الحيثيين رسالة تذكر له فيها أنها ترملت ولم يترك زوجها وريثاً للعرش وأبدت رغبتها فى أن يرسل إليها أحد أبنائه لكى تتزوجه ويعتلى معها العرش (١) ولكن حور محب استطاع مقابلة الأمير الذى أرسل إليها قبل وصوله إلى مصر وقتله .

آى :

كان كبيراً للكهنة ومن الألقـــاب التى أطلقت عليه لقب « الأب المقدس » ، وقد تبع توت عنخ آمون على العرش رغم ما يبدو من تفوق

---

(١) ظن بعض الأثريين أن هذه الأميرة هى نفرتيتى زوجة اخناتون ولكن أصبح من المرجح الآن أنها زوجة توت عنخ آمون (عنخ – س – إن - آمون) أنظر –
O.R Gurney, The Hittites, (Pelican A 259), pp. 31 - 2.

نفوذ حور محب عليه ، والظاهر أنه كان يمت بصلة القرابة للملكة « تى »[١] زوجة امنحتب الثالث « ونفرتيتى » زوجة اخناتون آى أنه كان أقرب الأشخاص لسلفه الملك الشاب .

ولم يحكم آى أكثر من ثلاث سنوات أقام فيها بعض المبانى ، ولا نعرف كثيرا عن حكمه - ومن المرجح أنه تزوج إحدى أميرات البيت المالك التي يرى بعض المؤرخين أنها أرملة توت عنخ آمون ولكن هذا غير مؤكد ، ولعل زواجه بالملكة « تى » أكثر احتمالا - وربما كانت المقبرة التى هيئت على عجل لكى يدفن فيها « توت عنخ أمون » هى التى كانت أصلا معدة للملك « آى » الذى شيد لنفسه مقبرة أخرى.

الأسرة التاسعة عشرة

حور محب :

سبق أن اشرنا إلى أنه كان قائد الجيش وأنه وصل إلى مكانة ممتازة ، كانت تؤهله لأن يكون أنسب رجال عصره لاعتلاء العرش بعد« توت عنخ آمون » لولا أن « آى » كان فيما يبدو ممن يمتون بصلة القرابة للبيت المالك .

والظاهر أن حور محب قضى معظم حياته قبل اعتلاء العرش فى مدينة منف وفى أثناء الفتره التى كان فيها قائدا للجيش بنى لنفسه مقبرة فيها ، ولم يعثر من هذه المقبرة إلا على بعض أحجار قليلة .

---

(١) يرى البعض أنه كان أخا غير شقيق للملكة تى — أنظر JEA 43, p. 35

وقد شاهد الفوضى التى سادت عهد اخناتون وظلت آثارها عقب وفاته ولكنه أظهر ولاءه وإخلاصه للعرش فى أكثر من مناسبة وخاصة فى عهد « توت عنخ آمون » ونال لديه حظوة كبيرة - وحينما مات الملك « آى » لم يكن هناك من هو أكفأ منه ، وأراد أن يكتسب شرعية اعتلائه للعرش فتزوج من الأميرة « موت نزم » التى يظن أنها كانت أخت نفرتيتى .

ولما تولى الملك كانت الفوضى مازالت ضاربة أطنابها والفساد منتشرا فى كافة الشؤون ولذا حرص كل الحرص على إزالة أسبابها فسن القوانين ووضع من التشريعات ماينص على محاربة الرشوة ومنع الظلم والقسوة وخاصة فيما يتعلق بمعاملة الرقيق وصغار المواطنين وحرم تعطيل أى أمر من الأمور التى تتعلق باقتصاديات الدولة كما حرم السرقة واستغلال العمال أو الفلاحين فى العمل دون موافقة سادتهم ، وقد فرض أقسى أنواع أنواع العقوبات على كل من يرتكب إحدى هذه الجرائم ، كذلك أصدر أمره بعمل كثير من الإصلاحات الإدارية وأصلح المحاكم وتشدد فى عقوبة القضاة الذين يحيدون عن العدالة ونظم أمور الجيش ووضع نظاما دقيقا للبروتوكول .

وربما كان فى استطاعته أن يوجه نشاطه نحو الشؤون العسكرية وأن يقوم ببعض الحملات الحربية ولكنه آثر أن يتفرغ للاصلاح الداخلى فعقد معاهدة بينه وبين ملك الحيثيين حتى يتجه بكليته إلى محاربة الفساد الداخلى الذى كان منتشرا فى كافة الميادين حتى أن بعض السرقات حدثت فى المقابر الملكية ولذا أمر بالتفتيش عليها ، وكان من نتيجة ذلك أن أعيدت محتويات مقبرة « توت عنخ آمون » بعد اكتشاف سرقتها وكدست

محتويات المقبرة فيها على عجل ثم ختمت بختم الجبانة بعد اغلاقها للمرة الأخيرة إلى أن تم الكشف عنها - كذلك أمر حورمحب بإصلاح المعابد وترميمها ، وبنى لنفسه مقبرة فى وادى الملوك تعد من أكبر مقابر طيبة .

ولابد أنه نجح فيما كان يهدف إليه من استتباب الامن والقضاء على الفساد لأن مصر تمكنت بعد ذلك من العودة إلى نشاطها الخارجى واستطاعت أن تحصل على انتصارات باهرة .

وقد حكم حورمحب نحوا من ثلاثين عاما ولم يترك وريثا للعرش ، والظاهر أن رجال الجيش كانوا قد سيطروا على البلاد لأننا نجد أن الذى يخلفه على العرش وهو رعمسيس الأول كان هو الآخر من قواد الجيش قبل أن يتولى الملك .

رعمسيس الأول :

كان هذا الملك من مدينة صان الحجر التى كانت مقرا لعبادة الإله (ست) وكان قائدا من قواد الجيش كما سبق أن اشرنا ، وكذلك كان ولده الذى تلاه فى الحكم من القواد أيضا وكان كل منهما يشغل مركز الوزير .

ومع أن حكم رعمسيس الأول لم يتجاوز العامين إلا أنه امتاز بالنشاط فى تشييد المبانى وبالحزم فى إدارة البلاد - وقد بنى معبدا فى بوهن - ويحتمل أن ذلك كان على إثر حملة قام بها إلى السودان فى السنة الثانية من حكمه .

سيتى الاول :

كان سيتى عند موت أبيه قد تجاوز سن الشباب ، وقد تقلد عدة وظائف فى عهد حور محب كما أصبح ساعد والده الأيمن فى أثناء حكمه ولذا سار فى سياسته على نهجه وأمر باتمام مالم يتمه من المبانى بإصلاح الآثار المخربة التى لم يتم إصلاحها ـ وقد حدثت ثورة فى بداية عهده على حدود مصر الشرقية استطاع أن يخمدها ونقش تفاصيل انتصاراته على جدران معبد الكرنك حيث بين فيها أنه هزم بدو سينا وجنوب فلسطين ، والظاهر أن بعض الولايات قد أصابتها عدوى الثورة بعد ذلك بتحريض من مملكة الحيثيين ، وتجمعت جموع الثائرين فى مدن مختلفة تمهيدا للاجتماع فى مكان سرى يقومون منه بثورتهم الجماعية إلا أن سيتى أحبط محاولاتهم إذ أرسل لكل مدينة فرقة من فرق الجيش وتم له النصر فخضعت له فلسطين وفينيقيا وجنوب سوريا ، ثم حدثت ثورة فى ليبيا أسرع بتأديبها على حدود مصر الغربية ـ ومن المرجح أن ذلك كان فى السنة الثانية من حكمه .

والظاهر أن سيتى تكهن بأن الحالة ستظل سيئة فى آسيا طالما استمرت دولة الحيثيين فى دسائسها ضد مصر ولذا سار للقاء الجيوش الحيثية ودارت بينه وبينهم معركة فى شمال قادش عاد منها إلى مصر منتصرا ، ولكن يبدو أن هذا الإنتصار لم يكن حاسما ولم يقض على قوة الحيثيين وإن كان قد أوقف مؤمراتهم ضد مصر فى الولايات السورية .

وتشير النقوش التى نقشت على بعض آثاره الى أنه أخضع نارهارينا

(أى أعالى الفرات) والمملكة الحيثية والاسيا (قبرص)، ولكن يبدو أنه نقل هذه الأسماء من النقوش القديمة وخاصة تلك التى تبين انتصارات تحتمس الثالث وعلاقاته مع تلك الجهات - ويشير نص مؤرخ بالسنة الرابعة أو الثامنة إلى أنه قام بحملة إلى النوبة أخضع فيها بعض أجزائها ولكن يشك فى ذلك أيضا (١)، وحتى مع فرض قيامه بهذه الحملة الى النوبة فإنها كانت قليلة الأهمية بالنسبة لحملاته الأولى فى آسيا ولتلك التى وجهها ضد الليبيين.

ومن المحتمل أنه عقد معاهدة مع ملك الحيثيين احترم فيها كل فريق حدود الفريق الآخر وساد السلام بينهما وبذلك تمكن سيتى من التفرغ للإصلاحات الداخلية فشيد الكثير من المبانى التى (٢) امتازت بالروعة وجمال النقوش وبعضها يعد من أجمل ماتركه الفراعنة من آثار - وقد اهتم سيتى باستغلال المناجم والمحاجر وخاصة مناجم الذهب، وإلى عهده ترجع أقدم وثيقة جغرافية فى التاريخ حيث توجد بردية فى متحف تورين مبين عليها موقع منجم الذهب القريب من معبد الراديسية وقد بينت فى هذه الخريطة الطرق المختلفة وبعض المعلومات التى تساعد على التعرف على الطريق المؤدية إلى تلك المناجم، كذلك أمر سيتى بحفر كثير من الآبار فى الصحراء لمساعدة المسافرين إلى مناطق استغلال المعادن والمحاجر.

---

(١) JEA 25, p. 142

(٢) من هذه مقبرته ومعبده فى البر الغربى للاقصر ومعبد أبيدوس وغيرها

هذا وقد حكم سيتى الاول سبعة عشر عاماً مات فى أثنائها ولى عهده ولذا اعتلى العرش من بعده ولده الثانى رعمسيس الثانى .

رعمسيس الثانى

حظى رعمسيس الثانى بشهرة لم يحظ بمثلها أى فرعون آخر نظرا لأن حكمه الطويل ـ الذى بلغ نحوا من ٦٧ عاما ـ هيأ له الفرصة لتشييد عدد ضخم من المبانى التى خلدت اسمه فى التاريخ .

وفى أول عهده أمر باتمام المبانى التى كان والده قد بدأها ، ومن أهم هذه معبد أبيدوس الذى نقشت به لوحة الأجداد المشار اليها عند الكلام على المصادر التاريخية [١] ومعبد القرنة [٢] كذلك أقام بعض المبانى المختلفة مثل الرامسيوم ومعبده فى الأقصر فضلا عما شيده فى الكرنك وفى جهات أخرى من مصر والنوبة كما نجح فى حفر بئر فى الطريق المؤدية إلى مناجم الذهب بالنوبة .

ومن المحتمل أن مملكة الحيثيين عملت على نقض المعاهدة التى سبق أن أبرمتها مع مصر فى عهد والده حيث أخذت هذه المملكة فى تشجيع أمراء سوريا على الثورة مما جعل رعمسيس الثانى يذهب إلى آسيا فى السنة الرابعة (٣)

---

(١) أنظر أعلاه ص ٦٠

(٢) هو المعبد الجنزى الذى بناه على الضفة الغربية للنيل أمام الأقصر.

(٣) يشير رعمسيس الثانى فى لوحة عثر عليها فى أسوان إلى أنه فى السنة الثانية من حكمه قضى على الأسيويين والحيثيين وبابل وأجانب الشمال التمحو والنوبيين ولكن يبدو أنه لم يقم فى هذه السنة بأى حملة إلا الى النوبة فقط أنظر Breasted, AR III, 45, 478 - 479

من حكمه ويوطد مركزه هناك ويطمئن على خطوط مواصلاته وعلى حاميات الموانى ثم رجع إلى مصر حيث أخذ يعد العدة لمقابلة الجيوش الحيثية التى توقع الاصطدام بها فى سوريا - وبالمثل أخذ ماتيلا - ملك الحيثيين - يستعد لملاقاته فضم إلى قواته كثيرا من قوات أمراء وملوك المنطقة الذين أرادوا التخلص من سلطان مصر كما استعان بكثير من الجنود المرتزقة وجمع كل هذه القوات فى قادش استعدادا للقاء رعمسيس الثانى الذى استعان هو الآخر بالجنود المرتزقة وتقدم فى السنة الخامسة من عهده نحو عدوه وكان يجهل الموقع الذى تجمعت فيه الجنود الآسيوية ، فلما وصل إلى وادى نهر العاصى قبض رجاله على جاسوسين زعما أن ملك الحيثيين قد تقهقر بجيوشه نحو حلب وكان جيش رعميس مقسما إلى أربعة فرق يقود إحداها بنفسه ، فلما علم رعمسيس بما زعمه الجاسوسان أسرع فى تقدمه خلف عدوه إلى الموقع المزعوم دون أن ينتظر أن تلحق به بقية الفرق - فلما عبر نهر الأورنت (العاصى) عسكر بجيشه أمام قادش بينما كان ملك الحيثيين وحلفاؤه يختفون وراء التلال المجاورة لها وسرعان ما علم هؤلاء بوصول رعمسيس الثانى فقاموا بحركة التفاف حول المدينة إلى الجهة الأخرى من النهر ، وما أن أخذت الفرقة الثانية من فرق الجيش المصرى فى عبور النهر إلا وعبر من خلفها هؤلاء المتحالفون وهاجموها على غرة فأصاب الذعر رجالها وجعلوا يفرون إلى المعسكر المصرى طلبا للنجاة وتتبعهم رجال الحيثيين حيث أذهلت المفاجأة رجال الفرقة المصرية المعسكرة التى كان يقودها رعمسيس بنفسه ، ولم يجد رعمسيس بدا من الاندفاع فى الهجوم بفلول فرقتيه دفاعا عن نفسه - ومع أن كثيرا من رجال الفرقتين تخلوا عن الدفاع عنه إلا أن البقية

الباقية التفت حوله كحرس خاص حينما شاهدوا شجاعته الفائقة وثبتت قلوبهم والتحموا مع العدو ـ وفى تلك الأثناء وصلت نجدة من شباب فلسطين المجندين تحت إمرة بعض الضباط المصريين وبذلك أنقذ الملك ورجاله من كارثة محققة وخاصة لأن جيوش المتحالفين كانت قد أخذت فى الانشغال عن القتـــال الصحيح واتجهت للسلب والنهب فى معسكر المصـــريين .

ومع أن القتال انتهى فى ذلك اليوم بنجاة الفرعون ورجاله إلا أن النصر لم يكن حاسما لأى من الفريقين وقد وصلت الفرقتان الأخيرتان من جيش رعمسيس بعدئذ إلى ميدان المعركة وتحفز الجميع لمعركة فاصلة فى اليوم التالى ولكن ملك الحيثيين عرض الصلح واتفق الطرفان على عقـــد معاهدة يحترم فيها كل منهما حدود الآخر ولا يتدخل فى شؤون رعاياه .

وقد عاد رعمسيس بجيوشه إلى مصر ولم يستولى على قادش كما كان يأمل ، أى أن الإمبراطورية المصرية أصبحت قاصرة على فلسطين ولبنان والجزء الجنوبى من سوريا وبعض الموانى ، ومع ذلك فقد أذاع فى طول البـــلاد وعرضها بأنه انتصر على أعدائه وأباد منهم عشرات الألوف ووضعت قصيدة نقشت على كثير من آثاره وهى تصف معركة قادش وشجاعة رعمسيس فى قتاله وحيداً ضد جيش المتحالفين وانتصاره عليهم بفضل مساعدة الإله آمون له ـ ويجب أن لايغيب عن الذهن أن ادعاء رعمسيس الثانى الانتصار يتنافى مع الواقع ، ومن المعقول أنه إذا كان هناك انتصار مصرى على الاطلاق فإنما يتمثل ذلك فى نجـاة الملك فحسب ومما يؤيد ذلك أن المصادر الحيثية تشير ـ على العـكس من ذلك ـ إلى انتصار خاتوسيل

(ملك الحيثيين) وإلى هزيمة المصريين ولاشك فى أن شواهد الأحوال تدل على أن المصادر الحيثية أصدق من المصادر المصرية فيما يختص بهذه الموقعة وخاصة لأن الحيثيين كانوا يحاولون السيطرة على مملكة الأموريين ولكن ملكها بنتشينا وقف إلى جانب مصر ولم يخضع لتهديد الحيثيين وحلفائهم فلما نشبت المعركة اختفى اسم بنتشينا كملك على الاموريين وحل محله سابيلى الذى اعترف بسيادة الحيثيين وهذا يؤكد أن النصر كان حليفهم .

ولابد أن هذه المعركة كانت ذات أثر كبير لأنها هزت النفوذ المصرى فى آسيا هزا عنيفا فلم يكد يمض عامان حتى كانت فلسطين قد ثارت على مصر وامتدت الثورة حتى وصلت الحدود المصرية نفسها فسارع رعمسيس إلى إخماد الثورة وأخضع فلسطين كلها من جديد كما أخضع بلاد الأموريين لسلطانه واستولى على حصن دابور وعلى مدينة تونيب وامتد سلطان مصر إلى فينيقيا ، وربما فرض رعمسيس سيادته كذلك على جزر البحر المتوسط حيث أشار إليها على جدران معبد الرامسيوم ضمن البلاد التى أخضعها وإن كان يبدو أنه تغالى كثيرا إذ دون أسماء بعض الأقطار التى يحتمل أنها خطبت وده بالهدايا على أنها أصبحت خاضعة له .

وقد استقرت الأمور فى آسيا بعض الوقت ولكن حدث أن نشب نزاع عائلى على العرش فى البيت المالك الحيثى وكان هذا النزاع حافزا لرعمسيس على التدخل لمصلحة أحد المتنازعين ولكن منافسة فاز بالعرش وفى نفس الوقت أخذت مملكة آشور تظهر على مسرح السياسة الدولية فى هذا الجزء من آسيا وبدأت تبسط سلطانها على ماجاورها ، وعندئذ رأى خاتوسيل

(الملك الحيثى الذى تمكن من الوصول إلى العرش) أن يكتسب صداقة مصر حتى يتفرغ للصراع ضد آشور فعقد معاهدة صلح مع رعمسيس الثانى فى السنة الحادية والعشرين من حكم هذا الأخير - وقد كتبت هذه المعاهدة على لوح من الفضة بالخط المسمارى وترجمت إلى اللغة المصرية فى نسختين وجدت إحداهما بالكرنك والثانية بالرامسيوم كما عثر على الأصل الحيثى فى بوغازكوى ، وهى تنص على تأكيد الصداقة بين مصر وخيتا وألا تعتدى إحداهما على الأخرى وأن تسلمها المجرمين الفارين من بلادها واستشهدت كل من المملكتين على التمسك بنصوص هذه المعاهدة بآلهة بلادها العظمى - وقد ظلت تلك المعاهدة قائمة يحترمها الجانبان وزاد من توثيقها فيما بعد أن رعمسيس تزوج فى السنة الرابعة والثلاثين من حكمه بابنة ملك الحيثيين التى جاءت إلى مصر فى حاشية ضخمة من الوصيفات الآسيويات ، وانتهز والدها والكثيرين من رجاله فرصة هذه المناسبة وقدموا لزيارة مصر وبذلك حل السلام بين البلدين إلا أنهما تعرضتا لمتاعب أخرى فيما بعد حيث نشب النزاع العائلى من جديد فى البيت المالك الحيثى ثم انهارت دولتهم أمام ضغط عناصر هندو أوربية تدفقت من أواسط آسيا فى عربات ضخمة تجرها الثيران - وقد توفى رعمسيس الثانى قبل أن تهدد هذه العناصر مصر تهديداً مباشرا فكان الدفاع عنها من نصيب ولى عهده مرنبتاح على أن خطرها على مصر لم ينته بعد ذلك تماما بل تجدد فى عهد رعمسيس الثالث الذى كافحهم أيضا

ومما تجدر ملاحظته أن رعمسيس الثانى مات بعد أن بلغ من العمر

أكثر من تسعين عاماً ، ولما كان مولعا بتخليد أعماله فقد أتاح له حكمه الطويل فرصة تشييد عدد من الآثار المعمارية يفوق ماشيده أى فرعون آخر وكان بعض المؤرخين يرى أنه لم يكن صاحب الفضل فى إقامة كل هذه العمائر إلا أننا نلاحظ أنه رغم اغتصابه لآثار بعض من سبقه من الملوك - قد أقام من هذه الآثار عددا أكبر مما أقامه أى فرعون آخر وكان نشاطه فى ذلك لايقف عند حد فلا نكاد نجد منطقة أثرية فى مصر دون أن يرد فيها اسمه كما أنه أكثر الملوك نشاطا فى إقامة المعابد فى النوبة التى تميزت فى معظمها بالموقع الفريد وروعة التصميم وتتجلى عظمتها بصفة خاصة فى معبدى أبو سمبل .

والظاهر أن كثرة مشاغله فى آسيا قد جعلته يؤمن بأن طيبة كعاصمة ذات موقع لايتناسب مع الظروف الدوليه القائمة فهى شاسعة البعد عن مجريات الأحداث العالمية ولذا أنشأ عاصمة جديدة فى شرق الدلتا أطلق عليها اسم « بررعمسيس » ومازال المؤرخون مختلفين فى تحديد موقعها على وجه الدقة ، كذلك نجد أنه أنشأ مدينة عسكرية فى هربيط أدخل فيها عبادة شخصه وهو حى .

وكان رعمسيس الثانى مزواجا تزوج بالكثيرات ومنهن بعض بناته وقد أنجب كثيرا من الذكور والإناث لم يجمع المؤرخون على عددهم ، وقد مات كثير من أبنائه الذكور أثناء حياته ومنهم أكبر أبنائه فلم يخلفه على العرش إلا ولده الخامس عشر وهو مرنبتاح الذى كان - مع ذلك - يقرب من الستين من عمره حينما تولى العرش .

ولاشك فى أن رعمسيس الثانى يعد مسئولا إلى حد كبير عن كثير من عوامل الضعف التى انتابت البلاد وكانت لها آثارها فيما بعد ، فتورطه فى الاستعانة بالجنود المرتزقة الأجانب كان ذو أثر بعيد إذ أن خلفاءه تغالوا فى استخدامهم فضعفت الروح العسكرية لدى المصريين حتى أن فرقة من الجيش المصرى فى نهاية الدولة الحديثة كانت لاتضم سوى خمسمائة من المصريين من مجموع أفرادها الذين يبلغون الألفين فى حين أن بقية أفرادها كانوا من الليبيين والنوبيين ومن شعوب البحر المتوسط وقد زاد زواجه بإبنة ملك الحيثيين التى جاءت إلى مصر فى حاشية ضخمة من امتزاج الدماء المصرية بالدماء الآسيوية وخاصة فى القصر الملكى بين كبار رجالات الدولة وأضعف الروح المصريه الخالصة ، كذلك كان لتشييده عاصمة جديدة فى الدلتا - مع بقاء طيبة متمتعة بالسيادة الدينية كمقر للاله الرسمى فى الامبراطورية - أثره فى ابتعاد السلطة الدينية عن الإشراف الفعلى للسلطة الزمنية مما أتاح الفرصة للكهنة كى يستغلوا نفوذهم بعيدين عن الرقابة الادارية ، كما كان فى قرب « برعمسيس » - العاصمة السياسية - من مواطن الصراع فى الشرق الأدنى (مع ظهور قوة فتية فى غربى آسيا) تهديد دائم لأمن الدولة وسلامتها ، ومما زاد الحالة سوءا شدة ولع رعمسيس الثانى بإقامة المبانى الضخمة ومغالاته فى الإكثار منها حيث أدى هذا إلى إنهاك موارد الدولة واستنفادها ، وفوق ذلك كله كان امتداد أجل رمسيس الثانى نفسه إلى أن أصبح شخصا مسنا للغاية سببا فى عجزه عن القيام بأعباء دولته على الوجه الأكمل ولذا يمكن أن يقال بأن رعمسيس الثانى ترك لخلفائه امبراطورية قد أصابها الوهن وأصبحت فى طريقها إلى الإنهيار .

مرنبتاح :

سبق أن ذكرنا أن مرنبتاح كان يقرب من الستين من عمره حينما اعتلى العرش ومع هذا فقد كان ملكا عالى الهمة لم تحل شيخوخته دون قيامه بجهود مشكورة فى سبيل المحافظة على امبراطوريته ، فلما قامت ثورة فى آسيا فى السنة الثالثة من حكمه لم يتوان فى إخمادها وسجل ذلك على لوحة ورد بها اسم اسرائيل لأول مرة مما دعا إلى الزعم بأنه هو الفرعون المقصود فى قصة موسى الواردة فى الكتب السماوية ولكن لايمكن تأييد هذا الزعم لعدم وجود وثائق تاريخية كافية لتأكيده (١) وسواء قام بإخماد هذه الثورة بنفسه أو أرسل أحد قواده فان اهتمامه بالقضاء عليها يدلنا على أنه لم يشأ التهاون فى حق مصر أو التفريط فيه .

وقد أنقذ مرنبتاح مصر من الهجوم الشامل الذى شنه عليها الليبيون وحلفاؤهم فى السنة الخامسة من حكمه ، وكان الهجوم على ما يبدو نتيجة لهجرات بعض الشعوب الهندو أوربية التى تجمعت على ساحل أفريقيا الشمالى ثم اتجهت مع القبائل الليبية نحو مصر بقيادة أحد الزعماء الليبيين إلى أن وصلوا إلى منطقة فى غرب الدلتا وتوغلوا فيها

---

(١) مازالت الاختلافات كبيرة بين المؤرخين بشأن تاريخ خروج الاسرائيليين من مصر فبعضهم يرى أنه تم فى عهد الهكسوس وبعضهم يرى أنه تم فى عهد الاسرة الثامنة عشرة، وحتى فى هذا يختلفون فمنهم من يعتقد أنه حدث فى عهد تحتمس الثالث، ومنهم من يظن أنهم أخرجوا من مصر فى عهد أمنحتب الثانى أو الثالث ، ومنهم من يرى أنهم خرجوا على إثر ثورة إخناتون الدينية ، كما أن منهم من يرى أنهم خرجوا فى عهد مرنبتاح كما أشرنا .

حتى اقتربوا من كفر الزيات إلا أن مرنبتاح تمكن من هزيمتهم هزيمة ساحقة حتى فروا على أثرها ووقع منهم آلاف الأسرى فى أيدى المصريين ، والظاهر أن فلول الليبيين اتجهت نحو الجنوب بغية الوصول إلى وادى النيل فى منطقة النوبة ولكن المصريين استطاعوا أن يردوهم كذلك .

ولم يطل حكم مرنبتاح أكثر من ثمانى سنوات مات بعدها وترك العرش فريسة للاختلافات العائلية التى نشبت بسبب كثرة عدد الأمراء الذين أنجبهم رعمسيس الثانى - وقد أدى هذا إلى اغتصاب البعض للعرش ولم يحدث فى عهدهم ما يستحق الذكر سوى أن أحدهم وهو مرنبتاح سابتاح ذهب فى حملة إلى النوبة لتثبيت حاكمها فى منصبه عندما قامت هناك ثورة ضده ، ومن هذا نستنتج أن النوبة ظلت على صلتها بمصر وأنها كانت من الأهمية بحيث انتقل اليها الفرعون بنفسه لكى يثبت حاكمها فى منصبه كما يدل ذلك من جهة أخرى على أن الحكم المصرى لم يكن ليقابل فيها دائما بالرضى وإنما كان أحيانا يجد معارضة شديدة إما من النوبيين أنفسهم أو من رجال الإدارة المصريين الذين كان يرأسهم ذلك الحاكم .

وأواخر عهد هذه الأسرة يمثل فترة غامضة لا نعلم عنها إلا أسماء بعض الملوك ومدة حكم كل منهم ومنها نتبين أن غالبيتهم لم يحكموا سوى فترة قصيرة جدا وما زال ترتيب حكمهم مشكوكا فيه ، بل ولا نعرف كذلك كيف انتهت هذه الأسرة وإنما يبدو أن الفساد قد عم أنحاء البلاد وتفاقمت الحالة بسبب وجود عدد كبير من المرتزقة الذين كانوا يتقاضون أجورا باهظة ويتطلعون دائما إلى الاشتراك فى الحروب جريا وراء

الأسلاب والغنائم ، ولما فقدت مصر مستعمراتها فى آسيا نقصت إيراداتها وعجزت عن إرضائهم وخاصة بعد أن زال خطر غزو مصر وهدأت الحالة على الحدود فلم تجد الدولة بدا من أن تقطع بعض هؤلاء المرتزقة شيئا من الاقطاعيات وتركت الباقين وشأنهم حيث أخــذوا يعيثون فى الأرض فسادا باغتصاب ما وقع تحت أيديهم من أموال وممتلكات ونشروا الذعر بين الناس ، ولم تنته الأسرة التاسعة عشره إلا وكانت الثورة قد نشبت فى طول البلاد وعرضها وتمكن شخص من أصل سورى يدعى « إرسو » من أن يعتلى العرش (١) واستبد بالبلاد كما تشـــير إلى ذاك بردية « هاريس » التى تصف على لســـان رعمسيس الثالث « ثانى ملوك الأسرة العشرين » سوء حالة البلاد وتبين أن والده « ست نخت » تمكن من اعتلاء العرش بعد أن طرد الغاصب السورى ونجح فى إعادة الاستقرار وبدأ عهدا جديدا حيث أصلح الإدارة الحكومية وأعاد تنظيم الجيش (٢) ولذا يعد « ست نخت » فى نظر المحـــدثين من المؤرخين مؤسس الأسرة العشرين .

---

(١) يحتمل أنه كان رئيسا للديوان فى أوخر عصر الأسرة ١٩ وكان اسمه « باى » ثم غير اسمه بعد اعتلائه للعرش إلى « إرسو » وقد أجبر الملكة « تاوسرت » على قبـــول اعتلاء ابنها الصغير « سبتاح » على العرش تحت وصايتها بدلا من انفرادها بالحكم ثم اغتصب العرش لنفسه بعد ذلك — أنظر JEA 44, pp. 12 ff

(٢) Breasted, AR IV, §§ 397 ff

الأسرة العشرون

ست نخت :

أحدث سوء الحالة فى نهاية عهد الأسرة السابقة واغتصاب « إرسو » السورى للعرش استياء عاما وخاصة لانتشار المرتزقة من الأجانب والتدهور الاقتصادى الذى منيت به البلاد – ولا بد أن رجال الدين تعرضوا للمتاعب ولم يأمنوا على أملاكهم ونفوذهم فساهموا بنصيب وافر فى تمكين « ست نخت » من اعتلاء العرش وطرد الغاصب ، كما يفهم ذلك من بردية هاريس المشار اليها فيما سبق وإن لم تذكر ذلك صراحة.

وبالرغم من أن « ست نخت » بدأ عهدا جديدا فان مانيثون لا يعتبره مؤسس الأسرة العشرين بل يعتبر أن ولده « رعمسيس الثالث » هو المؤسس لها – ومهما كان الأمر فان « ست نخت » قد أعاد الاستقرار للبلاد باصلاح الادارة الحكومية وتنظيم الجيش – وبذلك هيأ البلاد لأن تدافع عن نفسها ضد أعدائها وجيرانها الأقوياء الذين كانوا يتربصون بها ويطمعون فيها ، وربما كان بعض الغزاة الآسيويين قد تمكنوا من الاستيلاء على الدلتا فى عهد « إرسو » فتمكن « ست نخت » من إجلائهم عنها ، ومع أنه لم يحكم أكثر من عامين إلا أن حكمه كان بعيد الأثر فى الابقاء على كيان الدولة وتأجيل انهيارها – وقد أشرك معه فى الحكم ولده وولى عهده رعمسيس الثالث الذى كان يدبر وينفذ الاصلاحات المطلوبة وبذلك تعود إدارة شئون البلاد ونجلت كفاءته عند اعتلائه للعرش .

رعمسيس الثالث :

ما أن تولى العرش بعد وفاة والده حتى وجد أن الأخطار تحيق بالبلاد من كل جانب فعمل على تقوية جيشه سريعا بإدخال فرق من المرتزقة من العناصر الليبية والسردينية إذ أن الآسيويين كانوا يهددون الحدود الشمالية الشرقية والليبيين الذين سبق أن هزمهم مرنبتاح كانوا يتحينون الفرص للإغارة على مصر والاستيطان فى وادى النيل .

وهكذا كان على رعمسيس الثالث أن يواجه أخطارا فى الشرق والغرب ومع ذلك فقد استطاع فى أوائل عهده أن يخمد ثورة فى آمور ، وفى السنة الخامسة من حكمه استطاع أن يصد هجوما كبيرا شنه الليبيون على مصر كان يعاونهم فيه حلفاؤهم من شعوب البحر ، وقد هزمهم رعمسيس الثالث على حدود الدلتا الغربية وأسر منهم عددا كبيرا من الأسرى .

وفى السنة الثامنة من عهده كانت الشعوب الهندوأوربية التى تمكنت من إسقاط دولة الحيثيين (١) واجتاحت آسيا الصغرى قد أصبحت عظيمة الخطر على مصر لأن موجه كبيرة من هجرتهم أخذت تتجه بطريق البر نحو منطقة شرق البحر المتوسط وتؤيدها فى نفس الوقت سفنها الحربية ، فاستعد رعمسيس الثالث لدفع خطرهم وجمع أسطولا كبيرا ثم تقدم بجيشه فى البر والبحر للاقاتهم قبل أن يصلوا إلى مصر ، وحدثت بين الفريقين معركة فاصلة هزمهم فيها برا وبحرا ، ولا نعرف مكان حدوث هذه المعركة

---

(١) أنظر ص ١٩٤

ولكن تفصيلاتها منقوشة على جدران معبد مدينة هابو الذى شيده فى البر الغربى لطيبه .

والظاهر أن هذه المعركة قد قضت على قوة شعوب البحر فى آسيا قضاء تاما وكانت سبباً فى نجاة مصر وغربى آسيا من خطرهم ولكن خطرا جديدا تهدد مصر مرة أخرى من ناحية الغرب حيث أن الليبيين تحالفوا مع شعوب البحر وكرروا هجومهم عليها فى السنة الحادية عشرة من عهد رعمسيس الثالث إلا أنه تمكن من هزيمتهم على حدود الدلتا ، وحينما ارتدوا إلى الصحراء تعقبهم مسافة قصيرة وأفنى منهم عددا كبيرا وأسر الكثيرين من بينهم قائدهم نفسه ، وهكذا استطاع أن يتخلص من الخطر فى الشرق والغرب على السواء .

ومن المرجح أنه لم يمانع بعد ذلك فى هجرة الليبيين إلى مصر فدخلوها مسالمين حيث استقروا فى بعض جهاتها وخاصة فى الجهات الغربية القريبة من موطنهم الأصلى وانخرط الكثيرون منهم فى سلك الجندية كجنود مرتزقة ، وكان هؤلاء الليبيون يتحلون بريشة فوق الرأس وعرفوا باسم « الماشواش » وكان هذا الاسم يختصر أحيانا إلى كلمة « الما » فقط .

ولما اطمأن رعمسيس الثالث إلى زوال الخطر أراد أن يعيد إلى مصر ممتلكاتها فى آسيا فاتجه إليها على رأس جيشه حيث قام بحملة موفقة يغلب على الظن أنه وصل فيها إلى أعالى الفرات - وقد دونت فى نقوش هذه الحملة بعض التفصيلات ولكننا نشك كثيرا فى قائمة البلاد التى ذكر بأنه أخضعها إذ يرجح أنه نقل معظمها عن مصادر قديمة ، ومع هذا فما لا شك فيه أنه نجح فى إعادة جزء كبير من أملاك مصر السابقة ،

ويكفى أن الأمن قد استتب فى عهده واستقر له الأمر إلى أن مات بعد أن قضى فى الحكم أكثر من ثلاثين عاما لم يصـــادف خلالها ما يعكر الصفو بعد الحروب والحملات التى أشرنا إليها إلا ثورة صغيره قام بها بدو منطقة صير ولكنها أخمدت بسهولة .

سقوط الامبراطورية

حاول رعمسيس الثالث أن يتشبه بسلفه العظيم رعمسيس الثانى فى كل الامور ولكنه ارتكب خطأ كبيراً إذ منـــح كهنة آمون ومعابده كثيرا من الثروات الضخمة حتى أصبح الإله آمون رع يملك مناجم الذهب فى النوبة وتسعة مـــن المدن فى سوريا ونحو العشر من مجموع مساحة الاراضى المنزرعة فضلا عن الأرقاء والماشية والحدائق مما جعل كهنة هذه الإله هم أصحاب النفوذ الفعلى فى البلاد ـ ولم يتوانى هؤلاء فى استغلال الفرصة بل تغالوا فى إظهار قوة آمون ونسبوا إليه القدرة على حل المعضلات حتى أصبح الملوك وكبار الشخصيات يستلهمون وحيه فى معظم شؤون الدولة ويأخذون بما يشير به فى تعيين الموظفين ومعاقبة المذنبين ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل استلهموا وحيه كذلك فى شئونهم الشخصية ولهذا أصبحت طوائف الكهنة تستغل سذاجة العامة استغلالا فاحشا فتدهورت النواحى الأخلاقيه والاجتماعية ـ هذا وقد جمع رعمسيس الثالث حوله عددا من الاجانب وخاصة من الفتيات الجميلات والمستشارين الذين تقلدوا أرقى المناصب وتحكموا فى شئون القصر والبلاط فأخذوا ينافسون الكهنة فى الاستئثار بالسلطة وأوحوا إلى الفرعون بالاكثار من الجنود المرتزقة مما أرهق الميزانية حتى عجز القصر عن دفع مرتبات عمال المقابر فى طيبة ،

ولم يجد هؤلاء بدا من الاضراب عن العمل - وكان الكثيرون من الفقراء يتهالكون جوعا بينما كانت أكداس الحبوب والذهب تتجمع فى مخازن آمون ولم يرحم رجال الدين هؤلاء الفقراء أو يمدوا لهم يد العون ومع ذلك فقد ظل رعمسيس الثالث لاهيا عن شئون الدولة منغمسا فى ملذاته ولا يدرى شيئا عما يجرى من حوله حتى قامت فى الدلتا ثورة أخرى ضده كانت أتريب (قرب بنها الحالية) مركزها - ومع أن هذه الثورة لم تنجح إلا أن الأحوال الداخلية فى القصر كانت توحى بضرورة التخلص من الملك ولذا نجد إحدى زوجاته تنجح فى نهاية عهده فى الحصول على تأييد بعض موظفى القصر لتدبير مؤامرة لقتل الملك كى تتاح لها الفرصة لإعلان ابنها ملكا على مصر (١) ولكن هذه المؤامرة لم تنته بالقضاء على الملك واكتشف أمر الجناة الذين أحيلوا إلى المحاكمة أمام هيئة مكونة من أربعة عشر عضوا من بينهم أربعة من الأجانب - ومما يدل على انتشار الفساد فى البلاد وتفشى الانحلال أن بعض النساء وبعض الضباط استطاعوا إغراء ثلاثة من القضاء لكى يؤثروا فى سير التحقيق ولكن هذا الأمر اكتشف كذلك وقدم هؤلاء الثلاثة إلى المحاكمة فبرىء أحدهم وانتحر الثانى أما الثالث فقد حكم عليه هو ورجال الشرطة بجدع الأنف وصلم الأذنين .

ومع أن خاتمة رعمسيس الثالث لم تكن مشرفة إلا أنه لا شك

---

(1) Breasted, ARIV, §§ 416ff; JEA 33, pp. 152 ff &42 ,pp. 8-9

فى أنه أنقذ البلاد - بل وأنقذ بلادا أخرى كذلك - من خطر العناصر الهندو أوربية التى كانت تقضى على مدنيات البلاد التى تجتاحها ، وقد ظل نشيطاً عالى الهمة فى الجزء الأكبر من حياته وأعاد لمصر شيئاً من مجدها السابق ولم يخلد إلى حياة اللهو والكسل إلا فى أواخر عهده بل ويمكن القول بأن مجد الإمبراطورية المصرية انتهى بعد وفاته ولم تقم لها قائمة بعد ذلك إلا لفترة قصيرة فى عهد الأسرة السادسة والعشرين .

وتوالى من بعده ملوك ضعاف لم يحكموا إلا نحو خمسة وسبعين عاما انتهى بعدها حكم الاسرة العشرين ، وفى خلال تلك الفترة الأخيرة من حكم هذه الأسرة ظلت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ وأخذ سلطان الملوك يتضاءل (ابتداء من عهد رعمسيس الرابع إلى عهد رعمسيس الحادى عشر آخر ملوك الاسرة) حتى أصبحوا ألعوبة فى يد كهنة آمون الذين أن يستأثروا بالسلطة - أما نفوذ مصر خارج حدودها فقد أخذ يزول تدريجيا إلى أن صار قاصرا على بلاد النوبة فقط ، ومع كل فإن هذه لم تستمر على اتصالها بمصر طويلا بل انفصلت بعدئذ وتكونت فيها مملكة مستقلة .

وقد كثرت فى عهد خلفاء رعمسيس الثالث حوادث السرقة والرشوة ولم يكن لأحد منهم نشاط يذكر ، وإن كنا نعرف أن رعمسيس السادس ترك نقوشا على كثير من الآثار فى مصر والسودان وأن كثيرا من مقابر الفراعنة قد سرقت واكتشف أمر سرقتها فى عهد رعمسيس التاسع وبدأ التحقيق مع اللصوص ولكن يظهر أن تلك السرقات كانت مستمرة

من عهود سابقة ، كما يبدو أن الجناة كانوا يطمئنون إلى الموظفين الذين يكشفون أمثال تلك السرقات على أساس إرضائهم بالرشوة مما يدل على تدهور الحياة الاجتماعية وانحلال الأخلاق بصفة عامة - ولما لم يستطع ولاة الأمور القضاء على حوادث السرقة أمر الملوك بنقل موميات أسلافهم خفية من مكان إلى آخر خشية من تكرار سرقتها ، ومن التحقيقات التي أجريت عن سرقة المقابر في عهد رعمسيس التاسع يتبين لنا أن العداء الشخصي بين رئيس البوليس في طيبة الشرقية وبين محافظ الجبانة (أي محافظ طيبة الغربية) كان سبباً في اتهام بعض الأبرياء وتبرئة المجرمين ومن هذا يبدو أن التأثير على المحققين كان أمرا شائعا .

وما أن تراخت قبضة الملوك حتى استفحل شر أمراء الأقاليم وأصبح كهنة آمون أصحاب النفوذ الفعلي في مصر العليا - وما لبثت أسرة قوية في الدلتا أن زادت من نفوذها منذ عهد رعمسيس التاسع ثم حدثت ثورة لم يمكن إخمادها إلا بعد أن جاء « بانحسى » حاكم النوبه وقضى عليها ، إلا أن الثورة تجددت في عهد رعمسيس الحادي عشر [1] الذي لم يجد بدأ من الفرار إلى طيبة حيث استقبله « حريحور » كبير كهنة آمون استقبالا حسنا وبذلك خلا الجو في الدلتا أمام الأسرة القوية التي ظهرت فيها وتمتعت بسلطة فاقت سلطة الملك الشرعي حتى تمكن أحد أفرادها ويدعى « نسوبانبدد » أو « سمندس » من اغتصاب العرش وتكوين أسرة جديدة .

---

(١) Gardiner, op. cit., p. 301

ومما سبق نستطيع أن نتبين سرعة تدهور الأحوال فى مصر فبينما نجد أحد ملوك الأسرة التاسعة عشر(١) يذهب لتهدئة الأحوال فى النوبة وتثبيت حاكمها فى منصبه نجد أن حاكم النوبة « بانحسى » يأتى فى الأسرة العشرين للقضاء على الثورة التى قامت ضد رعمسيس التاسع ولا ينتهى الأمر عند هذا الحد فقد اضطر آخر ملوك هذه الأسرة - رعمسيس الحادى عشر - إلى الفرار من مقر ملكه فى الشمال والالتجاء إلى كبير الكهنة فى طيبة كما سبق أن ذكرنا .

٦ — عصر الاضمحلال الثالث

الاسرة الحادية والعشرون ونفوذ الكهنة

سبقت الاشارة إلى أن رعمسيس الحادى عشر - آخر ملوك الأسرة العشرين اضطر إلى الفرار إلى طيبة لظهور أسرة قوية فى الدلتا تمكن أحد أفرادها ويدعى « نسوبانبدد » (سمندس) من اغتصاب العرش - ومن المحتمل أن زوجة هذا الأخير كانت من أصل ملكى مما يسر له الاستيلاء على الملك بينما رحب حريحور كبير كهنة آمون فى طيبة برعمسيس الحادى عشر وأبقاه إلى جانبه وبذلك أصبح مطلق النفوذ فى مصر العليا لأنه كان - حتى قبل أن يلجأ اليه رعمسيس - يجمع السلطات الروحية والزمنية فى يده حيث أنه كان يجمع بين وظائف رئيس الكهنة

---

(١) أنظر ص ١٩٨

وقائد عام الجيش وحاكم النوبة ، أى أنه كان يتحكم فى شئون الدولة الروحية والزمنية ، فلما أصبح الملك الشرعى إلى جانبه لم ينازع سلطانه أحد فى الجزء الجنوبى من مصر ، ومنذ ذلك الوقت أصبح رؤساء كهنة آمون فى طيبة يهيمنون على السلطات الزمنية والروحية فى جنوب مصر وخاصة لأنهم توارثوا فى نفس الوقت قيادة الجيش وحكم النوبة ، ورغم هذا فان حالة البلاد الداخلية كانت سيئة على العموم .

ولم يعمر (حريحور) طويلا كما أن ولده (بى عنخ) لم يعمر طويلا هو الآخر حيث عاصرهما (سمندس) - وحينما توفى هذا الأخير تبعه فى الحكم (بسوسنس الأول) الذى لا نعلم عن حكمه شيئا يذكر ، أما فى طيبة فان (باى نجم) قد خلف والده (بى عنخ) فى رئاسة الكهنوت وتزوج من إبنة (بسوسنس الأول) .

وقد سارت البلاد من سىء إلى أسوأ وتقلصت مملكة الشمال كما بدأ نفوذ الكهنة فى الاضمحلال أيضاً ، وكانت مصر قد فقدت مستعمراتها فى آسيا ولم يعد لها أى نفوذ فيها منذ زمن ولعل أصدق ما يصور لنا حالة التدهور التى وصلت اليها البلاد وزوال كل أثر للنفوذ المصرى فى الأقطار الآسيوية قصة المبعوث (وينامون) الذى أرسله (حريحور) إلى لبنان لاحضار خشب الأرز اللازم لصنع سفينة آمون المقدسة إذ يبين لنا هذا المبعوث كيف أنه ذهب إلى الملك فى الشمال كى يساعده بالمال اللازم ولم يحظ منه إلا بقدر يسير كما يبين لنا مدى ما تعرض له من صعوبات وكيف نهبت أمواله وأمتعته وأنه لم يقابل من حكام سوريا

ولبنان إلا بالازدراء والاحتقار مع أنه كان يذكر لهم بأنه مبعوث من قبل فرعون مصر ورئيس كهنتها بعد أن كان مجرد ذكر اسم الفرعون فيما مضى كفيل بأن يبث الرعب فى نفوس ملوك آسيا ويجعل أمراء سوريا ولبنان يسارعون بتقديم كل فروض الطاعة والولاء .

ومما زاد حالة البلاد المصرية سوءا وخاصة فى الجنوب أن رئيس الكهنة كان يحكم الناس باستلهام وحى آمون الذى كان يستشيره فى كل أمر وتسلط السحر والشعوذه على أفهام الناس حتى توهم السذج والبسطاء أن الإرادة الإلهية التى يصدرها آمون كافية لتصريف الأمور كلها ، ولم يقم رؤساء الكهنة أو حكام طيبة بأى عمل جليل يذكر سوى مساهمتهم فى نقل جثث الملوك السابقين من مخبأ إلى آخر خشية السرقة بعد أن عجزوا تماما عن حفظ الأمن ، ومع هذا فقد تمتعوا بسلطة روحية كبيرة مكنتهم من التدخل فى كثير من الشئون المدنية بل وأتاحت لهم سلطة زمنيـــة كبيرة إذ كانوا يستطيعون أحيانا - عن طريق وحى آمون - أن يحدوا من سلطة الملك نفسه

وحينما توفى الملك بسوسنس الأول أصبح « باى نجم » الحاكم الوحيد فى مصر كلها وتولى العـــرش باسم « باى نجم الاول » لأنه كان صاحب النفوذ المطلق فى جنوب مصر كما أنه اكتسب حق اعتلاء العرش عن طريق زواجه بإبنه الملك الراحل ، أى أنه جمع بين شرعية ولايته للعرش وسلطة صاحب النفوذ الأقوى فى البلاد وقد أنجب ولدين هما : « ماحسارتى » ، « من خـــبر رع » وقد عين أولهما رئيسا للكهنة ولكنه لم يعمر طويلا

إذ مات فى حياة والده وتبعه شقيقه فى رئاسة الكهنة حيث ظل يشغل هذه الوظيفة إلى أن توفى والده فتبعه على العرش .

وتدل شواهد الاحوال على أن ثورة نشبت فى مصر العليـــا أثناء تولى « ماحسارتى » لرئاسة الكهنوت نفى على أثرها عدد من الثائرين إلى الواحات ولكن - حينما وصل « من خبر رع » إلى طيبة وتقلد منصب رئيس الكهنة على أثر وفاة أخيه - استصدر وحى الإله آمون بالعفـــو عن الثائرين مما يوحى بأن مركزه كان حرجا وان الحالة كانت سيئـــة رغم ما تذكره النصـوص عن حفاوة استقبـاله والترحيب به فأغلب الظن أن ذلك لم يكن إلا ستارا اختفت وراءه مظاهر مناوأة السلطة الحاكمة التى أخذت فى الظهـــور فى مختلف المناسبات ، ومع كل فقد ظل « من خبر رع » متمتعا بالسلطان سواء كرئيس للكهنة أو كحاكم مطلق بعد اعتلائه للعرش فترة تقرب من نصف قرن - ثم ظهر بعدئذ حاكم يدعى « امن - ام - اوبت » لا نعرف صلته بالبيت المالك وربمـا كان مغتصبا اعتلى للعرش فى الشمال ثم بسط سلطانه بعد ذلك على الجنوب ، ومن المحتمل أن نوعا من الصراع نشب بينه وبين « من خبر رع » انتهى بانتصار هذا المغتصب الذى تلاه فى الحكم بضعة ملوك ضعاف بينما ظلت عائلة « من خبر رع » تتولى رئاسة الكهنوت .

وفى غمـرة هذا الضعف الظاهر فقدت مصر هيبتهـا نهائيـا فى سوريا وفلسطين بينما ظلت النوبة على ولائها لها ولكنها أخذت فى الانفصـــال عنها من الناحية الادارية حتى استقلت عنها تماما وفى تلك الاثناء

كانت مملكة العبرانيين قد ازدهرت وعظم شأنها وإن كنا لا ندرى هل تكونت هذه الدولة نتيجة لظهور بعض الاسرات المحلية القوية التى استطاعت أن تستقل بالبلاد أو أنها بدأت أصلا بمساعدة المصريين ـ عند ظهور خطر شعوب البحر المتوسط ـ لكى تساهم فى محاربة هذه الشعوب ودرء خطرها .

ومع ذلك يبدو أن « بسوسنس الثانى » آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين وجد الفرصة للتدخل فى شئون فلسطين والاحتكاك بأمرائها إذ يحدثنا الكتاب المقدس بأن أميرا من ايدوم ويدعى حداد (١) فر خوفا من بطش داود الذى كان قد أنشأ دولة قوية فى فلسطين ، وقد وصل هذا الأمير هو وبعض أخصائه إلى مصر حيث أحسن ملكها استقباله وزوجه من أخت الملكة . وبعد مضى بعض الوقت قام الفرعون إلى كنعان فى ظروف لا تعرف على وجه الدقة واستولى على جزر وخربها وقدمها كصداق لابنته التى زوجها من سليمان (٢)

---

(١) سفر الملوك الاصحاح ١١ أية ١٤ وما بعدها .

(٢) سفر الملوك ١ الاصحاح ١٤ آية ٢٥ ـ ٢٦ ، الاصحاح ٩ آية ١٦

مصر تحت حكم الأجانب

الأسرة الثانية والعشرون

سبق أن أشرنا إلى أن الليبين كانوا يهددون الحدود المصرية فى عهد الدولة الحديثة وأن آخر من انتصر عليهم كان رعمسيس الثالث الذى سمح لهم بعد ذلك بالهجرة إلى مصر مسالمين (١) - وقد وفد منهم عدد كبير ودخلوا فى خدمة الجيش المصرى كجنود مرتزقة ، ومن بين هؤلاء الوافدين أسرة قوية كان يتزعمها « بويوواوا » وقد استقرت هذه الأسرة فى إهناسيا « هرقليوبوليس » ونعمت بشىء كبير من النفوذ والسلطان إذ تولى بعض أفرادها مناصب مختلفة ومنهم من تولى وظيفة كاهن معبد إهناسيا وقائد حرس المدينة فى نفس الوقت ثم أصبحت هاتان الوظيفتان وراثيتان فى أسرته من بعده .

وتطور أمر هذه الأسرة وأصبحت من القوة والنفوذ بحيث كانت تتصل بالملك رأسا (٢) ، وبينما كانت الأسرة الحادية والعشرين تتداعى

---

(١) أنظر أعلاه ص٢٠٢

(٢) كان رئيس لأسرة الليبية القوية التى استقرت فى أهناسيا يدعى شيشنق وقد توفى ولده نمرود فدفن فى أبيدوس ، وحينما اعتدى على قبر هذا الأخير لم يذهب الأب ليشكو لرئيس الكهنة فى طيبة بل ذهب الى الملك الذى صحبه رأسا إلى طيبة ليستفتى وحى آمون ، ولما صدر حكم آمون على الجناة أرسل الملك تمثالا لنمرود ليوضع فى أبيدوس على سبيل التعويض .

وفى طريقها إلى الإنهيار أخذت هذه الأسرة الليبية تقوى وتشتد حتى تمكن أحـــدها ويدعى شيشنق من أن يستولى على العرش وجعل مقر ملكه فى بوبسطه (تل بسطه الحالية قرب الزقازيق) ، ومن المرجح أنه لم يجد الفرصة المواتيه لاتخاذ هذه الخطوة إلا بعد وفاة آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين وانقراض ذريته كما يحتمل أنه كان قد زوج ولده من ابنة هذا الملك فاكتسب بذلك شيئاً من الحق فى اعتلاء العرش بعد وفاة صهره - ويبدو أن كهنة آمون فى طيبة كانوا أقل قبولا لحكمه من أهل الدلتا وإن لم يستطيعوا إنكار حقه فى العرش إذ أنهم لم يعلنوا عن رضاهم ولم يعترفوا له بالملكية مباشرة ودارت بينه وبينهم مفاوضـــات حول اعترافهم به ، ويخيل إلينا أن هذه المفاوضات تعثرت فى أول الأمر لأنهم على الارجح رغبوا فى الحصول على المزيد من السلطة وتجريد الملك من بعض الحقوق التى كان يحتفظ بها ، ومما يؤكد هذا الرأى أن لوحة فى الكرنك عليها نص مؤرخ فى السنة الثانية من عهد رئيس الماشواش(١) الاكبر « شيشنق » بينما نجد على نفس اللوحة نصا آخر مؤرخ بالسنة الثالثة عشرة من عهد الملك شيشنق - أى أنه فى النص الأول كان يعتبر رئيسا لليبيين فحسب بينما اعترف به فى النص الثانى كملك .

ومن المؤرخين من يرى أن طائفة من كهنة آمون لم تقبل الاعتراف بحكمه وفرت إلى بلاد النوبة حيث احتمت فى منطقة نباتا وجعلت منها

---

(١) الماشواش هم المرتزقة الليبيون أنظر ص ٢٠٢ ، ٢١٢

عاصمة للمملكة التى أقاموها هناك ولذا يرجح هؤلاء المؤرخون أن أصل الأسرة النباتية (١) يرجع إلى هؤلاء الكهنة ويستندون فى ذلك إلى شدة ورع ملوك نباتا وإخلاصهم وتفانيهم فى عبـــادة آمون وإلى أن بعض هؤلاء الملوك كانوا يحملون أسماء مصرية ، كما يستنتجون عدم قبول حكم سيشنق أيضا من قيام ثورة بالواحات الخارجية فى السنة التاسعة عشرة من عهده ولكن لا يمكن الاخذ بهذه الآراء إذ ليس هناك ما يؤكد زيادة سلطان أولئك الكهنة فى نباتا أو أنهم تمكنوا من الوصول إلى الحكم وتكوين أسرة مالكة فيها ، كما أن تشابه أسماء بعض الملوك فى نباتا مع الأسماء المصرية قد يرجع إلى أن بلاد النوبة كانت قد تأثرت بالحضارة المصرية منذ وقت طويل واصطبغت بها ، كذلك يغلب على الظن أن ثورة الواحات الخارجية ترجع إلى كثرة وجود العناصر الثائرة بها لأنها كانت تعتبر منـــفى للمجرمين وهؤلاء كثيراً ما كانوا يرغبون فى التخلص من منفاهم .

ورغم ما يبدو ـ لأول وهلة ـ من عدم تحسن الأمور فى مصر فإن سياسة شيشنق الأول الخارجية تدل على أنه كان موفقا إلى حد كبير فحينما تولى العرش كان سليمان ما زال يحكم فى فلسطين وكان النبى أشعيا قد تنبأ ليربعام وهو أحد أمراء اسرائيل المناوئين لسليمان بأنه سيحكم اسرائيل

(١) نسبة إلى نبتة أو نباتا بالقرب من جبل البرقل عند الشلال الرابع فى إقليم مروى بالسودان الشمالى

ولما حاول سليمان القضاء على يربعام هرب هذا إلى مصر حيث لجأ إلى شيشنق(١)- وبالرغم من أن المصريين كانوا يحرصون على علاقات الود مع ملوك العبرانيين الاقوياء إلا أنهم لم يضيعوا أى فرصة تسنح لهم يتمكنون فيها من إضعافهم وأمعنوا فى التدخل فى شئون فلسطين أملا فى إعادة نفوذهم إليها ، وعلى هذا نجد أن شيشنق يعمل بما نصح له به يربعام - الذى يرجح أنه تزوج بإبنة شيشنق - من إعداد العدة لمهاجمة فلسطين ، وكان العبرانيون قد ضاقوا ذرعا بحكم سليمان الذى طعن فى السن وأثقل كاهلهم بالضرائب الفادحة ، فلما مات انقسموا على أنفسهم وانتهز شيشنق فرصة انقسامهم إلى مملكتين (٢) متنافستين وتقدم بجيشه حوالى سنة ٩٢٠ ق . م إلى مملكة يهودا التى كان يحكمها رحبعام ابن سليمان واستولى على خزائن الرب فى أورشليم ، وربما كان سبب عدم مقاومة رحبعام لشيشنق وحليفه يربعام (ملك اسرائيل) يرجع إلى أن النبى أشعيا كان قد تنبأ بتمزق مملكة العبرانيين وأن يربعام سيحكم على عشرة قبائل من قبائلها الإثنى عشر .

واستمر شيشنق فى غزواته حيث امتلك بعض المدائن فى فلسطين لمدة قصيرة ثم رجع إلى مصر ، وقد نقش شيشنق أخبار الجزية التى وصلته

---

(١) سفر الملوك ا الاصحاح ١١ آية ٤٠

(٢) بعد موت سليمان لم يقبل ولده رحبعام تخفيف الضرائب على العبرانيين فلم تعترف عشرة قبائل من قبائلهم الاثنى عشر به ملكا ونادت بيربعام الذى عاد من مصر ملكا عليها مكونه مملكة إسرائيل أما القبيلتان الباقيتان فقد بقيتا تحت حكم رحبعام وكونتا مملكة يهودا

من فلسطين ومن النوبة على جدران معبد الكرنك - وربما كان الباعث الذى دفع شيشنق إلى هذا النشاط هو رغبته فى البحث عن مورد للثروة لأن البلاد كانت فى حالة اقتصادية سيئة ووجـــد أنه من المتعذر فرض ضرائب جديدة لأن حكمه لم يكن مقبولا تماما ، وعلى ذلك اتبع سياسة ملوك مصر التقليدية فى القيام بحملات خارجية لزيادة دخلهم ، ولا شك فى أنه أفاد من ذلك أيضا فى شغل أذهان النـاس عن ولاية العرش والشئون الداخلية ليتمكن من تثبيت أقدامه فى الحكم .

وقد تفرغ شيشنق بعد عودته من حروبه فى فلسطين للشئون العمرانية فى داخل البلاد حيث شيد وأصلح كثيرا من المبانى - ولما مات خلفه ولده «أسركون الأول» الذى كان والده قد زوجه من ابنه بسوسنس الثانى فى حين كان ابنه الثانى « يوبت » كاهنا فى طيبة - ولم ينجب هـــذا الأخير أبناء فاتفق مع شقيقه « أسركون الأول » على أن يكون ابن هذا الأخير خليفة لعمه فى رئاسة كهنوت طيبة ، إلا أن هذا الإبن مات وخلفه ابنه « حرسا إيسى » (حفيد أسركون) - وقد مات هذا الأخير أيضا فتبعه ولدين من أبناء أسركون ثم تبعها الابن الرابع لأسركون ويدعى شيشنق ، وفى تلك الأثناء توفى أسركون وتبعه على العرش « تكاوت الأول » (ثكرتى) ، ومن ذلك نتبين أن أربعه من أبناء أسركون الأول تتابعوا فى رئاسة كهنوت طيبة واعتلى ابنه الخامس العرش من بعده .

والظاهر أن طول مدة حكم أسركون الأول نسبيا وتتابع أفراد أسرته فى رئاسة الكهنوت فى طيبة مما زاد الحالة تعقيدا فى البلاد إذ من المحتمل أن ما تمتع به هؤلاء من نفوذ وسلطان كان يدفعهم دائما إلى إثارة المتاعب

أو محاولة الاستحواذ على مزيد من السلطة ، وربمـــا دأب أسركون على تغييرهم من أجل ذلك لأننا لا ندرى كيف انتهت خـدمات بعض أبنائه فى رئاسة الـكهنة .

ومهما يـكن من أمر فقد بدأ الصراع واضحا بين الشمال والجنوب فى نهاية عصر أسركونـ الاول وبداية عصر « تكلوت الأول » ثم اشتد النزاع بين هذا الأخير وشقيقه الـكاهن شيشنق لان هذا الاخير حينما شعر بقوة نفوذه فى طيبة انتحل الالقاب الملـكية ـ وحينما تولى أسركون الثانى بعد والده تكلوت الأول وجد أن نفوذ عمه يهدد سلطانه وخاصة فى أجزاء مصر الجنوبية ، ولذا عمد إلى الاحتفاظ بهيبة الملـكية فى تلك الجهات، وقام بإصلاح بعض التلف الذى أصاب معابد طيبة باسمه وخاصة فى معبد الأقصر الذى أثر فيه الفيضان ، ومع هذا يبدو أن الخطر ظل يتهدد نفوذ الملك من نواحى متعددة كما يتبين ذلك من تمثال للملك « أسركون الثانى » عثر عليه فى تانيس إذ نقشت عليه دعوات يطلب فيها الملك ن المعبود أن يخلد أبنــاءه فى الحكم وأن يمنحهم السلطة على رؤساء الكهنة وعلى رؤساء (ماشواش) العظام وعلى كهنة هرقليوبوليس ـ ومما جاء فى هذه الدعوات أيضا « اجعل أولادى فى الوظائف التى عينتهم بها ولاتجعل قلب أحدهم يكبر أو يعظم على قلب أخيه » .[1]

فمن هذه الدعوات يمكن أن نتبين سوء الحالة فى البلاد فى عهد هذه الأسرة

---

(١) JEA 46, pp. 12 ff (especially p. 17)

بصفة عامة إذ كانت هنـــاك بضعة قوى متنافرة كل منها تعارض سلطان الملك وهذه القوى تتمثل فى الكهنة ورؤساء الماشواش (المرتزقة الليبيين) الذين أصبحت لهم سطوة كبيرة باعتبارهم يمتون بصـلة للبيت المالك ، وربما أصبح معظم أمراء الأقاليم من هؤلاء الليبيين ـ ولاشك فى فى أن كل طائفة من هذه الطوائف كانت تعمل لمصلحتها الخاصة مما أضعف سلطـان الملوك وتراخت قبضتهم عن الأقاليم فحظى أمراؤها بشىء من الاستقلال والسيادة وإن لم يتعد نفوذهم عواصم أقاليمهم إلا قليلا .

والخلاصة التى يمكن أن نستنتجها هى أن البلاد كانت سائرة فى طريقها إلى الانحلال وأن تنـــازع السلطات بلغ من الخطورة حدا جعل الملوك لايأمنون على عروشهم فهنـاك مايشير إلى أن « أسركون الثـانى » قبل أن يعتلى العرش كان مشتركا فى الحـكم مع والده الذى اتخذ هذه الخطوة لـكى يضمن لولده ولاية العهد ـ وقد اتبـع « أسركون الثانى » نفس هذه السياسة مع ولده « شيشنق الثـانى » الذى مات فى حياته فأشرك معه ابنه الآخر « تكاوت الثانى » الذى استمر معه فى الحـكم سبعة أعوام ثم انفرد بالعرش بعد وفاته .

وأخذت هذه الأسرة بعد ذلك تنحدر نحو الاضمحلال حتى إن ابن تكلوت الثانى ـ وكان يدعى أسركون ـ قد جرؤ فى السنة الحادية عشرة من حكم والده على تقديم بعض الهدايا إلى معبد آمون باسمه الخاص مع أنه لم يـكن إلا رئيسا للـكهنة ، وبالرغم من تقديمه لتلك الهدايا

فإن رئاسته للكهنة كانت فى أغلب الظن غير مقبولة إذ أن أهالى طيبة قاموا بثورة ضده فاضطر إلى الهرب — وبعد نحو عشرة أعوام عاد إلى طيبة بمعاونة بعض أعوان والده ، ويبدو أنه استلهم وحى الإله آمون حينئذ فأصدر هذا عفوه عن الثائرين ولكن ذلك العفو كان مؤقتا فى نظر أهل طيبة على الأقل لأنهم عادوا الثورة فاضطر أسركون للهرب ثانية بعد نحو ستة أعوام من عودته ، وظل مختفيا فى هذه المرة نحو ثلاثة عشر عاما — وفى كل مره كان يختفى فيها تولى رئاسة الكهنوت فى مكانه أحد أفراد الأسرة ويدعى « حرسا إيسى » .

ومن النقوش التى ترجع إلى أواخر عصر هذه الأسرة يتبين لنا أن عهود آخر ثلاثة ملوك فيها كانت تسودها الاضطرابات وقد تلفت فيها آثار كثيرة ولم تنجو عاصمتهم « بوباسطه » من التخريب كما أنها تعرضت بعد ذلك للنهب والتدمير ولذلك كانت معلوماتنا عن هذه الأسرة بصفة عامة ضئيلة للغاية ، ولانجد فيما لدينا من نصوص بعد عهد مؤسسها شيشنق مايشير إلى فلسطين مما يدل على أن نفوذ مصر قد انعدم فيها تماما من بعده .

ويحتمل أن ظهور مملكة آشور فى ذلك الحين جعل بعض الدويلات الآسيوية فى شرق حوض البحر المتوسط تتجمع فى شكل اتحاد ضدها ، ووجد « تكلوت الثانى » أن فى ظهور هذه المملكة الفتيــة خطراً يهدد مصر فأرسل عدداً من المقاتلين كمدد لذلك الاتحاد الذى هزمه شلمنصر الثالث ملك آشور حينئذ ، وأثار ذلك انتباه هذه الدولة الفتية إلى الدور الذى تقوم به مصر ضدها فتحفزت للاصطدام معها .

وفى أواخر عهد « شيشنق الثالث » أى فى أثناء تولى « حرسا إيسى » لرئاسة الكهنوت من جديد نشأت أسرة ملكية (بدأها « بادى باست ») فى طيبة هى الأسرة الثالثة والعشرين ، أى أنها كانت تعاصر الأسرة الثانية والعشرين وخاصة فى الفترة الأخيرة منها ، ولكننا لانعرف كيف نشأت هذه الأسرة ؟ وما هى العلاقة بينها وبين الأسرة السابقة ؟ بل ولانعرف شيئاً عن الدور الذى قام به « حرسا إيسى » عند تعاصر الأسرتين - وكل مايمكن أن نقوله هو أن الأحوال الخارجية والداخلية بصفة عامة لم تكن واضحة تماما .

ومما تجدر ملاحظته أن الأسرة الثالثة والعشرين وقد مرت فى نهايتها بنفس التجربة إذ ظهرت فى الشمال أسرة جديدة (وإن لم تعمر هـذه الأسرة طويلا) كما شاهدت كذلك دخول النبتاويين إلى مصر حيث أسسوا الأسرة الخامسة والعشرين .

الاسرة الثالثة والعشرين :

تمكن الثلاثة ملوك الاخيرين فى الاسرة الثانية والعشرين من الاحتفاظ بسلطتهم على قسمى المملكة الشمالى والجنوبى فيما عدا الفترة التى حكم فيها « بادى باست » فى طيبة (كما أشرنا) حيث انتزع السلطة من ملوك بوبسطة ، ويرى مانيثون أنه مؤسس الأسرة الثالثة والعشرين ولكن يبدو - حسب مايفهم من بردية فى فينا - أن بعض الاضطرابات حدثت فى السنة الرابعة عشرة

من حكمه وأنه اضطر إلى أن يقتسم السلطة مع أحـــد أمراء شرق الدلتا .

ولاندرى على وجه التحديد هل كان « بادى باست » من سلالة كهنة طيبة وتمكن من أن ينتزع السلطان من أمراء بوبسطة ثم تمكن أحد هؤلاء من أن يقتسم معه السلطة على أثر ثورة قام بها ، أو أن « بادى باست » كان مغتصباً لاعلاقة له ببيت الكهنة ولا بالبيت المالك فى الشمال ، وحينما سنحت الفرصة ثار عليها أحد أمراء الشمال واضطره إلى اقتسام السلطة معه .

وعندما اعتلى العرش شيشنق الرابع خليفة بادى باست نجح فى توحيد البلاد من جديد ، ولكن يبدو أن ذلك لم يكن إلا ظاهريا فقط لأن منافسات شديدة قامت بين أمراء الأقاليم الذين كانوا يشعرون بأنهم من القوة بحيث يستطيعون الخروج على سلطان الملك وعلى ذلك حدثت اضطرابات مختلفـــة ، فمن ذلك مثلا ماحدث عند اشتداد المنافسات بين أمير تمى الأمديد وأمير عين شمس إذ انضم إلى كل منهما فريق من الأمراء ونشبت بسبب ذلك حروب عجز فيها « بادى باست » وخليفته « شيشنق الرابع » عن حقن الدماء .

وما أن تولى « أسر كون الثـالث » حتى كانت البلاد قد انقسمت إلى إمارات صغير تتشاحن فيما بينها ، كانت الإمارات التى تمتد من الوجه البحرى إلى الأشمونين تتقاتل فيما بينها بصورة تشبه إلى حد كبير ما كان يحدث فى عصور ما قبل الأسرات ـ وقـــد وصلنا نحو ثمانية عشر اسما لأمراء من هؤلاء المتنازعين ، وفى خضم هذه الاضطرابات التى كانت تعانى

منها البلاد والتى جملت من ملكها أشبه بحاكم على إقليم العاصمة « بوبسطة » ولا يتعدى نفوذه كثيرا حدود هذا الاقليم كانت اسرائيل فى صراع مع دولة آشور فلم تتمكن مصر من تقديم المساعدة لها ، بل وكانت مصر بالنسبة لظروفها الخاصة تعد فريسة سهلة لكل من يطمع فيها من جيرانها ولكن لم يغامر أحد بالإغارة عليها فى ذلك الوقت - واستمر بعض خلفاء « أسركون الثالث » يحكمون فترة وجيزة إلى أن ظهر أمير قوى فى « سايس » (فى غرب الدلتا) هو « تفنخت » الذى حاول أن يخضع كل أمراء الدلتا لسلطانه . وفى نفس الوقت كانت أسرة حاكمة قد تكونت فى نباتا واستطاعت أن تبسط سلطانها على كل السودان الشمالى وبلاد النوبة ومصر العليا حتى طيبة .

وأول من سمعنا عنه من ملوك هذه الأسرة النبتاوية فى النصوص المصرية هو « كاشتا » ثم تلاه « بعنخى » الذى أخضع البلاد كلها لسلطانه ، ولذا يعتبره بعض المؤرخين مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين كما يطلق فريق من المؤرخين على هؤلاء النبتاويين اسم « الاسرة الاثيوبية » لكن نظرا لاختلاف مداولات اثيوبيا والنوبة باختلاف العصور ، وعدم دلالة أيها على كل الأجزاء التى ارتبطت بمصر أيام الفراعنة ، ولعدم تأكدنا من أصل هذه الأسرة حتى الآن فإننا نفضل الإشارة إلى هذه بالاسم المشتق من اسم عاصمتها نبته أو نباتا أى « الأسرة النبتاوية » .

الاسرتان الرابعة والعشرون والخامسة والعشرون :

ما زال المؤرخون يختلفون فى أصل الأسرة النبتاوية وما زلنا نجهل كيف استطاع أحد ملوك هذه الأسرة وهو « كاشتا » أن يفرض سلطانه على مصر مصر العليا حتى طيبة ، وبذلك أصبح يحكم مملكة تمتد - على الأقل - من الشلال الرابع جنوبا إلى طيبة شمالا أى أنه كان يحكم فى إقليم النوبة الغنية فضلا عما كانت مملكته تنعم به من وحدة متماسكة ، على عكس الحال فى مصر التى فقدت أملاكها فى آسيا كما تنازع فيها الأمراء ورجال الدين على السلطة إذ وجدوا فى ضعف الملوك خير مشجع لهم على التمادى فى محاولة الاستئثار بها - وقد تطورت الامور بعد ذلك سريعا فى مصر لأن « تفنخت » أخذ يمد نفوذه على بقية الأمراء فى الدلتا محاولا أن يعيد الوحدة إلى البلاد ، فبعد أن قهر أمراء غرب الدلتا سار جنوبا حيث استولى على شمال الوجه القبلى ثم عاد فبسط نفوذه على شرق الدلتا ووسطها أى أنه أصبح ملكا بالفعل على الوجه البحرى وشمال الوجه القبلى إلى بنى حسن ولم تقاومه إلا إهناسيا عاصمة إقليم الأشمونين - وفى تلك الأثناء كان « بعنخى » قد تولى الملك فى النوبة (بعد كاشتا) ، ولم يهتم بادىء الأمر لنجاح تفنخت فى بسط نفوذه على بقية أمراء الدلتا ولكنه رأى فى عودة تقدمه إلى الصعيد خطراً يهدد نفوذه هناك وانزعج كثيرا حينما علم بأن « نمرود » أمير الأشمونيين استسلم له فى النهاية بل وانضم إليه أيضا ، وعلى ذلك أمر بعنخى قواته بالتقدم شمالا نحو تفنخت لوقف تقدمه إلى الجنوب - ومن المحتمل أن القوات النبتاوية لم تصادف نجاحا كبيرا فى أول الأمر فاضطر بعنخى أن يتقدم بنفسه نحو الشمال ، وما أن وصل إلى طيبة حتى استراح بها وقدم الهدايا لآمون ثم واصل

سيره شمالا مخضعا كل الأقاليم التي كانت في طريقه إلى أن وصل إلى الأشمونين حيث دارت معركة بين أسطوله وبين الأسطول المصرى هزم فيها هذا الأخير ، وفر تفنخت شمالا ليعيد تنظيم قواته ويقوى من تحصيناته .

أما نمرود فقد تحصن في الأشمونين ودافع عنها ولكنه ـ إزاء حصار بعنخى ـ أجبر على التسليم وأرسل زوجته للتوسط له عند حريم بعنخى ، وقد استولى بعنخى على كثير من نفائس المدينة ثم تقدم شمالا نحو منف التي كان تفنخت قد احتمى بها ـ وفي أثناء حصار بعنخى لها فرتفنخت قبل أن تسقط في يده ، وما أن استولى عليها حتى ذهب إلى معبد عين شمس حيث أعترف به ملكا على مصر ـ وهنا وفد عليه « أوسركون الثالث » الذى كان يحكم في بوبسطة وقدم له الخضوع والولاء ، وبعدئذ توجه بعنخى إلى « أتريب » حيث أقبل عليه أمراء الدلتا يعلنون له الولاء ـ وفي تلك الأثناء كان تفنخت قد وصل في فراره إلى بلدة صغيرة مجهولة تعرف باسم « مسد » فأرسل بعنخى قوة فتمكنت بحاميتها واضطر تفنخت أن يلجأ إلى الى جزيرة صغيرة في شمال الدلتا تحيط بها المستنقعات ومن هناك أرسل الهدايا إلى بعنخى راجيا منه أن يرسل من قبله رسولا إلى معبد مجاور كي يقسم أمامه يمين الطاعة والولاء له ، وقد تم ذلك فعلا ، وعندئذ قدم بقية الأمراء ولاءهم له أيضا فأصبح بعنخى حاكم مصر المطلق ، أى أن ملكه قد امتد من نباتا (أو أبعد منها قليلا إلى الجنوب) الى أقصى شمال الدلتا ـ ومعنى هذا أنه كان يحكم مملكة لاتقل عن الامبراطورية المصرية في أوج عظمتها باستثناء الأجزاء الشمالية الشرقية في سوريا وفلسطين .

ويدهشنا أن بعنخى لم يستمر طويلا في مصر بل عاد مسرعا إلى نباتا

ومازلنا نجهل الأسباب التى دعته إلى ذلك إذ أن عودته السريعة جعلت بعض المؤرخين يشبهون حملته بمغامرة ليس لها غد إذ لم تكن ذات نتائج حاسمة ، ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن الفترة التى غزا فيها بعنخى مصر هى الفترة الوحيدة التى أمسك فيها تفنخت عن ادعاء حكم مصر حيث يبدو أنه ما أن رجع بعنخى إلى عاصمة ملكه فى النوبة إلا وعاد تفنخت إلى ادعاء حكمه لمصر بأكملها ، وإن كنا نرجح أن ملكه لم يكن ليتجاوز منف جنوبا ، بل وكانت بقايا الأسرة الثالثة والعشرين تحكم فى بوبسطة فى نفس الوقت أيضاً ـ ويبين الجدول بالصفحة التالية كيف حكم مصر ملوك يمثلون أسرات مختلفة فى نفس العصر .

فاذا اعتبرنا أن ملوك نباتا هم ملوك الأسرة الخامسة والعشرين فى مصر فإننا فى هذه الفترة نجد مثالا آخر لمعاصرة بعض الأسرات المصرية (١) للبعض الآخر ، فبينما تحكم الأسرة الثالثة والعشرين فى بوبسطة يسيطر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين على مصر بالفعل أو على الأقل يتحكمون فى الصعيد ويسيطر تفنخت الذى يعتبر مؤسساً للأسرة الرابعة والعشرين على معظم الدلتا وكانت عاصمته سايس ـ هذا وقد ظلت نبته تسيطر على الصعيد حتى بعد أن عاد تفنخت إلى اتخاذ الألقاب الملكية وربما كان السبب فى خروج أمراء الوجه البحرى على نفوذ نبته يرجع إلى أنهم كانوا أقرب إلى الاتفاق مع تفنخت من أمراء الصعيد ،

(١) أنظر الأسرات ٨ و٩ و١٠ و١١ و١٣ و١٤ و١٧ الهكسوسية و١٧ المصرية من ص ٨٩ ومابعدها ١٠٥ و ١٠٩

جدول يبين معاصرة الأسرات ٢٢ - ٢٥ بعضها البعض

الاسرة الثانية والعشرون شمالية - جنوبية	الاسرة الثالثة والعشرون شمالية	الاسرة الرابعة والعشرون شمالية	الاسرة الخامسة والعشرون بدأت من نباتا
شيشنق الاول ٩٥٠-٩٢٩ق م			
أسركون الاول ٩٢٩-٨٩٣ق م			
تكلوت الأول ٨٩٣-٨٧٠ق.م			
أسركون الثانى ٨٧٠-٨٥٤؟ق م			
شيشنق الثانى ٨٥٤-٧٤٧ق.م			
تاكلوت الثانى ٨٤٧؟-٨٢٣ق.م			
شيشنق الثالث ٨٢٣-٧٧٢ق.م			
بامى ٧٧٢-٧٦٧ق.م			
ششينق الرابع ٧٦٧-٧٣٠ق.م			
	بادى باست ٨١٧-٧٦٣ق.م		
	شيشنق الرابع ٧٦٣-٧٥٧ق م		كاشتا ٠٠؟-٧٥١ق.م
	أسركون الثالث ٧٥٧-٧٤٨ق.م		(لم يتجاوز حكم مصر العليا)

تكلوت الثالث امنرود أشركون الرابع ٧٤٨-٧٣٠ق.م	تفنخت ٧٣٠-٧٢٠ق.م بوخورس ٧٢٠-٧١٥ق.م	بعنخى ٧٥١-٧١٦ ق م (أخضع مصر كلها لسلطانه) (ولكنه رجع الى نباتا بعد فتح مصر) شبكا يعود الى مصر حوالى ٧٠٧-٦٩٦ ق.م (تظل علاقة هذه الأسرة بمصر الى حوالى سنة ٦٥٦ ق م) - رغم أنه من المحتمل أن بسماتيك الاول مؤسس الأسرة السادسة والعشرين كان قد أعلن نفسه ملكا على مصر حوالى ٦٦١ ق.م ولكن نفوذه كان قاصرا على الوجه البحرى فى أول الامر (١)

(١) أنظر ص ٢٣٤ وما بعدها

وفى نفس الوقت كان نفوذ « كبيرة محظيات آمون فى طيبة» (٢) عاملا أساسيا فى نفوذ مملكة نباتا فى الصعيد لأننا نعرف أن ابنة أسركون الثالث التى كانت كبيرة محظيات هذا الإله قد تبنت شقيقة بعنخى .

ولما توفى تفنخت تبعه ولده « بخورس » فى الحكم فى سايس ، وقد رأى هذا الأخير أن نفوذ آشور قد ازداد إلى درجة كبيرة فلم يجد بدا من إرسال هدية إلى « سرجون الثانى » ملك آشور (٧٢١ - ٧٠٥ ق م) وربما كان بخورس يرمى من وراء ذلك إلى توطيد علاقاته مع ملك آشور أو أنه كان يهدف إلى اكتساب عطفه إذا ما أراد أن يعارض نفوذ نباتا ، وقد اعتبر سرجون الثانى هذه الهدية بمثابة الجزية وادعى خضوع مصر لسلطانه .

---

(٢) يبدو أن الملوك حينما شعروا ضعفهم أسندوا وظيفة كبيرة محظيات آمون إلى سيدات من البيت المالك ولكن لاتوجد إلا إشارات ضئيلة عن هؤلاء فى الاسرتين ٢١ و٢٢ ولاتعرف سلسلة المحظيات إلا إبتداء من عهد أوسركون الثالث (ثالث ملوك الأسرة ٢٢) الذى عين ابنته فى هذه الوظيفة ليحد من نفوذ كهنة آمون على الأرجح ، ولما وصل نفوذ كاشتا إلى مصر العليا أجبر شبن وبت الأولى ابنة أوسركون على أن تتبنى ابنته ، ومن ذلك الوقت ظهرت سلسلة من التبنى حيث كانت كبيرة المحظيات تتبنى إبنة الملك الحاكم أو أخته — أنظر
Jean Leclant, Enquètes sur les Sacerdoces et les Sanctuaires Fgyptiens (Le Caire 198)

الصراع الآشورى النبتاوى على مصر

كان لما وصلت إليه مصر من ضعف ولوجود قوتين عظيمتين فى آشور ونبته واتساع ملكهما وزيادة أطماعهما أكبر الأثر على الحالة الدولية إذ كان لابد لهاتين القوتين من أن تصطدم إحداهما بالاخرى ، وقد تعود ملوك مصر منذ بداية الأسرة الثالثة والعشرين على إرسال الهدايا لملوك آشور حتى يصرفوهم عن غزو مصر - ولانكاد نعلم شيئاً عن الحالة فى نبته بعد عودة بعنخى سوى أنه توفى بعد نحو عشر أعوام (حوالى سنة ٧٣٠ ق م) وتبعه « شبكا » على العرش .

وقد بسط شبكا سلطانه على مصر ونقل عاصمته إلى الدلتا ولكننا لا ندرى هل تم له ذلك عن طريق الاستيلاء على مصر عنوة أو أنه وفق إلى فرض سلطانه عليها دون حاجة إلى جهد عسكرى - وينسب مانيثون إلى هـذا الملك أنه أحرق بخورس حيا كما يعتبره مؤسس الاسرة الخامسة والعشرين ، كذلك يذكر بعض المؤرخين أنه لم يحكم فى النوبة وإنما حكم فى مصر فقط - وبما أن بعنخى أخضع البلاد كلهـا لسلطانه بل وكان كاشتا يحكم الصعيد من قبل فإنه لايمكن اعتبار شبكا مؤسسا للأسرة الخامسة والعشرين وخاصة أنه ثبت بالدليل القاطع أن شبكا حكم مملكة مترامية الأطراف كانت تمتد جنوبا إلى ما وراء الشلال الرابع كما كانت الواحات تخضع له أيضا . (١)

ولما وقفت القوتان (آشور ونباتا) وجها لوجـه بدأ ملوك نبته سياسة جس النبض ، بل ومن المرجح أنهم أرادوا أن تكون علاقتهم

---

(١) BIFAO.51,p.9n .4

بآشور ودية بدليل وجود أختام من الصلصال فى أرشيف نينوى تحمل اسمى شبكا وسرجون الثانى جنبا إلى جنب ، كذلك وجد ختم لشبكا فى كيونجك يحتمل أنه كان ختما لرسالة أرسلت منه إلى الملك الآشورى ، فلما أرسل الأخير رده إلى شبكا اعتبره هـــذا دليلا على خضوع الملك الآشورى له إذ أننا نجد أحد نقوش شبكا يمثله وهو يخضع الشعوب الآسيوية والأفريقية بالطريقة التقليدية المعروفة فى مصر الفرعونية .

وحينما أخضع سرجون الثانى سماريا ونقـــل أهل اسرائيل إلى بلاد النهرين لم يبق من فاصل بين آشور ومصر (منطقة نفوذ نبته) إلا مملكة يهودا الصغيرة التى كانت تتأرجح بين الخضوع للملك الآشورى أو الملك مصر ، ثم ما لبثت كل الممالك الصغيرة فى فلسطين ومن بينها يهودا أن خضعت لآشور - وقد ذاقت هذه الممالك الأمرين من حكمها فثارت ضدها وبعدئذ لم يمكن هنـــاك بد من غزو الآشوريين لمصر لأن شبكا كان ، يثير قواتها المتحالفة ويشجعها ، إلا أن سرجون استطاع أن يقضى على تلك القوات وأن يوطد مركزه فى هذه الامارات .

وبعد أن حكم شبكا اثنى عشر عاما مات وتبعه فى الحكم « شبتكو » الذى لم يحكم إلا فترة وجيزة حدث خلالها أن توفى « سرجون الثانى هو الاخر وتولى بعده « سنخريب » الذى ضاق ذرعا بمؤامرات مصر وثورات الدويلات الصغيرة فى غرب آسيا . فحاصر أورشليم إلى أن أخضعها واضطر ملكها « حزقيا » إلى دفع ضريبة ضخمة كان من جرائها أن جردت المعابد من كنوزها ونفائسها وبعدئذ عاد الآشوريون إلى بلادهم حيث يبدو أن وباء انتشر فى صفوف جيشهم ، كما أن الأحوال الداخلية فى بلادهم

لم تكن لتشجع على التقدم إلى مصر - ويشير الكتاب المقدس إلى ذلك فيذكر أن الأشوريين رجعوا من فلسطين «نتيجة لوصول طهرقة ولوصول ملاك الرب» (١).

ولايعرف إلا القليل عن حكم شبتكو إلا أنه فى الغالب لم يهتم بالشئون الخارجية أو على الأرجح لم يجد فى نفسه القدرة على المغامرة فيها فكرس جهوده للبناء ، وقد ذكر مانيثون بأن «طهرقة» قتل شبتكو واعتلى العرش من بعده واتخذ تانيس عاصمة له ولكن هذه الرواية لايمكن مقابلتها إلا بالشك(٢).

وكان طهرقة قائدا للجيش منذ عهد شبكا وما أن اعتلى العرش حتى أخذ ينظم المقاومة ضد الأشوريين ، ولكنه أهمل فى سياسته الداخلية بل ولم ينجح فى سياسته الخارجية أيضا لأنه لم يقدر الظروف حق قدرها إذ أنه لم يقم بأى جهد فى سبيل تنظيم الإدارة الداخليـــة التى ساءت إلى أبعد حد كما أنه لم يستعد الاستعداد الحربى الكافى لمواجهة خطر آشور بالرغم من أنه كان يدبر المؤمرات ضدها ويتعاون مع الولاة الذين كانوا يناوئونها وخاصة أمراء صور وصيدا .

---

(١) سفر الملوك الثانى الاصحاح ١٩ الايات ٨ - ٣٥ - والمعروف أن طهرقه كان قائداً للجيوش المصرية فى ذلك الوقت أن يعتلى العرش بعد وفاة شبتكو .

(٢) كان نظام توارث العرش فى الأسرة النباتاوية يجعل من طهرقة وربما لأخيه شبتكو فلم يوجد مايدعوا لأن يقتل طهرقه أخاه أنظر Macadam, Kawra I, pp. 22 ff

ويبدو أن نهاية سنخريب لم تكن سارة إذ اغتاله أحد أبنائه (١) وتولى بعده « أسر حدون » الذى أخضع الولايات التى ناوءته بمنتهى العنف ، فما أن امتنع والى صيدا عن دفع الجزئية حتى دفع حياته ثمنا لذلك ـ وحينما أصغى ملك صور الى رسالة طهرقة التى كانت تدعوه لمناوءة آشوروجه أسرحدون ضرباته للقوتين معا فحاصر صور وأرسل فى نفس الوقت حملة إلى طهرقة فى مصر ، لكن حصار صور استمر خمسة أعوام واضطر الجيش الذى أرسله إلى مصر أن يتقهقر مما أحنق أسر حدون وأثار غضبه على طهرقه ، فتقدم بجيشه نحو مصر وهزم النبتاويين عند الحدود المصرية ، وحينما تراجع طهرقه إلى منف تبعه الآشوريون واستولوا عليها وخربوها ولكن طهرقة فر الى الجنوب ـ أما أمراء الدلتا فقد قدموا ولاءهم لآشور وأبقاهم أسر حدون فى مناصبهم كولاة من قبل الاشوريين ، وما أن ترك أسر حدون مصر عائدا الى بلاده حتى رجع طهرقه إلى الدلتا بجيش آخر جمعه من مصر العليا ومن السودان واحل منف ثانية وقام ببعض الاصلاحات فيها كما استأنف علاقاته مع ملك صور .

وإذا مانظرنا إلى حالة الدلتا فى ذلك الوقت نجد أن معظم أمرائها كانوا موالين للملوك نبته الذين كانوا ينتمون إلى أصل مماثل لأصلهم بينما كان الاشوريون يمثلون عنصرا آخر ، ولم يكن المصريون ليرتاحوا كثيرا إلى العناصر الآسيوية وخاصة إذا دخلت هذه العناصر إلى البلاد غازية

(١) سفر الملوك الثانى الاصحاح ١٩ الآية ٤٧ .

أو ذات نفوذ ، ومع هذا فلا شك فى أن بعض الأمراء كانوا يترددون بين الولاء للملوك نباتا والخضوع لأمراء آشور - ومن المؤكد أن طهرقه لم يعد الى الدلتا الا بعد أن وجد تشجيعا من معظم أمرائها حيث كتب له هؤلاء على اثر عودة أسر حـــدون الى بلاده يطلبون إليه القدوم إلى مصر واقتسام السلطة فيما بينهم (١) .

وقد علم الآشوريون بأمر هذه الرسائل وكان أسر حدون يستعد لإعادة فتح مصر ولكنه توفى وتبعه «آشور بانيبال» - وقد تقدم هذا الاخير على رأس جيش كبير وأعاد فتح مصر ففر طهرقة إلى منف ومنها إلى طيبة إلا أن جيش آشور تبعه اليهما وخربهما ففر طهرقه الى نبته بينما قبض على المتآمرين من أمراء الدلتا وأرسلوا الى نينوى لمحاكمتهم ، وكان من بين هؤلاء « نكاو » أمير صالحجر الذى - بدلا من معاقبته - أعيد الى وظيفته مكرما كما عين ولده « بسماتيك » (٢) أميرا فى أتريب ولاندرى سببا لذلك كما لاندرى كيف استطاع «منتوام حات» أمير طيبة ورئيس كهنتها أن يقنع الاشوريين بالرجوع عن طيبة بعد تدمير طفيف لها - ومع أن طهرقة فر الى نبـاتا وبقى حتى وفاته الا أنه ظل يتمتع بسلطة اسمية على مصر حيث اعترف به كملك فى طيبه إلى مابعد هذه

---

(1) H. Zeissl, Aethiopen und Assyrer in Aegypten, (Hamburg 1944), p. 15

(٢) لم يكتف بهذا بل أعطى بسماتيك اسما أشوريا كذلك أنظر. Luckenbill, ABAR, II, § 770

الغزوة الاشورية ، ورغم كثرة حروبه فان ماخلفه من آثار يجعلنا نعتقد أنه كان من أكثر ملوك نبتة ثراء .

ولمـــا توفى طهرقه تبعه فى الحـكم « تانويت أمانى » الذى ادعى فى لوحة له تعرف باسم لوحـة الرؤيا بأن الإله آمون جاءه فى المنام وأمره بالتقدم إلى مصر والاستيلاء عليهـا - ومع أنه يشير الى ترحاب المصريين به إلا أننـا نفهم من بين سطور هـذه اللوحة بأن الظروف لم تـكن مواتية له تماما ، كذلك لم يستمر فى مصر طويلا لأن آشور بانيبال عاد إليها ثانية وأخضعها من جديد ودمر طيبة للمرة الثـانية ففر تانويت أمانى الى نباتا - ومنذ ذلك الحين لم تشاهد مصر بعد ذلك أحد من ملوك النوبه كما أن الآشوريين رجعوا الى نينوى ، ولم تبق مملـكتهم بعد ذلك طويلا بل وتحطمت عاصمتها نينوى بعـد غزوة آشور بانيبال الاخيرة بنحو خمسين عاما .

ومهما كان من أمر الأحداث التى مرت بمصر بعد الغزوة المشار إليها فإن السلطة الفعلية فيها كانت فى يد «بسماتيك» الذى أشرنا إلى تعيينه أميرا لاتريب ، فقد تولى إمارة سايس بعد والده ، ويبدو أنه أعلن نفسه ملـكا على البلاد على أثر عودة آشور بانيبال من حملته الأولى (١) أى قبل غزوة آشور الثانية لطيبه - وفى نفس الوقت كانت سلطة تانويت أمانى معترفاً

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٣٣

بها فى مصر العليا لمدة تزيد على ستة أعوام بعد فراره من مصر (١) ومن الغريب أننا لانجد نصا واحدا من النصوص المصرية يشير إلى خروج الأشوريين من مصر وعلى ذلك لم يستطع المؤرخون أن يجدوا سببا مباشرا لتركهم للبلاد .

ويعد عصر بسماتيك بداية عهد جديد فقد استطاع أن يؤسس أسرة جديدة هى الأسرة السادسة والعشرين ولانعلم كيف تخلص من النفوذ الآشورى وكيف زال النفوذ الإسمى لملوك نبتة نهائيا من طيبة .

---

(١) F.R. Kienitz "Die Politische Geschichte Aegyptens vom 7 bis Zum 4 Jahrhundert vor der Zeitwende", (Berlin 1952) , pp. 14 - 15

٧ - عصر النهضة المؤقته فى مصر

الاسرة السادسة والعشرون :

تمتعت مصر خلال عهد الأسرة السادسة والعشرين بشىء من الرخاء والنهوض كانت قد حرمت منها منذ وقت طويل ، كما أنها بدأت عهدا جديدا فى علاقاتها الخارجية وإن كانت هذه العلاقات قد سلكت اتجاها مغايرا لما اعتادته مصر من قبل حيث أخذت تستعين بالمرتزقة اليونانيين، وبدأت توطد علاقاتها مع جزر البحر المتوسط ، ومن المحتمل أن بسماتيك الأول طلب المعونة من ملك ليديا لتدعيم سلطانه فأرسل هذا جنودا من الأيونيين والكاريين - وهكذا نجد أن بسماتيك يقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الرعامسة مع فارق بسيط هو أن المرتزقة فى عهد الرعامسة كانوا من عناصر ليبية ونوبيــة ومن شعوب البحر بينما كانت العناصر الاغريقية وعناصر جزر البحر المتوسط هى الغالبية فى عهد بسماتيك ، ومن ثم بدأ النفوذ اليونانى يدخل إلى مصر وتأثرت الثقــافة المصرية بتأثيرات يونانية مختلفة - وقد عمل المصريون من جانبهم على تيسير إقامة اليونانيين فى بلادهم فبنوا لهم بعض المدن الخاصة وشيدوا لهم مستعمرات أقاموا فيها وتزايد عددهم حتى دب الحسد فى نفوس الجنود الآخرين من مصريين وليبيين وغيرهم - وفر بعضهم إلى النوبة لأن هؤلاء لم ينظروا بعين الارتياح لتشجيع بسماتيك للمرتزقة اليونانيين ، وقد أطلق هيرودوت على هؤلاء الفارين اسم « أسماخ » (١) - ولكن وجود المرتزقة اليونانيين

---

(١) Herodotus II, 30

فى أعداد كبيرة كان من جهة أخرى سببا فى إنعاش الأحوال الاقتصادية نوعا ما لأن بسماتيك وجد أنه لابد من الإنفاق على هذا الجيش الكبير ، فشجع التجارة مع الدول المجاورة وفى نفس الوقت فرض الضرائب على البضائع الواردة إلى مصر ونظم الادارة وعاد بها إلى التقاليد القديمة حيث أخذ المصريون فى ذلك الوقت يشعرون بأن عظمة مصر فى عهد الدولة القديمة كانت أعلى ماوصلت إليه فى تاريخها ، ولذلك اصطبغ عهد الأسرة السادسة والعشرين بصبغة الدولة القديمة فى كل شىء وعاد الناس إلى استعمال أسلوب الكتابة القديمة وإلى المعبودات القديمة والفنون القديمة مع شىء بسيط من التحرر وربما كان هذا من الأسباب التى تحبذ إطلاق اسم عصر النهضة على هذه الفترة من تاريخ مصر القديم .

وتتميز هذه الفترة من تاريخ مصر أيضـــا بنهج جديد فى السياسة المصرية ، إذ أن مصر - مع تركيز اهتمامها فى علاقاتها الخارجية بالأقطار الشمالية - كانت أكثر ارتباطا باليونان منها بأى قطر آخر ، وفى نفس الوقت لم تحاول مملكة نباتا من جانبها أن تعيد علاقاتها بمصر بل اتجهت بدورها إلى الأقطار التى تقع إلى الجنوب منها حيث وجدت أن لافائدة ترجى لهـا من الإتجـاه شمالا ، وهكذا نجد أن الوضع السياسى فى مصر أصبح يتركز فى الوجه البحرى حيث أدى هذا إلى ظهور مدن جديدة - ونظراً لكثرة وجود اليونانيين فى مصر بدأ اهتمام العالم اليونانى بأحوال مصر وحضارتها ، وإلى ذلك العهد ترجع معظم الكتابات اليونانية عنهـا ومنها نتبين أن اليونانيين ذهلوا حينما وجدوا أن أمة أخرى غـيرهم لها حضارة لاتقل عن حضارتهم إن لم تكن أرقى منها واعتبروا المصريين

شعبا غاية فى الغرابة ووصفوا أحوالهم وأطوارهم بشكل دقة وإن كانوا قد أخطأوا فى تفسير بعض مشاهداتهم عن مظاهر الحضارة المصرية .

وقد وجد بسماتيك أن فى مقدوره محـــاولة إعادة السيادة المصرية على فلسطين وسوريا ولكنه اضطر لوقف أعماله لظهور السيثيين (١) على المسرح الدولى إذ استطاع هؤلاء الزحف على آشور وأصبح خطرهم يتهدد مصر ، ولكن بسماتيك تمكن من إرجاعهم عنها ولا نعرف كيف تم له ذلك وهل لجأ إلى رشوتهم أو أنه استطاع التغلب عليهم ، هذا وقد حكم بسماتيك حوالى أربعة وخمسين عاما عادت البلاد أثناءها إلى حالة من النهوض والرخاء لم تشهدها منذ أيام رعمسيس الثانى وتولى بعده ولده « نكاو » .

وفى تلك الأثناء وصلت آشور إلى منتهى الضعف وكانت سوريا وفلسطين أضعف من أن تقفا أمام أى غزو أجنبى وعلى ذلك تقدم نكاو نحوهما للاستيلاء عليها، ولما تأهب اليهود لمقاومته أسرع بإخضاعهم كما أخضع سوريا وتقدم إلى الفرات خشية أن تسترد أشور ملكها مفضلا أن يبدأ بمهاجمتها ـ ولما لم يجدها مستعدة لذلك عاد إلى مصر مفضلا عدم الإستيلاء على نينوى ، وقد نسب نكاو نصره إلى الجنود الميليزيين وهذه هى المرة الأولى التى ينسب فيها الفرعون نصره لغير الإله ـ ومع أنه كون امبراطورية على إثر الحملة التى قام بها إلا أن هذه كانت مؤقتة ولم تدم طويلا لأن الأحداث

(١) السيثيون scythians قبائل بربرية كانت تتكلم لغة هندو أوربية وكانت تعيش فى جنوب روسيا شرق بحر آرال وكانوا حلفاء الأشوريين فى أول الامر ولكنهم خانوهم وانضمو إلى أعدائهم ملك بابل وملك ميديا حيث اشتركوا فى إسقاط نينوى ٦١٣ ق . م .

فى غرب آسيا تطورت سريعـا ، فلم تكد تمض سنتان حتى اتحد ملك ميديا مع ملك بابل واستطاعا معا أن يحطما آشور وأن يقتسما ملكها ، وقد وقعت سوريا ضمن نصيب بابل وبذلك أصبحت بابل خطرا جديدا يهدد مصر .

ولما تولى « نبوخذ نصر » ـ الذى كان وليا للعهد فى مملكة بابل الجديدة (أى الامبراطورية الكلدانية) ـ قيادة جيوشها ذهب نكاو لملاقاته ولكن نبوخذنصر انتصر عليه وتعقبه بعض الوقت غير أنه رجع إلى بابل بعد أن اتفق مع نكاو لأن والده كان توفى فى ذلك الوقت .

ولم تطمع مصر بعد ذلك فى آسيا حتى إنها لم تتدخل حينما حاصرت بابل بيت المقدس واكتفى نكاو بترقية التجارة وتشجيع الملاحة وقد أمر بعثة فينيقية بالدوران حول أفريقية فأتمت ذلك فى ثلاثة سنوات (وربما كانت هذه أول رحلة من نوعها فى التاريخ) ، كما أمر بشق القناة التى تربط بين النيل والبحر الاحمر ولكنه تخلى عن اتمامها لوفاة عدد كبير من العمال ولان الكهنة تنبأوا بأن فائدتهـا سوف لاتعود إلا على الأجانب .

ولما توفى تبعه « بسماتيك الثانى » الذى ذهب إلى بيلوس لزيارة معبد آمون هناك وربما كان ينوى الاحتكاك مع بابل ولكنه اضطر للعودة إلى مصر لعلمه بوجود تكتلات فى جنوبها ، ولذا أرسل حملة

إلى الجنوب توغلت إلى الشلال الخامس أو السادس (١) - وقد ظلت علاقة بسماتيك طيبة مع اليونانيين وزاد من تشجيعهم واستعان بهم فى تكوين أسطول ضخم .

وعندما توفى بسماتيك الثانى تبعه « ابريس » على العرش وقد استغل هذا الأخير الأسطول الذى كونه سلفه فى غزو فينيقيا ونجح فى ذلك بسبب انشغال نبوخذ نصر فى حروبه مع ميديا وانسلاخ بعض المدن السورية والفلسطينية عن حكمه وثورة بعض المدن الأخرى عليه وفى أثناء ذلك هاجر كثير من اليهود إلى مصر وكونوا بها جاليات كبيرة ، وهكذا نجد أن القلاقل عادت من جديد إلى شرق البحر المتوسط ووجد أبريس الفرصة فتقدم بجيشه شمالا واستولى على صيدا ، ولكن هذه قاومت طويلا ولم ينجح أبريس فى الاستيلاء على جنوب فلسطين وأقبلت الجيوش الاسيوية لطرده فاتجه بأسطوله نحو قبرص واستولى عليها ومع أن بعض قوى غربى آسيا تحالفت مع مصر ضد نبوخذنصر إلا أن هذا الأخير هزم هذا التحالف الذى تكون ضده فى ربلة وحاصر أورشليم وبعد عام أسر ملكها صدقيا وقتل أولاده ونهب المعبد وحرق المدينة - ومع ذلك لم تدم مملكة بابل فقد تمزقت بعد موت نبوخذ نصر .

ولم تكن الحالة سيئة فى منطقة غرب آسيا وحدها وإنما ساءت الحالة كذلك فى مصر حيث حدثت ثورة فى صفوف الجيش فى عهد أبريس

(١) كان بعض المؤرخين فيما سبق يظنون أن هذه الحملة لم تصل إلا إلى الشلال الثانى فقط - أنظر BIFAO 50, p. 203

فرت بعض الوحدات على إثرها إلى النوبة ولكن حاكم الشلال استطاع أن يعيد بعض أفرادها ، كما حدث عصيان آخر فى صفوف الجيش أيضا لأن أبريس أرسل قوة معظم أفرادهـا من المصريين إلى قرطاجنة وقد منيت هذه القوة بالهزيمة وبخسائر فادحة فاعتقد هؤلاء أن الملك أرسلهم إلى هناك للتخلص منهم محاباة منه اليونانيين الذين لم يشركهم فى هذه الحرب ، وحينما ثاروا ضده أرسل أحد أقربائه ويدعى « أمازيس » لتهدئتهم ولكن هذا الأخير استمال إليه الجنود العاصين فصيره ملكا عليهم مما أحنق أبريس عليه ودارت الحرب بينهما ولكن النصر كان حليف أمازيس ، ورغم ذلك أشركه فى الحكم إلا أن أبريس مالبث أن ثار فقتله أمازيس وانفرد بالحكم .

وظل أمازيس على تشجيع اليونانيين بينما تظاهر بإيقاظ الشعور الوطنى ، وقد تغالى فى تشجيع اليونانيين ومنحهم كثيرا من الامتيازات بل وتبرع للمعابد فى اليونان نفسها وأهدى لبعض حكامها الهدايا ، ومع أن مظاهر النهضة كانت واضحة فى عهده إلا أن زيادة عدد الجيش وقوة الأسطول تطلبت كثيرا من النفقات التى اضطرته إلى الاستيلاء على بعض دخل المعابد فأفادت من ذلك السلطة المركزية بطريق غير مباشر لأنه أضعف نفوذ الكهنة ـ ومع أنه تمكن من بسط نفوذه على بعض سواحل البحر المتوسط فإنه لم يكن أكبر قوة فى الشرق واستمر خطر بابل يتهدده ، كما ظهرت قوة جديدة هى مملكة فارس التى تحركت جيوشها وعبرت الفرات لتهاجم ليديا فى غربى آسيا الصغرى وكانت مصر وبابل واسبرطة قد وعدت بمساعدة هذه المملكة ولكن مصر كانت هى الوحيدة

التى احترمت كلمتها ـ وبعد أن هزم الفرس مملكة ليديا أخضعوا كلا من سوريا وفينيقيا أيضا ولم يبق أمامهم سوى بابل ومصر ، ومالبثت بابل أن هزمت وسقطت عاصمتها نينوى على يد كورش ملك الفرس وبذلك ازداد الخطر على مصر حيث أصبحت وحدها أمام قوة الفرس الهائلة .

"Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)"

٨ ـ عهد الفوضى الأخير
(سيادة الفرس وحكمهم فى مصر)

الاسرات السابعة والعشرون الى الحادية والثلاثين

توفى أمازيس فتبعه « بسماتيك الثالث » على عرش مصر كما توفى « كورش » وتبعه « قمبيز » على عرش فارس ، ولما أراد هذا الأخير الاستيلاء على مصر خان أحد القواد اليونانيين بسماتيك الثالث وأرشد الفرس بنفسه إلى الطريق المؤدية اليها وبذلك تمكنوا من الاستيلاء على الفرما ووصلوا إلى منف ـ وفى تلك الأثناء أقبل رسل عن الأغريق الذين يعيشون فى ليبيا وأحضروا معهم الهدايا إلى قمبيز ، ولما تم لهذا الأخير الاستيلاء على مصر عامل بسماتيك معاملة حسنة فى أول الأمر ولكن هذا الأخير حاول إثارة المصريين فاشتط قمبيز فى معاملته حتى أدى به إلى الانتحار ، وقد غزا قمبيز مصر العليا وأرسل حملة إلى النوبة ويقال أنه جن فى آخر أيامه بسبب فشل حملته على النوبة .

ويعد قمبيز مؤسس الأسرة السابعة والعشرين فى مصر ـ ومع أنه تمكن من إقامة امبراطورية واسعة إلا أن الاحوال ساءت فى فارس نفسها بعد وفاته ، إذ حدثت ثورة فى سوريا وكاد خليفته « دارا » ـ الذى تولى العرش فى فارس من بعده ـ أن يفقد ملكه ولكنه استطاع أن يثبته بعد أن خاض تسعة عشر معركة وأسر تسعة من الأمراء ووصل إلى مصر حوالى سنة ٥١٧ ق.م، وحينما قامت ثورة ليبية ولم ينجح الوالى الفارسى فى اخمادها قتله دارا ـ ومع ظاهر هذه القسوة إلا أنه كان معروفا بالعدل

وقد احترم ديانة المصريين وشجع التجارة إذ المعروف أنه كان يهودى عصره تاجر فى كل شىء ومع كل الأقطار ، وقد نجح فى حفر قناة وادى الطميلات التى تربط بين النيل والبحر الأحمر (١) ولكن سلطانه أخذ يضعف فى فارس فانصرف عن شئون مصر وخاصة بعد أن هـــزمه اليونانيون فى معركة ماراثون حيث ركز كل اهتمامه فى الانتقام من الأثينيين حتى أنه كلف شخصاً ليذكره بذلك كل صباح بقوله « مولاى لاتنسى الإثينيين » . وبعد تلك المعركة بأربعة سنوات حدثت ثورة فى مصر بقيادة « خباش »(٢) الذى احتل منف وسايس فبدأ دارا يعد العدة للانتقام من مصر واليونان على السواء ولكنه مات وتبعه « اكزركسيس » الذى استطاع القضـــاء على ثورة خباش وعين أخاه واليـا على مصر ، وقد تغـــالى هذا الوالى فى قسوته وشدته حتى أذل المصريين .

ولم يحكم اكزركسيس طويلا حيث اغتيل بعد فترة وجـيزة وتولى بعده « ارتـكزركسيس » الذى وجد امبراطورية واسعة أرهقتها كـــثرة الحروب والثورات فى مختلف الميـادين ومن بينها ثورة قامت فى مصر بقيادة « إناروس » الليبى الذى كان فى مريوط « وأمـيرتايوس » الذى كان مركزه سايس فلما التقى إناروس بالوالى الفارسى كانت الحرب سجالا بينهما وتراجع الوالى إلى برقة ، وطلب كل من الفريقـــين المدد واتجـه

(١) G. Posener, "La premiére domination perse en Égypte," (Bibl. de Études XI), pp 48-879 180-189

(٢) Herodotus VII, 1

إناروس فى ذلك إلى أثينـــا ولـكن النجدة التى أرسلها أرتـكزركسيس إلى واليه وصلت قبل النجدة التى طلبها إناروس مما كان له أثره فى انتصار الفرس وأسر إناروس وأرسل إلى سوسه حيث قتل هناك ، وبذلك ظل أمـــيرتايوس الزعيم الوطنى الوحيد فعاود العصيـان محاولا الاستنجاد بالأثينيين ولـكن النجدة لم تصل اليه ، وفى نفس الوقت تهادن الفرس واليونان فلم تجد الثورات المصرية تأييدا من اليونانيين بل اكتفى هؤلاء بإقناع الفـــرس بتعيين ولدى إناروس وأمـير تايوس ولاة على مصر (١) ، وفى هذه الأثنـاء زار مصر كثير من أعلام اليـونان ومن بينهم هيرودوت .

ولما توفى ارتـكزركيس تبعه « دارا الثانى » الذى استبد هو وولاته فى حكم البلاد وحاولوا فرض عقائد الفرس على المصريين فثار هـــؤلاء ضدهم كما ثاروا على اليهود فى اليفانتين (٢) لأنهم كانوا يعاونون الفرس.

ونجحت الثورة مؤقتا لأن دارا الثانى توفى وخلفه ارتـكزركيس الثانى ولم يـكن حكم هذا الأخير مقبولا تماما فى أنحاء الامبراطورية ولذا هزمت فارس فى ميادين مختلفة ونجحت حركة التحرير التى قادها « إمرتى » حفيد « أميرتايوس » السابق (٣) ، الذى يعتبر مؤسس الأسرة الثامنة والعشرين والملك الوحيد فيها .

---

(١) Kienitz ,op-cit., pp. 69-73

(٢) Kienitz, op-cit., p. 39 n, 2

(٣) أنظر أعلاه ص ٢٤٤

وبعد أن حكم هذا الأخير نحو ستة أعوام قتل على إثر ثورة قام بها « نفريتس » أمير منديس مكونا أسرة جديدة هى الأسرة التاسعة والعشرين التى لم تستمر طويلا هى الأخرى لأن الفرس بدأوا يهتمون بمصر من جديد ، وقد حاول نفريتس جهده أن يتلافى خطرهم فتودد إلى الإغريق للاستعانة بهم عند الحاجة وتحالف مع الاسبرطيين حيث أرسل اليهم مددا فى حربهم ضد الفرس ، وفى نفس الوقت تقدمت القوات المصرية إلى الحدود السورية واحتلت بها بعض المواقع ولكن نظرا لهزيمة أسطول اسبرطة فى حربها ضد أثينا انسحبت قوات اسبرطة من الأقاليم الآسيوية - كذلك اضطرت القوات المصرية إلى التراجع نظرا لحلول الشتاء.

ويمكن أن يقال أن الأسرة التاسعة والعشرين بدأت بداية طيبة ولكن سوء الحالة الداخلية ظل على ماهو عليه ولم يقدر لانتفاضة مصر فى عهدها طول البقاء ، فحينما توفى نفريتس وتبعه « أخورس » على العرش تحالف هذا الأخير مع أمراء ليبيا واليونان وقبرص ضد فارس ومع أن مصر لم تكن لديها فرصة لتدعيم قواها فإن أخورس أرسل إلى ملك قبرص الذى كان يحارب الفرس مددا من السفن الحربية والمؤن والمال - واستمر هذا الصراع ثلاثة أعوام ولكنه لم يؤد إلى نتيجة وبعدئذ رأى قائد الأسطول الفارسى أن يتحالف مع أخورس فاستطاع هذا الأخير أن يتفرغ للإصلاحات الداخلية ولم تلبث الحال أن تبدلت فى نهاية عهده حيث حدثت ثورة فى سمنود بزعامة أميرها « نختنبو »

الذى استطاع أن يؤسس الأسرة الثلاثين بعد أن توفى أخورس وخليفتيه « بساموتس » و « نفريتس الثانى » (١) .

ولا تذكر النصوص المصرية كثيراً عن حكم « نختنبو الأول » ولكن بعض مؤرخى اليونان وخاصة ديودور يشيرون إلى أن نختنبو الأول حارب الفرس وهزمهم ، ولكن حروبه هذه لم تكن خارج مصر بل داخل الحدود المصرية رغم أن نختنبو ذكر فى نقوشه التذكارية قائمة ببلدان أجنبية أخضعها غير أن هذه النقوش لا يمكن الأخذ بها وخاصة لأننا نعلم أن الفرس بعد أن هزموا ملك قبرص وجدوا الفرصة سانحة للانتقام من مصر فتقدموا اليها ـ وعمد نختنبو إلى اقفال مصبات النيل السبعة وحصن كلا منها كما حصن بلوزيوم إلى أقصى حد ، ومع ذلك تمكن الفرس من الانتصار على المصريين فى الفرع المنديسى ولكنهم أرجأوا الهجوم على منف ، وفى هذا الوقت حل الفيضان فساعد المصريين على المقاومة وانتصروا على الفرس الذين تراجعوا إلى بلادهم ـ وقد أوجد هذا الانتصار حالة من الاستقرار مكنت نختنبو من القيام ببعض الاصلاحات وأشرك ولده « تيوس » فى الحكم .

وحينما اعتلى هذا الأخير على العرش حاول تجديد التحالف مع اليونان فأرسل نقودا إلى ملك أسبرطة والى ملك أثينا ليرسلا له جنوداً مرتزقة وتمكن بذلك من تجهيز جيش ضخم يعد أعظم ما عرفته مصر منذ أيام

---

(١) Herodotus III, 15

الدولة الحديثة ، وسار على رأس جيشه إلى آسيا محرزا انتصارات ساحقة فى سوريا حتى ظن أنه سيعيد الإمبراطورية إلى ما كانت عليه فى عهد « نـــكاو » ولكن أخاه الذى تركه فى مصر خانه وألب عليه المصريين وخاصة الكهنة الذين أحنقهم استيلاء تيـــوس على أموالهم باستمرار لكى يدفع نفقات جيشه ـ ثم تمكن هذا الأخ من اغتصاب العرش ، ولم يكتف بهـــذا بل استدعى ولده الذى كان يحارب مع عمه فعاد إلى مصر بمعظم الجيش كما استدعت أثينا قائدها اليونانى « كابريوس » (الذى كان معه) فوجد تيوس نفسه وحيدا واضطر إلى الفرار إلى صيدا حيث احتمى بملك الفرس .

ولما اعتلى العرش فى مصر « نختنبو الثانى » الذى كان يحارب مع عمه تيوس فى سوريا لم يلبث طويلا فى الحكم حتى حدثت ثورة فى منديس (التى كانت مقرا للأسرة التاسعة والعشرين) ولولا مقدرة المرتزقـــة اليونانيين لضاعت الفرصة من نختنبو الثانى ، ومع هذا لم يكد يبـــدأ تنظيم مملكته حتى تولى عرش فارس (أرتكزركيس الثالث) الذى أراد الاستيلاء على مصر ولكنه فشل فى محاولاته الأولى لأن نختنبو الثانى استعان بمرتزقة من الأثينيين والاسبرطيين ـ وقد أثر هذا النصر على سلطان ارتكزركسيس وحدثت سلسلة من الثورات فى فينيقيا ربما كان يشجعها « نختنبو الثـــانى » مما أثار ارتكزركسيس وجعله ـ بعد أن يقضى على الثورات ـ ينظم هجوما مخيفا على مصر من البر والبحر ، وتقـــدم فى الدلتا سريعا ووصل أسطوله عبر مصب النيـل إلى منف ففر نختنبو إلى مصر العليا حيث احتفظ بملكه هناك عامين .

ولاندرى كيف انتهى عهده ولا كيف بسط الفرس سلطانهم على مصر كلها ، وإن كان من المرجح أن إتمام فتح مصر كان عن طريق حملة ثانوية متممة للحملة السابقة ـ وعلى أى حال يعد ارتكزركسيس الثالث أول ملوك الأسرة الحادية والثلاثين .

وحينما توفى هذا الأخير تبعه فى الملك « أرسيس » الذى استطاع أن يحكم مصر بأكملها ولكنه لم يستمر سوى ثلاثة أعوام ثم تبعه « دارا الثالث » الذى كان تاريخه غامضاً لايعلم عن تاريخ مصر فى عهده شيئاً يستحق الذكر ، ولكن من المؤكد أن المصريين كانوا فى أشد الاستياء من حكم الفرس كما نتبين ذلك من بردية كتبت فى عهد البطالمة تعرف باسم أخبار الأيام الديموطيقية (١) .

وقد حدثت ثورة فى الدلتا بقيادة أحد أمرائها ويدعى « خباش » أو « شباباش » أعترف به كهنة منف ملكا ، وقد وجدت فى السرابيوم لوحة مؤرخة بالسنة الثانية من حكمه كما وجدت باسمه بعض الآثار الأخرى من بينها تمثال يعرف باسم تمثال الوالى (٢) وكلها تشير إلى جهوده فى سبيل تحرير البلاد ، ومع هذا يمكننا القول أن تلك الجهود ذهبت عبثا لأن

---

(١) هذه البردية محفوظة بالمكتبة الأهلية فى باريس برقم ٢١٥ وقد نشرت هى وترجمتها فى مراجع مختلفة — من هذه المراجع أنظر

Drioton & Vandier, L'Egypte (4e.ed.), p. 616

(٢) Sethe, UrK. II, pp. 11-22

مصر - بالرغم من أن الامبراطورية الفارسية كانت فى طريقها إلى الزوال - لم تستقل طويلا ، فبعد أن هزم (دارا الثالث) فى إسوس على يد الاسكندر الأكبر فقدت فارس معظم قوتها ولم تحاول الدفاع عن مصر حينما جاء اليها هذا الأخير غازيا .

وكان الاسكندر الأكبر لبقا إذ تظاهر بمظهر المخلص لمصر من نير الفرس لأن المصريين أنفسهم كانوا يتطلعون إلى ذلك حيث أننا نعلم أن مصرياً يدعى « تفنخت » من مدينة أهناسيا ذهب إلى ملك مقدونيا واستنجد بالاسكندر بعد أن شاهد معركة إسوس ليخلص بلاده من الفرس - وقد أحسن هذا معاملة المصريين وأكرم آلهتهم وزار المعابد المختلفة واعترف به الكهنة ملكاً بمعبد آمون بسيوة ، ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر جـــزءاً من العالم الشرقى الذى تأثر بالنفوذ الاغريقى وإن ظلت تحتفظ ببعض مظاهر حضارتها القديمة التى استهوت فى بعض نواحيها كل من وفد اليها من كتاب اليونان فكتبوا عنها الكثير وإن كانوا قد شوهوا بعض الحقائق عنها لعجزهم عن إدراك بعض مظاهرها وفهمها فهما تاماً .

الفصل الرابع

شبه جزيرة العرب

لا شك فى أن قسوة الظروف الطبيعية فى شبه الجزيرة قد جعلت منها بيئة غير مرغوب فيها لا يعرف العالم المتحضر من تاريخها إلا القليل إذ أن هذه الظروف كانت سببا فى عدم نشاط الإرتحال إليها وجعلت القيام ببحوث علمية وأثرية فيها أمرا يكاد يكون مستحيلا إلا فى بعض مناطق محدودة للغاية ، وقد يجىء الوقت الذى يمكن للانسان فيه أن يستعين بوسائل المدنية الحديثة على البقاء فى أقسى جهاتها ظروفا وأن يقوم بما يريد من أبحاث تزيد معلوماتنا عنها .

ورغم قلة ما توصلنا إليه من معلومات عنها تدل شواهد الأحوال على أن شبه الجزيرة كان ينعم بظروف مناخية ملائمة لسكنى الإنسان ، فهى فى هذا تماثل نظيراتها فى العالم القديم - أى الصحراء الليبية وصحراء مصر الشرقية - ولذا يرجح أنها ظلت كذلك إلى نهاية العصور الحجرية على الأقل ، فقد وجد أحد الأمريكيين فى الربع الخالى بقايا نهر واسع هو السهل المنخفض المسمى « أبو بحر » كما وجدت آثار أنهار فى جنوبى شبه الجزيرة يستدل عليها من وديانها الجافة الآن ، وفى هذه الأماكن وبالقرب منها بقايا حيوانات من تلك التى تعيش فى مناخ شبيه بما كان سائداً فى شمال أفريقيا فى تلك العصور - كذلك عثر على آثار تدل على أن بعض المدن كانت توجد فى مناطق مختلفة من جنوب شبه الجزيرة على الأقل .

ولم يتمكن البحاثة مع الأسف من الوصول إلى المناطق شديدة الجدب والقيام فيها بأبحاث تنير لنا السبيل عن عصورها القديمة ولكن بعثات قليلة قامت ببعض الأبحاث فى جنوب شبه الجزيرة كشفت عن وجود آلات من الصوان فى حضرموت تشبه كثيرا آلات العصر الحجرى القديم فى شرق أفريقيا - ومع هذا فإن الاختلافات القليلة التى تبدو فى آلات كل من المنطقتين قد أدت إلى اختلاف وجهات النظر بين الباحثين فمنهم من يرى أن التقدم الذى طرأ على الآلات الحجرية فى أفريقيا يوحى بأن الحضارة التى أنتجت هذه الآلات نشأت فى شبه الجزيرة ثم انتقلت منها إلى أفريقيا - بينما يرى البعض الآخر أن آلات شبه الجزيرة لا تكاد تختلف عن آلات شرق أفريقيا فى أقدم صورها ولذا فإنهم يذهبون إلى أن شرق أفريقيا كان مهدا لثقافة مركزية تفرعت منها ثقافات متعددة إلى جهات مختلفة من أفريقيا وآسيا وأن من المحتمل أن الحضارات الآسيوية بصفة خاصة (ومن بينها حضارات شبه الجزيرة) قد انفصلت عن حضارات شرق أفريقيا بعد فترة - وهؤلاء الباحثون جميعا يستدلون على نشأة هذه الحضارات فى مكان ما (من تلك التى أشرنا إليها) إلى الاماكن الاخرى بما لاحظوه من عدم استقرار تشابه آلاتها بعد تطورها .

ولا يمكن أن نحدد الزمن الذى استمر فيه استعمال آلات العصر الحجرى القديم فى شبه الجزيرة بل ولم يعثر حتى الآن على آثار من العصر الحجرى الحديث فيها - كذلك لا يمكن فى حالة معلوماتنا الراهنة أن نحدد الزمن الذى بدأ فيه العصر التاريخى فى شبه الجزيرة ، وكل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد هو أن أجزاءها المختلفة لم تبدأ عصرها التاريخى فى وقت واحد وأن من المرجح أن الركن الجنوبى الغربى منها (اليمن)

وإقليم عمان ومنطقة حضرموت كانت أسبق هذه الأجزاء فى الوصول إلى عصورها التاريخية .

ومن المسلم به أن شبه الجزيرة تعد بيئة طرد لا يرغب الإنسان فى البقاء بها إذا ما ساءت الظروف - وكثيرا ما كان يحدث ذلك - فهناك من الأدلة ما يشير إلى خروج عدة هجرات منها إلى المناطق المجاورة فى العراق وسوريا وغيرها ، وهى المسؤولة عن تحركات العناصر السامية التى كان لهـا أكبر الأثر فى تاريخ إقليم الشرق الأدنى من أقدم العصور ، فمن المرجح أن هجرة سامية خرجت منها فى منتصف الألف الرابع قبل الميـلاد إلى الشمال الشرقى واختلطت بالسومريين ونشأت عن ذلك الدولة الأكدية التى أسسها سرجون الأكدى فى بلاد النهرين (حوالى سنة ٢٣٧١ ق . م) ، بعد زوال سلالة أور الثالثة التى كانت آخر دولة للسومريين فى العراق حيث انفرد الساميون بالزعامة السياسية فيه - وفى منتصف الالف الثالث ق م خرجت منهـا هجرة أخرى جاءت بالاموريين إلى سهول سورية الشمالية وبالكنعانيين إلى السهل الساحلى فيها ، وقد أطلق اليونان على هؤلاء اسم الفينيقيين . وفيما بين عامى ١٥٠٠ ، ١٢٠٠ ق . م خرجت منهـا جماعات الآراميين الذين انتشروا فى الجزء الشمالى من سوريا والعبرانيين الذين استقروا فى جنوبها - وفى حوالى سنة ٥٠٠ ق . م خرج منها الانباط إلى شـمال شرقى شبه جزيرة سينا وأسسوا دوله كانت تدمر عاصمتها فى أيام الرومان .

ورغم صعوبة التعرف على تاريخ شبه الجزيرة قبـل بدء الكتابة

فإن وجود بعض المصنوعات فى العراق وبعض الجهات الاخرى من المواد التى جابت من شبه الجزيرة يدل على وجود صلات بينها وبين تلك الجهات من أقدم العصور - ومن أمثلة ذلك أن سكان بلاد النهرين جلبوا من بعض أجزاء الجزيرة أحجاراً ومعادن منذ عصور ما قبل التاريخ ، فقد جلبوا النحاس الخام من عمان وحجر الابسديان من شرق شبه الجزيرة - ومن المحتملة كذلك أن المصريين فى عصورهم التاريخية قد اتصلوا بجنوب شبه الجزيرة وجلبوا منها العطور [١] .

العصر التاريخى

لم يتوصل الباحثون إلى معرفة شيء من تاريخ شبه الجزيرة إلا ما جاء عن طريق علاقاتها بالدول المجاورة (وخاصة العراق) وماورد فى بعض المصادر اليونانية والرومانية لأن البحوث الاثرية تكاد تكون معدومة فيها وهى تختلف من جزء إلى آخر - ويمكن أن نلخص ما أمكن الوصول إليه من تاريخها كما يلى :-

الجزء الجنوبى :

(١) معين : يختلف هذا الجزء من بلاد العرب عن بقية الأجزاء من حيث كثرة مصادره التاريخية نسبياً ، فمنذ القرن التاسع عشر اكتشفت

---

(١) يشك بعض الباحثين فى أن هذه المنطقة هى التى عرفها المصريون باسم بلاد بونت وإن كنا لانميل إلى هذا الرأى .

نقوش معينية وسبئية ترجـــع إلى الألف الأول قبل الميلاد وهى تفيد بأن أربعة ممالك توالت فى هذا الجزء من شبـه الجزيرة ، وهذه الممالك هى : معين وسبأ وحضرموت وقتبان (١) التى آلت إلى الزوال فى القرن الأول قبل الميلاد حيث خربت عاصمتها تمنع بالحريق حوالى ٥٠ سنة ق م - كما يستدل من تلك النقوش أيضا على وجود اتصـالات بين هـذا الجزء وبين البابليين والـكنعانيين والأموريين ترجع إلى الألف الثـــانى قبل الميلاد ومن المرجح أن مملـكة عربية قامت فى بلاد معين وامتد نفوذها إلى الحجاز هى التى كانت مسئولة عن هـذه الاتصالات ، كما أن من المحتمـــل أن نرام سين ملك أكاد (٢) كان على علاقات مع هذه المملـكة .

ويصل إلى هذه المنطقة طريق برى يمر بمكة وجبل شمر ومنه إلى بابل وهذا الطريق هو الذى كان يستعمله حجاج المسلمين القادمين من الشرق - وطريق آخر بحرى يأتى من الخليج العربى إلى البحر العربى ويمر بدلمون (البحرين) - أما القوافل التجارية فكانت تتبع طريقا آخر حيث تبدأ من مأرب عاصمة سبأ (مريابة) وتسير فى محاذاة البحر الأحمر إلى تيماء ثم تتفرع إلى طرق تتجـه إلى العراق وإلى البـــتراء ودمشق وتدمر وسيناء .

---

(١) معلوماتنا عن حضرموت وقتبان ضئيلة للغاية .

(٢) حفيد سرجون الأول وقد حكم فيها بين ٢٢٩١، ٢٢٥٥ ق م .

وربما كانت معين هى أول دولة نهضت فى الجنوب . ومع أن بعض المؤرخين يرى بأنها قامت منذ أوائل الألف الثانى قبل الميلاد أو حتى فى الألف الثالث إلا أن من المرجح أنها قامت فيما بين ١٣٠٠ و٦٥٠ق‌م وقد ازدهرت فى بعض فترات تاريخها حتى شملت جنوب الجزيرة بأكمله تقريبا حيث امتد نفوذها إلى بعض الجهـــات فى الشمال والشمال الغربى كما تدل على ذلك النقوش الثمودية التى وردت فيها أسماء الآلهة المعينية . هذا وقد وجد الباحثون فى النقوش المعينية ٢٦ ملـكا من ملوك معين ، وكانت العاصمة فى موضع معين التى تقع فى الشمال الشرقى من صنعاء وكانت تسمى « قرناو » . وإلى جانب هذه المدينة وجدت مدينة دينية هامة عرفت باسم « يثيل » وهى فى مكان « براقش » الحاليـة التى تقع إلى الشمال الغربى من « مأرب » .

ومن المؤرخين من يرى أن أقدم نقوش معين لاترجع إلى أقدم من سنة ٨٠٠ ق.م وأنها كانت تعاصر سبأ ومع هذا لم يرد لهـا ذكر فى نقوش هـذه الأخيرة ولا فى النصوص المسمارية ، كما يرى البعض أن مملكة معين ظلت قائمة إلى زمن الحميريين وكان آخر ذكر لهم فى سنه ٢٤ ق م بينما يرى البعض الآخر أن أول ملوك سبـأ كانوا يعـاصرون آخر ملوك معين وأنهم ورثوا مملكتهم وسلطانهم .

٢ — سبأ (٩٥٠ - ١١٥ ق.م)

فى الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة وسكانها هم فينيقيو البحر الجنوبى . ويقسم تاريخها إلى دورين :

الأول ينتهى حوالى سنة ٦٥٠ ق م وكانت العاصمة فيه صرواح أو صروح فى مكان خربة الخالية (على مسيرة يوم واحد غربا من مأرب) وكان ملوكها يلقبون بالمكربيين وهو لقب دينى زال استعماله بعد هذا الدور .

والدور الثانى من سنة ٦٥٠ - ١١٥ ق م وقد اقتصر الملوك فيه على لقب ملك سبأ وكانت عاصمتهم حينئذ مأرب (مريابة) على بعد ٦٠ ميلا شرق صنعاء - وكان أهل سبأ يتصلون بمصر عن طريق البحر الأحمر ووادى الحمامات أو عن طريق برى على طول الساحل الغربى لشبه الجزيرة إلى مكة فالبتراء حيث يتفرع الطريق إلى مصر وسورية والعراق ، كما أن طريقاً آخر كان يربطهم بحضرموت انشأت على طوله جملة مستعمرات سبئية ربما كانت هى التى أشارت إليها النصوص المسمارية .

وكانت سبأ تعاصر مملكتين أخرتين فى الجنوب هما قتبان وحضرموت وعاصمتاهما تمنع ، شبوه على التوالى - وأقدم ذكر للسبئيين فى المصادر المسمارية هو ما ورد فى أخبار الملك الأشورى تجلات بلاسر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق. م) حيث يشير إلى أنه (حوالى ٧٣٢ ق. م) أخذ جزية من ملكة العرب (سمسى) . وأنه فرض سلطانه على جزء من بلاد العرب - ومن جهة أخرى يشير اسم « مكة » إلى نفوذ السبئيين فى جنوب شبه الجزيرة لأنه مشتق من صيغة سبئية تعنى «مزار أومعبد» وهى « مكورابا أو مكرابة ، وربما كان لهذا الاسم صلة بالملوك المكربيين .

مجـان :

ذكر سرجون الاكدى أنه غزاها وجلب منها ومن ملوخاودلمون سفنا[1] ولذا يعتقد أغلب الباحثين أنها تقع فى شرق شبه جزيرة العـــرب بينما يرى البعض أنها عمان الحالية وأنها اشتهرت بالتجارة والملاحة ، وتشير نصوص نرام سين (حفيد سرجون ملك أكاد) إلى أنه غزا مجان وأخضع ملكها مانيؤم وهو اسم يبدو أنه سامى مما يوحى بوجود مملكة حكامها من العرب الساميين .

ومع أن اسم مجان قد يكون مشتقا من كلمة سومرية ميناء أو أرض السفن إلا أن النصوص المسمارية تصف (مجان) بأنها « جبل النحاس » وقد اشتهر نحاسها بوجود نسبة من القصدير ـ كذلك اشتهرت « مجان » بحجر الديوريت الاسود الذى صنع منه قدامى ملوك العراق تماثيلهم ونصبهـــم .

دلمون أو تلمون (البحرين)

ذكر اسم دلمون أو تلمون فى المصادر المسمارية وكانت على علاقات مختلفة مع السومريين والبابليين والاشوريين منذ أقدم العصور ـ وقد وردت عنها

---

(١) من المرجح أن منطقة « ميجان » الحالية التى تقع على ساحل الخليج العربى عند مصب وادى شهبة هى البقعة التى نشأت فيها مملكة مجان القديمة ، ولا يمكن تعيين موقع ملوخا بالتحديد حتى الآن ولكن لاشك فى أنها كانت قريبة من ميجان — أما دلمون فمن المرجح انها كانت تضم جزر البحرين وجزءاً من الاحساء

إشارات فى النصوص المسمارية منذ منتصف الألف الثالث إلى نحو سنة ٥٠٠ ق . م ـ وهذه النصوص تدل على أن دلمون تقع فى منطقة البحرين وأنها أرض أسطورية غريبة ، حيث يذكر سرجون الثانى (ملك آشور) أن ملك دلمون يعيش فى وسط البحر الذى تشرق منه الشمس ، كما يذكر الملك آشور بانيبال أن دلمون تقع وسط البحر الأسفل والمقصود « بالبحر الذى تشرق منه الشمس » و « الأسفل » فى النصوص الآشورية هو الخليج العربى ، ويستدل من نصوص سرجون المشار إليها على أن الوصول إلى دلمون كان يتطلب نحو ٦٠ ساعة ملاحة من مصب الفرات أى أنها كانت تبعد نحو ٣٠٠ ميل وهى نفس المسافة إلى جزر البحرين ـ وفى سنة ١٨٧٩م عثر على كتابة مسمارية فى البحرين ترجع إلى العهد البابلى القديم فى النصف الثانى من الألف الثانى ق . م وبها إشارة إلى « قصر رموم عبد الإله انزاك رئيس قبيلة أجاروم » ومن المحتمل أن أجاروم القديمة هى قبيلة عربية بقى اسمها مستعملا وحرف إلى بنى هجر التى تقيم الآن فى بقعة تجاور البحرين ، كما يرجح أن هذا الإسم المحرف « هجر » كان يستعمل فى العصور الوسطى للدلالة على منطقة الاحساء .

وقد اشتهرت دلمون بثمرها منذ أقدم العصور ـ ويغلب على الظن أن الساحل الشرقى لشبه جزيرة العرب كان ضمن مملكة دلمون التى ازدهرت فى الألف الثانى قبل الميلاد وكانت تضم الاحساء والبحرين .

وما زالت الآراء تختلف فى أصل الدلمونيين إذ يرى البعض أنهم جاءوا من الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة وكانت لهم صلات

مع العراقيين منذ عصر فجر الأسرات السومرية ، بينما يرى البعض الآخر أن من المحتمل أن يكون السومريون القدماء قد جاءوا أصلا من دلمون .

وقد تعرضت دلمون لغزوات كثيرة من ملوك بلاد النهرين ، فقد غزاها سرجون الأكدى هى ومجان وملوخا وجلب منها سفنا كثيرة كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، كذلك حاول بعض الأشوريين ضمها إلى ملكهم - ومما يذكر فى هذا الصدد أن سنحريب بعد أن دمر بابل سنة ٦٨٩ ق . م أرسل إلى دلمون أمراً بالخضوع ومعه بعض رماد حريق بابل كتهديد لها بنفس المصير فبادر ملك دلمون بإرسال جزيةوهدايا لسنحريب رمزاً لخضوعه له.

ويود بعض الباحثين أن يربط جنة عدن المذكورة فى الكتب السماوية بمنطقة دلمون ويستندون فى هذا إلى ما تذكره الأساطير المسمارية التى تصفها بأنها أرض غريبة وإلى الأساطير العربية الشائعة فى شبه الجزيرة التى تصفها كجنة ليس فيها إلا الخير والطهر ، وإلى أن أسطورة سومرية عن الطوفان تشبه أسطورة جلجاميش تشير إلى دلمون كأرض مقدسة ولكننا بالطبع لانستطيع تأكيد ذلك .

باصو أوبازو « نجد » وحاسو « الاحساء »

تقع هذه البلاد فى شرق وجنوب شرقى شبه جزيرة العرب وقد اتصل بها غير واحد من ملوك الاشوريين وكان أهمهم أسر حدون الذى توغل فى بلاد العرب الى مسافات بعيدة وصفها وصفا ينطبق على نجد والأحساء ، وقد ذكر أسميهما باصو (أوبازو) وحاسو على الترتيب ، ومع أن بعض البحوث الأثرية قد تمت حديثا فى الأحساء وفى جزيرة البحرين إلا أنها لا تلقى كثيرا من الضوء على تاريخ هذه الجهات قبل خروج الإسكندر الى حملاته فى الشرق .

الفصل الخامس

الاقليم السورى

ويقصد بالإقليم السورى هنا تلك المساحة التى عرفها اليونان بهذا الاسم ، أى المساحة الواقعة بين جبال طوروس شمالا وسينا جنوبا وبين البحر المتوسط غربا والبادية وبلاد النهرين شرقا .

ولو تأملنا هذا الإقليم لوجدناه ينقسم من ناحية التضاويس إلى أقسام طولية يغلب فيها بوجه عام تناوب الأراضى المنخفضة والمرتفعات حيث نجد أن السهل الساحلى تتلوه سلسلة الجبال الغربية ويلى هذه سهل البقاع ثم السلسلة التى تنتهى إلى بادية الشام مع ملاحظة أن كلا من هذه الأقسام يختلف فى اتساعه بين بقعة وأخرى .

وقد تأثر هذا الإقليم فى تاريخه وحضاراته ببضعة عوامل يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ ـ الموقع الجغرافى : تقع سورية بين القارات الثلاثة الرئيسية للعالم القديم ، فهى لهذا تعد حلقة الاتصال فيما بينها ، ومع أن هذا الموقع أتاح لها أن تلعب دورا هاما فى التبادل التجارى وانتشار كثير من المظاهر الحضارية بين أقطار الشرق الأدنى إلا أنه من جهة أخرى جعلها عرضة للهجرات والغزوات المختلفة وكانت مجاورتها لأقدم مراكز الحضارة الفعالة

فى العراق ومصر وآسيا الصغرى من العوامل الهامة التى جعلتها تتـــأثر بتلك الدول وحضارتها .

٢ ـ التضاريس : أشرنا إلى أنها تنقسم إلى أقسام طولية مختلفـــة الاتساع والمظهر وقد أدى ذلك إلى قيام وحدات منفصلة فيها ، ولم تكن إحدى هذه الوحدات من الاتساع بحيث تنشأ فيها دولة قوية يمكنها أن توحد سوريا بأكملها تحت سلطانها ولذا كان توحيدها غالبـا ما يتم بإرادة سلطة خارجية .

٣ ـ وجود المناطق الصحراوية فى شرق سوريا وجنوبها جعلها المطمع الدائم للبـدو من سكان هـــذه الأقاليم فكان فى صراع مع تلك العناصر .

ونظرا لأن هذه العوامل مرتبطة بالظروف الطبيعية للإقليم السورى فإن أثرها الحضارى والتاريخى ظل مستمرا فى معظم أدواره التاريخية ، وفيما يلى موجز للأدوار التى مر بها .

أولا — العصور قبل التاريخية

١ ـ العصر الحجرى القديم

العصر الحجرى القديم الاسفل

وجدت آثار حضاراته (التى تشبه مثيلاتها فى جهات العالم الاخرى) فى كهوف عدلون (بين صيدا وصور) وفى الكرمل وأم قطفة (شمال غرب البحر الميت) والزطية (شمال غرب بحيرة طبرية) ورأس شمرا (أوجاريت) ـ ولم يعثر على بقايا بشرية تمثل سكان هذا العصر(١).

العصر الحجرى القديم الأوسط :

عثر على آثاره فى كهوف فى جبل الكرمل وفى جنوب الناصرة وفى شمال غرب طبرية ، وقد عثر فى بعض هذه الكهوف على بقايا بشرية تبين أن إنسان هذا العصر كان خليطا من السلالات التى تمثل إنسان نياندرثال وأنواع أخرى أرقى منه تكاد تشبه الانسان الحديث ، ومن المحتمل أنه كان يأكل اللحوم البشرية كما يستدل على ذلك من بقايا العظام البشرية التى وجدت وقد استخرجت مادتها النخاعية(٢) .

---

(١) أنظر مع ذلك فيليب حتى «تاريخ سورية ولبنان وفلسطين» ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق ص ٩ حيث يميل إلى أن سكان سورية فى هذا العصر كانوا «نوعا بدائيا غير متميز من الانسان الأبيض» .

(٢) أنظر نفس المرجع السابق ص ١١

العصر الحجرى القديم الأعلى :

وجدت آثاره فى كهوف أنطلياس وفى حوض نهر الكلب وفى كهف بالقرب من طبرية حيث عثر فيها ـ فضلا عن الأدوات الميكروليثية ـ على بقايا هياكل عظمية لأنواع مختلفة من الحيوانات مثل الكركدن والضبع الثعلب والماعز والغزلان (وهذه الأخيرة كانت أكثرها) كما عثر على بعض بقايا إنسانية ، ومن المحتمل أن الإنسان توصل ـ فى هذه المرحلة ـ إلى معرفة النار واستخدامها فى الطهى .

ب ـ العصر الحجرى المتوسط

تمثل هذا العصر حضارة تعرف باسم الحضارة الناطوفية [١] (نسبة إلى وادى النطوف شمال غربى القدس) ، وفيها ظلت الأدوات الميكروليثية مستعملة بينما أخذت بعض الحيوانات التى كانت تعيش فى تلك الجهات فى الاختفاء نظراً لتغير الظروف المناخية ـ ويستدل من بقايا إنسان هذا العصر على أنه كان قصير القامة مستدير الرأس ، ويرجح أنه عرف استئناس الحيوان والمرحلة البدائية فى الزراعة وإن كان هذا لا يستند إلى دليل قوى حتى الآن ، واتخذ منازل عبارة عن أكواخ من الطين

---

(١) Dorothy A. E Garrod & D.M.A. Bates " The Stone Age of Mount Carmel " Vol. 1 (Oxford 1937) pp. 145, 153, 175-7, D.A.F. Garrod " A New Mesolithic Industry : The Natufian of Palestine ", in the Joural of the Royal Institute of Great Britain, vol LX 11 (1932), pp. 267 ff.

أو اللبن عثر على أقدم آثارها فى أريحا وتل الجديدة (شمال سوريا) ورأس شمرا - ويتغالى بعض المورخين فيعتبر سورية أول من عرف بعض أسس الحضارة التى انتقلت منها إلى جهات أخـــرى من الشرق الأدنى [١] وهو ما لايتفق مع نشأة الحضارات العظيمة فى مصر والعراق.

ومن المرجح أن الانسان - ابتداء من هذا العصر - اهتدى إلى نوع من العقيدة بدليل ما عثر عليه من أوانى الطعام والتقـدمات فى أماكن الدفن ، كما أنه أخذ ينمى ملكته الفنية حيث أصبح يحاول محاكاة ماحوله من الكائنات بحفرها على العظم أو الحجر إذ عثر على قطعة من العظم فى هيئة غزال وعلى تماثيل طينية لبعض الحيوانات الداجنـــة كانت فى مزار مقبرة فى أريحا .

جـ — العصر الحجرى الحديث

يتمثل العصر الحجرى الحديث والعصر التـالى له (بداية استخدام المعادن) فى عدة مواقع فى سورية وفلسطين - وقد اصطلح كثير من الأثريين على اتخاذ منطقة العمق فى ســـورية نموذجا للحضارات التى شاعت فى هذا العصر وما تلاه نظراً لأن تلاها الكثيرة بطبقاتها المختلفة تحوى آثارا لكل من هذه الحضارات ويقابل هذه المنطقة فى فلسطين منطقتى جريكو وتل الغسول .

---

(١) فيليب حتى « المرجع السابق » ص ١٧ وما بعدها .

وقد وجدت آثار حضارة العصر الحجرى الحديث فى تل الجديده وساكجى جوزى (فى أقصى الشمال) ومرسين فى قيليقيا وهذه يمكن وضعها ضمن آسيا الصغرى ولكنها أقرب إلى الاقليم السورى ولذلك تلحق به ، وقد وجدت نظائر لهذه الآثار فى طبقتى العمق أ ، ب بسوريه وطبقتى ١٠ ، ٩ فى جريكو بفلسطين ، ويمكن أن نعدها نظائر لحضارات حسونة بالعراق وسيالك الأولى فى إيران - وهى تمثل مرحلة استقرار بالمعنى الصحيح إذ عثر فيها على بعض الفؤوس والمناجل الحجرية لاشك فى أنها استخدمت فى الزراعة ، كما عثر فيها على أجران ومخازن - أما الأوانى الفخارية التى عثر عليها فربما كانت متأثرة فى صناعتها بما كان سائدا فى العراق حيث يرى البعض أنها متأثرة بحضارة سامراء التى تنتمى إلى أواخر الدور الحجرى الحديث بينما يرى البعض الآخر أنها متأثرة بحضارة حلف (١) التى تنتمى إلى أوائل دور بداية استخدام المعادن

د - دور بداية استخدام المعادن (عصر النحاس والحجر)

تتمثل حضارات أوائل هذا الدور فى أوجاريت (قرقيش) وفى جزروتل الغسول وفى الطبقة جـ بمنطقة العمق والطبقة ٨ بمنطقة جريكو (وهى تقابل تقريبا حضارة حلف بالعراق - وقد عثر فيها على منازل من اللبن أساساتها من الحجر الغشيم (غير المهذب) وكان الأطفال يدفنون عادة فى جرار تحت أرضيتها أما البالغون فكان بعضهم يحرق

---

(١) أنظر مع ذلك فيليب حتى تاريخ سورية . . . (الترجمة) ص ٢٢، ٢٣

والبعض يدفن فى جرار على هيئة الجنين (١) ، ومن المحتمل أن تحصينات المدن بدأت من هذا العصر - وكانت الزراعة مقترنة بالرعى واستئناس الحيوان كالثور (الذى يرجح أنه قدس) والماعز والغنم ، وكان الحمام يرمز عادة للإلهة الأم - وفى هذا العهد كانت تغلب على السكان صفات جنس البحر الأبيض المتوسط فى الجنوب أما فى الشمال فيغلب أنهم كانوا من الأرمنيين .

وتتمثل حضارات أواخر هذا الدور فى أريحا ومجدل (تل المتسلم) والعفولة وبيت شان (بيسان) وأوجاريت وبلوس وهى تقابل طبقات العمق د ، ه ، و - فى سوريا والحضارة الغسولية وعصر البرونز الاول فى فلسطين - ويبدو أن سوريا خلال هذه المرحلة كانت فى حضارتها تساير حضارات العراق ومصر المناظرة لها وخاصة فى الجزء الأخير من عصر التمهيد للكتابة فى العراق وعصر ما قبل السلالات الحاكمة فى مصر أى حضارتى جمدة نصر وسماينة ، ويبدو التطور واضحا فى هذه الحضارة إذ نجد أن الفخار أصبح يصنع بالعجلة وأن اللبن أصبح يستخدم فى البناء وطليت الجدران بلون أبيض وزينت برسوم تمثل بعض الأشخاص والآلهة - وقد توصل أهل هذه المرحلة إلى صب المعادن حيث عثر على تماثيل نحاسية صغيرة مصبوبة كما تطورت الفنون عامة ويتجلى ذلك بوضوح فى زخرفة الأوانى بطلاء زجاجى .

---

(١) C. Leonard Wooliey, "Hittite Burial Customs" in The Annals of Archaeology and Anthropology, " University of Liverpool, VI (1914) p. 88

ثانيا ـ العصور التاريخية

سبق أن أشرنا (١) إلى أن ظروف الأقليم السورى الجغرافية لم تيسر قيام دولة قوية فيه وأن الوحدات التى نشأت به لم تتحد إلا بإدارة سلطة خارجية ـ والواقع أن كل ماوصلنا من معلومات عن طريق البحوث التاريخية والأثرية يوحى بأن سورية ظلت فى معظم فترات تاريخها ميدانا لصراع القوى المجاورة، ومع وجود بعض دويلات المدن التى استمرت مستعصية على الغزاة فى الجزء الأكبر من تاريخها إلا أن هذه كانت تستسلم فى النهاية تحت ضغط القوى الفتية التى تغزوها ـ ومن الممكن القول إجمالا بأن الإقليم السورى كان فى أقدم عصوره التاريخية على علاقات تجارية مع مصر التى كثيراً ما كانت تنشر نفوذها به، وليس من المستبعد أن تكون جالية مصرية قد أقامت فى جبيل (ببلوس) بلبنان فى زمن الأسرة الرابعة المصرية (٢) لملاحظة التبادل التجارى بينها وبين مصر كما أن نصوص الأسرة الخامسة تدل على قيام حملات حربية مصرية إلى تلك الجهات أو على الأقل بعثات تجارية مسلحة ـ ومن المحتمل أن بعض عناصر الإقليم السورى استطاعت أن تهدد الحدود المصرية بل ويرجح أنها فى نهاية عهد الأسرة السادسة تمكنت من بسط نفوذها على الدلتا (٣)، وما لبث أن حدث رد فعل فى عهد الأسرة الثانية عشرة

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٦٢
(٢) أنظر أعلاه ص ٩٧
(٣) أنظر أعلاه ص ١١٤، ١١٥

إذ يبدو أن ملوكها كان لديهم شيء من النفوذ فى جنوب الاقليم السورى كما أنهم استأنفوا النشاط التجارى مع سواحله الشمالية وكانت لهم علاقات ودية مع بعض الإمارات الأخرى .

والظاهر أن ظروفا سيئة حلت بالإقليم السورى خلال هذه الفترة إذ أن بعض القبائل السورية جاءت فى عهد سنوسرت الثانى (١) تطلب السماح لهــا بالاستقرار فى مصر ويرجع سبب ذلك إما لحدوث قحط فى هذه الجهات أو لتعرضها لغزوات بعض الدويلات المجاورة وخاصة لأن الأموريين أخذوا ينتشرون إلى أواسط سوريا وجنوبها خلال هذه الفترة تقريبا بعد أن كانوا قد تركزوا فترة فى سوريا الشمالية أو لتدفق بعض سكان شمال ووسط سوريا عليها من جراء ضغط هجرات بعض العناصر الهندوأوربية الرعوية التى جاءت بالإيرانيين والحوريين وغيرهم ممن انتشروا فى أعالى دجلة والفرات ثم زحفوا إلى سوريا الشمالية ـ والظاهر أن ازدياد هذا الضغط قد أدى إلى زيادة تسلل العناصر الآسيوية إلى مصر وانتشارها وازدياد نفوذها تدريجا حتى استطاعت أن تستولى على السلطة فيها وحكمتها فى أعقاب الدولة الوسطى ـ وقد عرف هؤلاء فى التاريخ باسم الهكسوس وهم الذين تمكن ملوك الأسرة الثــامنة عشرة من طردهم وتعقبهم فى فلسطين إلى أن قضوا على سلطانهم .

---

(١) أنظر أعلاه ص١٣٨

وظل الإقليم السورى خاضعا للسلطان المصرى معظم عهد الأسرة الثامنة عشرة ولو أن مملكة قوية عرفت باسم مملكة ميتـــانى نشأت فى شماله الشرقى (١٤٠٠ - ١٢٠٠ ق م) إلا أن نفوذهـا لم يتعد ذلك إلى مناطق النفوذ المصرى بل وكانت علاقاتها طيبة مع مصر وارتبط ملوكها بروابط المصاهرة مع الفراعنة - وفى عهـد الأسرة التاسعة عشرة تقاسم الحيثيون والمصريون النفوذ فى سوريا إذ أصبحت الأجزاء الشمالية منهـا فى قبضة الحيثيين بينما اقتصر النفوذ المصرى على جنوبها ، ولم يستمر الحال كذلك إذ انتهت الأسرة التاسعة عشرة نهاية سيئة فأعلن حـكام الأقاليم استقلالهم واغتصب أحد كبـــار موظفى البلاط السوريين العرش فترة إلى أن تمـكن مؤسس الأسرة والعشرين « ستنخت » من اعتلاء العرش بعد طرد الغـاصب السورى وعاد الأمن والاستقرار فى البلاد (١) ، وفى عهد هذه الأسرة الأخيرة حدثت اغارات مفاجئة من شعوب هندوأوربية عرفت باسم « شعوب البحر » على آسيا الصغرى فأسقطت دولة الحيثيين وواصلت تقدمها فى شمال سوريا وزحفت جنوبا حتى أصبحت تهدد مصر ولـكن رعمسيس الثالث - ثانى ملوك هذه الأسرة - تصدى لهم وهزمهم برا وبحراً فى معركة فاصـلة ، وبذلك احتفظ بشىء من النفوذ المصرى فى سوريا ، وكذلك ظلت بعض الولايات الحيثية قائمة فترة بعد ذلك فى شمال سوريا إلى أن قضى عليها نهائيا سرجون الثـــانى ملك آشور

---

(١) أنظر أعلاه ص١٩٩

فى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد - وبعد عهد رعمسيس الثالث أخذ نفوذ مصر يزول تدريجيا من سوريا إلى أن انتهى تماما فى أواخر الأسرة العشرين ولم تقم له قائمة بعد ذلك إلا فى فترات متباعدة ولمدد قصيرة من عهدى الأسرتين الثانية والعشرين والسادسة والعشرين ثم أصبحت سوريا ومصر نفسها بعد ذلك جزءا من الإمبراطورية الفارسية .

ولاشك فى أن ظروف الإقليم السورى الجغرافية التى أشرنا إليها من قبل(١) لا تجعل من مصر الدولة الوحيدة التى كان على علاقات معها ، بل وربما كانت بعض المناطق الأخرى أيسر اتصالا به وعلاقاته معها أبعد مدى ، فمن المعروف أن المنطقة بين سهول سوريا الشمالية وحوض نهر دجلة الأعلى كانت كثيفة السكان منذ أقدم العصور ، يسهل الانتقال عبرها بين بلاد النهرين والإقليم السورى ولذا كانت بمثابة حلقة الاتصال بينهما مما أدى إلى تشابه بعض حضاراتهما فى العصر قبل التاريخى وإلى توسع الدول القوية التى تنشأ فى أى منهما فى أراضى الآخر ، وهكذا نجد أن « لوجال زاجيزى » (٢) يدعى بأنه غزا سورية ووصل «سرجون» الأكدى فى فتوحاته إلى لبنان ، وما أن تحررت أرض الجزيرة وشمال سورية من الأكديين حتى تخضع الجزء الشمالى من سورية للحوريين ، وبعدئذ تمكن « ارام سن » من السير فى فتوحاته شمالا حتى أخضع حلب . ولم يقتصر نشاط العلاقات بين القطرين على سياسة التوسع فقد قامت بينهما علاقات تجارية من أقدم العصور وخير

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٦١ — ٢٦٢

(٢) أنظر فيما بعد ص ٣٥٦ — ٣٥٨

مثال لذلك ماقام به « جوديا » حاكم لجش من إحضار خشب الأرز من لبنان .

وعندما ازدادت قوة الساميين الغربيين «الأموريين» الذين كانوا يقطنون فى الإقليم السورى زحفوا على طول نهر الفرات وأصبحوا حكاما لكثير من بقاع بلاد النهرين ولكن لم يلبث «حامورابى» أن أخضعهم لسلطان بابل ولو أنه هو نفسه كان أصلا من الأموريين ، وما أن انتقلت السيادة فى بلاد النهرين إلى الأشوريين حتى وجـــدوا أن الآراميين أصبحوا يتركون على الجانب الأيمن للفرات ولذا عمد ملوكهم الأقوياء إلى فرض سلطانهم على هؤلاء الآراميين بل وتوسعوا غربا حتى وصلوا إلى البحر المتوسط ، ولم تكد بضعة الدويلات السورية القائمة أن تفيق من ضربات الأشوريين المتلاحقة بعد سقوط آشور حتى تعرضت من جديد لغزوات الكلدانيين .

ولم تكن آسيا الصغرى فى علاقاتها بالإقليم السورى أقل شأنا من غيرها ، بل ويمكن أن نعد الجزء الجنوبى منها ـ وهو الواقع خلف جبال طوروس ـ امتداداً للإقليم السورى ولذلك نجد تشابها فى حضارتيهما منذ العصر الحجرى والحديث ، وقد وجدت دوله الحيثيين « سكان آسيا الصغرى » فرصة للتوسع فى الإقليم السورى منذ القرن الرابع عشر ق م واشتد التنافس بينهما وبين المصريين من أجل السيطرة عليه ثم تكونت فيه عدة ممالك حيثية صغيرة خلال القرن الحادى عشر ق.م.

وهكذا نجد أن الإقليم السورى كان ميدانا لصراع دول وشعوب مختلفة أثرت فى تاريخه أيما تأثير

الشعوب التى أثرت فى تاريخ سورية

أشرنا إلى أن موقع الإقليم السورى كان عظيم الأثر فى تاريخه وحضارته إذ أنه جعله عرضة لوفود بعض العناصر التى لعبت فى تاريخه دوراً هاما ـ وأهم هذه العناصر هى :

أولا ـ العناصر السامية :

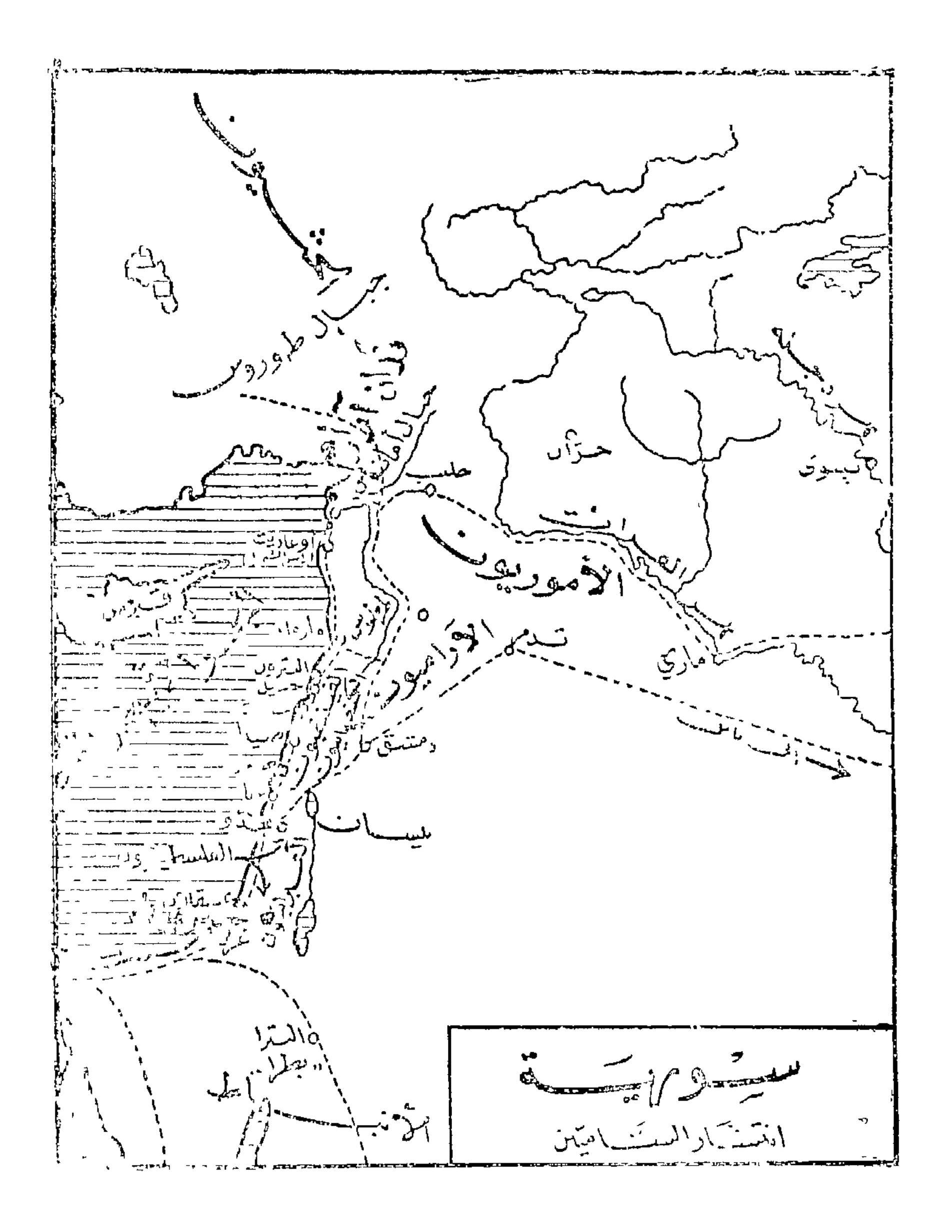
وفدت هذه العناصر إلى الاقليم السورى فى موجات متتابعة واستقرت فى أنحاء مختلفة منه (خريطة رقم ٤) ، وظلت تسود فيه خلال الجزء الأكبر من تاريخه القديم وأهم جماعات هذه العناصر هى :ـ

١ ـ الاموريين :

هم أول شعب سامى عاش فى سورية ، وقد جاءوا من بلاد العرب فى هجرة واحدة مع الكنعانيين حوالى منتصف الألف الثالث ق.م وأخذوا يتجولون فى شمال سورية قبل أن يستقر بهم المقام فى أواسط حوض الفرات ، وكانت هذه المنطقة تسكنها جماعات سومرية عند وفود الاموريين ثم مالبث هؤلاء أن أصبحوا يمثلون غالبيـــة السكان ، وبعد انتصار سرجون الاول (ملك أكد) على لوجال زاجيزى [1] حوالى سنة ٢٣٧١ ق.م اجتاح بلاد الاموريين ـ ولكن ما أن حل القرن العشرين قبل الميلاد حتى أصبحت منطقة الفرات الاوسط أمورية فى سكانها

---

(١) ملك مدينة أوما — أواخر بعد « عصر فجر الأسرات السومرى » بالعراق .


جبال طوروس
حلب
حران
الأموريون
تدمر
ماري
بيسان
سورية
انتشار الساميين

خريطة رقم ٣

وحضارتها وحكومتها حيث أسسوا دولة عاصمتها ماري جنوب مصب الخابور - ولم يتوقف نشـــاط الأموريين عند هذا الحد بل أسسوا سلالات حاكمة فى أجزاء مختلفة من بلاد النهرين وفى معظم أنحاء سورية ، والواقع أن إماراتهم كانت منتشرة من آشور شمالا إلى لارسا جنـــوبا ومن البحر المتوسط غربا إلى مرتفعات عيلام شرقا ، والظاهر أن بعض الجهات التى قطنوها فى أول الأمر تعرضت لحملة مصرية فى عهد ساحورع أحد ملوك الأسرة الخامسة (١) حيث أن النقوش التى تركها على جدران معبده تبين انتصاره على آسيويين مثلوا بملامح تغلب فيها الصفات الأرمنية (رأس مستديرة وأنف ضخم) وهى صفات كانت سائدة بين الأموريين أيضاً ، ومن المرجح أن بعض مواطنهم تعرضت لبعض المتاعب فجاءت جماعات منهم تطلب الاستقرار فى مصر ، ويتضح هذا من نقوش مقبرة « خنوم حتب » أحد أشراف مصر الوسطى فى عهد سنوسرت الثـــانى من السلالة الثانية عشرة حيث مثلت إحدى القبائل التى لها نفس الملامح وقد جاءت تطلب السماح لها بالإقامة فى مصر (٢) - وربما كان الأموريون يمثـــلون الغالبية بين الشعوب التى اجتاحت سورية وتسللت إلى مصر وسيطرت عليها وهى التى عرفت باسم الهكسوس (٣) .

وقد شهد مطلع النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد تحولا

---

(١) أنظر ص أعلاه ١٠٤

(٢) انظر اعلاه ص١٣٨

(٣) انظر اعلاه ص١٤٧ ومابعدها

فى النشاط الدولى إلى سورية الوسطى التى كان الأموريون يلعبون الدور الرئيسى فيها ، لأن الدولة الحيثية أصبحت من القوة بحيث أخضعت الجزء الشمالى من سورية لسلطانها بعد أن كانت تسيطر عليه مملكة يامخاد الأمورية التى كانت عاصمتها حلب - وفى تلك الأثناء كانت مصر قد أخذت تبنى إمبراطوريتها فى عهد الدولة الحديثة ووقع جزء من سورية تحت سيطرتها ، وهكذا انحصرت بقية الإمارات الأمورية فى سوريا الوسطى وخاصة فى الجزء الشمالى من لبنان والإقليم الداخلى حول دمشق - وظلت هذه الإمارات تتأرجح بين الخضوع للحيثيين أو الولاء لمصر ، وظل الحيثيون فى تقدمهم بينما أخذت حالة المستعمرات المصرية تزداد سوءاً فى أواخر عهد الأسرة الثامنة عشر وانكمشت الممتلكات المصرية حتى أصبحت قاصرة على الجزء الجنوبى من سوريا وأخذ الحيثيون يسيطرون على شمال سورية ووسطها إلى أن انتهى نشاط الأموريين منها واقتصر على جنوبها بينما ظل الكنعانيون يسكنون السواحل - وبعد مضى بعض الوقت استطاع الآراميون والعبرانيون الذين وفدوا إلى سوريا بين ١٥٠٠ ، ١٢٠٠ ق. م. أن ينتزعوا السيادة من الأموريين والكنعانيين كما استولوا على المناطق السورية الواقعة فى شرق نهر الأردن .

ب- الكنعانيون :

أشرنا إلى أن هؤلاء وفدوا مع الأموريين فى هجرة واحدة ولكن هؤلاء الكنعانيين استقروا على الساحل حيث أطلق عليهم اليونان اسم « الفينيقيين » ، ولم تمكنهم طبيعة المنطقة التى عاشوا فيها من تأسيس

دولة قويه موحدة بل انتظموا فى جماعات صغيرة يحكم كلا منها ملك ويتركزون حول مدن محصنة ، تحميها أسوار وأبراج قوية تلجأ إليها تلك الجماعات عند مهاجمتها ، وبعض هذه الجماعات كانت تحتل - إلى جانب أماكن استقرارها على الساحل - جزرا صغيرة فى مواجهتها حتى إذا ما اشتد الهجوم عليها التجأت إلى تلك الجزر التى كانت محصنة هى الأخرى ، أى أن هذه الجماعات كانت تتبع وسائل دفاع مزدوجة بفضلها استطاعت بعض مدنهم أن تقاوم طويلا هجمات كثيرة تعرضت لها ووقفت صامدة أمام الفاتحين رغم حصارهم لها سنوات متتالية .

وكثيرا ماكان يكثر التطاحن بين هذه المدن وتنشب بينها الحروب ومع ذلك فإنها كثيرا ما كانت تتحد أمام المهاجمين من الشعوب الأخرى ، وقد تحصل إحداها على الزعامة وتتمتع بنوع من السيادة على الآخرين (١) ولكن هذه الأحلاف كانت لا تستمر طويلا وخاصة لأن بعض المدن كانت تحاول الانتفاع على حساب البعض الآخر .

وكان الفينيقيون أول أمة بحرية فى التاريخ ، أخذوا يجوبون البحار ويؤسسون الطرق البحرية بين الشرق والغـــرب وأنشأوا المستعمرات ونشروا حضارتهم وحضارات غيرهم بين مختلف الجهات ، وكانوا تجارا نموذجيين ألفت الشعوب القديمة رؤية سفنهم ولذا نجدها ممثلة فى نقوش المصريين والأشوريين - ومن أهم ما قاموا به الدوران حول أفريقيـة

(١) مثل الحلف الذى تكون بزعامة قادش أيام تحتمس الثالث — أنظر ص ١٦٩

فى عهد نخاو (ثانى ملوك الأسرة السادســة والعشرين المصرية) [١]
كما ينسب إليهم أنهم وصلوا إلى بريطانيا وكانوا يتاجرون معها إذ كانوا يحصلون منها على القصدير فى نظير الخزف والملح والأوانى النحاسية - وأهم المستعمرات التى أسسوها كانت فى قبرص وصقلية وسردينيا وأسبانيا وأوتيكا (تونس) وقرطاجنة وبلاد اليونان - وكانت قرطاجة أكثر هذه المستعمرات نجاحا فقد تطورت حتى أصبحت تنافس الوطن الأم فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وكونت منذ القرن السادس ق.م إمبراطورية واسعة امتدت من حدود ليبيا إلى جبل طارق شملت بعض جزر البحر المتوسط حتى نازعت روما السيادة على هذا البحر ، وبلغ من تسلطها عليه أن تردد القول بأن الرومان لم يكونوا يستطيعون غسل أيديهم فى مياهه دون اذن من قرطاجة - وتطورت الحرب بين روما وقرطاجة إلى أن دمرت هذه الأخيرة على يد الرومان وأشعلوا فيها النيران لمدة سبعة عشر يوما حتى أتت عليها فى سنة ١٤٦ ق.م

ويبدو أن الفينيقيين كانوا أول من استعمل الأبجدية الراقية التى لاشك فى أنهم اقتبسوها من الكتابة المصرية كما أنهم تأثروا بالمصريين فى كثير من أمورهم كالآداب والعقائد وفن العمارة وعادات الدفن وغير ذلك ، اذ أن من المرجح أن النفوذ المصرى كان سائدا فى الســاحل الفينيقى من حوالى ٢٤٠٠ - ١٢٠٠ ق.م ، وكانت أول مدينة تحتل مركزا رئيسيا

---

(١) أنظر ص ٢٣٨

فى العلاقات المصرية الفينيقية هى جبيل (ببلوس) حيث كانت مصر تستورد منها خشب الأرز والخمور والزيوت فى نظير الذهب والمصنوعات المعدنية وورق البردى ، وقد دخلت سوريا تحت سلطان فراعنة الدولة الحديثة على العموم ولكنها خرجت عن سيادتها بعد ذلك .

ولم يكن التأثير الحضارى لبلاد النهرين على سوريا أقــل من التأثير المصرى ، وكان ملوك بلاد النهرين الأقوياء يحصلون على خشب الأرز من هذا الإقليم كما حدث فى عهد جوديا ملك لجش ، بل ويحتمل أن سوريا الشمالية خضعت لسرجون الأول ملك أكد وإلى نارام-سن (ثالث خلفائه حوالى ٢٢٣٨ ق . م ، على أن خضوعها بصفة حاسمة لدول بلاد النهرين لم يحدث إلا فى عهد الآشوريين حينما انهارت الدولة الحيثية فقد استطاع تجلات بلاسر الأول ملك آشور أن يفرض سلطانه عليهــا ، وما لبث الآراميون أن غزوا ممتلكاته فيها ولكن آشور ناصر بال (أحد خلفائه) تمكن من استرجاعها ـ وفى عهد وريثه شلمناصر الثالث تكون حلف ضده من المدن السورية ومن ملك دمشق (٨٥٣ ق . م) ولكنه انتصر عليه إلا أن انتصاره لم يكن حاسما .

وحينما اعتلى تجلات بلاسر الثالث عرش آشور قام بعــدة حملات لفتح سورية ثم استطاع ولده شلمناصر الخامس أن يجتاح المدن الفينيقية فيما عدا صور ، ولكن فى عهد سنحريب تمكنت آشور من الاستيلاء على معظم الإقليم السورى بما فى ذلك صور نفسها ـ وفى عهد خلفه أسرحدون قامت صيدا بالثورة ولكنه خربها وقتل ملكها وأخضع بعض مدن فينيقية أخرى كانت صور تتزعمها وبعدئذ استطاعت صور أن تتخلص من السيادة الآشورية

فترة قصيرة إلا أن أسر حدون وخلفه آشور بانيبال تمكنا فى النهاية من مد امبراطوريتها إلى البحر المتوسط بل وإلى مصر أيضا .

وحينما أصبح الكلدانيون حكام بابل بعد آشور ادعوا أنهم ورثوا السيطرة على سوريا - أما مصر فقد تخلصت من سيادة بلاد النهرين وأرادت أن تفرض سيادتها على سورية ، وكانت المدن الفينيقية أميل للاعتراف بسلطان مصر منها إلى الاعتراف بالسيادة البابلية - وفى عام ٥٨٧ ق . م وصل نبوخذ نصر ملك بابل الى سورية وأعاد فتح البلاد الفينيقية وفلسطين وحاصر صور ثلاثه عشر عاما حتى خضعت له .

٣ - الآراميون

كان هؤلاء من الرحل الذين عاشوا فى شمال شبه جزيرة العرب ثم هاجروا إلى سورية ، وما أن حل منتصف الالف الثانى قبل الميلاد إلا ووصلوا إليها - وفى خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق . م اجتاحت جماعات منهم سورية الشمالية والوسطى ووقفت جبال لبنان حائلا دون طغيانهم على السهل الساحلى فى الغرب - ومنذ حوالى سنة ١٢٠٠ ق . م أصبحت دمشق مركزا لدولة آرامية تأثرت بحضارة الاموريين والكنعانيين ، كذلك تأسست عدة مدن ودويلات آرامية فى أجزاء أخرى من الإقليم السورى وبلاد النهرين .

وكانت دمشق أهم هذه الدويلات ، عاصرت تأسيس المملكة العبرانية فكانت محصورة بين هذه المملكة جنوبا وبين مملكة آشور شمالا -

وقد استمر عداء الآرامين للعبرانيين نحو قرنين من الزمان - ومن الدويلات الآرامية التى كانت تنازع العبرانيين مملكة صوبة التى كانت إلى جنوب زحلة فى سهل البقاع ، وقد انتصر داود ملك العبرانيين على هذه المملكة كما احتل دمشق - ثم تناوبت دمشق وصوبة السيادة بعد ذلك ، فبعد أن كان ملك دمشق تابعا لصوبة قام بمحاربة العبرانيين طوال عهد سليمان (١) وانتقلت السيادة بعدئذ إلى دمشق التى حالفها الحظ بانقسام مملكة العبرانيين إلى مملكتين (اسرائيل ويهودا سنة ٩٢٢ ق . م) حيث أخذت تؤلب إحدى هاتين المملكتين ضد الأخرى - وتمكن ملك دمشق بنحدد الاول (٧٨٩ - ٨٤٣ ق . م) من أن يأخذ من ملك يهودا كنوزا ثمنية من المعبد ومن القصر الملكى فى أورشليم ثم هاجم إسرائيل وأخضعها (إسميا على الأقل) لسلطانه - وحينما تحالفت المدن السورية ضد شلمناصر الثالث (٢) كان ملك دمشق يرأس الحلف الذى لم يتمكن الأشوريون من الانتصار عليه انتصارا حاسما ، وبعد نحو سبعين عاما أصبحت دمشق من الضعف بحيث هاجمها يربعام الثانى ملك لسرائيل وذلك لأن هجمات آشور ضعضعت قوتها - وفى عهد تيجلات بلاسر الثالث اجتاح الأشوريون معظم المدن السورية وحاصروا دمشق وأسقطوها فى سنة ٧٣٢ ق م وقتـل ملكها وبذلك انتهت السيادة الآرامية .

---

(١) سفر الملوك الأول ١١ : ٢٥

(٢) أنظر أعلاه ص٢٧٩

د – الشعب العبرانى

نزح العبرانيون من شبه جزيرة العرب إلى سوريا عن طريق كنعان فى نفس الوقت الذى وصلها فيه الآراميون تقريبا ، فتسلسل العناصر السامية التى وصلت إلى الإقليم السورى كان على النحو التالى : الأموريون تركزوا بادىء الأمر فى الشمال والكنعانيون فى الساحل والآراميون فى المنطقة الداخلية والعبرانيون فى الجنوب .

وتروى التوراة أن هؤلاء العبرانيين أتمـــوا هجرتهم إلى فلسطين على ثلاثة مراحل ، أقدمها كانت إلى الصحارى القريبة من شمال بلاد النهرين، ويرجح أنها كانت فى نفس الوقت الذى حدثت فيه تحركات الهكسوس فى شرق البحر المتوسط أى فى القرن الثامن عشر ق.م ، والثانية توافق هجرة الاراميين أى حوالى القرن الرابع عشر ق م ، والثـــالثة كانت فى أواخر القرن الثالث عشر ق.م وفيها خرجوا من مصر إلى جنوب شرق فلسطين بعد جولة ليست بالقصيرة فى شبه جزيرة سيناء .

وحينما وصلت هجرتهم الأولى إلى الاقليم السورى كان السواد الأعظم فيه من الأموريين والكنعانيين بالإضافة إلى بعض العناصر غير السامية كالحوريين والحيثيين وغيرهم - وقد استطاع هؤلاء العبرانيون أن يختلطوا بهؤلاء جميعاً وأن يتعلموا حياة الاستقرار بعد أن كانوا من المتجولين المغامرين ، واتخذوا اللغة الكنعانية بدلا من لغتهم الأصلية كما تأثروا بكثير من مظاهر الحضارة والثقافة الكنعانية ولذا يمكن اعتبارهم ورثة للكنعانيين أو أخلافا لهم - وتذكر الأساطير العبرانيـة أن جدهم الأكبر ابراهيم

(أو قبيلتهم الأصلية) أتى من أور الكلدانيين عن طريق حران واستقر مؤقتا قرب حبرون (الخليل) وربما يتفق هذا الارتحال مع الهجرة الأولى - ثم أقام حفيده يعقوب (ابن اسحق) عدة سنوات فى فدان آرام ، ويحتمل أن هذا هو مايتفق مع هجرتهم الثانية ، وحينما وقع الاختيار على أسحق ليكون صاحب الشأن بينهم غير اسمه إلى اسرائيل كما غير أخوه عيسو اسمه هو الآخر إلى أدوم وسمى ورثته بالادوميين - ومن أبناء يعقوب كان يوسف الذى استقر هو وإخوته بمصر (١) ، وبعد أن عاش أحفادهم فيها عدة أجيال أخرجوا منها وكان يقودهم موسى ، وهذه هى هجرتهم الثالثة التى تعد بداية التاريخ الحقيقى للاسرائيليين .

ولايعرف تاريخ هذه الهجرة الأخيرة بالضبط رغم أن كلمة اسرائيل وردت على لوح حجرى من عهد مرنبتاح (٢) بن رعمسيس الثانى وقد ظل أفرادها يتجولون طويلا فى سيناء حيث قاسوا كثيرا ، وتزوج موسى من ابنة كاهن مدين (فى جنوب سيناء) الذى كان يدين بوحدانية يعبد فيها يهوه وهو أحد آلهة العرب الشماليين - ثم اتخذت هذه الجماعة الإسرائيلية مكانا لها فى جنوب شرقى الأردن استعدادا لدخول فلسطين وكان عددها يقدر بحوالى ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ نفس ، ومرت فى طريقها

---

(١) يحتمل أن أحد ملوك الهكسوس هو الذى قرب يوسف إليه باعتباره من أصل سورى مثله .

(٢) أنظر ص ١٩٧

بدويلات صغيرة فى جنوب وشرق وشمال شرقى البحر الميت - ولم تحاول مهاجمة هذه الدويلات ولكنها حاربت إمارة سيحون الامورية (فى شرق الأردن) وانتصرت عليها كما انتصرت على إمارة باشان التى كان ملكها عوج بن عنق المشهور فى التوراة على أنه كان من العمالقة - واستولوا على بعض المدن الكنعانية المحصنة فى فلسطين وأحرقوها وقتلوا أهلها حتى الأطفال ، ولكن بعض المدن الأخرى استعصت عليهم مثل جزر أورشليم وبيت شان ، وهذه الأخيرة لم تسقط فى أيديهم إلا حوالى سنة ١٠٠٠ ق م أو بعد ذلك بقليل .

وبعد أن استقروا فى الجهات التى وصلوا إليها اختلطوا بسكانها ومن بينهم أقرباؤهم الذين كانوا قد فضلوا البقاء فيها ولم يهاجروا إلى مصر ، ثم تغلغلوا فى أماكن أخرى وبعدئذ قسموا الجهات التى سيطروا عليها بين إحدى عشرة قبيلة من القبائل الاثنى عشر التى تضمهم أما القبيلة الباقية وهى قبيلة « لاوى الكهنوتية » فقد تفرغت للشئون الدينية ووزعت على القبائل الأخرى ، وهذا هو مايعرف بعصر القضاة .

وهؤلاء القضاة كانوا أبطالا وحكاما قادرين قادوا قبائلهم فى حروبهم ضد أعدائهم واشتهر منهم كثيرون من بينهم شمشون الجبار حيث روت عنه الأساطير العبرانية الشىء الكثير فيما يتعلق بحروبه مع الفلسطينيين الذين كانوا أشد أعداء العبرانيين ، وهم من شعوب البحر التى جاءت من منطقة إيجة فى أواخر القرن الثالث عشر ووصلوا إلى سواحل سورية الجنوبية واستقروا بها

(ومن اسمهم اشتق اسم فلسطين) ، وقد حاولوا الدخول إلى مصر فى عهد رعمسيس الثالث (١) ولكنه هزمهم وحال دون توغلهم إليها . ومن مدنهم الخمسة الرئيسية كونوا اتحادا بزعامة أشدود ، وفى حوالى سنة ١٠٥٠ ق . م حاربوا العبرانيين وانتصروا عليهم وأخذوا منهم تابوت العهد (٢) ونقلوه إلى أشدود .

ويبدو أن العبرانيين حينما وجـــدوا أن جيرانهم كان يحكمهم ملوك طلبوا إلى زعيمهم الدينى « صموئيل » أن يعين عليهم ملكا فاختـار « شاؤول » ولكن هذا كان ضعيفا مسنا ، ازداد نفوذ الفلسطينيين فى عهده وتسلطوا على مدن داخلية بعيدة مثل بيت شان ، وحينما حارب العبرانيين الفلسطينيون انتصر هؤلاء وقتلوا ثلاثة من أبناء شاؤول وأصيب هو نفسه بجراح خطيرة فانتحر .

وقد اختير داود حامل درع شاؤول ملكا من بعده وهو يعد المؤسس الحقيق للمملكة العبرانية ، فمع أنه بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيين إلا أنه نجح فى التخلص من سلطانهم وتمكن من توسيع مملكته إلى حد لم تبلغه

---

(١) أنظر ص ٢٠١

(٢) تروى الأساطير أن تابوت العهد صندوق طويل من الخشب صنعه موسى عليه السلام (كان يوضع فى أقدس مكان من المعبد العبرانى بعد بنائه) وكان به لوحان من الحجر منقوشان بالوصايا العشر وقبل إن يشيد المعبد كان العبرانيون يحملون هذا التابوت معهم فى ترحالهم

فى أى وقت آخر (١) واختار حصن أورشليم ليكون عاصمة له ، وفى عهده ظهر الأدب العبرى الذى يعتبر من أرفع الآداب التى خلفها الشرق القديم ودونت فى عهده الحوادث والحوليات الملكية فى أسلوب حيوى لم يكتب مثله من قبل .

وورث سليمان ملك أبيه داود ، وفى عهده وصلت المملكة إلى غاية المجد والأبهة وعاش سليمان بين مظاهر الترف كملك شهوانى مستبد فحذا حذوه العبرانيون ، ولكن كانت أعماله العمرانية عظيمة للغاية ومنها هيكله الشهير الذى كان عبارة عن معبد ملكى ملحق بالقصر تم إنشاؤه فى سبع سنوات ثم أصبح بعد ذلك مركزا عاما لعبادة العبرانيين ، كما نشطت التجارة فى عهده وعم الرخاء حتى أجمعت الأساطير والقصص على إعلاء شأنه ولكن الوثائق التاريخية لاتؤيد ذلك حيث يفهم منها بأن فلسطين كانت تعترف بالسيادة المصرية فى ذلك العهد ، وقد تزوج سليمان من ابنة فرعون (الذى يرجح أنه بسوسنس الثانى آخر ملوك السلالة الحادية والعشرين) - وحينما استولى الفرعون على حصن جزر الكنعانى أعطاه مهراً لابنته زوجة سليمان (٢) ولكن نفقات هذا الأخير وتبذيره وسوء إدارته كانت سببا فى انقسام المملكة من بعده حيث اجتمع ممثلو القبائل العبرانية الأثنى عشر بعد وفاته

(١) من بين الإمارات التى أخضعها « إيدوم » وقد أسرف قائده فى ذبح الذكور من أبنائها ولكن أميرا إيدوميا حديث السن يدعى حداد هرب إلى مصر حيث أكرم وفادته فرعونها، ومع ذلك عاد إلى فلسطين على غير إرادة الفرعون وأصبح عدوا مدى الحياة لسليمان أنظر سفر الملوك ١ الاصحاح ١١ الآيات ١٤ وما بعدها .

(٢) سفر الملوك ١ الاصحاح ٣ الآية ١ والاصحاح ٩ الآية ١٦ .

لتنصيب ولده رحبعام ملكاً وأبدوا له رغبتهم فى أن يخفف عنهم عبء الضرائب التى فرضها عليهم والده فرفض ذلك بقسوة وتهور ، وعلى ذلك رفضت عشرة قبائل أن تعترف به ملكاً وانتخبت « يربعام » بدلا منه وعرفت مملكتهم باسم اسرائيل ، أما القبيلتان الباقيتان فخضعتا لرحبعام وعرفت المملكة التى تكونت منهما باسم « يهودا » ـ وقد تنافست المملكتان واستحكم العداء بينهما وكان الصراع بينهما سجالا فكانت كل منهما تتفوق على الأخرى أحيانا حتى انتهى الأمر بانهيارهما .

اسرائيل

كان « عمرى » من أشهر ملوك اسرائيل (ويدل اسمه على أنه كان من أصل عربى أو نبطى) ، بنى السامرة وحصنها واتخذها عاصمته الجديدة وبنى فيها قصراً .

وحينما تولى العرش « آحاب » بن عمرى وسع فى قصر أبيه وزخرفه ، وقد عرف هذا القصر باسم بيت العاج حيث عثر فيه على أثاث منزل من العاج يبدو أن كثيرا منه كسى بالذهب ـ وكانت علاقة آحاب بن عمرى مع جيرانه ودية فقد حالف مملكة دمشق فى معركتها ضد آشور وتزوج من ابنة ملك صور وصيدا ، وهذه كانت قوية الشخصية فرضت سيطرتها على زوجها كما أرادت فرض عبادة يهوه على إسرائيل .

وبعد فترة وجيزة قام أحد الضباط واسمه ياهو بالثورة وتمكن من الاستئثار بالملك وجعل عبادة يهوه العبادة الوحيدة فى إسرائيل ، ولكن هذا الملك لم يكن موفقا فى سياسته الخارجية حيث خضع لشلمناصر الثالث ملك آشور وقدم له الجزية ـ ولفرط ضعف كل من إسرائيل ويهودا

فى ذلك العهد قامت إمارة من الإمارات بالثورة ضـــد إسرائيل ، وفى نفس الوقت قامت ثورة أخرى ناجحة ضد مملكة يهودا ولكن ما لبثت قوة اسرائيل أن تجددت فى عهد يربعام الثانى وهو ثالث ملك من سلالة ياهو حيث أمكنها أن توسع حدودها الشمالية على حساب الآرامين .

وظلت اسرائيل تنعم بالهدوء إلى أن اعتلى تجلات بلاسر الثالث عرش آشور الذى ما لبث أن أخضع سورية وحولها إلى مقاطعات أشورية وفرض الجزية على إسرائيل التى انكمشت مساحتها حينئذ ـ وبعد بضعة سنوات رفض هوشع ملك اسرائيل الاستمرار فى دفع الجزية فهاجمه شلمناصر الخامس وريث تجلات بلاسر الذكور وحاصر السـامرة ثلاث سنوات ولكنها لم تسقط إلا فى يد خلفه سرجون الثانى الذى سبى أحسن رجال اسرائيل وعددهم ٢٧٠٨٠ ونقلهم إلى ميديا فتلاشت مملكة اسرائيل إلى الأبد (٧٢٠ ق . م) حيث إن الباقين من الرجال لم يكونوا إلا قسما صغيرا من سكان المملكة يقع فى غرب نهر الأردن ، أما المسبيون فقد اندمجوا مع غيرهم فى المناطق التى نقلوا إليها ـ ولم يكتف سرجون وخلفاؤه بذلك بل نقلوا قبائل من بابل وعيلام وسورية وبلاد العرب محل الإسرائيليين وأسكنوهم فى السامرة وما حولها فامتزج هؤلاء بالسكان واتحدت معتقداتهم الدينية مع عبادة يهوه وأصبح يطلق على الجميع اسم السامريين ، ولكن ما لبث النزاع أن نشب بين اليهود والسامريين بعد عودة بعض أنبيائهم من السبى حيث أن هؤلاء دافعوا عن فكرة النقاوة العنصرية .

يهودا

اعتلى العرش فيها عدد من الملوك مساو لعدد ملوك اسرائيل (أى ١٩ ملكا)، إلا أن هذه المملكة استمرت، مدة أطول من المدة التى عاشتها اسرائيل بنحو قرن وثلث من الزمان وفى عهد ملكها رحبعام تعرضت لغزو مصر على يد فرعونها شيشنق الذى كان قد زوج ابنته من يربعام ملك اسرائيل، ولم يتمكن رحبعام من صد هذا الغزو فاستطاع شيشنق أن يخرب المدن وأن ينهب أورشليم(١) ، وحينما توقف نشاط كل من آشور ومصر أفادت كل من اسرائيل ويهودا من استقرار الأمور وعمدت يهودا إلى تنظيم جيشها كما أصلحت حصونها ووسعت حدودها ونظمت شئونها الداخلية إلا أنها بعد زوال مملكة اسرائيل أصبحت عرضة للهجمات المباشرة من آشور - وبالرغم من تزايد الخطر على يهودا لم يتبع ملوكها سياسة حكيمة ، فعندما اعتلى العرش ملكها حزقيا استجاب لتشجيع مصر رغم تحذير النبى أشعيا له وتحدى آشور بالتحالف مع المدن الفلسطينية وغيرها من المدن المجاورة ضدها فتوالت على يهودا حملات سرجون وخلفه سنخريب الذى حاصر أورشليم ولكنها لم تسقط فى يده ، ومع ذلك فقد أجبرت يهودا على دفع الجزية بعد أن خضعت كلها فيما عـــدا أورشليم لسلطان آشور واستمرت آشور فى توسعها فخضعت لها مصر فى عهد آسرحدون وآشور بانيبال (٢) وتقلصت مملكة يهوذا وظلت تدفع لها الجزية بانتظام .

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢١٥

(٢) أنظر أعلاه ص. ٢٣٢ وما بعدها

وما أن دب الضعف فى آشور حتى استقلت مصر وحاولت يهودا أن تعيد وحدتها مع اسرائيل ، وبعـــد أن سقطت نينوى على يد الدولة البابلية الجديدة وميديا سعت مصر إلى إعادة امبراطوريتها ثانية فى سوريا وقام ملكها نخاو بحملة وصل فيها إلى قرب أعالى الفرات ، وقد قاومه يوشع ملك يهوذا حيث اعتبر نفسه تابعاً لبابل الجديدة وريثة آشور ولكنه قتل فى مجدو - وبعدئذ ترددت يهودا بين الخضوع لبـــابل وبين التحالف مع مصر ، واختار يواقيم ملكها حينئذ التحالف مع مصر وكان جزاؤه أن دخل نبوخذنصر أورشليم وقيده بالسلاسل ليحمله معه إلى بابل ولكنه قضى نحبه وتبعه فى الحكم ولده الذى لم يمكث سوى ثلاثة شهور ثار فيها على بابل فجاء نبوخذنصر إلى أورشليم وسبى الملك ونساءه وموظفيه وسبعة آلاف من الجنود وألف من مهرة الصناع ونقلهم إلى بابل وعين صدقيا وهو عم الملك السابق ملكا على يهودا - وظل هذا الأخير يتظاهر بالولاء لبابل بضعة سنين ثم حاول الاستقلال فجاءت الجيوش البابليـــة وخربت أورشليم وهرب الملك ولكنه أدرك فى أريحـا وجىء به إلى معسكر نبوخذ نصر فى ربله حيث قتل أبناؤه أمامه ثم سملت عيناه وحمل إلى بابل ، وسبى الأشوريون عظماء المدينة وغيرها من البلاد وكان عددهم خمسين ألفا تقريباً فلم يبق فى يهودا إلا جماعة من البائسين ودمروا كل مدينة مهمة ما عدا صور التى قاومت الحصار نحو عشر سنوات ثم خضعت بعد ذلك ، ولما حاولت الثورة أخمدت ثورتها بسهولة وعلى ذلك أصبحت سوريا كلها فى يد الكلدانيين .

ثانيا — العناصر غير السامية

الحوريون والميتانيون

ظهر الحوريون فى التاريخ من منتصف الألف الثالث ق . م (أى منذ العهد الأكدى) حيث كانوا ممثلين بأعداد قليله فى شمال بلاد النهرين شرق نهر دجلة ثم زاد عددهم منذ عهد سلالة أور الثالثة (١) ، وزادت مساحة الأراضى التى شغلوها فى منتصف الألف الثانى ق . م وأصبح لهم كيان سياسى فى شمال بلاد النهرين وسورية وبعض جهات الاناضول ، وفى ذلك الحين كان الساميون أكثرية فى وسط الفرات وجنوب سورية وفلسطين ، ويحتمل أنهم هم الذين غزوا آشور بعد شمش أدد الأول (٢) وحمورابى . وبلغ نفوذهم أوجه عندما أسسوا دولة قوية فى شمال سورية بالإضافة إلى مكانتهم فى العراق ولعبوا دوراً هاماً فى سياسة المنطقة ، ومن بعد سنة ١٥٠٠ ق . م تقلص نفوذهم فى المنطقة ولكنهم مع هذا كونوا فى الإقليم الذى تركزوا فيه فى شمال بلاد النهرين دولة قوية عرفت باسم مملكة ميتانى يستدل من أسماء ملوكها على أن الطبقة الحاكمة فيها كانت من العناصر الهندوأوربية غير أننا لا نستطيع الجزم بالأصل الجنسى لعامة الحوريين

وقد بلغ من قوة هذه الدولة أنها كانت تحكم المساحة الممتدة بين البحر المتوسط ومرتفعات ميديا بما فى ذلك آشور التى خضعت لنفوذها نحو قرن من الزمان ولم تتخلص من النفوذ إلا فى عهــد آشور أو بلط الأول (حوالى ١٣٦٥-١٣٣٠ق م) وكانت عاصمتها وشوكانى التى يرجح أنها الفخارية

---

(١) أنظر عودة الدولة السومرية فى بلاد النهرين

(٢) ملك آشور الذى يعاصر حمورابى وقد حكم حوالى ١٨١٤ - ١٧٨٢ق.م

الواقعة على نهر الخابور فى شرق تل حلف - ومن أهم مراكزها نوزى ويوزغان تبة وأربخا جنوب كركوك الحالية وقد عرفت هـــذه المملكة فى النصوص المصرية باسم نهارينا ومن أشهر حكامها هانى جلبات ثم توشراتا الذى كان صهرا لامنحتب الثالث (١) وأمنحتب الرابع وبعد أن نجحت المملكة الحورية فى الاعتداء على الأراضى الحيثية على أثر ما أصاب الحيثيين من ضعف عقب موت تليبينوس استعاد الحيثيون قوتهم بعدذلك فى عهد سوبيلوليوما وهاجموا المملكة الحورية فى عهد ملكها توشراتا وفى عهده هاجم الحيثيون مملكة ميتانى واستمرت حملاتهم عليها فى عهد خلفه أيضاً وانتهت هذه الحملات باستيلاء الحيثيين (٢) على القسم الشمالى من سورية - الذى يحده الفرات فى الشرق ولبنان فى الجنوب ثم ما لبث الأشوريون أن استولوا على القسم الباقى منها فى عهد ملكهم أددنيرارى وهكذا زالت دولة ميتانى من الوجود .

---

(١) اطر س ١٧٦

(٢) انظر عهد سوبيلوليوما فى الامبراطورية الحيثية

الفصل السادس

آسيا الصغرى

يرى البعض أن المناخ فى هضبة الأناضول تتعدد أنواعه إلى درجة تدعو إلى الإعتقاد بأن الممكن أن يجد فى أجزائها المختلفة كل من الانجليزى والأفريقى والسويسرى والروسى وغيرهم نوع المناخ الملائم له ـ فهضبة أرمينيا التى تعد امتدادا لسلسلة جبال البرز المطلة على بحر قزوين ، يصل ارتفاع بعض قممها فى أرارات إلى ١٧ الف قدم وتنتهى إلى خطوط تقسيم مياه الفرات التى تعتبر الحدود الطبيعية لهضبة الأناضول بالمعنى الصحيح ، ومن هذه الهضبة تخرج سلسلتان جبليتان تسير إحداهما فى محاذاة ساحل البحر الأسود وتمتـــد الثانية إلى الجنوب الغربى حتى تصل إلى البحر المتوسط وهما تحصران الهضبة الوسطى حيث تمتـد السلسلة الشمالية إلى ما يعرف باسم القوس البونتى Pontic Arc الذى لا يتخلله إلا بعض الأخاديد العميقة تمر فيها مياه الأنهار إلى البحر الأسود بينما تنتهى السلسلة المقابلة لها جنوبا إلى سهولة قيليقيا (خريطة رقم ٥) ، فالهضبة فيما بين هاتين السلسلتين أشبه بحوض متوسط وفى غربها توجد عدة بحيرات وأنهار شديدة الانحدار إلى بحر إيجه حيث تنتهى شبه الجـــزيرة بسلاسل جبلية متوازية تمتد نحو هذا البحر ، وهى تعد امتدادا للسلاسل الموجودة فى بلاد اليونان وهـكذا تنوعت التضاريس وأدى ذلك إلى اختلاف المناخ وتباينه فى أجزاء هضبة الأناضول المختلفة ، ومع كل فإنها تتمـيز



خريطة رقم ٤

بشتاء قاس طويل ولم تكن مغرية بالسكنى فى الألف الرابع قبل الميلاد ، وعلى هذا لاشك فى أن القرويين الذين عرفوا الزراعة والاستقرار لم يكونوا هم أول من غامر بسكنى الهضبه وكانت لديهم الشجاعة على تحمل شتائها الطويل ولذا ينبغى أن نستنتج بأن الهضبة سكنتها أقوام سبقت أولئك الذين عاشـوا فيها معيشة استقرار بعد أن عرفوا الزراعة وأن هؤلاء الأخيرين لا بد وأنهم وفدوا إلى الهضبة من الخارج - وإذا ما حاولنا أن نتعرف على الموطن الأصلى الذى جاء منه هؤلاء لوجدنا أن الأدلة الأثرية تعوزنا فى هذا السبيل - وإذا ما درسنا الظروف المحيطة بالهضبة بدقة فإننا نستبعد قدومهم من المناطق الجنوبية البعيدة فى الهلال الخصيب لأن سكان هـذه الجهات كانوا قد تحولوا من البداوة إلى حياة الزراعة والاستقرار وليس من اليسـير أن يتركوا أوطانهم إلى داخل هضبة الأناضول إنما المعقول أن يكون هـؤلاء الوافدون قد جاءوا من القوقاز أو من منطقة بحر قزوين حيث وصلت فى نفس الوقت هجرة أخرى من عنصر جنسى مخالف (ولكنه كان يعيش فى ظروف مشابهة تقريبا) إلى المناطق التى تحف ببحر إيجه من الغرب ، وقد عاش هؤلاء الأخيرون مع السكان الأصليين - الذين سبقوهم إلى تلك الجهات - فى وئام تام فترة طويلة .

ويجب أن نلاحظ بأن آثار أماكن الإقامة أثناء الدور الحجرى القديم فى آسيا الصغرى وجـدت - كما الجهات الجبلية الأخرى - التى تحف بالهلال الخصيب (فلسطين وكردستان العراقية وإيران) فى كل من الكهوف والعراء ...

أما الحجرى الحديث الذى يرجح أنه كان فى الألف الخامس قبل الميلاد فتتمثل آثاره فى أعمق الطبقات فى بعض البقاع مثل مرسين وطرسوس وساكجى جوزى التى تحتل مواقع جغرافية تجعل ظروفها مشابهة لظروف الأماكن التى وجدت بها آثار الحجرى الحديث فى الهلال الخصيب ولذا فهى تعد الامتداد الشمالى لهذه الأماكن ولذا يشار إليها فى دراسة الحجرى الحديث بتلك الجهات على اعتبار أنها أقرب اليها من داخل الهضبة (١).

العصور قبل التاريخية

الدور الحجرى القديم

ظل البحث عن آثار هذا الدور فترة طويلة بطريقة غير منظمة وعلى أسس غير علمية وعلى ذلك فإن أى خريطة لتوزيع ما عثر عليه فى تلك الفترة من آثار هذا الدور تعطى نتائج خاطئة لأنها مركزة فى المناطق التى يكثر ارتيادها لسبب أو لآخر ، ومع كل فمن بين الجهات التى وجدت فيها تلك الآثار قرقميش وملاطيا وحول العاصمة الحديثة أنقرة.

ومن الممكن تبعا لذلك أن نستنتج بأن الإنسان وجد فى الأناضول منذ بداية الدور الحجرى القديم ، ومن المناطق التى لها أهمية خاصة منطقة آدياماں (Adiyaman) التى تقع فى حوض الفرات الأعلى بالقرب من ملاطيا (Malatya) لأن الآثار التى وجدت بها تبين تعاقب

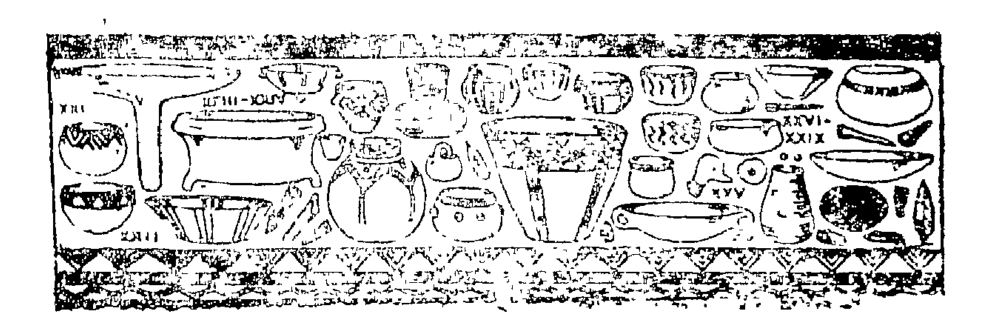
---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٩٧

معيشة الجماعات البشرية بها كما أنها تعد بمثابة حلقة الاتصال الأولى بين حضارات الإقليم السورى من جهة وبين تلك التى وجدت فى كردستان والقوقاز من جهة أخرى - ويجب أن لا يغيب عن الذهن بأن الدلائل الأثرية التى أعتمد عليها الباحثون حتى الآن تتكون فى معظمها من مجموعات متفرقة من المخلفات السطحية ومن الآثار التى اكتشفت غير منتظمة فى طبقات ، أما النتائج التى أمكن التوصل إليها على أسس سليمه فهى تلك المترتبة على الاكتشافات التى تمت فى كهف كارين (Karain) بالقرب من أنطاليا (Antaly) حيث وجدت آثار حضارات أشوليه وموستيرية وأورنياسية متتابعة فى طبقات ، كما عثر على آثار لبعض حفريات حيوانات فقرية أهمها دب الكهوف Ursus spelaeus وأسد الكهوف Felis leo spelaeus كما عثر على سنة من أسنان طفل من جنس نياندرثال .

الدور الحجرى الحديث

بدأ سلوك الانسان فى الهضبة كما فى غيرها يتغير خلال هذا العصر حيث أخذ فى استئناس الحيوان وعرف الزراعة المنظمة وكان هذان كافيين لأن يغيرا من نظام حياته تغييرا شاملا ، وقد عرف الأوانى الفخارية وعنى بتشكيلها وزخرفتها مع احتفاظه فيها بأشكال ورسوم تقليدية (أنظر شكل ٢٧) كما استحدث أنواعا من الآلات الحجريه لتقابل مطالب الحياة الجديدة ، وكانت الأسلحة الصوانية - ومن بينها السكاكين وأسنان المناشير ومخارز ثقب الجلود - أكثر هذه الآلات شيوعا فى آسيا الصغرى حيث عثر على نماذج كثيرة منها بجوار البحيرة الملحة فى الهضبة الوسطى ، وهذه يعتقد



(شكل ٢٧ - أواني وأدوات من مرسين « عصر حجري حديث »)

البعض بأنها جاءت مع التجار الذين كانوا يفدون للبحث عن الملح - وإذا كان الأمر كذلك فلابد وأن هؤلاء جاءوا من أماكن بعيدة لأن أقرب مراكز الاستقرار - مرسين وساكجى جوزى - تبعد نحو ٣٠٠ إلى الجنوب وراء منطقة الجبال .

ويبدو أن ثورة الدور الحجرى الحديث كانت قاصرة على منطقة تحددها سلاسل طوروس والسفوح المطلة على سهول سوريا لأن هذه كانت موطن نمو الحبوب التي كان يعتمد عليها الاقتصاد الزراعى فى هذه الحضارة ، ولكن نظراً لأن هذه الحبوب كانت تنمو أيضا فى مناطق أخرى مثل القوقاز فلابد أن انعدامها فى داخل هضبة الأناضول كان يرجع إلى الظروف التى أوجدت حاجزا مناخيا جعل إنسان الدور الحجرى الحديث يقف وراء حدود معينة فتمثلت حضاراته خارجها ، ولذا لانجدها فى الهضبة الداخلية بل على حافتها فى بقاع مثل مرسين وساكجى جوزى التى أشرنا إليها عند دراستنا لسوريا (١).

(١) أنظر ص ٢٠٧.

دور بداية استخدام المعادن

تتضح بداية استخدام المعادن من الناحيـــة الأثرية بواسطة عدد من المستحدثات التى كان لها أثرها بالطبع فى زيادة وتنويع أساليب الحياة التى كانت قائمة بالفعل ولكنها لم تحدث تطورا ثوريا ، أى أن الإنسان ظل يتدرج فى استعمال الحجر إلى جانب بدء استخدامه للمعدن فترة طويلة يحتمل أنها استغرقت الجزء الأعظم من الألفين الخامس والرابع قبل الميلاد ، ولذا لاتمثل هذه الفترة مرحلة واحدة بل عددا من مراحل التطور الحضارى ـ وحينما بلغت الحضارة فى هذا الدور منتهاها كان الإنسان يعيش فى مدن محصنة بها معابد وقصور ويشرع قوانينه ويكيف حياته حسب حاجياته ، ونظرا لأن هذه المظاهر لم يعثر على مايماثلها داخل هضبة الأناضول خلال هذا الدور فإن من المرجح أن الحاجز المناخى الذى أشرنا إلى أنه كان قائما خلال الدور الحجرى الحديث (١) ظل قائما كذلك إلى أواسط دور استخدام المعادن على الأقل فظلت الجهات الداخلية من الأناضول مجهولة بالنسبة لأهل حضارة بدء استخدام المعادن ولم ينتبهوا إليها إلا فى أواخر هذه الفترة ـ وهذا الحاجز المشار إليه يكاد ينطبق على خط كنتور المرتفعات الجنوبية الذى يصل إلى ارتفاع ألفى قدم أوأكثر ويمتد من المشرق إلى المغرب ولكن تتخلله فجوات عميقة تخترقها وديان بعض الانهار وتصل شمالا إلى سهل قيليقيا .

---

(١) أنظر أعلاه ص٢٩٧

وعلى اى حال ففي وقت مامن القرون الاخيرة للألف الرابع قبل الميلاد تمكنت الجماعات التى تعتمد على الزراعة من أن تعيش فى بعض الجهات الواقعة شمال هذا الحاجز المناخى وبدأت المحلات الزراعية تظهر فى الهضبة نفسها وفى الإقليم الإيجى فى الغرب ، ولكننا لانستطيع الجزم بالمكان الذى جاءت منه هذه الجماعة ، فمازالت المعلومات التى أمكن الوصول إليها عن هؤلاء الأناضوليين الأوائل ضئيلة للغاية وغير كافية لأنها جاءت عن طريق الإكتشافات التى تمت فى مواقع قليلة ومعظمها لاتخرج عن كونها نتجت عن مجسات طبقية فى بعض الأماكن أو أشياء وجدت على سطح الأرض فى أماكن أخرى ، ومع هذا يمكن القول بأنها تغطى مساحة جغرافية لابأس بها إذ أنها تمتد من أقصى الغرب إلى حدود إيران ، ولو أنها فى أول الأمر كانت عبارة عن سلسلة من الاكتشافات المتفرقة التى أمدتنا بمخلفات تتميز فى كل موقع أو مجموعة من المواقع المتجاورة عما عداها ولم يمكن معرفة أنها ترجع إلى دور بداية استخدام المعادن إلا عن طريق أدلة الطبقات فقط .

ومن أمثلة الاختلاف فى آثار الجهات المختلفة مايشاهد من فوارق بين المخلفات التى عثر عليها فى كل من عليشار وأزجوق (بالقرب من سمسون ودنداراتبه) وبيوق جلوجك (بالقرب من ألاجا) وطرواده ركوم تبه وغيرها ـ ومع أن كلا من هذه تتميز عن الآخرين فى صفات معينة إلا أن هذه الصفات الخاصة ترجع ـ دون شك ـ إلى اختلاف

المظاهر الجغرافية التى كانت تميز تلك البيئات المختلفة ، ويرى البعض أن من المحتمل وجود صلة بين الأناضول والبلاد التى تحف ببحر إيجة وامتدادها شمالا حتى حوض نهر الدانوب ، ويؤكد وجهة نظرهم هذه مايرى من تشابه بين أشكال الفخار التى اكتشفت حديثا فى بقعة تعرف باسم فكيرتيه Fikirtepe (على الشاطىء الآسيوى للبسفور) مع فخار جلوجك مما يساعد على معرفة اتجاه حركة الاستيطان الأولى فى الهضبة . ومن الغريب أن المخلفات الأثرية فى الأناضول لاتدل على أى نوع من الصلات التى تربطها بمخلفات الحضارة التى تطورت عن حضارة العصر الحجرى الحديث فيما وراء الحاجز الجنوبى ، وعلى هذا نستبعد كلية احتمال استيطان هضبة الأناضول عن طريق انتشار سكان تلك الجهات الجنوبية إلى الشمال . والواقع أن أول الاتصالات الملحوظة بين هؤلاء وبين جيرانهم فى الأناضول على الساحل الغربى لآسيا الصغرى يرجع إلى وقت تكوين أول محلة فى طرواده (١) أى فى عصر البرونز القديم الذى استغرق الجزء الأكبر من الألف الثالث ق م مع أن استخدام النحاس لم يعرف فى داخل الهضبة إلا فى وقت متأخر عن ذلك ، ويبدو أن المجتمعات التى عاشت فى داخل الهضبة - فى فترة لايمكن تحديدها من القرون الأولى فى الألف الثالث قبل الميلاد - امتزجت مع بعضها البعض وانصهرت فى وحدة بشرية جديدة لاتحمل إلاشبها بسيطاً لأى عنصر من العناصر الأولى التى دخلت فى تكوينها ولم يحدث ما يحول دون تطور تلك الجماعات فى هدوء وبطء إذ أنهم ظلوا مثلين لمدة سبعة أو ثمانية قرون فى كل قرية أو مدينة

---

(١) Seton Lloyd, op. cit 95 - 61

تجارية (من سقاريه إلى الفرات ومن البحر الأسود إلى سلاسل طوروس التى تكون حافة الهضبة) وكانوا يعيشون فى نفس المنـــازل مستعملين لنفس الأدوات ومفضلين لنفس الأشكال فى فخارهم ، وكانت ظروف ومعدات حياتهم الزراعية معروفة من بضعة المحلات التى تم اكتشافها فلم يلاحظ فى معظمها إلا تغير طفيف فى حالات شاذة ـ وربما كانت هذه التغيرات الضئيلة فى الصناعات التقليدية نتيجة هجرة قوية ، ومع ذلك فإن المظهر العام لحياتهم ظل كما هو إلى ما بعـد الألف الثالث قبل الميلاد ، فانعدام مظاهر التقدم فى مخلفاتهم يـكاد يـكون عاما بينما عاصرت حضارات عصر استخدام النحاس فى الأناضول حضارات بالغة الرقى فى بقية أقطار الشرق الأدنى ، فمصر مثلا كانت تعيش فى عهـد الدولة القديمة وهو من أزهى عهودها التاريخية ولذا لا يمـكن أن نقـارن بين حضارات الأناضول وتلك التى كانت فى الأقطار الأخرى خلال هـذه الفترة بل ويمـكن القول بأن منطقة طروادة المطلة على بحر إيجة كانت منفصلة حضاريا عن داخـــل الهضبة ، والواقع أن قليلا من الأدلة الأثرية هى التى تربط بين المنطقتين فى هذا العصر السحيق بحيث يصعب إيجاد صلة بينها أما الأدلة على ارتباط طروادة (خلال هذا العصر) بإقليم بحر إيجة فهى متعددة وكافية لأن تؤيد وجود صلة بينها .

ومع أن مخلفات الحضارات التالية من عصر النحاس فى طروادة التى تتمثل فى طبقاتها الأثرية ابتداء من الطبقة الثانية إلى الطبقة الخامسة ـ وهى التى تعد نموذجا لكل المنطقة المحيطة ببحر إيجة ـ تشير إلى اقتصاد زراعى متواضع إلا أن بعض آثار فيها تدل على غنى عظيم يوحى بوجود مستوى

أعلى للحياة بين الطبقات العليا ، وهذه تتمثل فى وجود بعض حلى من الذهب والفضة عثر عليها شليمان Shliemann فى الطبقة الثـــانية من حفائره فى طرواده ، ولـكن شواهد أخرى تدل على حـدوث تغـيرات واضحة فيما بعد حيث توجد آثار حريق عظيم فى هذه الطبقة الثانية يرجع تاريخه إلى نهاية القرن ٢٤ ق م تقريباً .

ولا يوجد من التشابه بين الحضارة التى سادت منطقة إيجة وتلك التى كانت داخل الهضبة إلا مظاهر ضئيلة أخذت تختفى بعد ذلك ، فقد وجدت فى الصناعات المعدنية أثنـاء عصر النحاس طرز مشتركة فى الأدوات وفى بعض المظاهر الزخرفية الصغيرة بكل من المنطقتين تكاد تكون من الكثرة بحيث توحى باحتمال الوصول إلى مراحل متشابهة فى تطور نوع معـين من الصناعـة فى الشرق الأدنى ، بينما لا يتمثل ذلك التشابه فى الفخار إلا فى أشكال فردية يمكن أن تستخدم فى المقارنة التاريخية ، كما أن اختلاف بقية المظاهر الأخرى لا التشابه فيما بينها هو الذى يستحق الدراسة لـكى نتبين مدى اختلاف الحضارة فى كل من المنطقتين - ولا بد من الإشارة هنا إلى منطقة قيليقيا حيث انها بالمثل تترك الهضبة من خلفها وتتجه نحو سوريا ولذا لا نتبين هنا إلا آثارا طفيفة للاحتكاك بين مرسين وطرسوس من جهة وبين أهل طروادة من جهة أخرى خلال عصر البرونز القديم ، أما فى عصر النحاس فإن علامات هذا الاحتكاك كثيرة تدل على نشاط تبادل التجارة مع الهضبة عن طريق ممرات طوروس وعلى تغلغل الذوق السورى بل والفلسطينى أيضاً ، ومن المنطق أن نستنتج بأن التيار الحضارى كان يتخذ طريقة عبر قيليقيا إلى وديان الانهار والبلاد الواقعة فى بغرب و حاجز الحجرى الحديث ،

ومن ثم إلى إلى الأراضى المرتفعة فى شرق الفرات ثم إلى ساحل البحر الاسود فى الشمال ، ونظرا لأن هذه المساحات لم تدرس دراسة وافية بعد فإن أى شىء يقال عن تاريخها فى عصر النحاس يكون فى معظمه مجرد تخمين - والواقع أن المثال الوحيد لمخلفات هذا العصر يوجد فى موقع يعرف باسم كاراز (Karaz) بالقرب من أرزروم (Erzurum) حيث عثر فى طبقة أثرية تنتمى إلى عصر النحاس على طرز جديدة من الفخار يوجد ما يشبه لها فى القوقاز .

والخلاصة أن جيران الاناضول فى الشمال والشرق والجنوب الشرقى ما زالوا غامضين نسبياً إذا ما قورنوا بساحل البحر المتوسط فى غرب قيليقيا وقد يدل عدم وجود آثار فى تلك الجهات على أنها لم تكن مسكونة بالفعل خلال هذا العصر - وهكذا فالهيكل الأساسى لما نعرفه عن عصر النحاس يمكن تلخيصه فى سطور قليلة ، ففى حوالى سنة ٢٣٠٠ ق . م تغيرت مميزات الحضارة فى الأناضول نظرا لدخول طائفة من الناس تميل إلى الفخار الملون الاجنبي الذى ينتمى إلى كبادوشيا وهنا نصل إلى نهاية العصر قبل التاريخى فى هضبة الاناضول .

العصر التاريخى

يبدأ العصر التاريخى فى هضبة الأناضول بوصول تجار أشوريين إليها وكان هؤلاء يتراسلون مع أوطانهم الاصلية باللغة البابلية حيث عثر على ألواح رسائلهم الطينية فى كول تبه وغيرها - وهى لا تمدنا إلا بالقليل من المعلومات عن السكان الأصليين وتاريخهم غير أننا نتبين فيها كثيرا من الاسماء

الهندوأوربية مما يوحى بأن الهندوأوربيين كانوا قد استقروا فى المنطقة قبل ذلك، كما تحدثنا هذه الألواح عن الأمراء المحليين وقصورهم - ومن ذلك نستنتج أن البلاد كانت مقسمة إلى عشرة مقاطعات صغيرة على الأقل من بينها مدينة بوروش خاندا التى تمتعت بالسلطان فى بادىء الأمر لأن حاكمها كان مميزاً عن حكام المدن الأخرى بلقب الأمير العظيم، ومدينة كسارا (١) التى ترك أميرها أنيتا بن بتخانا نصاً يشير إلى كفاحه وكفاح أبيه من أجل السلطان ضد بعض المدن المنافسة ومن بينها حاتى كما يذكر أنه قد تم إخضاع هذه المدن بنجاح وأن حاتوساس دمرت تدميرا تاما وبعد أن تم له قهر جميع الأعداء نقل مقر حكمه إلى نيسا Nesa ، ويظهر أن هذا الملك قد تمكن فى أواخر عهده من الاستيلاء على الجزء الأكبر من هضبة كبادوشيا .

ولا يعرف متى أدخلت الكتابة الحيثية بالخط المسمارى إذ أنها تختلف اختلافاً بيناً عن الأسلوب الذى استعمله التجار الأشوريون فى كتابة لغتهم وخاصة لأن النصوص الحيثية المتأخرة تشير إلى أن الأمراء المحليين فى العصور المبكرة كانوا يستعملون اللغة الأكدية فى كتاباتهم .

ويبدو أن النشاط التجارى للأشوريين فى كبادوشيا ظل مزدهرا حوالى

---

(١) يحتمل أن كوسارا كانت إلى جنوب حاتوساس (بوغازكوى الحالية) عاصمة دولة حاتى التى كانت تتركز فى منطقة كبادوشيا .

ثلاثة أجيال ولكنه انتهى فجأة فى حكم الملك أنيتا ، ولا ندرى هل كان ذلك نتيجة لانتصارات هذا الملك أو أن كارثة حلت بمدينة آشور نفسها فى ذلك الوقت - وليس هناك ما يبرر الاعتقاد بأن السكان المحليين لم يكونوا على علاقات ودية مع التجار الآشوريين بل على العكس من ذلك ربما كان هؤلاء يرحبون بمثل أولئك الذين كانوا يحملون لهم ثمار الحضارات المتقدمة من بلاد النهرين .

وإذا ما أردنا تتبع علاقة الملك أنيتا المشار إليه بمملكة حاتى فإننا نجد أنه كان يحكم فى مدينة كوسارا أى أن هذه المدينة كانت مقره فى العصور الحيثية المبكرة إن لم تكن هى عاصمته الإدارية كذلك ، ولذا يعتقد بعض العلماء أن الأسرة المالكة الحيثية كانت من سلاله أنيتا إلا أن هذا الاعتقاد فيما يبدو لا يتفق مع ما نعرفه عن تدمير حاتوساس والعداء الذى أظهره أنيتا لها ما يدل على أنه كان ينتمى إلى تقاليد تختلف عن عن تقاليد الملوك الذين اتخذوا حاتوساس عاصمة لهم فيما بعد - كذلك لم نعثر فى نصوص ملوك الحيثيين على ما يثبت أن أحدا منهم ادعى بأن أنيتا كان أحد أسلافه .

الدولة القديمـــة

كان الملوك الحيثيون فى العصـــور المتأخرة يميلون إلى انتسابهم إلى ملك يدعى لابارناس ، أى أن التـاريخ الحيثى يبـدأ به على الرغم من أنه لم يـكن فيما يبدو أول ملوك أسرته ، بل ولم يوجد لهذا الملك أى نص وإنما ذكرت أعماله فى نص لأحد خلفائه تتبين منه أن لابارناس كان يتزعم أولاده وأقاربه فى بقعة صغيرة ، وكلما خرج إلى القتال أخضع أعداءه بالقوة وجعل بلادهم مغلوبة على أمرها ومد حدوده إلى البحار ، والظاهر أنه وصل بحدود بلاده إلى أقصى إتساع بلغته المملكة حتى فى أزهى عصـور الامبراطورية المتأخرة كما يرجح أنه عاصمته لم تـكن حاتوساس بل كوسارا القديمة .

وخلف لابارناس على العرش حاتوسيليس الأول الذى كان يتـولى الحـكم فى كوسارا ـ وقد ألقى فيها خطابا يعد مصدرنا الرئيسى عن الحالة السياسية فى ذلك العهد ، ومنه نتبين أن العاصمة فى نهاية حكمه كانت حاتوساس وأن اسمه الأصلى لم يـكن حاتوسيليس الأول بل كان لابارناس مثل أبيه ، أى أنه نقل عاصمة ملكه وغير اسمه ـ ولا بد أن تغيير العاصمة كان يرجع إلى أسباب استراتيجية إذ بدأت المملكة الحيثية فى الاتسـاع جنوبا وشرقاً فى عهده والعهود التالية ، أى أن الجيوش الحيثية قد خرجت من خلف حواجزها الجبلية واخترقت سلاسل جبـال طوروس المنيعـة التى لا يوجد بها إلا عدد قليـل من الممرات ، وربما كان الدافع إلى ذلك هو ثراء السهول الجنوبية وازدهارها وقدم حضارتها ـ وربمـا كانت أول

مملكة اصطدم بها حاتوسيليس هى مملكة يامخاد الأمورية (١) التى كانت عاصمتها حلب وكانت تسيطر على شمال سوريا ، ولاشك فى أن هذه المملكة قد خضعت للحيثيين ولكنها ثارت وخرجت عن سلطانهم بعد ذلك .

ولما تولى العرش مورسيليس الأول خلفا لحاتوسيليس دمر يامخاد ولم يكتف بفتح سوريا الشمالية بل تتبع الفرات جنوبا وقضى على المملكة الأمورية الكبرى فى بابل حوالى سنه ١٦٠٠ ق.م وبذلك انتهت الأسرة البابلية الأولى التى كان حامورابى أعظم ملوكها .

ويبدو أن النظام الداخلى فى المملكة الحيثيـــة لم يكن قد وصل إلى درجة من الاستقرار تهيء لها الصمود فقد ظهرت فيها علامات الاضطرابات منـــذ عصر الملك حاتوسيليس إذ أن أفراد البيت المالك ثاروا عليه بقيادة ولى عهده ولكنه استطاع أن يسحق الثـــورة وأنكر ولى عهده ونفاه وعين فى مكانه مورسيليس الذى كان أصغر منه ، وخلفه بالفعل على العرش ولكن كثرة تغيب هذا الملك الشاب فى حملاته الحربية شجعت على حدوث المؤامرات ضده حيث قتله بعد عودته من بابل صهره حانتيليس ـ الذى كان متزوجا بأخته ـ وبدأ عهدا مليئا بحوادث القتل والدسائس استمر أجيالا عدة حتى آلت المملكة إلى حالة قريبة من الفوضى .

وقد توالت الأزمات وحلت الكوارث الخارجية فى عهد حانتيليس

---

(١) أنظر اعلاه ص ٢٧٥

فالحوريون المقيمون بالجبال المحيطة ببحيرة وان والذين كان مورسيليس قد غزاهم من قبل هاجموا الجزء الشرقى من المملكة الحيثية وتقدموا فيه حتى وصلوا إلى قرب العاصمة من الناحية الشمالية ، ودمروا فى طريقهم بعض المدن مما جعل الملك يضطر إلى تقوية حصون حاتوساس نفسها .

وقد فقـــد حانتيليس وخلفاؤه معظم الأراضى التى كان أسلافهم قد أستولوا عليها فى الجنوب ، ولم يتحسن الحال نوعا إلا عنـــدما اعتلى العرش تاليبينوس الذى كان مغتصبا ولـكنه كان على عكس أسلافه يمتاز بالمهارة إذ نجح فى تقوية مركزه بالتخلص من الذين نافسوه على السلطة ونجح فى إنهاء حالة الفوضى التى استمرت حوالى خمسين عاما وذلك بسن قانون لاعتلاء العرش وتقوية الدولة الحيثية من الداخل ويعد هذا أعظم أعمال تليبينوس ، ومن المحتمل أن القانون الذى أصدره عن كيفية اعتلاء العرش والتعليمات الخاصة بسلوك الملوك والأمراء هو الذى اتبع فيها بعد حتى آخر أيام الامبراطورية .

أما سياسته الخارجية فتتلخص فى أنه اكتفى بتأمين حدوده الدفاعيـة وتقويتها وطرد الغزاة البرابرة من شمال العاصمة وشرقهـــا كما يحتمل أنه أعاد غزو بعض الأراضى التى خرجت عن سلطان الحيثيين ـ وقد عقد معاهدة مع مملكة كيزواتنا (kizzuwatna) ، وهو أول من ذكر بأنه عقد معاهدة مع دولة أجنبية وهذه المملكة هى التى كانت تحتل فى ذلك الوقت الجزء الشرقى من سهولة قيليقيا ـ ويبدو أنها كانت دولة قوية إذ اعترف بملكها على قدم المساواة معه .

ويعتبر تليبينوس عادة آخر ملوك الدولة القديمة ، ورغم عدم العثور على وثائق تاريخية يمكن بواسطتها التعرف على أسماء خلفائه الذين تبعوه فى السنوات الاربعين التالية لحكمه إلا أننا نجد أن قليلا من النصوص تحدثنا عنها ، إذ يرجح أن القانون الذى عثر على نصوصه فى بوغاز كوى وهو أحد الوثائق التاريخية الهامة يرجع إلى عهد أحد خلفائه كما أن كثيرا من عقود الأرض والمواثيق تنتمى إلى هذه الفترة أيضا .

عصر الامبراطورية

يعد تود هالياس الثانى مؤسس الأسرة التى كان لها الفضل فى تشييد الإمبراطورية الحيثية شخصية غامضة ولم يسجل له التاريخ إلا حادثا واحدا وهو غزو حلب وتدميرها وهذا لا يكفى للدلالة على أن المملكة الحيثية قد استعادت استقرارها الداخلى وأصبحت قادرة على فرض سلطانها مرة أخرى على جيرانها ، ومع أن تاريخ تدمير حلب وظروفه غير مؤكدة إلا أنه يجب وضع هذا الحادث حسب تاريخ سوريا المعروف فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، فبعد موت مورسيليس الأول ضعف الحيثيون فترة طويلة تمكنت خلالها هانى جلبات وهى إحدى الوحدات السياسية التى انتظم فيها الحوريون من السيطرة على شمال سوريا حوالى ١٥٠٠ ق.م ، ومما يدل على ضعف حاتى فى ذلك الوقت أن أحـــد موالى المملكة الحورية نجح فى الاعتداء على حدود البلاد الحيثية ولم يلق جزاء على ذلك ، وفى سنة ١٤٥٠ ق.م. انتهت السيطرة الحورية بفضل انتصـــارات تحتمس الثالث فى حملته الثامنة وأصبح المصريون هم أصحاب السلطة العليا

فى سوريا لمدة ثلاثين عاما تقريبا ، ولكن سيطرتهم على شمال سوريا تراخت قليلا بعد وفاته لظهور قوة حورية جديدة هى مملكة ميتانى التى أصبحت القوة الفعالة فى غرب آسيا فترة من الوقت .

وربما كان غزو الحيثيين لحلب يرجع إلى أنهم أرادوا عقاب هذه المدينة على عودتها للخضوع إلى هانى جالبات ولذا يرجح أن غزوها لا يمكن أن يكون متأخرا عن هزيمة هانى جلبات على يد تحتمس الثالث فى سنة ١٤٥٧ ق.م. وليس من المستبعد أن يكون الحيثيون قد قاموا بهذا الغزو بالاتفاق مع الملك المصرى تحتمس الثالث إذ أننا نعلم بأنه قد تسلم هدايا من خيتا العظمى وهذا ما يفسر لنا سبب عدم وجود أى إشارة فى النصوص المصرية إلى الاستيلاء على حلب فى هذه الحملة .

وقد سببت نهضة ميتانى أزمة جديدة للمملكة الحيثية فبعض المقاطعات التى كانت فيما مضى تسير فى فلك الحيثيين انضمت إلى القوة المنافسة (ميتانى) أو أعلنت استقلالها وبدأت علامات الضعف تبدو فى المملكة إبتداء من عهد أرنووانداس الأول خليفه - تودهالياس الثانى - وفى عهد خلفاء هذا الأخير وهم حانوسيليس الثانى وتود هالياس الثالث وارنووانداس الثانى وصلت المملكة إلى حافة الهاوية كما يشير إلى ذلك نص تركه أحد الملوك المتأخرين ، ومما جاء فيه :

« فى الأيام الحوالى كانت البلاد الحيثية تغزو البلاد التى تقع خارج حدودها »

« ثم جاء العدو من كاسكا ونهب الأراضى الحيثية واتخذ نيناسا حدوداً له ... كما جاء العدو من آرزاوا خلف الأراضى السفلى ونهب البلاد الحيثية أيضاً واتخذ توانودا وأودا حدودا له . كذلك جاء العدو من بعيد من أونا ونهب أرض جاسيبا ... الخ »

وليس من المعقول أن تكون الهجمات العديدة التى ذكرها هذا النص قد حدثت دفعة واحدة ولكن يبدو أن القصة تتفق مع حقيقة الحال فى ذلك الوقت إذ لا بد أن الأقطار المجاورة لمملكة الحيثيين من الشرق كانت تلقى تأييدا من جانب ميتانى ، ويستدل على ذلك من الخطابات التى وجهها الفرعون إلى ملك آرزاوا التى عثر عليها فى محفوظات تل العمارنة .

وتنتهى فترة الضعف هذه باعتلاء سوبيلوليوما على العرش حوالى سنة ١٣٨٠ ق م وظروف ارتقائه غامضة رغم أنه كان ابن تودهالياس الثالث وعرف عنه أنه صاحب والده فى حملاته ولكنه كافح بضع سنين فى أول حكمه حتى دعم سلطانه فى وطنه وأغلب الظن أنه هو الذى شيد الحائط الضخم فى جنوب العاصمة حاتوساس وأقام تحصينات أخرى للدفاع عنها . وبعد ذلك تفرغ لتسوية حسابه مع مملكة ميتانى التى يمكن أن تعد مسؤولة عن سوء الحالة التى وصلت إليها المملكة فى الجيل السابق .

وقد باءت غزوته الأولى التى عبر فيها جبال طوروس إلى سوريا

بالفشل وتكبد خسائر فادحة وتمكن ملك ميتانى توشراتا من أن يقدم جزءاً من الغنيمة التى حصل عليها إلى حليفه ملك مصر ، وقد استفاد ملك الحيثيين من هذه التجربة فأعد غزوته الثانية بدقة كبيرة ومن المحتمل أنه استطاع أن يكتشف بأن خطوط الدفاع الرئيسية لمملكة ميتانى كانت فى شمال سوريا ولذلك عبر الفرات عند مالاطيا وهاجم مملكة ميتانى من الخلف بعد أن مهد لذلك بحملة أولية ، لأن الطريق المؤدى إليها كان شديد الخطورة لوجود القبائل المتوحشة فى منطقة الجبال التى تحف به وقد استطاع أن يخضع هذه القبائل فى تلك الحملة الأولية وعقد معاهدة معهم توثقت بزواج أخت الملك من زعيم هذه القبائل ، ثم استطاع سوبيلوليوما أن يعبر الفرات وأن ينقض فجأة على عاصمة ميتانى التى كان اسمها وشوجانى فدخلها ودمرها (١) - وعاد سوبيلو ليوما بعد ذلك إلى اجتياز الفرات وتقدم إلى سوريا حيث سارع أمراؤها المحليين إلى التسليم بعد أن حرموا من مساعدة ميتانى واكتفى سوبيلو ليوما بأن جعل نهر الأورنت حدا له ولم يتقدم نحو مصر ، ولكن ملك قادش التى كانت تعتبر نقطة أمامية للنفوذ المصرى خرج لقتاله إلا أن العربات الحيثية اكتسحته وتقدم الجيش الحيثى جنوبا إلى « أبينـــا » بالقرب من دمشق وادعى سوبيلو ليوما أنه اتخذ لبنان حدودا له ، ومن حسن حظه أن مصر فى ذلك الوقت لم يكن يحكمها من الفراعنة من يهتم بالدفاع عن امبراطوريتها إذ كان اخناتون منهمكا فى الاصلاح الدينى الداخلى (٢) -

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٧٥

(٢) أنظر أعلاه ص ١٨٠ - ١٨١

وهذه الحمـــلة يجب تأريخها حوالى سنة ١٣٧٠ ق.م ، وكان من نتيجتها أن أصبحت حلب وعلاق Alalakh (عطشانه الحالية) حيثية ـ ومن المحتمل أن المعاهدات بين ممالك أواسط سوريا وآمور التى تشمل منطقة لبنـــان وجزءا كبيرا من ساحل البحر المتوسط قد عقدت فى ذلك الوقت ، وعلى أى حال فإن بعض البلاد وخاصة قرقميش كانت تنتظر مساعدة من قوات توشراتا التى لم تنهزم وإن كانت الثقـــة فيها قد أصبحت مفقـــودة .

وقد اضطر سوبيلو ليوما فى ذلك الوقت أن يعود إلى وطنه نظرا لظروف طارئة عاجلة وترك مهمة المحافظة على سوريا لأحد أولاده وكان يدعى تليبينوس ولكن هذه المهمة لم تكن سهلة إذ انقسمت المقاطعات السورية إلى فريقين : فريق كان يناصر الحيثيين والآخر يناصر الميتانيين وأخذ كل منهما يترقب نتيجة الصراع الدائر بين الكتلتين الكبيرتين ـ ولحسن حظ الحيثيين فرقت الفتنـــة مملكة ميتانى لأن ملكها توشراتا كان يحالف المصريين وتوطدت الصـــلة بين الأسرتين المالكتين فيهما بالزواج ولكن مصر كانت فى ذلك الوقت قد أصبحت عاجـــزة عن أن تمد يد المساعدة لحليفتها ، وقد رأى فى ذلك فرع منافس للبيت المالك الميتانى فرصة للخروج على الحكم وطلبوا مساعدة أشور أو بالط الذى كان ملكا على آشـــور فى ذلك الوقت وتمكن هذا من مساعدة الحزب الذى لجأ اليه ، وقتل توشراتا فاعـــترف أرتاتاما ملك ميتانى الجديد بآشور كما اعترف بها كذلك ابنه شوتارنا وقدما إلى ملك آشور الهدايا الفاخرة بعد أن كان ملوكها يقدمون الولاء لمملكة ميتانى .

وكان ظهور هذه الدولة الفتية (آشور) المفاجىء مما ساعد دون شك على سقوط ميتانى وأدى هذا بدوره إلى سهولة غزو الحيثيين لسوريا واستطاع سوبيلو ليوما أن يجتاح سوريا وأصبحت الأراضى الممتدة من الفرات حتى البحر بما فى ذلك حصن قرقميش ولاية حيثية وعين ولده تليبينوس المشار اليه ملكاً على حلب كما عين ابنـاً آخر ملكاً على قرقميش .

ولم يمض وقت طويل حتى لجـأ ابن توشراتا إلى سوبيلو ليوما (وقد فر بحياته بعد مقتل أبيه) وبذلك وجد سوبيلو ليوما فرصة سانحة لإنشاء دولة محايدة بينه وبين المملكة الفتية آشور فأرسل ابن توشراتا إلى ولده ملك قرقميش وتقدم الإثنان بعد عبور الفرات على رأس قوات كبيرة ودخلوا « وشوجانى » عاصمة ميتانى وهكذا ظهر إلى الوجود ملك جديد موال للحيثيين .

ويبدو أن أن سوبيلوليوما نال شهرة كبيرة ، لأنه حينما كان يحاصر قرقميش وصله رسول من مصر يحمل خطاباً من ملكتها تذكر فيه أن زوجها توفى وليس لها ولد وطلبت منه أن يرسل أحد أبنائه لكى تتزوج منه لأنها لاترغب زوجا من رعيتها ، فدهش سوبيلوليوما وأرسل رسوله الخاص إلى مصر ليتأكد بأن ليس فى الأمر خدعة ، وقد عاد هذا الرسول سريعاً يحمل رسالة ثانية من الملكة تذكر له فيها بأنه لو كان لها ولد لما كتبت إلى أجنبى تستدعيه إذ ليس من المعقول أن تعلن مصيبتها ومصيبة شعبها على الملأ كما أن كرامتها تأبى عليها أن تتزوج بأحد من رعيتها ونظراً لأن له أبناء كثيرين فقد لجأت إليه ليرسل إليها

أحدهم . ومن المرجح أن هذه الملكة هي زوجة توت عنخ آمـــون الابنة الثالثة الملك أخناتون ، ولم يضع سوبيلوليوما الفرصة فأرسل أحد أبنائه على الفور ولكن هذا الأمير الحيثي لقى حتفه عند وصوله إلى مصر بإيعاز من « آى » أو « حور محب » .(١)

وبعد وفاة سوبيلوليوما هاجم آشور أوبالط مملكة ميتانى (التى كان ملكها ابن توشراتا الموالى للحيثيين) وضمها إلى ملكه - ومع ذلك فإن سلطان الحيثيين لم يتزعزع على سوريا ، فبعد وفاة سوبيلوليوما وولده الأكبر أرنو وانداس الثالث ظل أمراء حلب وقرقيش على ولائهم لوارث العرش الشاب مورسيليس الثانى مع قلة خبرته - وقد أثبت هذا جدارته بإخضاع المقاطعات الثائرة التى خرجت على طاعة الحيثيين وعين بدلهم ولاة حيثيين عليها كما أنه ظل ينظم الإمبراطورية طوال حياته ، ولكن الثورات كانت دائما تتجدد كلما اعتلى العرش ملك جديد كما أن الحدود الشمالية كانت مصدر قلق دائم ولذلك وزعت القـــوة الحيثية على مناطق متباعدة فكان من الصعب على المملكة أن تحتفظ بحدودها وخاصة لأن القبائل البعيدة كانت تتلقى مساعدات خارجية .

وقد قامت ثورة فى سوريا بتحريض من مصر فى عهد حـور محب على الأرجح وكان « شاركوشورخ » ملك قرقيش قد توفى واستطاع أحد الغزاة أن يستولى عليها ولكن ملك الحيثيين (وهو شقيق ملك قرقيش) تدخل شخصيا فى السنة التاسعة من حـــكمه ، وكان مجرد ظهور الجيش الإمبراطورى كافيا لإخضاع الأمراء السوريين وعين ابن شاركوشورخ ملكا على قرقيش ، وفى نفس السنة تقدم ملك الحيثيين شمالا حيث استطاع إخضاع بعض المناطق هناك .

---

(١) أنظر أعلاه ص ١٨٤ هامش .

وقد ترك «مورسيليس لابنه وخليفته مورواتاليس إمبراطورية وطيدة الدعائم تحوطها شبكة من الممالك الموالية فلم تحدث أية اضطرابات عند اعتلائه للعرش، ومع ذلك كان لابد من استعراض قوته فى الغرب - وبعد أن أمن الملك سلطانه فى هذه الجهات أصبح قادرا على تركيز مجهوداته ضد الخطر الآتى من الجنوب حيث تحرك المصريون أخيرا لأن ملوك الأسرة التاسعة عشرة طمعوا فى استرجاع أقاليم سوريا التى سبق أن غزاها تحتمس الثالث وضاعت أثناء حكم اخناتون، وفى حوالى سنة ١٣٠٠ ق.م قاد سيتى الأول ملك مصر جيوشه إلى كنعان وتقدم إلى قادش ولكن يبدو أن الحيثيين قاوموه بشدة، ومع ذلك فقد أعاد الملك المصرى القانون والنظام فى أرض كنعان وظل السلام قائما بقية عهده، ولكن عندما تولى خليفته رعمسيس الثانى حكم بلاده. كان من الواضح أن من المستحيل تجنب الصدام بين الامبراطوريتين المتنافستين، ولهذا جمع «مورواتاليس» فرقا من كل حلفائه الذين ذكرتهم القوائم المصرية بينما لم تشر إليهم القوائم الحيثية التى من ذلك العهد. وكان الدردانيون من بين هؤلاء الحلفاء (وهم الذين عرفوا فى إلياذة هوميروس أيضا) والفلسطينيون «الشرادانيون الذين ذكرتهم النصوص المصرية مرارا - وتقابلت جيوش الامبراطوريتين فى قادش فى السنة الخامسة من حكم رعمسيس، ويبدو أن «مورواتاليس» قد تمكن من التقدم والاستيلاء على «آبا» أو «أبينا» بالقرب من دمشق رغم أن الفرعون ملأ الدنيا تفاخرا ببسالته ونقش أخبار انتصاره على المعابد المصرية ولكن ليس هناك أدنى شك فى أن معركة قادش قد انتهت بانتصار الحيثيين الحاسم.

وفى عهد مرواتاليس أعيد تنظيم المقاطعات الشمالية الشرقية من المملكة ووحدت فى إمارة عاصمتها « حاكيبس » تحت إشراف « حاتوسيليس » شقيق الملك بينما أقام الملك نفسه فى الجنوب فى مدينته المنيعة « داتاسا » ليبقى بمقربة من العمليات الحربية فى سوريا .

وعندما توفى مرواتاليس تولى إبنه « أورهى تشوب الملك » وأراد أن يخفض من أملاك عمـــه الطموح لاعتقاده بأنه يريد العرش لنفسه وظل « حاتوسيليس » يعانى اتهامات ابن أخيه نحو سبع سنوات وأخيرا أعلن الحرب عليه وعزله ، ويدعونا هذا إلى الظن بأن حكومة « أورهى تشوب » لم تكن محبوبة على الإطلاق وقد أسر « أورهى تشوب » فى سموحا بالقرب من مالاطيا ولكنه عومل بالحسنى ونفى إلى المقاطعة السورية البعيدة نوهاس .

وعندما اعتلى « حاتوسيليس » العرش كان يبلغ من العمر نحو ٥٠ سنة وكان قائدا محنكا نعمت الامبراطورية الحيثية فى عهده بشىء من السلام والازدهار النسبى وإن كانت قد حدثت بعض الاحتكاكات بينها وبين مصر وبابل (الدولة الكاشية) فى بداية عهده ، وربما كان ظهور قوة آشور فى ذلك الحين مما ساعد على التقارب بين الامبراطوريتين الحيثية والمصرية وأصبحت العلاقات بينهما ودية للغـــاية ، وفى سنة ١٢٦٩ ق . م عقدت المعاهدة المشهورة بين « رعمسيس الثانى » وبين « حاتوسيليس » - وبعد ١٣ سنة توطدت المعاهدة بزواج رعمسيس من أميرة حيثية - وفى عهد حاتوسيليس كذلك عادت العاصمة إلى « حاتوساس » التى كانت قبائل « الكاسكا » قد نهبتها فى عهد « مرواتاليس » عندما كان متغيبا فى حملة فى الجنوب ،

وأعيد بنـــاء المدينة وتدوين الأرشيف وساد الاستقرار والازدهار وصدر عدد كبير من المراسيم الدينية والإدارية - ومع هذا فإن ما وصلنا من حوليات حاتوسيليس يدل على أن الحالة لم تكن فى الغرب على ما يرام وربما وجهت بعض العمليـات الحربية ضد العدو القـديم فى آرزواوا كما تدهورت العلاقات مع بابل بعد وفاة ملكها كادشمان تورجو ، وربمـا كان لأورهى تيشوب الأمير المنفى يد فى ذلك حينما كان يقيم فى نوهاس إذ أن حاتوسيليس يقص علينا بأنه (أى أورهى تيشوب) ضبط وهو يتآمر مع البابليين وأنه نقـــل بسبب ذلك إلى البحر ، وربما كان المقصود بأنه نقل إلى قبرص أو إلى قطر أجنبى بحرى آخر ولم يقف نشاطه عند هذا الحد بل إنه اتصـل بملك مصر - ومن المحتمـــل أنه كان يسعى للحصول على مساعدة دولة أجنبية لاسترداد عرشه ولـكنه باء بالفشل ، وقد اخترع حاتوسيليس قصة مؤداها أنه طرد الملك الشرعى واستأثر بالعرش نظراً لما لقيه من استفزاز شديد وبنـــاء على أمر من الإلهة « آشتار » إلهة « ساموحا » .

وقد توفى حاتوسيليس بعد فترة قصيرة من زواج إبنته من ملك مصر وتولى من بعده إبنه « تود هالياس الرابع » الذى وجـــه اهتمامه نحو الشؤون الدينية ، ويمثـل الجـزء الأول من حكمه عصر سلام وإن كانت بعض الحملات الناجحـة فى غرب المملـكة قد مكنت الحيثيين من ضم إقليم أسووا إلى مملـكتهم ولـكن لم تلبث أن ساءت الحالة هناك قبل نهاية حكمه ومـع أن الملك كان فى حالة من القوة تسمح له بالقضاء على أى عدوان على أجزاء من مملـكته إلا أن أيام الامبراطورية الحيثية أصبحت معدودة ،

ففى عهد الملك التالى وهو « أرنوواندا ص الثالث » تدهورت الحالة فى غرب هضبة الأناضول وحدثت تحركات ضخمة من شعوب هذه المناطق حيث تقدمت واجتاحت الأقاليم الواقعـــة فى شرق البحر الأبيض المتوسط واضطرت الحيثيين وشعوب هذه الجهات إلى الهرب إلى سوريا ، ثم اتحدت بعد ذلك مـع شعوب البحـــر فى هجوم كبير كان من نتائجه استقرار الفلسطينيين على ساحل فلسطين وحل الفريجيون محل الحيثيين كقوة حاكمة وأصبح خطر هذه الشعوب يهدد مصر لولا أن « رعمسيس الثالث » نجح فى الانتصار عليهم براً وبحرا وأبعد خطرهم .

الممالك الحيثية الجديدة

استمر الأثر الثقافى للحيثيين فى الأجزاء الجنوبية الشرقية من امبراطوريتهم بعد سقوطهـا نحوا من خمسة قرون وظلت السجلات الأشورية تشير إلى سوريا ومنطقة طوروس على أنها أرض حاتى وتتحدث عن ملوك يحملون أسماء حيثية ، كذلك يشير الكتاب المقدس إلى ملوك المقاطعات السورية كملوك للحيثيين واهتم الكثيرون منهم بإقامة آثار تحمل نقوشا دونت بخط هيروغليفى لم يمكن تفسيره حتى الآن ، أى أن تقاليد الثقافة الحيثية ظلت منتشرة فى المناطق الممتدة من ملاطيا إلى حدود فلسطين حتى بعد أن تحولت هـــذه المنطقة إلى جزء من الامبراطوريه الأشورية ، ولم تـكن لغة تلك النقوش الحيثية الجـديدة ولا الديانة التى نصت عليها هى التى استعملت فى « حاتوساس » وليست هى التى استعملها عامة الشعب الذين استوطنوا سوريا فى عهد الامبراطورية الحيثية (لأنهم كانوا حوريين) وعلى هذا

يبدو أن سوريا قد اجتاحها شعب آخر جاء من إحدى المقاطعات الحيثية وكان يتخذ الحضارة الحيثية ، ويحتمل أن هذه المقاطعة هى «كزوواتنا» ويرجح أن ذلك لم يكن نتيجة غزو منظم لأنه أدى إلى ظهور عدد كبير من الممالك الصغيرة فى القرن ١٢ ق . م تدل أسماءها على أنها لم تكن على الإطلاق مجرد استمرار للممالك الحيثية القديمة التى كانت خاضعة للامبراطورية فى سوريا وأن معظم هذه الأسماء نشأ حديثاً ، ونظرا لأن الخط الهيروغليفى الحيثى لم يمكن تفسيره حتى الآن فلا يمكن تتبع تاريخ هذه الممالك فى إيجاز إلا عن طريق سجلات الدول المجاورة مثل آشور وأورارتو (آرارات) وإسرائيل .

وأول ملك أشورى يصل إلى الفرات بعد سقوط « حاتوساس » هو « تيجلات بلاسر الأول » الذى ذكر بأنه حارب حاتى العظمى ووصل إلى البحر المتوسط ولا شك أنه كان يقصد مملكة « ميليد » ، ويدهشنا أن يذكر بأن مملكة أخرى لحاتى العظمى قدمت له عند عودته فروض الطاعة والولاء وربما كان يقصد بهذه مملكة « قرقميش » ، أى أن هاتين المدينتين كونتا مملكتين حيثيتين عند معبر الفرات .

وقد انسحبت الجيوش الأشورية على أى حال ومضت عدة سنوات قبل أن يصل أى ملك أشورى آخر إلى الفرات أو أن يعبره ، وفى خلال فترة الضعف الأشورى هذه جاء الآراميون البدو من الشرق وأسسوا بدورهم ممالك فى سوريا كانت أولها وأقواها دمشق [1] التى تقع جنوب

---

(١) أنظر أعلاه ٢٧٩

خط الغزو الحيثى - ولا بد أن الآراميين قد اصطدموا فى الشمال مع الإمارات الحيثية الحديثة العهد وهزمت الحيثية فى أماكن متعددة وحل محلهم الآراميون حيث كونوا أسرات حاكمة فى عواصم الممالك الحيثية التى استولوا عليها ونقشوا نقوشهم بالكتابة الفينيقة أو بلغتهم الآرامية بينما ظلت الأسر الحيثية الباقية تحافظ على كيانها واستمرت فى تدوين نقوشها بالهيروغليفية الحيثية .

ولا نعرف شيئا عن تاريخ قيليقيا فى هـــذه الفترة لأن نقوش « كاراتيب » لم يمكن تفسيرها بصفة مؤكدة حتى الآن ولكن يستدل من النقوش التى تركها والى « أصنة » بأن أصنة كانت العاصمة ولم يكن حاكمها هو الملك بل كان واليا من قبل الملك ، وربما كان « الدانيونا » الذين ذكرتهم النصوص المصرية بين شعوب البحر هم سكان هذه البلاد ، كما يحتمل أنهم كانوا من جنس يغاير الشعوب المجاورة لهم - وقد عرف الاشوريون قيليقيا منذ عهد شلمناصر الثالث ولكنهم كانوا يطلقون عليهم اسم « قوا » ولا يعرف تفسير لهذا الاسم حتى الآن .

وتمتعت الممالك الحيثية الحديثة وجيرانها الآراميون بشىء من الاستقرار والازدهار لمدة يسيرة وانتشرت الثقافة الحيثية جنوبا إلى فلسطين وخدم الجنود المرتزقة الحيثيون فى الجيوش اليهودية وأدخـــل سليمان الحيثيات فى حريمه .

وقد بدأت آشور تستعيد مجدها فى عهد « أدادنيرارى الثانى » وفى عهد خلفه « توكولتى نينورتا الثانى » ، ولم تتنبه الممالك السورية لهذا الخطر فاستطاع

خليفتها « آشورناصربال » أن يدعم فتوحات أسلافه سريعا ، وفى السنوات السبع الأولى من حكمه استولى على الإقليم الواقع شرق الفرات ولم تقاومه قرقميش عندما فرض عليها الجزية ثم عبر الجيش الأشورى الفرات واخترق سوريا إلى الساحل ، ولم تقـاومه الممالك الحيثية الأخرى حيث فشلت فى الاتحاد ضد الغازى — ومع أنها حاولت الاتحاد بعد ذلك بنحو ١٨ سنة حينما عبر « شلمنصر الثالث » نهر الفرات إلا أنها لم تنجح فى المقاومة ووقع شمال سوريا مرة أخرى فى يد الأشوريين غير أنهم اضطروا للانسحاب أمام المقـاومة التى أبداها ملوك حماة ودمشق التى كان يعاونهم فيها ١٢ أميرا من أنصارهم وخاصة من الساحل الفينيقى رغم أن المتحالفين قد تكبدوا خسائر فادحة — ومع هذا فقد عاد « شلمنصر الثالث » إلى الهجوم على دمشق فى السنوات التاليـة حتى ضعفت وتمكن « أدادنيرارى الثالث » بمساعدة زاكير الآرامى (الذى كان قد استولى قبـل بضعة سنوات على حماة الحيثية) من إخضاعها وبذلك ادعى أدادنيرى السيادة على حاتى وأمورو وبالاشتو جميعها .

وقد ضعفت سلطة الأشوريين بعد ذلك فترة لا تقل عن نصف قرن بسبب ظهور منافس جديد فى الجبال الشمالية يتمثل فى مملكة أورارتو التى استنفذت الجزء الأكبر من جهود ملوك آشور ، ومن المحتمل أن الدولة الحيثية فى شمال سوريا كانت تشعر بشىء من التقـارب الجنسى أو الثقافى مع هذه المملكة الجديدة ، أما جنوب سوريا فقد أصبح كله آراميا ، وهكذا انقسمت سوريا إلى قسمين : حيثى وآرامى ثم انتهت هـذه الحالة فجأة بنهضة آشور مرة ثانية بقيادة « تيجلات بلاسر الثالث » ، فقد نجح هذا الملك

فى السنة الثالثة من حكمه فى التقــــدم غربا والانتهاء من مشاكل سوريا بصفة نهائية إذ استطاع أن يهزم السوريين وكان يعاونهم ملك أوراتو الذى حضر بنفسه على رأس قواته ولـكنه اضطر إلى الهرب هربا مشينا بعد هزيمة جيشه ـ وبعد ثلاثة أعوام تمكن ملك آشور من إخضاع بقية سوريا وعادت جميع ممالكها إلى ولائها السابق لاشور ، إلا أن ذلك لم يستمر سوى عامين حيث قامت ثورة جديدة اضطر ملك آشور إزاءها إلى السير لإخمادها وضم سوريا إلى آشور ضما مباشرا ـ وقد اتبع خلفاء تيجلات بلاسر الثالث سياسته التى سار عليها إذ نجـــد أن «شلمنصر الخامس» «وسرجون الثانى» يستعملون القوة والعنف فى ضم بقية الممالك السورية حتى انتهى أمرها فى سنة ٧٠٩ ق . م ، وبذلك انتهى تاريخ الممالك الحيثية فى شمال سوريا حتى إن الرحالة الإغريق عندما زاروا هذه البقاع لم يجدوا إلا مقاطعات الإمبراطورية الآشورية وأصبح اسم حاتى نفسه منسيا .

سكان غرب وجنوب هضبة الاناضول « الآخيون والطرواديون »

يظن أن بلاد الآخيين أو اليونان الميسينية هى التى عرفت فى النصوص الحيثية باسم أهياوا (Ahhiyawa) أو أهيا (Ahhiya) وقد ظهر هذا الاسم لأول مرة فى عهد سوبيلوليوما ، ومن المحتمل أن المقصود فى هذه الحالة جزيرة قبرص التى نفى إليها « أورهى تشوب » (١) ـ كذلك ذكرت هذه البلاد فى حوليات « مورسيليس الثانى » فى السنتين الثالثة والرابعة من حكمه ومنها عرفنا أن تلك البلاد كانت عبر البحر .

---

(١) أنظر اعلاه ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

وحينما مرض الملك مورسيليس بحث الكهنة ، عن مصدر الغضب الإلهى الذى سبب هذا المرض ودونت الأسئلة والإجابات المتعلقة بذلك على لوحة كبيرة يفهم منها أن إله أهياوا وإله لازباس قد جلبا على أمل إيجاد علاج له ، ويفهم منها كذلك أن علاقات الود كانت قائمة بين حاتى وأهياوا ولازباس التى يحتمل أنها هى ليزبوس (Lesbos) .

ومن الرسائل الهامة فى ذلك العهد رسالة تعرف باسم خطاب تاواجالاواس (Tawagalawas) وقد دونت فى ثلاثة لوحات ، ومنها عرفنا أن شخصا كان واليا حيثياً أو من الطبقة العليا (واسمه بياما رادوس كان يقيم فى ميلاواندا) أصبح قاطع طريق وسبب اضطرابات فى بلاد لوكا ، ويحتمل أنها ليقيا ، التى كانت تكون مقاطعة من الامبراطورية الحيثية وكانت مركز عملياته مدينة مجاورة فى منطقة خارج ممتلكات الحيثيين وتحت الحكم غير المباشر لملك أهياوا - ولما كانت هذه الرسالة موجهة من أحد ملوك الحيثيين (١) إلى ملك أهياوا فإن من المرجح أن الغرض المقصود منها هو تسليم ذلك الثائر وإراحة مقاطعة لوكا من متاعبه - ويبدو أن تاواجالاواس كان قريبا لملك أهياوا وقد قصده أهالى المقاطعة لمساعدتهم وبعد أن دعم تاواجالاواس مركزه فى بلاد لوكا بعث برسالة إلى الملك الحيثى يطالبه فيها بالاعتراف به كوالى من قبله ، كما يبدو أن الملك الحيثى وافق على ذلك وأرسل ولده ليصاحب تاواجالاواس

---

(١) إما أن يكون هذا الملك هو مورسيليس الثانى أو خلفه مورواتاليس .

إلى حضرته ، فاستاء هذا الأخير لأن مرافقته لم يكن القائد العام للجيش بنفسه وعلى ذلك انسحب غاضبا فسار ملك الحيثيين إلى لوكا وقضى على الثورة فيها ، وبعدئذ تسلم رسالة من ملك أهيا يخبره فيها بأنه أمر عامله فى ميلاواندا بأن يسلمه قاطع الطريق ولما تقدم الملك نحوها وجد أن ذلك الثائر (بيامارادوس) قد أبيح له الهرب على ظهر سفينة فأرسل ملك الحيثيين رسولا خاصا إلى ملك أهياوا لإقناعه بتسليم الثائر واعدا إياه بالإبقاء على حياته ومعلنا له بأنه يترك رسوله الخاص كرهينة من أجل ذلك - ويتبين من سياق النصوص أن العلاقات بين حاتى وأهياوا كانت ودية ومتينة ، وبعد مضى بعض الوقت أصبح حاكم ميلاوندا من موالى الملك الحيثى - ومن الرسائل التى تبودلت بينهما تتبين أن خلافات عديدة نشبت بينهما وأن ملك أهياوا رضخ فى النهاية لطلب الملك الحيثى وسلمه قاطع الطريق .

ولدينا خطاب من عهد حاتوسيليس يبين أن ملك أهياوا أرسل إلى ملك حاتى يطلب نصيبه من الهدايا التى أرسلت اليه ، ولا تعرف طبيعة هذه الهدايا ، وهناك نص آخر يشير إلى الوقائع الخاصة بانقلاب « حاتوسيليس » (١) ولكنه مهشم وإن كان البعض يرى أن هناك ما يدعو إلى ربط اسم « أورهى تشوب » مع أهياوا ولكن لا يوجد ما يؤيد ذلك .

---

(١) أنظر أعلاه ص ٣١٨

وفى إحدى فقرات معاهدة أبرمت بين « تود هالياس الرابع (١) » وبين ملك أمورو نتبين أن ملك أهياوا ذكر على قدم المساواة مع ملوك مصر وبابل وآشور ، أى أنه كان يمثل إحدى القوى الكبرى فى ذلك الوقت وإن كان القصر الحيثى لم يعترف بهذه الحقيقة رسمياً بدليل إزالة اسم أهياوا من النص ولكن العلامات المتخلفة تدل على وجود اسمها فيه من قبل . وهناك نص مهشم ربما كان من عصر « تود هالياس الرابع » كذلك يشير إلى أن ملك أهياوا قد انسحب ، مما يوحى بأنه كان موجوداً فى آسيا الصغرى وأن بلاده كانت ولاية على حدود الإمبراطورية الحيثية وأنه كان قد استولى على بعض أراضيها ثم انسحب بعد ذلك .

والخلاصة التى يمكن أن نستنتجها أن العلاقات بعد حاتى وبين أهياوا كانت طيبة فى أول الأمر حتى إن أقارب ملك أهياوا كانوا يرسلون إلى حاتى لدراسة فن قيادة العربات كما كانت ترسل آلهة أهياوا إلى حاتى لعلاج الملك فى مرضه ثم نسمع بعد ذلك بازدياد الأعمال العدوانية التى يرتكبها عمال أهياوا على حدود الممتلكات الحيثية وقد بلغت هذه أشدها أثناء حكم « تود هالياس الرابع » « وأرنوواندا س الثالث » ورغم أن هذا النشاط بدأ فى عهد مورسيليس فقد ظلت العلاقات الرسمية بين الملوك ودية فى الظاهر على الأقل حتى نهاية عهد مورسيليس ، ثم ترد بعض الإشارات عن تدخل ملك أهياوا بصورة عدائية فى إقليم موال للحيثيين ولا يوجد بعدئذ ما يدل على وجود علاقات رسمية ودية .

---

(١) انظر أعلاه ص ٣١٩ .

ومن الواضح أن أهل أهياوا كانوا بحارة ممتازين وصلت سفنهم حتى ساحل سوريا (أمورو) وقد اعتدوا على الامبراطورية الحيثية فى أربعة مناطق على الأقل ، ولا شك فى أن الحيثيين قد أخطأوا فى نطق اسمهم وحرفوه إلى أهياوا بعد أن عرفوهم واتصلوا بهم ، ولا بد وأن هؤلاء كانوا يعيشون فى أقصى غرب شبه الجزيرة وسيطروا مثل المقدونيين على البحار. فابتداء من سقوط كنوسس حوالى سنة ١٤٠٠ ق . م إلى الغزو الدورى فى القرن الثانى عشر كانت السيادة العليا على البحـــار متركزه فى أيدى الاغريق الميسينيين وقد وجدت منتجاتهم بكثرة فى مختلف الجزر وخاصة قبرص وكريت ورودس التى لا بد وأن كان فى كل منها مستعمرة هامة للآخيين كما وجدت مستعمراتهم بكثرة فى بعض الأماكن السورية وفى قيليقيا وفى أماكن مختلفة من السواحل الجنوبية الغربية لآسيا الصغرى ـ وبما أن الحيثيين لم يعرفوا إلا مملكة واحدة باسم أهياوا ، وبما أن العالم الميسينى لم يشمل وحدة سياسية واحدة فإننا لا ندرى هل كانت أهياوا تدل على ميسينا بأكملها أو أنها كانت إحـدى الممالك التى تنقسم إليها بلاد ميسينا سواء فى شبه الجزيرة الإغريقية نفسها أو مملكة فى إحدى الجزر مثل كريت وقبرص وغيرها .

أما طروادة فقـد ذكرت فى النصوص الحيثية بأسماء كثيرة وذكرت فى إحدى المرات ضمن مناطق بلاد آسووا ومعنى ذلك أن هذه الأخيرة تقع على الساحل الغربى لآسيا الصغرى ويرى البعض أن اسمها هو الذى

حرف فيما بعد إلى آسيا ، ويبدو أن أول ملك حيثى زار هـذه الانحاء هو « تود هالياس الرابع » .

ويحاول الكثيرون أن يقربوا بين الاسماء التى وردت فى النصوص الحيثية وبين الاسماء التى ذكرت فى أشعار هومر والأساطير اليونانية التى يمكن ربطها بطروادة ولكن هذه المحاولات ما زالت مبنية على أسس غير مؤكدة ومن ذلك مثلا محاولة استنتاج أن مملكة تسمى فى النصوص الحيثية إلوسينا أو (ولوسيا) وكانت موالية للحيثيين هى نفسها التى تعرف فى شعر هومر باسم وليوس التى يظن أنها طروادة وكان ملكها يدعى « الكساندوس » فى عهد مورواتاليس الحيثى (حوالى سنة ١٣٠٠ ق . م) ويرى البعض أن هذا الملك ليس إلا (Alaxandres Aliaé Paris) بارس أمير طروادة ، وتشير أسطورة بيزنطية إلى أن موتيلوس (Motylos) هو الذى استقبل هيلين وبارس (فى رحلتها من اسبرطة إلى طروادة) ويظن بعض المؤرخين أن هذه الأسطورة تشير إلى المعاهدة التى أبرمت بين مورواتاليس والكساندروس ويكاد يكون اسم دردنى الذى أطلق فى النصوص المصرية على جماعة كانوا يحاربونهم كحلفاء للحيثيين فى معركة قادش هو اللفظ الوحيد القريب من اسم الطرواديين ـ وهكذا لا يمكن أن نجد ما يؤكد وجود صلة بين الاسماء التى ذكرت فى النصوص الحيثية وبين طروادة .

الحيثيون فى فلسطين

مع أن الكتاب المقدس يشير إلى الحيثيين كقبيلة فلسطينية إلا أن معلوماتنا عن تاريخ أهل حاتى تقودنا فى البحث عن موطنهم الأصلى بعيداً عن فلسطين وتذهب بنا إلى قلب هضبة الأناضول وخاصة لأنه لم توجد دولة حيثية جنوب جبال طوروس قبل عهد سوبيلوليوما وأن الدول السورية الموالية للإمبراطورية الحيثية اقتصرت على المنطقة الواقعة شمال قادش على نهر الأورنت ـ ورغم أن الجيوش الحيثية وصلت إلى دمشق إلا أنها لم تدخل فلسطين على الإطلاق ولم توجد دولة حيثية من الدول الجديدة جنوب حماه ، إذ كان يفصل هذه الأخيرة عن فلسطين المملكة الآرامية فى دمشق .

وعندما حل الطاعون بأرض حاتى فى بداية عهد الملك « مورسيليس الثانى » وبحث الملك فى الأرشيف عن سبب غضب الإله عثر على لوحتين أوضحا له أنه أهمل عيدا خاصا وأن أهل حاتى قد نكثوا عهد إلههم « جوحاتى » بعد أن أقسموا به فى معاهدة لهم مع مصر إذ أنهم أغاروا على أملاكها السورية ثانية وتقدموا إلى العمق ونجحت الحملة فحينما تفشى وباء الطاعون بينهم بدا ذلك لمورسيليس كعقاب واضح .

ومن المحتمل أن فئة من الحيثيين استوطنوا تلال فلسطين أوربما كان هؤلاء ممن جاءوا من بلاد تحت حكم الحيثيين ، كذلك ربما كان هؤلاء المستوطنون من أقرب الأقاليم الحيثية فى سوريا التى استولى

عليها سوبيلوليوما باسم آخر كأنها غير حيثية لأن هجرة الحيثيين من الأناضول إلى فلسطين لم تكن كثيرة الحدوث ـ كذلك يحتمل أن هؤلاء المستوطنين الحيثيين لم يكونوا فى الواقع إلا من الأقوام التى كانت تتكلم اللغة الحيثية وعاشت منعزلة فى تلال فلسطين حتى بعد أن ساد فيها الساميون والحوريون لأن هذه اللغة كانت واسعة الانتشار فى جنوب غربى آسيا .

الفصل السابع

العـــراق

يقع العراق فى جنوب غربى آسيا ويحتل القسم الشمالى الشرقى من الوطن العربى ، وهو يبدو لأول وهلة شبيها بمصر من حيث ظروفه الطبيعية إذ يعتمد سكانه فى صميم حياتهم على نهرى دجلة والفرات كما يعتمد المصريون على نهر النيل ، وقد استرعى التشابه بين الفرات وبين النيل أنظار قدماء المصريين فأطلقوا عليه اسم النهر المنعكس أى الذى يسير على غير ما ألفوه فى النيل .

ولا يقتصر الفرق بين مصر والعراق على اتجاه الأنهار فحسب وإنما تبدو الاختلافات بينهما واضحة عند دراسة بقية الظروف الجغرافية فى كل منها - فبمقارنة ما عرفناه من طبيعة مصر (١) بما نجده فى العراق نجد أن هذا الأخير ينقسم إلى قسمين رئيسيين :

١ - القسم الشمالى :

وتغلب عليه الطبيعة الجبلية إذ تكثر به المرتفعات وخاصة فى قسمه الشمالى الشرقى الذى تتخلله وديان نهر دجلة وفروعه ويفصله عن الجهات التى تقع أبعد من ذلك شمالا سلسلة جبال طوروس وهضبة آرمينيا .

---

(١) أنظر أعلاه ص ٣٢

ب - والقسم الجنوبى :

وهو حديث التكوين من الناحية الجيولوجية لأنه كان جزءا من الخليج العربي ثم غمرته الرواسب التى جاء بها نهرا دجلة والفرات من المناطق الجبلية فى الشمال (١)

ونظرا لوقوع العراق فى طريق الهجرات البشرية التى حدثت فى أزمنة مختلفة من تاريخ الإنسان فقد استقرت به عناصر سامية وغير سامية ، وإن كانت العناصر السامية قد سادت فيه فى معظم أدواره التاريخية إلا أن العناصر غير السامية كانت تتوغل فيه أحيانا وخاصة من الشمال والجنوب الشرقى ـ وكان لهذه العوامل بالطبع أثرها فى تاريخ العراق وحضارته .

---

(١) يرى البعض خلافا لذلك ـ أن هذا القسم من العراق كان مرتفعا ثم انخفض فغمرت مياه البحر بعض أجزائه التى انخفضت عن مستواه ولكن هذا الرأى مازال لايجد قبولا لدى الكثيرين

العصور قبل التاريخية :

١ ـ العصر الحجرى القديم

لم يعثر إلا على آثار ضئيلة جـــدا من حضارات العصر الحجرى القديم ، وهى تتمثل على الخصوص فى هضبة كردستان إذ وجدت آثار الحضارتين الشيلية والأشولية فى بردابلكا (شرق جمجمال) كما وجدت آثار الحضارة الموستيرية فى كهف شاندر وكهف هزارمرد ، ومن المحتمل أن هيكل الطفل الذى عثر عليه فى كهف شاندر من نوع إنسان نياندرثال ـ أما آثار أواخر العصر الحجرى القديم فقد وجدت فى كهوف زرزى وبالىجورا وكريم شهر وإن كان البعض يميل إلى تأريخ آثار كريم شهر بأول العصر الحجرى الحديث .

٢ ـ العصر الحجرى الحديث

تتمثل آثار هذا العصر فى حضارات جرمو (فى لواء كركوك) وحسونة (فى لواء الموصل) وسامراء (فى لواء بغداد) .

حضارة جرمو :

عثر فى منطقة جرمو على حوالى ١٢ طبقة حضارية ، وتتميز الآثار التى وجدت فيها بالطبقات التى تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث بأن بقاياها المعمارية تمثل منازل بسيطة تتألف جدرانها من الطين وهى مقامة على أساس من الحجر ـ وقد عثر فى هذه الطبقات على بعض التماثيل الصلصالية

التى تمثل بعض الحيوانات وآلهة الأمومة ، كذلك عثر فيها على مناجل فخارية وبقايا بعض الحبوب مما يوحى بتوصل أهل هذه الحضارة للزراعة ، كما وجدت لديهم بعض الأدوات والأوانى الحجرية - وتدل بقـايا الحيوانات التى عثر عليها على أنهم استأنسوا الأغنـام والماعز والبقر والخنازير وأنواع صغيرة من الخيول ومن المحتمل أن تكون حضـارة جرمو حضارة قائمة بذاتها حيث يظن أن بينها وبين كريم شهر فجوة حضارية أخرى ، وقد يرى البعض أن حضارة جرمو تعاصر حضـارة الفيوم ولـكن - نظرا لأن الفيوم أصبح يشك فى أنها معاصرة لحضـارة نقادة الأولى (١) التى تعد من عصر بداية استعمال المعادن بينما ترجع حضارة جرمو إلى العصر الحجرى الحديث - فإن من العسير الأخذ بهذا الرأى .

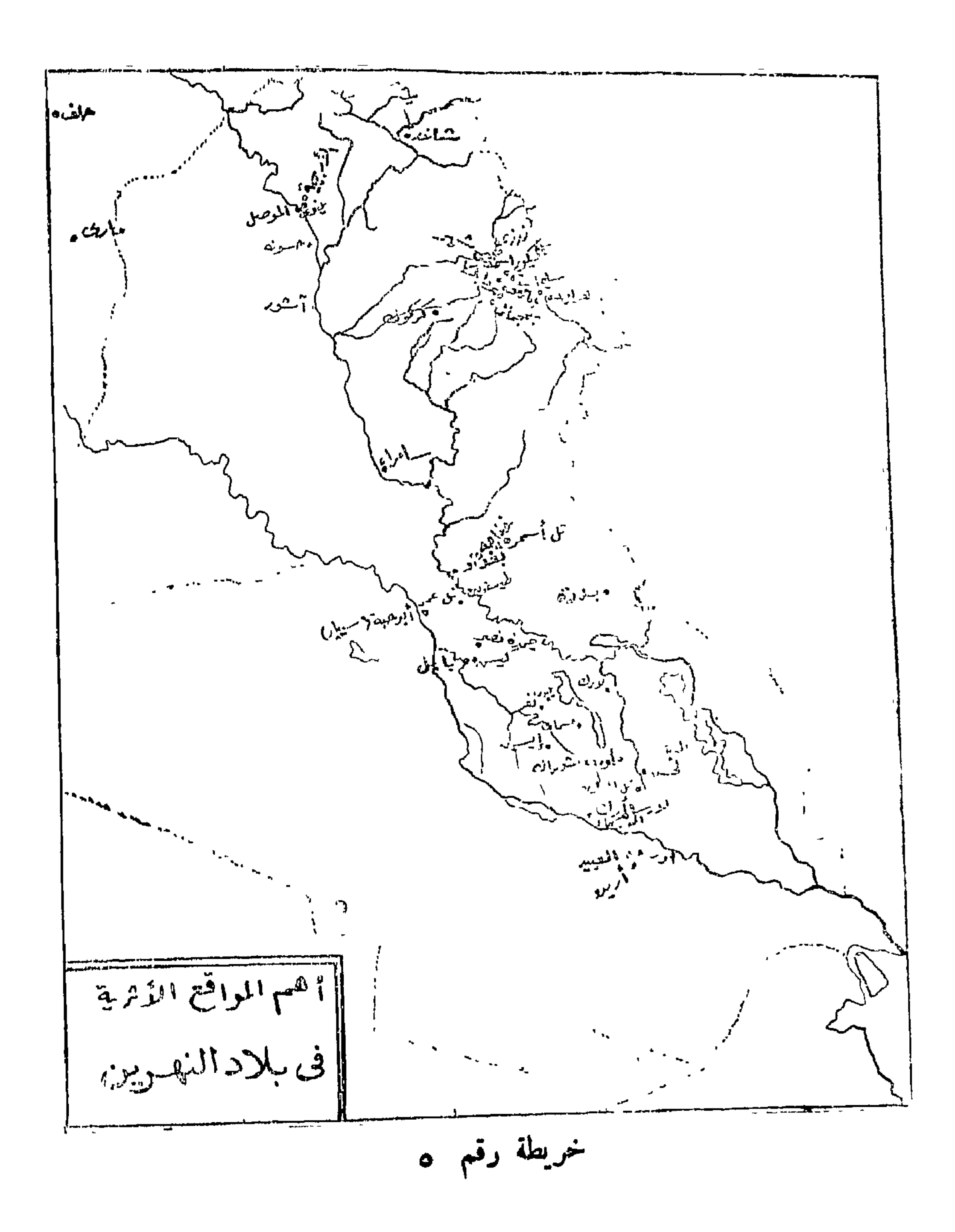
حضارة حسونة

يبدو أن حياة الاستقرار بالمعنى الصحيح أخذت تثبت دعائمها ابتداء من عصر هذه الحضارة التى ترجع إلى الألف السادس قبل الميلاد تقريباً ، ومع أن أهلها كانوا يعيشون فى بداية الأمر فى بيوت من الشعر (١) إلا أنهم اتخذوا بيوتاً بسيطه من الطين فيما بعد - وقد وصلوا إلى مرحلة لا بأس بها من التقدم والرقى إذ تتميز حضـارتهم بنوع من الفخار

---

(١) أنظر أعلاه ص ٥٣ ، ٥٩

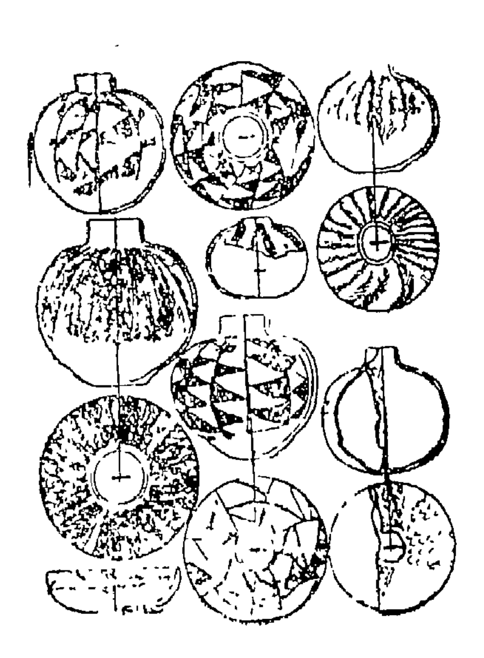
(١) طه باقر « مقدمة فى تأريخ الحضارات القديمة » ج١ (بغداد سنة ١٩٥٥) ص ٦٠ .


حلف
ماري
الموصل
آشور
كركوك
سامراء
أهم المواقع الأثرية
في بلاد النهرين

خريطة رقم ٥

المزين بالنقوش والأصباغ (شكل ٢٣) ، انتشر استعماله فى المناطق الممتدة إلى البحر المتوسط .

وتدل آثار حضارة حسونة على أن أهلها كانوا زراعا وأنهم استأنسوا الأغنام والماعز — ولم يمكن التوصل حتى الآن إلى الجنس الذى كان مسؤولا عن هذه الحضارة رغم العثور على جثث أطفال دفنت فى أوانى فخارية كبيرة .



شكل (٢٨) أوانى من حسونة

حضارة سامراء :

عثر فى هـــذه الحضارة على أوانى فخارية مزينة بنقوش هندسية وحيوانات وأشخاص ، وهى تؤرخ بأواخر الألف السادس قبل الميلاد ، وتدل الآثار التى وجـــدت بها على وجود علاقات بينها وبين أرمينيا وبلاد العرب بدليل وجود بعض المصنوعات التى استخدمت فيها مواد تنتمى أصلا إلى هذه الجهات .

عصر بداية استخدام المعادن[1]

حضارة حلف

يختلف المؤرخون فى أصل هـــذه الحضارة التى تعد أول عهود ما قبل الأسرات فى العراق ، وقد وجدت آثارها فى جهات مختلفة تمتد غربا إلى منطقة العمق فى سوريا كما وجـــدت شمالا فى الأربجية قرب الموصل .

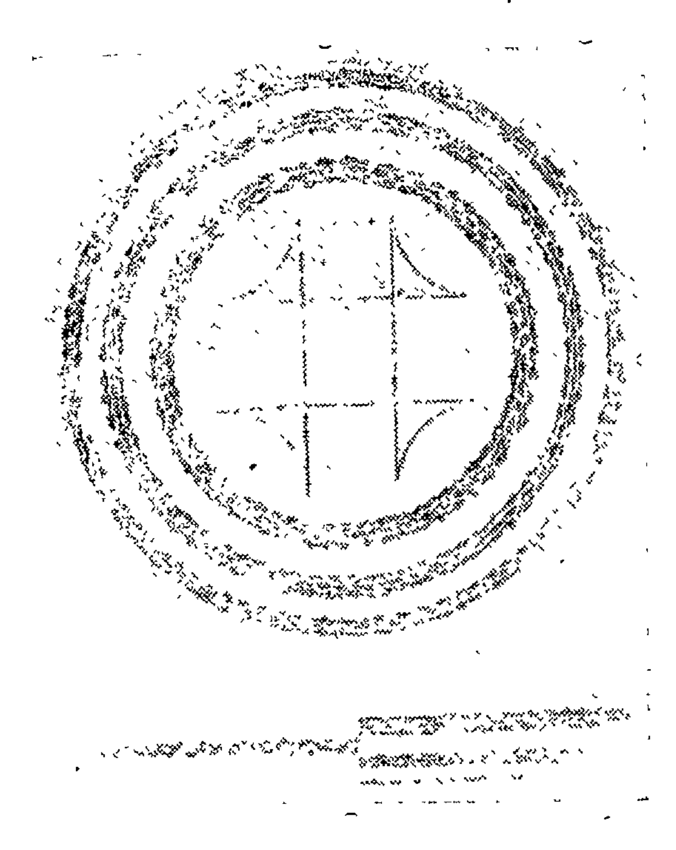
وتتميز هـذه الحضارة بأوانى فخارية مصقولة رقيقة الجدران ، كان الواحد منها يلون بعـــدة ألوان زاهية جميلة (شكل ٢٩) ، وتعـد الزخارف التى زينت بها هـذه الأوانى من أحسن ما خلفه الإنسان القديم على الفخار ، كما تتميز هذه الحضارة أيضا ببدء استخدام النحاس وزيادة القرى عنها فى العصر السابق ـ وتدل الآثار التى اكتشفت فى الأربجية على أن القرية كانت شوارعها مبلطة بالحجارة وأنها كانت محاطة بسور ووجدت بها بعض المبانى العامة والمعابد كانت بين آثارها تماثيل صغـيرة تمثل آلهة الأمومة مما يدل على تقدم الحياة الاجتماعية والدينية .

وليس من الغريب أن تنسب هـذه الحضارة إلى حلف التى تقع فى الإقليم السورى وتخرج عن نطاق العراق فقد وجدت آثارها فى أماكن متفرقة من سوريا مثل رأس شمرة (أو جاريت القـــديمة) إلى جانب وجودها فى بعض جهات العراق

---

(١) أطلق على هذا العصر فى العراق أيضا اسم ما قبل الأسرات شأنه فى ذلك شأن مصر أنظر أعلاه ص ٥٦ وما بعدها .

هذا ويلاحظ بأن كل الحضارات من أقـــدم العصور إلى عصر حضارة حلف ليست ممثلة فى جنوب العراق مما يرجح أن هذا الإقليم لم يـكن صالحا للسكنى حتى قيام هذه الحضارة .



شكل ٢٩ إناء من الأربجية

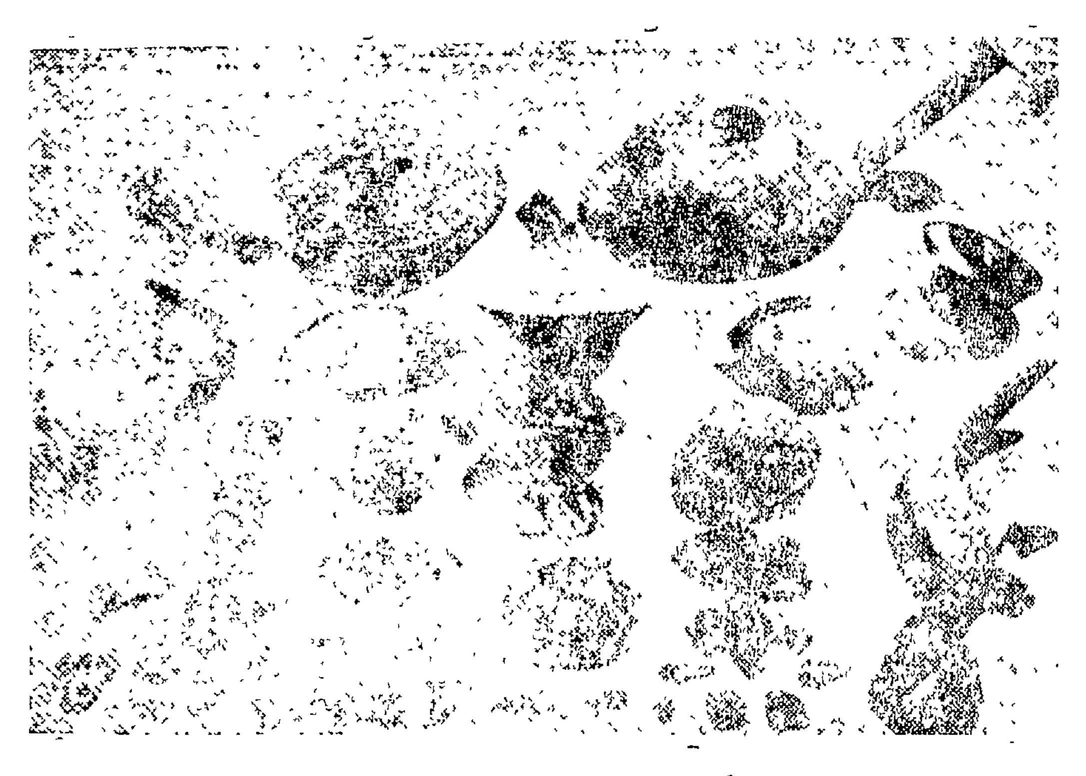
حضارة العبيد :

يبدو أن الإقليم الجنوبى من العراق أخذ يصلح للسكنى ابتداء من عصر هذه الحضارة ، وكان اختلاف ظروف البيئة فى الجنوب والشمال خلال هذا العصر سببا فى وجود بعض الاختلافات فى مظاهر الحضارة التى سادت فى هذين القسمين ، ويذكرنا ذلك بما حدث من تخصص إقليمى أثناء العصر الحجرى الحديث فى مصر وهو يدعونا إلى التمييز بين حضارة العبيد الشمالية وحضارة العبيد الجنوبية .

فحضارة العبيد الشمالية تتميز بالفخار الملون والتماثيل الطينية الصغيرة والأوانى الحجرية والأدوات العظمية ، كما عثر فى إحدى المناطق التى تنتمى لهذه الحضارة (وهى تبة جورا) على مجموعة من المبانى الهامة (معابد ومنازل) استخدم الآجر فى بعض أبنيتها ولم يستعمل الحجر فى ذلك إلا نادرا ، وقد عثر على مقابر الأطفال فى طبقات المنطقة بينما كان البالغون يدفنون فى جبانات أخرى على السفح عند أسفل التل وكانت المقابر أحياناً تغطى بالحصير .

أما حضارة العبيد الجنوبية فتعتبر أقدم حضارة ظهرت فى هذا الجزء من العراق حيث أن مخلفاتها تستقر على الأرض البكر ، ومن أهم مواقعها تل أبو شهرين (أريدو) وأور وقلعة الحاج محمد (قرب الوركاء) ، ومن أهم ما يميزها الفخار الملون بلون يميل إلى الخضرة والحمرة أو اللون البنى والرسوم التى تزينه ملونة بألوان مائية سوداء وهى تمثل أشكالا هندسية (شكل ٣٠) مما يذكرنا بحضارة نقادة الأولى فى مصر - وقد عثر كذلك على تماثيل طينية وأدوات وأوانى حجرية وبعض المناجل التى على شكل الهلال - هذا وقد عثر على آثار مجموعة من المعابد يتضح منها أن عمارة المبانى ذات المداخل والمخارج التى على أبعاد منتظمة تأخذ فى الظهور منذ هذا العصر ، وهذا الطراز يبدو بصورة واضحة فى مقابر عهد الأسرتين الأولى والثانية فى مصر - ويبدو أن حضارة العبيد على العموم جاءت عن طريق إيران إلى جنوب العراق ومنه انتشرت إلى الشمال ، ومنذ ذلك الحين أحرز جنوب العراق قصب السبق فى ميدان الحضارة ، فبينما توصل أهل الجنوب فى حضارة الوركاء التالية إلى بداية الكتابة ظل أهل

الشمال يجهلونها وعندما بدأ هؤلاء يستخدمونها كان أهل الجنوب (سومر) قد دخلوا عصرهم التاريخي (١).



شكل ٣٠ ـ أوانى فخارية من أريدو « حضارة العبيد »

حضارة الوركاء :

تتمثل هذه الحضارة فى بضعة مواقع لم يعثر فيها على مقابر إلا فى موقعى أور وخفاجة شرق بغداد حيث عثر على بضعة مقابر صغيرة ـ وقد عثر فى الوركاء على برج مدرج من اللبن عرف باسم الزاقورات (٢)

---

(١) Georges Roux, Ancient Iraq, (Pelican A 828), p. 81

(٢) عن الزقورات أنظر :
Andre', Parrot Ziggurats et Tour de Babel, Paris 1949

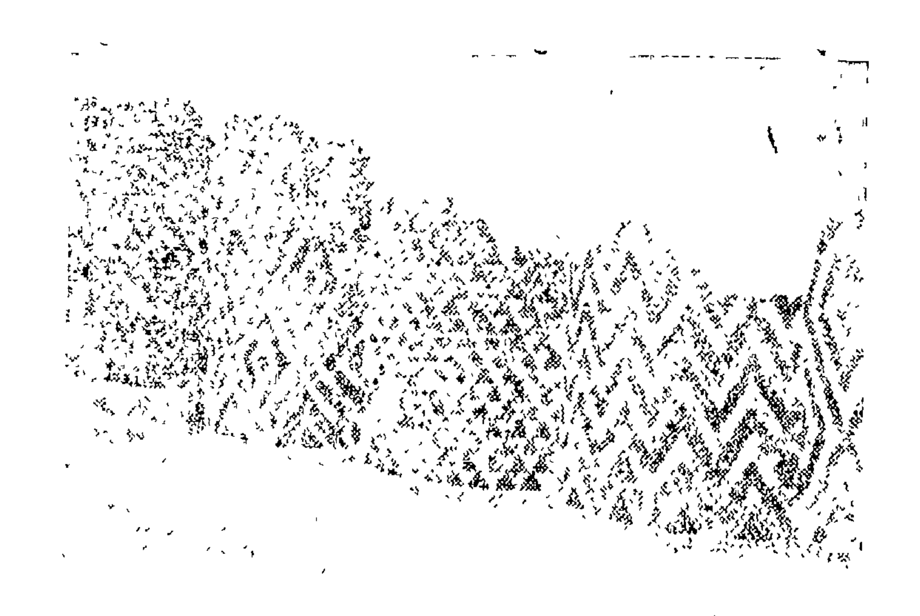
على جانبى درجه معبد أو معبدان يعرفان باسم المعبد الأرضى أو السفلى ويحيط الزاقورة والمعبد الأرضى ساحة كبيرة بها حجر متعددة ويحيط بالجميع سور ضخم كما وجدت بالمدينة معابد أخرى منها معبد إى ـ أنا (إله السماء التى عرفت فيما بعد باسم الاله عشتار) وهو يتوسط القسم الشرقى من المدينة ومعبد جميل شيد لعبادة الاله آنو (إله السماء) فى القسم الغربى من المدينة وقد عرف باسم المعبد الأبيض لوجود طلاء من الجص على جدرانه .

وتتميز هذه الحضارة وجود أقدم أمثلة النحت فى السطوح المستوية ونحت كتل الأجسام (نحت التماثيل أو النحت المستدير) ، هذا فضلا عما عثر عليه من آثار تدل على تطور فى الصناعة مثل الأوانى الحجرية والأختام الأسطوانية وأدوات الزينة وتتمثل فى هذه الحضارة كذلك أقدم محاولات الكتابة ، وهى كتابة بدائية استعملت فيها الصور لتدل على معانى وكانت تكتب بقلم معدنى ذو طرف مدبب على لوحة من الطمى قبل أن تجف ، وامتازت هذه الحضارة أيضا بنوع من الفخار الأملس المصبوغ بالأحمر والبرتقالى كما أن المبانى كانت تزخرف بقطع صغيرة من الفخار أو الحجر الملون وهذه القطع كانت مخروطية الشكل وتثبت فى الجدران المبنيه باللبن فى صفوف بحيث تبدو كأنها فسيفساء (شكل ٣١) .

حضارة جمدة نصر :

آخر مرحلة سابقة للعصر التاريخى وقد استطاع الانسان فيها أن يصل إلى مرحلة متقدمة فى الفن والكتابة حيث نجد أمثلة متفوقة فى العمارة ذات

الفجوات التى على أبعـــاد منتظمة ـ وتطورت فيها صناعة الأوانى الحجرية والفخارية وزخرفتها كما أن الرموز التى استعملت للتعبير بالـكتابة تحددت



شكل ٣١ أعمدة مغطاة بالموزاييك المخروطى الشكل فى أوروك (الوركاء)

وبسطت حتى أصبح من الميسور أن يعبر بها عن أغراض أكثر من ذى قبل ، على أن أهم موضوعات الـكتابة التى عثر عليها فى هذه المرحـــلة كانت تتصل بحسابات مختلفة منها ما يتعلق بالمعابد ، وهذا يدل على مدى ارتباط النواحى الاقتصادية بتطور الـكتابة كأنه يعتبر تمهيدا للعصر التاريخى ويمكن القول بأن التوصـل للـكتابة قـد ســاعد على تنظيم النواحى الاقتصادية بل والسياسية والاجتماعية كذلك ـ على أنه يجب أن لا يغيب عن الذهن ما نلاحظه من اختلاف فى ظروف البيئة بين مصر وبلاد النهرين

حيث أنها فى الأولى قد ساعدت على توحيد كل من مصر السفلى والعليا قبل ظهور الكتابة بزمن طويل أى أن سهولة الاتصال بين الجماعات التى عاشت فيها قد مكنت من تعاونهم واتحادهم فانضموا تحت لواء هاتين الوحدتين الكبيرتين ، أما فى الحالة الثانية (بيئة بلاد النهرين) فقد كانت صعوبة الاتصال نسبيا سببا فى تكوين عدد من المدن تحكم كلا منها حكومة معينة - ويرى البعض أن بلاد النهرين توصلت منذ نهاية عصر التمهيد للكتابة إلى إيجاد نوع من الحكم الديمقراطى إذ فرضت ظروف البيئة (التى كانت عرضة للكثير من الفيضانات والأعاصير وإغارات الشعوب المجاورة) نوعا من التنظيم الاجتماعى وذلك لمواجهة خطر مشترك أو للرغبة فى نفع مشترك كالتحكم فى مياه الأنهار واستغلالها وتحالف بعض المدن ضد القوى المعادية التى تهدد كيانها .

وكان التوصل إلى بعض مظاهر الحضارة فى كل من مصر والعراق إحداها قبل الأخرى مما جعل الأثريين والمؤرخين يختلفون فيما بينهم على أى الدولتين كانت أسبق من الأخرى فى ميدان الحضارة ولكن لم يمكن حتى الآن إثبات أسبقية حضارة إحداها بصفة مؤكدة ، كما أنه لا يوجد من الأدلة القاطعة ما يكفى لإثبات أن الحضارة قد انتقلت من إحداها إلى الأخرى وخاصة فى تلك المراحل السحيقة فى القدم .

العصر التاريخى

يعد العصر التاريخى فى مصر تاريخ وحدة سياسية لأنه بدأ فى أنحائها المختلفة منذ أن اكتملت وحدتها السياسية تقريبا - أما فى بلاد النهرين فإنه أبعد من أن يمثل تاريخ وحدة سياسية لأنه لم يبدأ فى جميع أرجائها فى وقت واحد نظرا لاختلاف ظروف البيئة فى أقسامها المختلفة ولاختلاف الأقوام التى عاشت فيها ، ولذا ينقسم هذا العصر إلى أقسام يتميز كل منها بتغيرات سياسية هامة تصاحبها أحيانا تغيرات اجتماعية واقتصادية وثقافية .

وأول هذه الأقسام هو الذى يطلق عليه اسم العصر قبل السرجونى أو عصر فجر السلالات إذ أنه يشمل جزءا من الألف الثالث وينتهى بغزو الملك السامى سرجون الأول ملك أكاد لبلاد سومر حوالى سنة ٢٤٠٠ ق م - وقد سبق أن أشرنا إلى أن القسم الجنوبى من بلاد النهرين بدأ عصره التاريخى قبل قسمها الشمالى (١) ، ولما كان ذلك القسم قد عرف باسم سومر (٢) فإن من الممكن القول بأن السومريين هم الذين بدأوا العصر التاريخى فى بلاد النهرين .

---

(١) أنظر أعلاه ص ٣٤٠

(٢) طـه باقر « مقدمة فى تأريخ الحضارات القديمة » جزء (١) (بغداد ١٩٥٥) ص ٨٩ وما بعدها .

١ — السومريون

اختلف المؤرخون فى أصـــل هولاء السومريين إذ لم يمكن إرجاع لغتهم إلى عائلة اللغـــات السامية أو إلى عائلة اللغات الهندو أوربية ، ولذا فإن فريقا من الباحثين يرى بأنهم جاءوا أصلا من مكان فى شرق بلاد النهرين أو جنوبها الشرقى ، ويرى فريق آخر بأنهم جاءوا عن طريق البحـــر وأنهم من نفس الجنس الذى وصل إلى مصر فى عصر ما قبل الأسرات ، بينما يرى فريق ثالث أنهم نشأوا نشأة محليـــة وتطورت حضارتهم محليا أى أنهم لم يكونوا من الأجانب .

وإذا ما تتبعنا الأساطير السومرية لوجدنا أن السومريين اعتقـــدوا بأن الآلهـــة خلقت البشر ليقوموا على خدمتهم وأن الانسان فى حاجة إلى من يرعاه من الحكام الذين يختارهم الآلهة لتدعيم قوانينها المقدسة ، « ففى عصر سحيق أنزل التاج وعرش الملكية من السماء » - ومنـذ ذلك الوقت سيطرت سلسلة من الحكام على مصائر أهل سومر نيابة عن الآلهة وهم يعملون لصالحها فى نفس الوقت ، فالملوك على هذا النحو كانوا يتمتعون بالقدسية منذ أقدم العصور وإن كان بعض الباحثين يعتقدون بأن نظـام الحكم فى سومر كان يمثل ديموقراطية بدائية حيث كانت طائفة من المدنيين تختار - عند الأزمات - زعيم المحاربين « لوجال » لتـــولى شئون الدولة ويستدلون على ذلك بما يتمثل فى أسطورة الخلق حيث تشير إلى أن الآلهة

اختارت « مردوخ » كي يقضى على « تيـــاما » (١) - ورغم أن تاريخ السومريين غير واضح فى معظمه إلا أن ما وصلنا من نصوص تاريخية وما أسفرت عنه البحـــوث الأثرية تدل على أنهم كانوا فى عصر فجر السلالات يعيشون فى عدد من المدن المستقلة تحاول كل منها فرض سيادتها على المدن الأخرى ولكن لايوجد من النصوص التاريخية مايدل دلالة قاطعة على أن دويلات المدن كانت تحكمها هيئات جماعية بل ولا نجد فى تاريخ هذه المدن إلا حكام أو ملوك كانوا يتلون الآلهة فى المرتبة .

وقد وصلتنا بضعة وثائق تحتوى على أسماء المـــلوك الذين حكموا فى هذه المدن ومدة حـكمهم ، وقد وردت السلالات الحاكمة فى المـدن المختلفة متتالية الواحدة بعد الأخرى رغم أن بعضها على الأقل كان يعاصر البعض الآخر ، وقد اتفقت هذه الوثائق فى الإشارة إلى حدوث فيضان كبير أو طوفان « أهلك الحرث والنسل » يحاول كثير من الباحثين الربط بينه وبين الطوفان المشار اليه فى الكتب السماوية - كذلك تفصـل هذه الوثائق بين الملوك الذين حـكموا قبل الطوفان وأولئك الذين حـــكموا من بعده - وقد أمـكن التوصل إلى قائمة بملوك سومر جمعت من ١٥ وثيقة مختلفة من تلك الوثائق (٢) وهى تمدنا بهيكل تاريخى لسومر منذ أقدم العصور

---

(١) « مردوخ » هو أبو الآلهـــة عند البابليين ويماثله لدى السومريين « إنليـــل » إله الجـــو والهواء — أما « تيامات » فهى إلهة الماء الملح وكانت تريد اهلاك أبنائها

(٢) Th. Jacobsen, The Sumerian King List. 1939

إلى (القــرن ١٨ ق م) وقت كتابة هذه الوثائق .

وهذه القائمة تشير إلى الأبطال الذين عاشوا فى العصر الأسطورى لسومر فتذكر بأن الملكية هبطت من السماء إلى مدينة أريدو أولا حيث حــكم فيها ملكان لمدة لا تقل عن ٦٤،٨٠٠ سنة وانتقلت بعد ذلك إلى بادتيبيرا (تل المداين قرب تللو) حيث حكم ثلاثة ملوك منهم الإله تموز (إله الإنبات) لمدة ١٠٨،٠٠٠ سنة ومنها إلى لارك (قرب كوت العمارة) حيث حكم ملك واحد لمدة ٢٨،٨٠٠ سنة ثم إلى سنبار (أبو حبة) حيث حكم ملك واحد لمدة ٢١،٠٠٠ سنة ثم إلى شوروباك (تل فرا) حيث حكم ملك واحد لمدة ١٨،٦٠٠ سنة وبعدئذ جاء الفيضان .

وبعد زوال الفيضان هبطت الملكية ثانية من السماء إلى كيش (شرق بابل) حيث تكونت فيها السلالة الأولى من ٢٢ ملكا حكموا بمعدل ١٠٠٠ سنة للواحد منهم ، ومن الملاحظ أن من بين هــؤلاء الملوك ١٢ ملكا أسماؤهم ساميــة ، ٦ أسماؤهم سومرية ويرى بعض المؤرخين أن ماورد عن هذه الأسرة ليس بأكمله أسطوريا بل بعضه تاريخى - كذلك تذكر هذه القائمة أن آخر ملوك كيش « أجا » هزم على يد أول ملوك أسرة الوركاء ولكن مصادر أخرى تدلنا على أن الأسرتين كانتا متعاصرتين فترة طويلة وأن « أجا » المشار اليه كان يعاصر خامس ملوك الوركاء « جلجامش » الذى قضى على مملكة كيش - كذلك يستدل من هذه المصادر على أن الوركاء كانت على علاقة مع آراتا (التى يحتمل أنها كانت غرب إيران أو فى عيلام)وان جماعات مارتو (الأموريين فى ســوريا حاصروها واستولوا على الحكم فى بلاد النهرين .

ومن العسير التوصل إلى بداية العصر التاريخى نظرا لأن قائمة ملوك سومر تذكر أرقاما خيالية لمدة حكم الملوك فلا نعـــرف منها متى انتهى العصر الأسطورى ومتى بدأ العصر التـاريخى ، ومما يزيد الأمر صعوبة أن بعض البحوث الأثرية أسفرت عن الـكشف عن أسماء عدد من الملوك الذين حكموا فى مدينة لجش ولم يذكروا فى القائمة وقد أمـكن وضع مجمل تاريخى لهذه المدينة من الألف الثالث ق م إلى سنة ٢٠٠٠ ق م تقريبا ولـكن ربما كان ذلك لأنهم لم يحكموا سومر كلها - ومهما كان الأمر فإن العثـور على نصوص تاريخية لملوك من الذين ذكروا فى قائمـة ملوك سومر يدل دلالة قاطعة على أن هؤلاء الملوك عاشوا بالفعل وأن أقدم النصـوص يرجع إلى أسبق الملوك فى ترتيبه الزمنى .

ففى المتحف العـراقى قطعة من المرمر مجهولة المصدر كتب عليها « مى - براج - سى » ملك كيش وأمـكن اثبات أن هذا الملك هـــو « إن - مى - براج - سى »[1] الملك الثانى والعشرين من أسرة كيش الأولى الذى كان يعتبر أسطوريا وهو والد « أجا » الذى حارب ضد جلجـامش خامس ملوك الوركاء - كما أن قطعة رخامية أخرى عـــثر عليها فى أور كتب عليها أن الملك « إى - أنى - بدا » بن « مس - أنى - بدا » بنى معبدا للإلهة « نن - هورساج » (وهى الإلهـــة الأم وتقابل إينانا التى عرفت باسم عشتار لدى الساميين) - ولم يـكن « إى - أنى - بدا » معروفا ولـكن

---

(١) لفظ « إن » يدل على أداة يمكن حذفها — أنظر
G. Roux. op. cit., p. 119

سامية إلا أن الآثار التى عثر عليها كانت سومريه الطابع وقد وجدت آثار شبيهة بها كذلك فى أشنونا (تل أسمر) فى وادى ديالة .

وقد عثر فى بعض مقابر الجبانة الملكية فى أور على ما يثبت دفن الضحايا البشرية مع المتوفى ، والظاهر أن ذلك يرجع إلى الاعتقاد بأن هؤلاء المتوفين كانوا من الآلهة سواء فى ذلك الملك أو الملكة فلم يكن هناك من فاصل بين الملك ورئاسة الكهنة ـ ثم أخذت هذه العادة فى الاختفاء بعد أن تم الفصل بين العرش والمعبد كما يستدل على ذلك من أن « أينتمينا » حاكم لجش (سنة ٢٥٠٠ ق.م) لم يكن كاهنها الأعظم إذ عثر على آنية فضية عثر عليها دونت عليها عبارة تفيد أن « دودو » كان كاهن « ننجرسو » إله لجش ، ويبدو أن النزاع قد أشتد بعد ذلك بنحو مائة عام بين الملك والكهنة حيث ظهر ذلك فى عهد أوركاجينا آخر ملوك لجش ، ولم يستمر هذا النزاع طويلا لأن لجش وسومر كلها خضعت لغير السومريين بعد ذلك .

عصر فجرات الاسرات :

مما سبق يتبين لنا أن عددا من الحكام المحليين كانوا متعاصرين ، وأن أسرة كيش الأولى كانت صاحبة السيادة إذ تشير قائمة الملوك السومرية إلى أن الملكية هبطت اليها بعد الفيضان وعلى ذلك أصبح لقب « ملك كيش » يعادل على الأرجح لقب « ملك سومر » ـ وقد أشرنا إلى أن ملكها « إن ـ مى ـ براج ـ سى » حكم حوالى سنة ٢٧٠٠ ق م ، وتدل الشواهد الأثرية على أنه بنى معبدا للإله إنليل فى نيبور مما جعلها تعتبر عاصمة

والده يعد فى قائمة ملوك سومر مؤسس الأسرة الأولى فى أور التى تلت أسرة الوركاء الأولى فى هده القائمة ، وقد أمكن اثبات أن هذا الملك الأخير كان يعاصر جلجامش ـ ومن كل ذلك نستنتج بأن أقدم حاكم سومرى معروف لنا هو « إن ـ مى ـ براج ـ سى » ، وإذا ما اعتبرنا أن سرجون الأكدى عاش فى الفترة ٢٣٧١ - ٢٣١٦ ق م فان من الممكن تقدير تاريخ حكم « إن ـ مى ـ براج ـ سى » بحوالى سنة ٢٧٠٠ ق.م كما يمكن إعتبار ذلك التاريخ بداية للعصر التاريخى فى بلاد النهرين(١).

ومع أن أحد الكهنة البابليين ويدعى برعوشو (Berossus) وكان يعيش فى عهد أنتيوخوس الأول (سوتير ٢٨٠ - ٢٦١ ق م) وضع تاريخا لبابل فى ثلاثة أجزاء فان ما وصلنا من تاريخه عن طريق مؤرخى اليونان لا يعدو جزءا ضئيلا لا يلقى كثيرا من الضوء عن تاريخ هؤلاء السومريين ، كذلك لا تذكر النصوص الأدبية التى ترجع إلى عصر فجر الأسرات إلا ١٣ مدينة هى من الشمال إلى الجنوب : سيبار ، كيش ، أكشاك ، لاراك ، آداب ، أوما ، لجش ، بادتيبرا ، أورك ، لارسا ، أور ، أريدو بينما أسفرت البحوث الأثرية عن وجود مدن هامة أخرى فى أجزاء بعيدة من بلاد النهرين كانت تحت تأثير سومرى قوى ومن هذه آشور (قلعة شرقاط) على نهر دجله وماری (تل الحريرى) على نهر الفرات ، ومع أن الأسماء المدونة فى نقوشها المحلية تدل على أنهما فى قلب منطقة

(١) G. Roux, op. cit., pp. 119 - 120

سومر الدينية وأصبح ملوك وحــكام مختلف المدن يتبارون فى إرسال الهدايا لمعبدها ، وبالتالى أصبح من الضرورى أن يتم اختيار الحكام بواسطة الإله إنليل فى نيبــور إذا ما أرادوا أن يعترف بهم الأمراء الآخرين كسلاطينهم وأصبح امتلاك نيبور لا مناص منه للسيادة على سومر ، وأصحاب نظرية الديموقراطية البدائيـة يميلون إلى أن السومريين فى عصر الأسرات الباكر كانوا يرسلون إلى نيبور (عندما يهدد سومر غزو أجنبى) مندوبين من كل دويلات المدن لاختيار قائد عام للحرب ـ فاختيار انليل لمن يصبح صاحب السلطان المطلق فى البلاد هو المظهر الباقى لهذا الاجراء القــديم ولـكن وجود مثل هذا التعصب لنيبور أمر افتراضى بحت وربما كان للعوامل الاقتصادية أثرها كذلك حيث كانت كيش ونيبور تقعان فيـها بين دجله والفرات وتتحكمان فى طريق البرونز الذى يصل من الأناضول وأرمينيا وأذربيجان إلى جنوب العراق ـ وربمـا لم تصبح نيبور عاصمة سياسية اكتفاء بمركزها الدينى مثل هليوبوليس فى مصر .

وتشير الأساطير السومرية والبابلية إلى جلجامش ونصف أعماله الخارقة وحكمته البالغة وأسفاره البعيدة جـريا وراء الخلود وإلى أنه بنى أسوار الوركاء ومعبدها المقدس كما أنها تذكر ما حدث فى عهده من طوفان عظيم يحاول الباحثون توحيده بطـوفان نوح فى الـكتب السماوية ـ وقد سبق أن ذكرنا بأنه هو الذى قضى على مملـكة كيش (١) .

---

(١) انظر أعلاه ص٣٤٧

ومن المرجح أن أسرة أور الأولى خلفت أسرة كيش فى السيـــادة لأن مؤسسها « مس - أنى - بدا » ذكر على ختم عثر عليه فى أور باعتباره « ملك كيش » كما أن ولديه من بعده امتلـــكا نيبور لأنهما قاما بترميم معبدها - ومن الآثار التى عثر عليها فى جبانة أور تتبين مقدار ثراء هذه المدينة وعظمة أسرتها الحاكمة حيث عثر على بعض مقابرها الغنية التى حوت كثيرا من الأثاث الثمين والتحف النادرة ومن أهم هذه المقابر مقـــبرة « پو - آبى » التى كانت تعرف فيما سبق باسم « شب - عاد » (١) التى حوت بالإضافة إلى حلى هذه السيدة كأسا ذهبية وغطاء الرأس فى حالة جيـدة وقيثارة ذهبية تعد من آيات الفن القديم ، وقد دفن مع صاحبة المقـبرة عدد من الأتباع أحياء - ومن بين الآثار التى عـــثر عليها فى إحدى مقابر أور لوحة خشبية مطعمة بالصدف نقوشها تمثل الحاكم (أو الملك) وهو يستعرض عددا من الجنود والأسرى ، وفضلا عن ذلك فإن آثار هذه المدينـــة تؤيد ماذهبنا اليه من أنها كانت تنعم بالرخاء والرفاهية إلا أن هذه الحال فيما يبدو لم تدم طويلا فبعد نحو قرن فقدت أهميتـها لأن القبائل العيلاميه التى كانت تسكن الجبال الشرقية من بلاد النهرين كانت تغـــير عليها إلى أن تمكنت أسرتا أوان وحمازى الأجنبيتان (وهما من عيلام) أن تفرضا سلطانها عليها وعلى جزء من سومر على الأقل - ولم يكن هذا هو أول دور فى سلسلة الحروب الطويلة بين بلاد النهرين وعيلام التى استمرت منذ ذلك التاريخ لمدة ألفى سنة - ومن أهم مـــدن

(١) G. Roux, op. cit., p. 127

عصر فجر السلالات مدينة لجش ، وليس هذا لأن آثارها أمدتنا بنصوص تاريخية أكثر من أى مدينة أخرى فقط بل لأن أحد حكامها سيلعب دورا هاما أيضا فى بلاد سادتها الفوضى بعد الغزو الأجنبى - إذ أن «إياناتم» (حوالى سنة ٢٥٥٠ ق.م) كان مثل جده « أورنانشه» حاكم لجش بناء عظيما للمعابد وشق القنوات ، وقد جعلته الظروف أيضاً محاربا عظيما فخاص السومريين من قبضة العيلاميين وأمن حدوده الشرقية بإخضاع عدة مدن عيلامية على الحدود إن لم يكن كلها كما ادعى ، وقهر أور وأورك ، وأضاف مملكة كيش إلى إمارة لجش ، ولكن الحرب التى جاءتنا معلومات هامة عنها هى الحرب المحلية ضد أوما على بعد ١٨ ميلا شرق لجش حيث كان التنافس بينهما على أشده من أجل منطقة زراعية تدعى «جو إيدين» تقع على الحدود بين المدينتين وكل منهما كانت تدعى ملكيتها ، فقبل « إياناتم » بعدة أجيال توسط ملك فى كيش يدعى ميسيلم (١) بين الدولتين ووضع لوحة له كحدود فاصلة بينهما وانتهى القتال بمعاهدة سلمية وثبت ملك لجش حدوده مع إيناكالى أمير أوما وأعاد لوحة ميسيلم إلى مكانها وفرض ضريبة ضخمة من الشعير على أوما .

وقد بين إياناتم انتصاره على أوما فى لوحة تعرف باسم لوحة النسور وفى نهاية عهده حارب ضد ائتلاف من رجال كيش ومارى . يقوده «زوزو» (أو أنزو) ملك أكشاك (٢) ومع أنه أعان إنتصاره إلا أنه لا شك فى أن هذه الحرب قد تسببت فى انهاء امبراطوريته الصغيرة التى كونها .

---

(١) ويحتمل توحيده مع « مس - أنى - بدا » حاكم أور

(٢) لم تحدد بالدقة بعد ويحتمل أنها تل عمر (سلوقيا) أمام طيسفون

والقرن الذى تلا إياناتم كان مضطربا ـ ويبدو أن « إن ـ شاكوش ـ انا » ملك أورك و « لوجالأناموندا » ملك أداب (بسمايا الحالية ١٦ ميلا شمال تل فـــرا) احتلا على التوالى كيش ونيبور واعترف بهما ملوكا على سومر ولـكن ملوك مارى كانوا يتحدون سيادتهما ـ وتذكر قائمـــة ملوك سومر أن ستة من ملوك مارى حكموا فى سومر لمـدة ١٣٦ سنة وهذا الرقم مبالغ فيه ، كما أن حكم ملوك من هذه المدينة التى تبعد كثيرا فى الشمال الغربى لمنطقة جنوب العراق يدل على أن الفوضى سادت هذه المنطقة فى هذا العهد ـ وفى لجش اندلعت الحرب ثانيـة بين « انتمينـا » ابن أخ « إياناتم » وبين أوما التى كان ملـكها يعاونه « ملوك أجانب » يحتمل أنهم ملوك مارى ـ وعلى ختمين اسطوانيين يوجد نص طويل يشير فيه « أنتمينا » إلى ما حدث فى الماضى من أنه قضى على قـوات أوما وقاوم حاكمها « مخرب الحقول والزراعات ، الناطق بالسوء » وحفر خندقا كحدود دائمـة بين المدينتين المتنافستين ، كذلك نعلم من مصـــادر أخرى أن « أنتمينا » أبرم معاهدة سلمية مع جاره القوى « لوجال ـ كينيش ـ دودو » ملك أورك الذى وحد أورك وأور فى مملـكة واحدة وانتهى حـــكمه فى سلام ورفاهية ولـكن بعد سنوات قلائل تدهور الموقف ثانية فى لجش واستـولى كهنـــة « ننجرسو » [1] على الحكم نحو عشرين عاما وزادوا فى ممتلكاتهم على حساب الآلهة وبعد ذلك أطاح بهم « أوروكاجينـا » [2]

---

(١) معبود مدينة لجش

(٢) يعد أول مشروع فى تاريخ البشر وعن تشريعاته أخذ حامور ابى قانونه

الذى عرف باصلاحاته الاجتماعية ولكنه لم يحكم سوى ٨ سنوات ثم استطاع « لوجال زاجيزى » حاكم أوما أن يستولى على لجش وأن يدمرها وبعدئذ استولى على أورك ونصب نفسه ملكا عليها ثم تقدم لغزو بقية سومر ونجح على ما يبدو فى ذلك حيث دون على إناء نذرى لإنليل عثر عليه فى نيبور أن غزواته شملت كل بلاد النهرين وسوريا .

ومن العسير الاعتقاد بأنه امتلك مثل هذه الامبراطورية ؛ ويحتمل أن ملك الوركاء تمكن من الحصول على اعتراف الساميين فى مارى بخضوعهم له أو الاتحاد معه وكان هؤلاء بدورهم لهم نفوذ على الساميين فى سوريا - وعلى أى حال لم تستمر امبراطورية لوجال زاجيزى أكثر من حكمه الذى استمر ٢٥ سنة حيث قضى عليه وعلى امبراطوريته الأمير السامى سرجون ملك أكاد .

٢ - الساميون

فى عصر الأسرات الباكر تنافس حكام سومر على السيادة على نحو ١٢ مدينة وبضعة أميال مربعة من الأرض القابلة للزراعة التى يحدها البحر جنوبا وتنتهى عند كيش شمالا وكانت كل من مارى وآشور أجنبية بالنسبة لهم مثل عيلام - ولكن بعد سنة ٢٤٠٠ ق م بقليل غير الأمراء الساميون فى وسط العراق من مجريات الأحداث ولم يكتف سرجون وخلفاؤه بإخضاع دويلات المدن السومرية لهم بل غزوا كل حوض دجلة - الفرات وأجزاء أخرى من البلاد المجاورة كما أرسلوا بعثات فى الخليج العربى وكونوا أول امبراطورية عظيمة لبلاد النهرين - وقد استمرت هذه الامبراطورية نحو قرنين ثم قضت عليها قبائل جبال زاجروس والثورات الداخلية ولكنها

ضربت مثلا لا يمحى عن إمكان وحدة بلاد النهرين ووصولها إلى حدودها الطبيعية التى أصبحت حلم كل الملوك بعد ذلك فمن منتصف الألف ٣ ق م إلى سقوط بابل سنة ٥٣٩ ق م يتمثل تاريخ العراق فى محاولات هؤلاء الملوك لتحقيق هذا الغرض ومدى نجاحهم وفشلهم فيه .

ويختلف المؤرخون بشأن نشأة المملكة الأكدية فمنهم من يرى بأن وجود العنصر السامى فى جنوب ووسط العراق يرجع إلى غزوة سامية حدثت فى أوائل القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد وكانت مدينة كيش أهم مسرح لها وما أن استقر الأمر لهؤلاء الساميين حتى عملوا على توسيع رقعة سلطانهم ونجحوا فى ذلك حتى استطاعوا أن يغيروا مجرى التاريخ فى العراق القديم ، ومن المؤرخين من يرى بأن الساميين كانوا بالعراق منذ أقدم العصور وقد عاشوا جنباً إلى جنب مع السومريين بدليل وجود أسماء سامية لملوك سلالة كيش الأولى ولكنهم كانوا دون شك يكونون غالبية السكان فى شمال العراق ومهما كان الأمر فإن هذا العنصر السامى قد نجح إلى أبعد الحدود وتركز نشاطه فى المنطقة الوسطى من بلاد النهرين وقد عرفت هذه المنطقة باسم أكد ولذا يطلق على الدولة التى أسسها سرجون فيها اسم الدولة الأكدية .

سرجون الاول :

يرجع بعض المؤرخين حكمه إلى الفترة ما بين ٢٣٧١-٢٣١٦ ق.م بينما يرى البعض الآخر أنه أنشأ مملكة موحدة حوالى سنة ٢٣٥٠ ق.م ولكنهم جميعا يتفقون فى أنه حكم نحوا من ٥٥ عاما على أى حال - ونظراً لنجاحه الساحق فقد حيكت حول نشأته الأساطير وخاصة لأنه لم يكن فى طفولته شخصية

معرفة ، ومن المحتمل أنه كان من غلمان قصر ملك كيش ثم تدرج فى سلك الوظائف حتى أصبح ساقيـــاً للملك « أور - زبابا » (ثالث ملوك أسرة كيش الرابعة) .

وبفضل ذكائه استطاع أن يصل إلى مركز سام جعله يستحوذ على السلطة وما لبث أن قضى على سيده وأعان نفسه ملكا على كيش ، ثم بدأ فى الكفاح ضد لوجال زاجيزى ملك أوما الذى سبقت الإشارة اليه(١) وتمكن من الانتصار عليه ثم شيد مدينة أكد وأخذ فى تدعيم ملكه حتى أنشأ الامبراطورية السامية الأولى ، إذ أنه بعد ان نجح فى ثورته على سيده وانتصاره على لوجال زاجيزى اتجه نحو الشمال واستولى على مدينة مارى (تل الحريرى) ومنها اتجه نحـو الشمال الشرقى إلى هضبة كركوك وأربيل وبعد ذلك عاد إلى جنوب العراق حيث نشر نفوذه على مدينة أور السومرية واستطاع أن يوحد العراق لأول مرة توحيدا ظل مستمرا فترة طويلة نسبيا - وبعد أن وطد نفوذه فى الداخل استولى على منطقة عيلام الواقعة فى جنوب غرب إيران (أى جنوب شرق العراق) وكانت عاصمتها سوسة ، وتذكر وثيقة من تل العمارنة (وهى مكتوبة فى عصر متأخر عن عصر سرجون) بأنه عبر جبـــال طوروس إلى بلاد الأناضول وسيطر على جـــزء كبير منها ، ويؤكد ذلك ما ورد فى بعض الوثائق التى عثر عليها فى أطلال بوغاز كوى كما يحتمل أنه وصـــل إلى جزيرة قبرص - وهكذا نجد أنه حكم إمبراطورية مترامية الأطراف ظل يحكمها نحو ٥٥ عاما حتى حيكت حوله الأساطير وأصبح فى نظر الأجيال المتأخرة إلها ، ومع هذا فقد أخذت نيران الثـورة تشتعل ضده فى جميع أنحاء الإمبراطورية قبل وفاته .

---

(١) أنظر ص ٣٥٥

ومنذ عهد سرجون أخـــذت العناصر السامية تسيطر من الناحيتين السياسية والحضارية وقد بدأت اللغـة الأكدية المكتوبة بالخط السماري تحتل مكانة رفيعة حتى أصبحت اللغة الدولية فى الشرق الأدنى القديم .

خلفاء سرجون

خلف سرجون ابنه « ريموش » الذى اضطر للكفاح من أجل إعادة السلم فى مختلف أنحاء مملكته فقام بغزوات متلاحقة على كثير من أطرافها لكى يخمد الثورات فيها ، ولم يستمر فى الحكم طويلا بل ذهب ضحية مؤامرة فى السنة التاسعة من حكمه وخلفه أخوه « مانيشتوسو » الذى استمر فى كفاحه من أجل الإبقاء على الإمبراطورية التى شيدها أبوه ولم يقتصر فى ذلك على سياسة الغزو بل قام بتحسين الأحوال الاقتصادية والشئون الداخلية فى البلاد وقد حكم خمسة عشر عاما ثم تبعه ابنه « نرام - سن Naram-sin » الذى تمكن من إعادة الاستقرار إلى امبراطوريته الواسعة على الرغم من محاولة السومريين تفكيك وحدتها ، وقد حكم «نرام - سن» نحوا من أربعين عاما بذل فيها جهده فى رفع شأن أمته حيث شجع الفنون على اختلافها وحرص على تشييد دور العبادة وتعميرها ، ومن أهم آثاره لوحة النصر وهى تمثله على رأس جيشه منتصراً على بعض القبائل الجبلية المعروفة باسم لولوبى Lulubi ، ومن آثاره كذلك لوحة حفرت فى جبل عال فى منطقة ديار بكر شمال العراق جاء فيها أنه هزم بلاد « ماجان » التى تحوى محاجر الديوريت وقد استورد منها هذا الحجر ليصنع تمثالا لنفسه . وكان بعض المؤرخين يشك فى أن « ماجان » هى مصر حيث أن النصوص البابلية كانت تشير إلى مصر باسم « مالوخا » الغنية بالذهب

كما يشكون فى أن «نرام ـ سن» هاجم مصر فى أوائل عهد الأسرة السادسة ويستدلون على ذلك بأن بيي الأول كلف وزيره أونى بالدفاع عن مصر ضد غزوات قوية وجهت إليها فى شمالها الشرقى ولكن أونى استطاع أن يهزم العدم عند الحدود الشمالية الشرقية لمصر إلا أن هـــذا الرأى بعيد عن الصواب لأن ماجان كانت تطلق على منطقة عمان الواقعة جنوب شبه العرب وهى غنية بالحجر والنحاس .

وكان نرام سن آخر ملك قوى من الأكديين حيث تبعه فى الحكم ولده « شاكار شرى » (وشار بالأكدية تعنى ملك) الذى كان ضعيفا لم يستطيع مجابهة الظروف حيث اندلعت الثورات فى أنحاء الامبراطورية وقامت الشعوب التى خضعت للأكديين تبغى إعادة استقلالها ، كما انتهزت قبائل الجوتيين التى كانت تسكن فى الجبال الشمالية الشرقية فرصة الضعف الذى منيت به الامبراطورية وزحفت على السهول الخصبة فى بلاد النهرين وقضت على حكم الامبراطورية ، وكان من قسوتها فى حروبها أن ظل الناس فى الأجيال التالية يذكرون فظائعهم لمدة طويلة ، وقد وصف أحد الكتاب القدامى ذلك بقوله « وحوش الجبال الذين فتكوا بالناس وسلبوا النساء من أزواجهن والأطفال من أمهاتهم والذين اغتصبوا الحكم وقضوا على (سومر) بعد أن حملوا كنوزها معهم إلى الجبال »

وبعد أن استقر الامر لهؤلاء الغزاة فضلوا العودة إلى وطنهم فى الشمال مكتفين بفرض الجزية على أهل المدن السومرية ، وقـــد اتبعوا فى حكمهم الأساليب التى استعملها الأكديون ولم يغيروا شيئا من النظم الحضارية فاستعملوا اللغة السومرية فى رسائلهم ومكاتباتهم وقـــد تفاخروا بتلقيب

أنفسهم بلقب « ملوك الجوتى وأركان العالم الأربعة » ـ ولم يصلنا عن حكمهم شيئاً اللهم إلا أسماء ملوكهم فقد ذكرت قائمـة المـــلوك السومرية أسماء ٢١ ملكا لهم ولـكن خمسة فقط من هؤلاء هم الذين تركوا بعض النقوش ولم نعرف من النصوص التاريخية اللاحقة لعهدهم شيئا عن الأحداث التاريخية فى زمنهم ولـكنها مع ذلك تصفهم بالتعسف الشديد .

وكان لبعدهم فى الشمال وتركهم تصريف الأمور لأبناء البـلاد الأصليين أثر فى إتاحة الفرصة لهؤلاء كى يعيدوا مجد الحضـارة السومرية وأن ينهضوا من جديد فظهرت فى ميدان القـــوة بعض المدن السومرية وخاصة أور ولجش وغيرها ـ ولم يستمر حـــكم الجوتيين أكثر من ١١٠ عاما تقريباً .

٣ـ عودة نفوذ السومريين (النهضة السومرية)

ظلت معظم المدن السومرية تحت حكم أسراتها الحاكمة وإن خضعت لسلطان الأكديين أو غيرهم ، وانتقل الحكم من أسرة إلى أخرى فى المدن المختلفة وظهر فيها بعض الحـكام الأقوياء بين حين وآخر .

ومن أشهر هؤلاء الحكام « أوتو حيجال » مؤسس أسرة الوركاء الخامسة الذى أعان الحرب على الجوتيين ـ وما أن بدأ كفاحه ضدهم حتى انضم اليه عدد من أمراء جنوب العراق فهزموا الجوتيين المـكروهين لدى الجميع وحاول ملـكهم « تيرقان » الهرب ولـكن قبض عليه وسلم لقـائد السومريين ، ونهضت نيبور من جديد وأصبحت الوركاء على رأس دويلات المـــدن

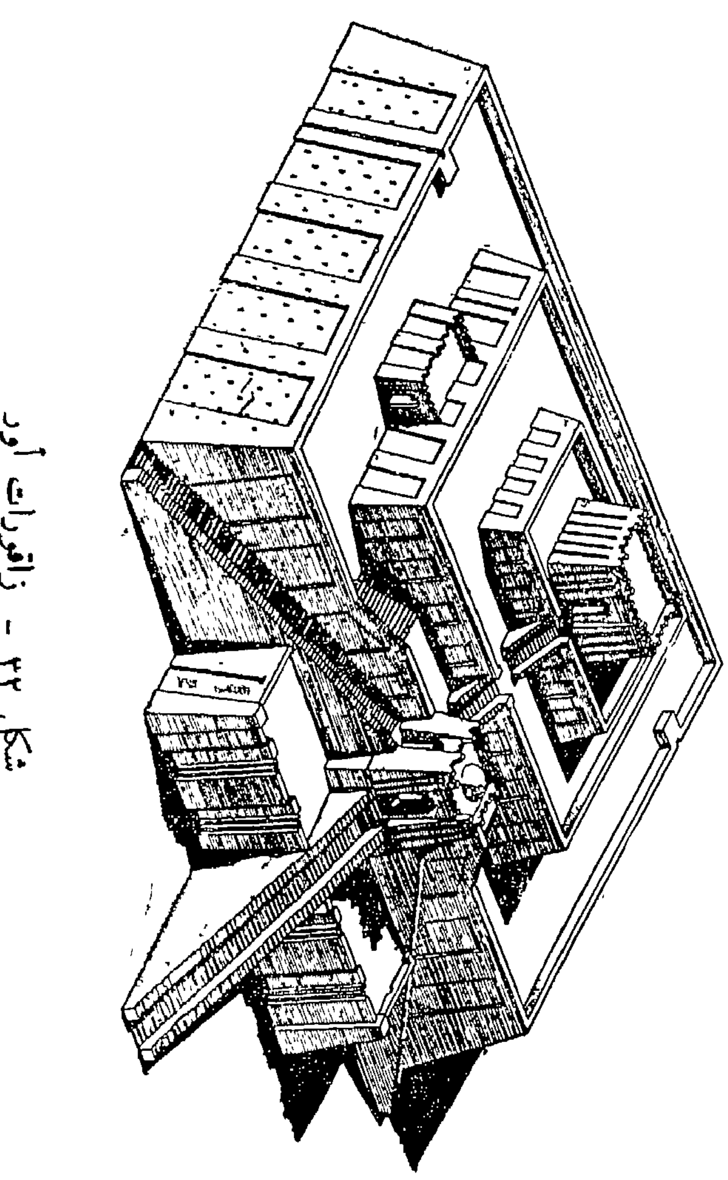
السومرية - إلا أن ذلك لم يستمر طويلا لأن « أورنمو » مؤسس الأسرة الثالثة فى أور سرعان ما أعلن الثورة على « أوتو حيجال » وانتزع منه السيادة وأعلن نفسه ملكا على دولة سومر .

وكان أورنمو «Ur-Nummo» من قواده فى أول الامر ولكنه استطاع أن يبرز فى أور وأن يمد نفوذه إلى ماوراء حدودها فضم عدداً من المدن تحت سلطانه وأعلن نفسه ملكا فى أور على دولة سومر وبذلك أسس أسرة أور الثالثة التى يعد عصرها « عصر أور الذهبى » لما ظهر فيه من تقدم ورخاء .

وقد قام أورنمو بإصلاحات كبيرة فأعاد بناء ما تهدم من المعابد وأعاد حفر شبكة القنوات التى كانت تعتمد عليها ثروة البلاد ، وقد عثر على نسخة من القانون الذى وضعه قبل قانون حمورابى بثلاثة قرون تقريبا ومن أهم الآثار التى تركها معبد أور المدرج المعروف باسم زقورات أور Ziggorat [1] شكل وكان مبنيا باللبن فى درجات يعلو بعضها البعض تؤدى

---

(١) أراد البعض مقارنته بالهرم المدرج وبمبانى الهنود الحمر فى المكسيك الا أن الوظائف المخصصة لكل من هذه المبانى تختلف عن وظائف الأخرى ، فالهرم المدرج عبارة عن مقبرة ملكية أما زقورات أور ومبانى الهنود الحمر المدرجة فى المكسيك فهى عبارة عن معابد - والجزء الأساسى من الهرم المدرج هو حجرة الدفن التى تقع تحت سطح الأرض بأسفل الهرم أما فى زقورات أور ومعابد المكسيك فان الجزء الأساسى هو الذى فى أعلى البناء وهو الهيكل نفسه -- وربما كانت الدرجات التى تؤدى إلى أعلى البناء فى زقورات أور تغطى بالطمى لزراعة بعض النباتات .



شكل ٣٢ - زاقورات أور

إلى الأماكن التى تعلو البناء . وقد ترك لنا أورنمو نقوشا تبينه وهو يتعبد فى المعبد كما تبين بعض مناظر عملية بنائه . وكان جودية رابع أمير فى أسرة لجش الثانية يعاصر « أورنمو » أو خلفه « شولجى » وقد اشتهر هذا الأمير بأعماله العمرانية وتشجيع التجارة مع كثير من أقطار الشرق الأدنى مثل عيلام وسوريا والأناضول وقد عمل على رفاهية رعيته طوال مدة حكمه التى بلغت ثلاثين عاما وكان تفانيه فى خدمة الدين من الأسباب التى جعلته يترك آثار تفوق آثار غيره من أمراء المدن السومرية .

ولما مات أورنمو خلفه ولده « شولجى Chulgi » الذى سار على نهج والده فى سياسة التعمير ولكنه اهتم بمدينة « أريدو » التى كانت على شاطىء البحر وكانت تعتبر مقراً للإله « إنكى » إله الماء والبحار . وقد عثر على بعض اللوحات فى مدينـــة لجش أمكن منها معرفة الكثير عن النظام الإدارى فى عهده وتبين أن الحكومة المركزية فى أور كانت تشرف إشرافاً تاما على سائر شؤون الدولة وفى مختلف أرجائها ، وقد وصل نفوذه السياسى والحضارى إلى أمد بعيد حتى ليرى البعض أنه وصل إلى آسيا الصغرى وحوض البحر المتوسط ولكن لا يوجد من الأدلة ما يكفى لإثبات ذلك .

ولما مات شولجى كان الرخاء والأمن سائدين ولذا لم يجد خلفاؤه مايوجب بذل جهود ضخمة ، وكان هذا الرخاء فى الواقع يحمل بين طياته نذير الاضمحلال

٤ ـ تنافس الاموريين والعيلاميين
(سيادة مدينتي ايسين ولارسا)

بعد عهد سلالة أور الثالثة الذى دام أكثر من مائة عام نهاية حياة السومريين السياسة لأن هؤلاء اندمجوا بعد ذلك بالساميين ولم تحكم فى أور بعدها أسرة سومرية خالصة ـ وقد قام آخر ملوكها (أبى ـ سن) وهو خامسهم ببناء سد لصد هجوم الأموريين وهم الشعبة السامية التى عاشت واستفحل خطرها فى منطقة مارى فى حوض الفرات الأوسط .

ومن المعروف ـ حسب آخر ما كشف من الوثائق التاريخية ـ أن المدن التى كانت تحكمها أور أخذت تخرج عن سلطانها حتى السنة الحادية عشر من حكم « أبى ـ سين » ، وحينما رأى حاكم مارى من قبل ملك أور (وهو المدعو أشبى ـ إيرا) أن الأموريين يهددون مدينتى أيسين ونفر استنجد أول الأمر بسيده للدفاع ضد الأموريين ولكنه وجد بعد ذلك أن تدهور الأحوال داخل المملكة يشجعه على أن يستغل الفرصة لنفسه فقام بالدفاع عن مدينة أيسين لصالحه الشخصى ونجح فى تكوين سلاله خاصة فى هذه المدينة إبتداء من السنة الثانية عشرة من حكم أبى سين .

وفى نفس الوقت تقريباً نجح العيلاميون فى غزو العراق ودمروا أور ـ ويرى بعض الباحثين أن أبى سين لم يؤخذ أسيراً إلى عيلام بعد هذه الغزوة لأنه كان متحالفا مع العيلاميين ضد الأموريين عندما اشتد ضغطهم على بلاده ومهما كان الأمر فإن سيادة أور انتهت بذلك الغزو المزدوج الذى قام به الأموريون والعيلاميون ، وقد نتج عن هذا وجود أسرتين حاكمتين فى العراق إحداهما فى أيسين وهى التى أسسها « أشبى إيرا » والاخرى فى « لارسا » وهذه يرجح أنها كانت خاضعة لنفوذ العيلاميين ـ وفى نفس الوقت

كان الاشوريون فى الشمال قد بدأوا يكونون دولة مستقلة كما وجدت بعد فترة مملكة فى بابل ينتمى ملوكها إلى أصل أمورى ومملكة أخرى عرفت باسم مملكة أشنونا (نسبة إلى العاصمة أشنونا وموقعها الآن تل أسمر) فى حوض نهر دبالى ، وهكذا نجد أن بابل عادت بعد سيادة أور إلى نظام دويلات المدن ، وقد اصطلح المؤرخون على تسمية هذا العهد باسم العهد البابلى القديم ، وفى أثنائه كانت سلالة من الساميين الغربيين تحكم فى مدينة مارى وكان بعض ملوكها يعاصرون الملك حامورابى .

وقد استمر النزاع بين أسرتى أيسين ولارسا ولا نعرف عن حكمها سوى أن ملوك الأسرة الحاكمة فى أيسين قاموا بأعمال عمرانية فى أنحاء البلاد الخاضعة لهم ورمموا كثيرا مما خرب على أثر سقوط أسرة أور الثالثة - ومن أشهر ملوكهم « لبت عشتار » خامس ملوك الأسرة الذى عثر له على قانون مكتوب باللغة السومرية يعد من أحسن شرائع العالم القديم - وقد حكم فى أيسين ١٥ ملكا لمدة تقرب من ٢٢٥ سنة أما فى لارسا فقد حكم ١٤ ملكا مدة تقدر بنحو ٢٦٠ سنة ، وكان ملوك أيسين من الأموريين أما ملوك لارسا فمن البابليين الذين خضعوا لنفوذ العيلاميين وقد تدخل هؤلاء فى شئون البلاد وقضوا على آخر ملك فيها وعينوا بدلا منه ابن ملك عيلام فى مكانه ، ولما مات هذا الأخير عين أخوه (ريم سين) من بعده - وقد قضى هذا الأخير على الأسرة المنافسة فى أيسين وحكمها بنفسه - وفى هذه الأثناء كان حامورابى سادس ملوك الأسرة البابلية الأولى يحكم فى بابل ، وقد تمكن هذا الملك من أن يقضى على العيلاميين بعد حروب طاحنة - كذلك قضى على مملكة أشنونا وتم له ذلك فى السنة الثانية والثلاثين من حكمه كما استطاع أن يقضى على استقلال المملكة التى تكونت فى آشور وكان من اشهر ملوكها سرجون الاول (الاشورى) .

٥ - مملكة أشنونا

تعد مملكة أشنونا من دويلات المدن التى لعبت دورا هاما فى تاريخ العراق فقد نشأت هذه الدولة التى كانت عاصمتها أشنونا (تل أسمر الحالية) منذ عصر فجر الأسرات ثم قضى على استقلالها سرجون الأكدى(١) وبعدئذ خضعت لأسرة أور الثالثة (٢) ، ولكنها استقلت بعد ذلك فترة طويلة دامت إلى السنة الثانية والثلاثين من حكم حمورابى الذى قضى على استقلالها فى تلك السنة وضمها إلى امبراطوريته بعد أن ظلت قائمة نحو قرنين ونصف من الزمان وتوالى فى حكمها نحوا من عشرة ملوك ترك أحدهم (وهو على الأرجح « بلالاما ») قانونا يعد من أقدم قوانين العراق القديم إذ أنه يسبق قانون « لبت عشتار » بنحو نصف قرن وقد عثر على هذا القانون فى تل حرمل (٣) وليس فى أشنونا نفسها .

وقد تدهورت مملكة أشنونا بعد « بلالاما » فترة بسبب إغارة ملك « دير » (٤) عليها وهزيمتها أمام ملك كيش الذى حرمها من كثير من ممتلكاتها ، ولكنها عادت إلى التوسع فى عهد ملكها « إيبق - أدد الثانى » الذى يبدو أنه أراد الاستيلاء على حوض الدجلة وأرض الجزيرة العليا حتى سفوح كردستان وإنشاء جسر له على نهر الفرات حتى يتحكم فى طرق التجارة الآتية من الشمال والغرب ولكن هذا التوسع كان وقتيا وذهبت

---

(١) أنظر ص ٣٥٦ وما بعدها

(٢) أنظر ص ٣٦١

(٣) تل صغير بالقرب من بغداد وهو موقع « شادوبوم » التى كانت المركز الادرى لمنطقة زراعية فى مملكة أشنونا .

(٤) فى مكان « بدره » الحالية على بعد نحو ٦٥ ميلا شرق تل أسمر .

محاولات الملوك الأخيرين فى المملكة من أجل الإبقاء على الاراضى التى امتلكوها سدى لأن الممالك القوية التى نشأت فى بابل ولارسا فى الجنوب وآشور فى الشمال ومارى فى الغرب أحاطت بأشنونا ووقفت سداً منيعاً أمام أطماعها ثم استولى عليها الأشوريون فى عهد ملكهم « شمش - أدد » ، ولم يبق الحال على ذلك طويلا لأن ملك أشنونا (الذى يرجح أنه كان « دادوشا » ظل يثير المتاعب ويحيك المؤامرات لجيرانه ولمملكة آشور - وقد تمكن الأشوريون من التوغل فى أراضى أشنونا إلى مسافة بعيدة ولكن تعاونت قوات « توروكو » فى كردستان مع قوات أشنونا وظهرت جميعها فى كركوك بل وهددت مارى ، وقد أثار تقدم الأعداء على طول الفرات خوف العاصمة الغربية فاستنجد ملكها الأشورى « يسمح - أداد » بأخيه « اشمى - داجان » ملك أشور وأوقف تقدم قوات أشنونا ثم قضى حمورابى ملك بابل بعد ذلك على كل من مملكتى أشنونا ومارى .

٦ـ البابليون

الدولة البابلية الاولى

أسس هذه الدولة الملك « سمو ـ أبوم » الذى كان يحكم رقعة صغيرة فى جنوب العراق ، وقد بدأ توطيد سلطانه بالقضاء على أمراء المدن الجنوبية وأعلن نفسه ملكا على بابل بعـــد أن بسط نفوذه على سومر وأكاد ، وظل فى الحكم مايقرب من خمسة عشر عاما ثم خلفه أربعة ملوك حافظوا على حدود المملكة وإصلاح شئونها .

ولما استولى العيلاميون (فى عهد زابوم ثالث ملوك الأسرة البابلية) على مدينة أيسين عاصمة الأموريين واستقروا فيها أخذ النزاع يشتد بين ملوك بابل والعيلاميين حيث بدأ ملوك بابل يشعرون بالخطر يهدد كيانهم نظرا لسرعة انتشار نفوذ العيلاميين .

وحينما تولى حامورابى سادس ملوك الأسرة البابليـــة عرش بلاده (١٧٢٨ - ١٦٨٦ ق.م) لم يغفل خطورة الموقف ، وكان رجلا فذا فى شئون السياسة والحرب فلم يحاول الخروج إلى الحرب فى السنوات الأولى من عهده بل شغلها بالإصلاحات الداخلية وتقوية وسائل الدفاع حول مدنه الهامة استعدادا لكفاحه المرتقب ، فقد وجد فى بداية عهده أن دولة لارسا أصبحت تتحكم فى الأجزاء التى تقع إلى جنوب بابل بعد أن أخضع ملكها « ريم سن » مملكة أيسين لسلطانه ، وأن مملكة أشنونا تحكم المنطقة التى تقع إلى شمال بابل مباشرة بينما كانت مملكة آشور تتحكم فى الأجزاء التى تلى ذلك شمالا .

وقد بدأ حمورابي في السنة الخامسة من حكمه بالاستيلاء على أيسين ولكنه وجد أن قوته لاتسمح له بملاقاة « ريم سن » ملك لارسا ففضل الانتظار نحو ثلاثة وعشرين عاما قضاها في الاستعداد وفي السنة التاسعة والعشرين تقابل مع الملك العيلامي ريم سن في حرب قاسية استطاع الانتصار فيها ، وكان هذا الانتصار حدثا في تاريخ العراق أرخ به المؤرخون ومن جرائه تغنى شعراء بابل بعظمة حامورابي ورتلوا الأناشيد من أجله في المعابد .

وبزوال خطر العيلاميين تمكن حامورابي من مد سلطانه شمالا إلى أعالي نهر دجلة فاستولى على مملكة أشنونا وضمها إلى إمبراطوريته كما ضم إليه بلاد الآشوريين إذ تمكن في السنة الثانية والثلاثين من حكمه من الاستيلاء على عاصمتهم الغربية ماري ، وقد اكتشف أرشيف قصر هذه المدينة وعثر فيه على أكثر من ٢٠ ألف لوحة طينية من بينها مجموعة من الرسائل المتبادلة بين ملوك المدينة وغيرهم من حكام المدن الأخرى وملوكها ، ومن أهمها رسائل تبودلت بين الملك « زمري ليم » Zamrilim وبين حمورابي كما أن إحدى هذه الوثائق تثبت معاصرة الملك حمورابي للملك « شمسي أدد الأول » ملك آشور » . كذلك تمكن حمورابي من الوصول بحدوده جنوبا إلى الخليج العربي ، ويعد عصره العصر الذهبي لبلاد العراق القديم من حيث الرخاء والرفاهية التي كانت تنعم بها .

وتعد مجموعة التشريعات التي سنها وهي المشهورة باسم « قانون حمورابي » أهم ما قام به من إصلاحات ، وقد وجدت نسخة من هذا القانون

على كتلة من الديوريت عثر عليها فى أطلال « سوسة » وتبلغ مواده نحو ٢٥٠ مادة ، وقد حدد العقوبات التى يستطيع القضاة توقيعها فى حالات معينة ـ أما إذا لم يرد نص يختص بجريمة ما فإنه أشار إلى أن الحكم يجب أن يكون حسب العرف السائد فى المنطقة ، ومن الملاحظ فى هذا القانون أنه كان قاسيا فى توقيع العقوبات على كل من يخرج على العرف أو يقترف مايتنافى مع مبادىء الأخلاق كما أنه تعرض لمشاكل الوراثة والتبنى وغيرها ، وفى معظم أحكام هذا القانون نجد اتجاها للأخذ بمبدأ « العين بالعين والسن بالسن » أو « المعاملة بالمثل » الشائع بين الشعوب السامية .

وقد حكم حمورابى نحو ثلاثة وأربعين عاما تمثل أزهى عصور العراق ولكن خلفاءه لم يتمكنوا من الدفاع عن دولتهم المترامية الأطراف حيث أخذت الثورات تشتعل فى أكثر من مكان ، ورغم أن ولده « سامسو إيلونا » قام بجهود متواصلة لإخماد هذه الثورات فإن جهوده ذهبت عبثا حيث أخذت أجزاء من الامبراطورية التى كونها والده فى الانفصال وأعلنت استقلالها ودب الضعف فى كيان مابقى من الدولة حتى تمكن الحيثيون فى نهاية عهد الأسرة البابلية من القضاء نهائياً على دولتهم بعد أن حكم فيها ١١ ملكا نحوا من ٢١٥ سنة .

مملكة بابل الثانيه (دولة أرض البحر)

أشرنا فيما سبق إلى أن « سامسو - إيلونا » قام بجهود متواصلة للإبقاء على الامبراطورية التى تركها والده ، وأن هذه الجهود ذهبت هباء حيث فقدت الامبراطورية مساحة كبيرة من أراضيها - ومع أن الثورة التى قام بها أحد الثائرين (١) فى الأجزاء المتاخمة لعيلام أخمدت وقتل القائم بها بعد عامين من نشوبها ، فإن « إيلومو إيلو » الذى يحتمل أنه كان من سلالة « دامق - إيلوشو » آخر ملوك أيسين قد أعلن استقلاله فى سومر وأصبح سيدا على البلاد الواقعة فى جنوب نيبور جميعها وأسس ما يعرف باسم مملكة بابل الثانية أو « دوله أرض البحر » ، ونتج عن ذلك تدمير وتخريب عدد من المدن السومرية - ومن بينها أور - فى الحروب الطويله الطاحنة حيث كانت مسرحا لعمليات الفريقين المتنازعين وقد حاول خلفاء سامسو إيلونا إعادة خضوع هذه البلاد لسلطانهم دون جدوى ، فظلت دوله أرض البحر قائمة تتبادل النصر والهزيمة مع بابل التى قنـــع ملوكها فى النهاية بتحصين بعض مدنهم والتفرغ للاعمال العمرانية والدينيه .

وبعد أن قضى الحيثيون على مملكة بابل الأولى وجـد الكاشيون الذين كانوا يستوطنون فى أقـــدم عصورهم منطقة لورستان (٢) الفرصة سانحة

---

(١) كان يدعى « ريم - سين » مثل آخر ملوك لارسا .

(٢) فى الجزء الأوسط من سلسلة جبال زاجروس .

لإخضاع بابل لسلطانهم وخاصة بعد انسحاب الحيثيين المفاجيء منها ، وأصبح ملوكهم يتربعون على عرشها بعد أن احتلوها - وفى حوالى سنة ١٥٠٠ ق . م (أى بعد نحو ٨٠ سنة من الغزوة الحيثية) استطاع ملكهم « أولام - بورياش » أن يهزم ملك أرض البحر « إيا جميل » فقضى على مملكة بابل الثانيـــة وأعاد خضوع بلاد سومر بأكمها لسطان بابل من جديد .

مملكة بابل الثالثة (الدولة الكاشية)

فى نفس الوقت الذى سقطت فيه أسرة بابل الأولى تقريبا أخـــذت جموع متتالية من رجال القبائل الجبلية الواقعة فى شرق نهر دجـــلة تهبط إلى السهول لمهاجمة بلاد بابل ، وقد استطاعت (بعد انسحاب الحيثيين) أن تكون دوله قوية عرفت باسم الدوله الكاشية (Kassites) أو دولة بابل الثالثة ومع أن حكمها يعـــد أطول احتلال شهدته أى دوله قديمة إذ استمر نحوا من ٤٣٠ سنة (١٥٩٥ - ١١٦٢ ق . م) إلا أن معلوماتنا عنه قليلة نظرا لضآله الوثائق التاريخية عنه .

ويتميز عصر هذه الدوله بحدوث الكثير من الغزوات والقلاقل فى منطقة الشرق الأدنى القديم ، وقد كثرث السلطات المتنازعة على السيادة الدولية فى أثنائه وكانت بعض القوى الجديدة تظهر ثم لا تلبث أن تختفى لتحل محلها قوى أخرى - وهكذا نجد دوله البحر فى جنوب العراق والكاشيين فى الوسط والأشوريين فى الشمال والشمال الشرقى ، وبينما كان الأشوريون يجاهدون فى الانفصال عن الكاشيين نجدهم لايلبثون أن يخضعوا للميتانيين - ومن

جهة أخرى كان الميثانيون ينافسون الحيثيين الذين استطاعوا القضاء على دوله بابل الاولى والسيطرة على شمال العراق وسوريا واتسعت امبراطوريتهم تدريجيا حتى اصطدموا بالمصريين فى عهد الدوله الحديثة التى كانت حينئذ تسيطر على أكثر مناطق العالم القديم المعروفة ، أما عيلام فإنها لم تتمكن من أن تعيد قوتها مباشرة بعد أن قضى عليها حمورابى - وفى نهاية هذا العهد تعقدت العلاقات الدولية وتبادل الملوك الرسائل وقامت بينهم المعاهدات والمصاهرات الدولية .

وقد اختلف المؤرخون فى أصل الكاشيين ولم يصلوا إلى رأى فى هذا الصدد ، وكل ما نعرفه عنهم هو أنهم جاءوا من منطقة فى وسط جبال زاجروس كما أشرنا ، وما أن احتلوا بابل حتى تأثروا بالحضارة البابليـــة ووحدوا بين آلهتها وبين آلهتهم ، وقد حكم منهم فى بابل ٣٦ ملكا كان أولهم الملك جنداش (Gendach) .

وقد نجح الكاشيون فى القضاء على مملكة البحر فى جنوب العراق (١) وبذلك ثبت نفوذهم فى بابل - وتشير وثائق وخطابات تل العمارنة (٢) إلى وجود علاقات ود وصداقة بين امنحتب الثالث والملك الكاشى المعاصر له (٣) - ولم يستمر عهد الكاشيين طويلا بعد ذلك لأن الآشوريين فى الشمال أخذوا يحتكون بهم حينما أرادوا توسيع مملكتهم لأن دولة ميتانى

---

(١) انظر اعلاه ص ٣٧٠ - ٣٧١

(٢) عاصمة اخناتون انظر ص ١٧٩

(٣) الملك « كادشمان خاربى » على الارجح

ودولة الحيثيين كانتا تقفان لهم بالمرصاد من الغرب ومن الشمال ، ولذا لم يكن أمامهم سوى الاتجاه فى توسعهم إلى الجنوب فهجموا على دولة بابل الكاشية وتمكنوا من ضمها إليهم ، إلا أن هذا الانتصار الأشورى لم يستمر طويلا لأن العيلاميين كانوا قد استعادوا قوتهم وخاصة فى عهد ملكهم « شيلاق - أنشو شناق » الذى استطاع أن يخضع كثيرا من الاقطار المجاورة لسلطانه (١) وقد أخضع بابل وأنهى حكم الاسرة الكاشية ولكن ذلك لم يدم طويلا إذ انتقل الحكم فيها إلى أسرة قوية من أمراء أيسين تعرف باسم « الاسرة البابلية الرابعة » أو « أسرة أيسين الثانية » وبلغ من قوتها أنها كانت تتدخل فى شئون آشور الداخلية . وفى نفس الوقت أخذت عيلام فى التدهور فانتهز « نبوخذ نصر الاول » ملك بابل فرصة ضعفها وهاجمها بمساعدة أحد أمرائها وانتصر عليها إلا أن هذا الانتصار لم يكن هزيمة حقيقية لعيلام ولم يحقق نتائج بعيد المدى .

وما لبثت الأوضاع أن تغيرت بعد ذلك لظهور قوة آشور فكان على خلفاء نبوخذ نصر أن يكافحوا لا من أجل المحافظة على الأراضى الأجنبية التى امتلكوها فحسب بل ومن أجل حماية أنفسهم أيضا ، ومع كل فقد انتصر الملك الأشورى (آشوردان) على بابل وجعل على عرشها أحد الآراميين (٢) ، ولم تنعم بلاد النهرين عامة وبابل بصفة خاصة بالهدوء لاواستقرار بعد ذلك إذ عمت الفوضى والحروب فى أرجائها فترة طويلة ،

---

(١) Ghirshman , Iran , (Pelican A 239) , pp. 66 - 67

(٢) ثالث خلفاء نبوخذ نصر

ففى بابل حكم سبعة ملوك كونوا بها ثلاث أسرات أسس الأولى منها (أسرة بابل الخامسة) أحد الكاشيين من مواليد مملكة أرض البحر وأسس الثانية (السادسة البابلية) آرامى ، أما الثالثة (السابعة البابلية) فقد أسسها عيلامى - وما أن تولت العرش أسرتها الثامنة إلا وانحدرت إلى الهاوية وجرد الآراميون عاصمتها من كل نفوذ خارج حدودها حتى إنها لم تتمكن من إقامة الاحتفالات الدينية التى كانت تنتقل فيها تماثيل الآلهة بين العاصمة وأمهات المدن البابلية فى بداية كل عام وأصبح ملوكها مجرد أسماء فى قائمة ، ومن المحتمل أن بعض القبائل الآرامية استقرت بين حوض نهر دجلة الأدنى وحدود عيلام وكان من بين هؤلاء الكلدانيون الذين تمكنوا من الإغارة على سومر ثم قدر لهم أن يبعثوا النهضة إلى بابل من جديد بعد نحو ٣٠٠ سنة ويمكن اعتبار سقوط الأسرة الكاشية الحاكمة فى بابل نقطة هامة فى تاريخ بلاد النهرين ولكن أهميتها لاتقاس بالنسبة لما جرى من أحداث فى الشرق الأدنى خلال القرن الثانى عشر ق . م ، فقد اختفت مملكة الحيثيين فى آسيا الصغرى وتضعضعت قوة مصر وأصبحت فريسة الانقسامات الداخلية واستقر الفلسطينيون فى كنعان بينما كان موسى يقود شعبه إلى الأرض الموعودة والرحل الآراميون يهددون الأمراء السوريين وملوك آشور وفى الغرب البعيد كان اليونان الدوريون يغيرون على شبه الجزيرة الهلينية ، وهكذا تحرك الهندوأوربيين ثانية إلى غربى آسيا حيث نشروا استعمال الحديد وبدأوا صفحة جديدة فى تاريخ الإنسانية وأحدثوا سلسلة من الحركات الجنسية والسياسية كان لها أثرها السريع فى تغيير معالم الشرق .

٧ ـ الأشوريون

كان الأشوريون من الساميين الذين سكنوا فى شمال بلاد النهرين منذ الألف الثالث ق.م. ، وكانت المدينة « آشور » التى أعطت اسمها لهم (١) تقع فى بقعة استراتيجية هامة وتتحكم فى الطريق بين سومر وأكد من جهة وبين كردستان وأرض الجزيرة العليا من جهة أخرى فكانت دائما مطمعا للملوك الأقوياء الذين ظهروا فى الجنوب أمثال سرجون ونارام سن وملوك أور ـ ومع أن الأمراء الأشوريين جاهدوا طويلا فى الاستقلال بمدنهم عن حكم الدول التى كانت تخضعهم سواء من الجنوب أو من الغرب إلا أنهم لم ينجحوا فى تأسيس دولة إلا فى عصر متأخر نسبيا ، بل وليس لدينا أى دليل على أن هذه الدولة تمكنت من الاستقلال قبل الألف الثانى ق م ثم قدر لهذه الدولة أن تصل إلى مركز الصدارة وأن تلعب دورا خطيرا فى السياسة الدولية فى ذلك الحين .

ويقسم بعض المؤرخين تاريخ الأشوريين إلى فترتين :

(١) الفترة الأولى من ٢١٠٠ إلى ٩٠٠ ق م تقريبا ، وفيها كانوا يناضلون فى سبيل النهوض سياسيا وعسكريا .

---

(١) كان إسم « آشور » يطلق فى النصوص القديمة على كل من المدينة والهها والدولة نفسها
أنظر G. Roux, op. cit., 171 n.

(٢) الفترة الثانية وتمتد بعد الفترة الأولى إلى ٦٣٣ ق.م. تقريبا وهى التى تمكنوا فيها من تكوين إمبراطوريه .

غير أن غالبية المؤرخين الآن تميل إلى تقسيم التاريخ الأشورى إلى ثلاثة مراحل هى :

(١) مرحلة التكوين أو « العهد الأشورى القديم » ويبدأ من فجر التاريخ الأشورى إلى نهاية حكم أسرة بابل الأولى .

(٢) عصر المملكة الأشورية أو « العهد الأشورى الوسيط » ويبدأ من نهاية مملكة بابل الأولى وينتهى فى بداية القرن التاسع ق م.

(٣) عصر الامبراطورية أو « العهد الأشورى الحديث » ويمكن أن نقسمه بدوره إلى قسمين : (أ) الامبراطورية الأولى من ٩١١ إلى ٧٤٥ ق م. تقريبا ، (ب) الامبراطورية الأشورية الثانية من ٧٤٥ إلى ٦١٢ ق.م. تقريبا .

١ — العهد الاشورى القديم

عثر فى خورسباد على قائمة بأسماء ملوك آشور يمكن أن نعدها مناظرة لقائمة الملوك السومرية (١) ، وهى تعطينا أسماء ١٧ ملكا تذكر أنهم كانوا يعيشون فى الخيام مما يدعو إلى الاعتقاد بأن هؤلاء كانوا يمثلون ملوك فجر التاريخ الاشورى - ومع أنها تورد السلالات التى تضمنت

---

(١) أنظر أعلاه ص٣٤٩

أسماء هؤلاء الملوك متتابعة إلا أن من المرجح أن بعضا منها على الأقل كانت تعاصر بعضا آخر ، ومن الملاحظ أن عددا من الاسماء القديمة في هذه القائمة مثل « توديا » ، « أوشبيا » ، « سولولى » ، « كيكيا » لا تدل على أصل سامى أو سومرى بل هى أسماء هندو أوربية ربما كانت حورية (١) أو سوبارية (٢) .

وقد خضع الأشوريون لحكم ملوك أسرة أور الثالثة (٣) ، وبعد سقوط الامبراطورية السومرية أصبحت - آشور - مثل كثير من المدن الاخرى مستقله وبدأ « بوزور - آشور الأول » الذى حكم حوالى سنة ٢٠٠٠ ق م. سلسلة جديدة من الملوك الذين يحملون أسماء أكدية بحتة - وقد ترك لنا اثنان من هؤلاء (« إيلوشوما » ، « إيروشوم الاول ») نصوصا تدل على بناء معابد الآلهة آشور وأداد وعشتار فى المدينة - كما أن من المعروف أن « إيلوشلوما » توغل فى جنوب بلاد النهرين أثناء حكم « شمشى - داجان » ملك أيسين (١٩٥٣ - ١٩٣٥ ق م.)

ومن المحتمل أنه وسع فى مملكته حتى شملت نينوى على بعد ٦٠ ميلا شمال آشور ولكن المؤسسين الحقيقيين لقوة آشور كانوا من الساميين

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٩١

(٢) السوباريون قوم سكنوا فى شمال شرق بلاد النهرين فى أقدم العصور ثم اختلط بهم الساميون الذين أصبحوا أغلبية وكونوا الشعب الأشورى .

(٣) أنظر أعلاه ص ٣٦١

الغربيين الذين تدفقوا على شمال وجنوب بلاد النهرين فى القرون الأولى من الألف الثانى ق.م. حيث بدأ أحد زعماء الأموريين فى الاستقرار فى المنطقة ما بين نهرى الخابور والدجلة وحكمها خلفاؤه كأتباع للأشوريين ثم تمكن أحدهم (١) من الاستيلاء على « آشور » واعتلاء العرش ، وفى نفس الوقت تقريبا تمكن أمورى آخر من أن يصبح ملكا فى مارى - ومنذ ذلك الحين ارتبط مصير المملكتين الشماليتين العظيمتين كل منهما بالأخرى ، فقد بدأت بينهما علاقات حسن الجوار أولا ولكنها سرعان ما انفصمت وتمكن الأشوريون من وضع يدهم على مارى بعد أن اغتيل ملكها « ياهدون - ليم » .

وكان الملك « شمشى أدد » الذى استولى على مارى فى بدء حياته خارجا على القانون ، فبعد أن أصبح أخوه خليفة لوالده على عرش آشور فر إلى الجنوب وجمع قوة من المرتزقة أستولى بها على مدينة إيكالاتوم فى وسط الدجلة (لم يمكن التعرف عليها بعد) التى كانت خاضعة لمملكة آشنونا ثم تقدم إلى آشور ونجح فى اغتصاب العرش من أخيه وبعدئذ توسع غربا حتى وصل إلى ساحل البحر المتوسط وعين أحد ولديه (يسمخ - أدد) حاكما فى مارى وعين الابن الآخر (إشمى - داجان) حاكما فى إيكالاتوم وهكذا خضع حوضى دجلة والفرات لسلطان الأشوريين ، ولكن لم يدم ذلك طويلا فقد دأبت القبائل الرعوية التى يحكمها زعماؤها

---

(١) الملك « إيلا - كابكابو »

على إحداث القلاقل وتهديد الممتلكات الأشورية وخاصة بالنسبة لمملكة ماري كما كانت مملكة أشنونا تحيك الدسائس لمملكة إيكالاتوم واستطاعت أن تهدد مملكة ماري (١) وأخيرا تمكنت مملكة بابل في السنة الثلاثين من حكم ملكها حامورابي من أن تستولي على ماري وتدمرها .

٢ — العهد الأشوري الوسيط :

ظلت آشور خاضعة لسلطان بابل إلى أن سقطت هذه الأخيرة على يد الحيثيين وبعد أن تراجعوا عنها احتلها الكاشيون — أما آشور فقد ظهر فيها أمراء أقوياء كافحوا طويلا في جبهات مختلفة فقد كان الآراميون في الغرب والحوريون (الذين كونوا المملكة الميتانيـــة) في وسط بلاد النهرين (٢) والحيثيون في الفرات الأعلى والخابور والكاشيون في الجنوب — وقد خرج هؤلاء الأمراء من الأزمات والصعاب التي تعرضوا لها ما يقرب من خمسة قرون وتمكنوا من تأسيس دولة قوية ساعدها الحظ في عهد ملكها « آشور أوبلط » بحدوث انقسام في البيت المالك الميتاني إلى فريقـــين إذ أن أحد الفريقـــين المتنازعين استعان بآشور رغم أنها كانت لاتزال خاضعة لسلطان الميتانيين ، وكنتيجة المؤامرات والدسائس بين الفريقين قتل الملك توشراتا المعارض للفريق الموالي للأشوريين وفر ولده إلى بابل ولكن ملكها « بورنابورياش » تمسكا بمبدأ الحياد رفض منحه حق اللجوء

---

(١) أنظر أعلاه ص ٣٦٦

(٢) أنظر أعلاه ص ٢٩١ وما بعدها

السياسى فاضطر إلى الذهاب إلى البلاط الحيثى بينما اقتسمت آشور ودولة صغيرة فى حوض دجلة الأعلى تدعى « آلشى » بلاد ميتانى ، وهكذا لم يتمكن « آشورأوبلط » (دون أن يطلق سهما واحدا) من أن يحرر بلاده من سيطرة الميتانيين فحسب بل وتمكن من أن يتسبب فى القضاء على الدولة التى كان آباؤه يدفعون لها الجزية ـ وقد اتبع سياسة حكيمة مع جيرانه فتصاهر مع ملك الكاشيين (الذى تزوج بابنته) أملا فى أن يصبح حفيده يوما ملكا على بابل .

وتلا آشورأوبلط ثلاثة ملوك قاموا بجهود مشكورة فى تأمين حدود بلادهم ، بل وتمكن آخرهم « أدد نرارى » من أن يضم مساحات أخرى من أرض الجزيرة إلى مملكته ـ على أن أعظم ملوك هذه الأسرة كان دون شك « شلمنصر الأول » رابع خلفاء آشور أوبلط إذ استولى على منطقة أرمينيا الجبلية (أورارتو) وبلاد الجوتيين وهزم مملكة « هانى جلبات »(١) وجنودها المرتزقة من الحيثيين وغيرهم .

وعندما اعتلى « توكلتى ننورتا » خليفة « شلمنصر الاول » على عرش آشور تمكن من الاستيلاء على بابل بعد أن هزم ملكها الكاشى « كاشتلياش » ولكن مع هذا حدثت فتنة فى آشور قتل فيها الملك وسادت بعد عهده الاضطرابات وتدهورت أحوال الدولة ـ وتوالى على حكم بابل ثلاثة امراء ضعاف من الموالين لآشور وبعد ذلك تمكن العيلاميون الذين عادوا إلى القوة

---

(١) كان يدعى «ورتى مردوخ»

بعد ضعف استمر نحو أربعة قرون من الاستيلاء على بابل ـ ولم يدم حكم العيلاميين لبابل طويلا لأن قواهم قد انهكت فى فتح المساحات الواسعة من إيران الغربية من جهة ولأنهم شعروا بخطر الميديين والفرس من جهة أخرى ، وسرعان ما أصبح أمراء الأسرة البابلية الرابعة فى أيسين على درجة من القوة بحيث أمكنهم التدخل فى شئون آشور وانتهز « نبوخذ نصر الأول » ملك بابل فرصة الانهيار الذى حدث فى مملكة العيلاميين بعد عهد ملكها « شيلاق ـ أنشوشناق » وهاجمها ولكنه هزم فى أول حملة ثم انضم إليه أحد أمراء عيلام (١) فانتصر عليها انتصارا حاسما كما سبق أن اشرنا .

وقد تعرضت آشور لسلسلة من الأزمات بسبب التنازع على العرش وضياع بعض الممتلكات الشرقية من بلادهم ثم تجمعت حولها المتاعب من جميع الاتجاهات وكادت تقضى عليها لولا نشاط وكفاءة بعض الملوك من خلفاء « آشور ـ دان الأول » ـ وما أن اعتلى « تجلات بلاسر الأول » عرش آشور حتى قام بغزوات ناجحة فى الشمال الشرقى والشمال ووصل إلى البحر الأسود ثم اتجه غربا نحو سواحل آسيا الصغرى وفينيقية وبعد ذلك أخضع بابل فأصبح يحكم معظم أنحاء الشرق الأدنى من البحر الجنوبى إلى البحر الشمالى وسواحل البحر المتوسط .

وتوالى بعده على الحكم ملوك ضعاف تدهورت فى أيامهم أحوال

---

(١) أنظر أعلاه ص ٣٧٣

المملكة وأصبح الآراميون يهددون حدودها فى الغرب إلى أن قدر لها بعد ذلك أن تنهض من جديد .

٣ — العهد الاشورى الحديث

يقسم هذا العهد إلى دورى نهوض تخللتها فترة من الضعف وهذان الدوران هما :

ا — الامبراطورية الاشورية الاولى

حينما تسلم الحكم « أدد نيرارى الثانى » عمل على تقوية جيشه وبدأ فى إخضاع بعض الأقاليم المجاورة ثم تحالف مع مملكة بابل ونظم شئون الدولة ، ولما تبعه « توكلتى ننورتا الثانى » زاد من تأمين طرق مواصلاته التجارية والعسكرية مع أطراف مملكته وشيد بعض القلاع والحصون .

ويعد خلفه « آشور ناصربال الثانى » رغم شهرته بالقسوة من أعظم ملوك الأشوريين فقد وصلت فتوحاته إلى الجبـال الشرقية ، والشمالية وأدخل تحسينات كثيرة فى الجيش والإدارة حيث استخدم الخيالة على نطاق واسع وقسم بلاده إلى ولايات يحكم كل منها أحد الولاة وجدد بناء مدينة كالح (نمرود) وبنى فيها قصرا فخما زينه بألواح كبيرة من الرخام نقشت عليهـا مناظر تمثله فى حروبه وصيده وقدوم الأمراء الخاضعين له ومعهم الهدايا والجزية ، ومن آثاره كذلك مسلة ضخمة عثر عليها فى نمرود وهى تحمل نقوشاً تبين أعماله خلال السنوات الخمس الأولى من حكمه .

ولم يكتف ولده وخليفته « شلمنصر الثالث » بالإمبراطورية الواسعة التى خلفها له والده بل أضاف إليها مستعمرات جديدة وصلت إلى منابع

دجلة والفرات ، وقد قام بسلسلة من الحملات الحربية فى سوريا وفلسطين على أحلاف الآراميين واليهود (١) كما قام بحملات فى الأناضول وهضبة إيران الشمالية وهاجم بعض القبائل العربية .

وفى أواخر حكمه ثار عليه أحد أبنائه وأحدث بعض الاضطرابات التى أدت إلى فقدان هيبة الدولة فى الداخل والخارج ، ومع أن ولى عهده « شمشى أدد الخامس » تغلب على أخيه الثائر إلا أن تلك الاضطرابات كانت سببا فى فقدان آشور لبعض مستعمراتها البعيدة - وفى تلك الأثناء ظلت بابل على ولائها لآشور وتحسنت العلاقات بينهما بزواج ملك آشور من أميرة بابلية تدعى « شمورامات » حظت بشهرة كبيرة حتى عرفها اليونان باسم «سميراميس» ، وقد صارت وصية على ولدها « أدد نرارى الثالث » الذى اعتلى العرش وهو صغير السن بعد وفاة والده .

وقد توالى على حكم آشور ملوك ضعاف بعد ذلك حدث فى عهد أحدهم « آشور دان الثالث » كسوف للشمس (٢) وتفشى فى زمنه وباء الطاعون ، واستمر تدهور الدولة حتى حدثت فى العاصمة نمرود ثورة داخلية تولى الملك على أثرها « تجلات بلاسر الثالث » الذى أعاد إلى المملكة مجدها وبدأ عهد الامبراطورية الثانية .

(١) أنظر أعلاه ص ٢٨١

(٢) بالحساب الفلكى أمكن اتخاذ هذه الظاهرة أساسا لضبط التاريخ الاشورى — أنظر ص ٧

ب — الامبراطورية الاشورية الثانية

بعد أن توفى « أدد نرارى الثالث » تتابع على العرش أولاد الاربعة الذين كان أصغرهم « تجلات بلاسر الثالث » وقد جاء هذا على العرش بعد مقتل أخيه (ثالث أبناء أدد نرارى) فى الثورة الداخلية التى نشبت فى نمرود وقد أثبت هذا أنه كان جديراً بالحكم إذ عرف مواطن الضعف فى الدولة وعمل على علاجها ثم أخذ يعد العدة لإعادة مجد آشور واستطاع أن يبلغ بإمبراطوريته إلى حدود لم تصلها من قبل حيث أخضع الدولة البابلية وضمها إلى إمبراطوريته واعلن نفسه ملكا عليها ، كذلك تمكن هذا الملك من اجتياح معظم المدن السورية وحاصر دمشق إلى أن أسقطها وقتل ملكها (١) - كما تمكن ايضا من أن يؤمن حدوده الشمالية ضد غزوات بعض القبائل الأرمنية ، وهكذا قضى « تاجلات بلاسر الثالث » معظم حكمه فى الحروب ولكنه ترك امبراطورية واسعة .

وفى عهد ولده « شلمنصر الخامس » قام ملك اسرائيل (هوشع) بتحريض من المصريين بمحاولة التخلص من السيطرة الآشورية فأسرع شلمنصر وحاصر السامرة لمدة ثلاثة أعوام ولكنها لم تسقط إلا فى يد خلفه « سرجون الثانى » لأنه اضطر إلى العودة إلى آشور لحدوث بعض المؤامرات فيها ، وقد انتهت هذه بقتله بعد حكم دام أقل من خمس سنوات وفى بداية عهد خليفته « سرجون الثانى » قامت الثورات فى أنحاء

---

(١) أنظر أعلاه ص

كثيرة من الامبراطورية رغبة فى الانفصال عن سيطرتها ، فاضطر أن يقوم بحملات متتالية تمكن على أثرها من أن يعيد الوحدة إليها وأسرعت بعض المناطق المجاورة لاكتساب عطفه بالهدايا مثل قبرص ، ولما شعر بأن مصر تبذل جهدها فى إقامه بعض الأحلاف مع أمراء سوريا وفلسطين لكى تحمى نفسها من غزوات آشور المتوقعة قضى على تلك المحاولات حيث أخضع معظم الإمارات السورية والفينيقية وفتح السامرة وسبى أحسن رجالها ونقلهم إلى ميديا (١) .

ولما مات سرجون تبعه ولده سناحريب الذى واجه فى بداية حكمه خطرين أحدهما من بابل التى كانت تحاول الاستقلال ثانية والثانى من ولايات سوريا وفلسطين — وكان ملك بابل وملك مصر يمنيان ولايات سوريا وفلسطين بالمساعدة ، وكانت بابل بوجه خاص تحرص على تشجيع هذه الولايات حتى تشغله عنها وقد فطن سناحريب لذلك فتوجه إليها ودك حصونها وخربها وعين ابنه « أسرحدون » واليا على جنوب العراق ثم قضى على دويلات أهل البحر فى أقصى الجنوب لكثرة ثوراتهم مستعينا فى ذلك بسفن صنعها له صناع مهرة من الفينيقيين واليونانيين — وحينما علم بحدوث تحالف بين أمراء سوريا وفلسطين بمساعدة مصر توجه إلى منطقة الخطر بجيش كبير وغزا المدن الساحلية فى فلسطين ثم حاصر بيت المقدس وأخضعها ولكن وباء خطيراً انتشر بين قواته فاضطر إلى العودة إلى بلاده بفلول جيشه (٢)

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٣٠ ، ٢٨٨

(٢) أنظر ص ٢٣٠ .

وخاصه بعد وصول الأنباء بحدوث اضطرابات فيها ومات بأيدى أبنائه الذين طمعوا فى العرش .

وبعد مقتل سناحريب تنافس أبناؤه على العرش . ثم فاز به ولده « أسرحدون » الذى استطاع أن يقضى على الفتنة سريعاً ثم وجه همه للانتقام من مصر لتدخلها فى شؤون مستعمراته فى سوريا وفلسطين — وقد استعد ملكها النوبى طهرقه لملاقاته كما أرسل بعض الامدادات إلى حلفائه فى سوريا وفلسطين ، فلما زحف الملك الآشورى نحو مصر استطاع أن يصل إلى شرق الدلتا ولكن المصريين استماتوا فى الدفاع حتى تمكنوا من هزيمة الآشوريين وردوهم عن بلادهم ، ففقدت الجيوش الآشورية هيبتها واضطر الملك إلى الاستعداد لإعادة الكرة حرصا على سمعة الامبراطورية — أما طهرقة فقد اطمأن إلى أن الآشوريين لن يعودوا إلى مصر ولم يستعد للاقاتهم إلا أن الملك الآشورى عاد سريعا وظهر فجأة فى سوريا وعاقب ملك صور على انضمامه لمصر ثم أسرع مخترقا الصحراء ، ولم يكن طهرقة متأهبا للقائه فوصل الجيش الآشورى إلى الوجه البحرى واضطر طهرقة إلى التحصن بمنف ولكن الآشوريين أسرعوا وراءه وهزموا الجيش المصرى وفتحوا منف ففر طهرقة إلى طيبة فى الجنوب واستعمر الآشوريون الدلتا ، ثم عاد أسرحدون إلى بلاده حيث أصيب بمرض مات على أثره .

وحدث اختلاف على العرش من جديد وانتهى هذا الاختلاف بتعيين آشور بانيبال ملكا بينما عين أخاه الأكبر ملكا على بابل ولم يكد آشور بانيبال يجلس على العرش حتى وصلت أنباء ثورة المصريين ضد آشور وذلك لأن بعض الأمراء اتفقوا مع طهرقة على أن يعود هذا الأخير

إلى الدلتا ويقتسم السلطة معهم (١) ، فجرد آشور بانيبال حملة كبيرة سارت إلى مصر ، ولم تكتف هذه الحملة باحتلال الدلتا بل سارت إلى طيبة وخربتها وعاد طهرقة إلى عاصمته فى النوبة العليا (نباتا) وبقى بها إلى أن مات - ومع ذلك لم يبق الأشوريون بمصر طويلا بل عادوا إلى بلادهم واكتفوا بأخذ الجزية ، فلما تولى عرش نباتا « تانويت أمانى » عاد إلى احتلال مصر من جديد ولم يجد آشور بانيبال بدأ من أن يرسل جيشا إلى مصر فاضطر تانويت أمانى إلى الفرار إلى عاصمته نباتا وخرب الجيش الأشورى طيبة المرة الثانية - وقد استمر التعاون بين آشور بانيبال وأخيه ملك بابل نحو عشرين عاما ولكن هذا الأخ ثار بعد ذلك فجرد آشور بانيبال حملة تأديبية ضده تمكنت من القضاء عليه وفتحت بابل عنوة وبعد ئذ تقدم الأشوريون جنوبا وأخضعوا القبائل العربية والآرامية التى ساعدت بابل فى ثورتها وهاجموا العيلاميين وفتحوا عاصمتهم سوسه كذلك .

وبعد وفاة آشور بانيبال حدثت منازعات حول العرش تمكن بعدها ولده « آشور - إتل - إيلانى » من الفوز به ولكنه كان ضعيفا فانفصلت عن المملكة بعض ممتلكاتها مثل مصر وكثير من المدن الساحلية فى فلسطين وسوريا كما انفصلت عنها مدن أرمينية - وشن أحد ملوك الميديين هجوما على آشور فصده الجيش الأشورى وهزم جيشه وقتله ، وفى بابل تكونت اسرة جديدة تعرف باسم « الأسرة البابلية الأخيرة » أو « المملكة

---

(١) انظر اعلاه ص٢٣٢ - ٢٣٣

الكلدانية » ، كما انتهز القائد الاشورى فرصة إقامة الملك فى نمرود فأعلن تمرده عليه فى نينوى وعزله ولكن أخا الملك حارب هذا القائد وقضى عليه ثم استأثر بالسلطة .

وقد أثرت الحرب الداخليـــة على سمعة المملـكة وهيبتها فانفصلت أماكن أخرى كثيرة عنها واستطاع « كى اخسار Cyaxares » ملك الميديين أن يستولى على شمال إيران وشمال بلاد النهرين ثم توغل إلى سهول آشور حيث قامت بينه وبين الجيش الآشورى حروب طاحنة ، وبعد أن اتفق مع ملك بابل هاجما العاصمة فسقطت فى أيديهما بعـــد حروب عنيفـة واقتسما مملـكة آشور فاستولى الميديون على قسمها الشمالى الشرقى واستولى البابليون على جنوبها وأرسل ملك بابل ولده « نبوخـــذ نصر » ليتبع فلول الجيش الآشورى التى كانت قـــد هربت إلى حران » ـ وانتصر « نبوخذ نصر » وقضى على بقية الجيش الآشورى ثم واصل سيره غربا واحتل المقاطعات التى كانت تخضع للآشوريين من قبل ، وقد تقابل مع الملك المصرى نخاوالذى كان قـد تقـدم إلى سوريا ودرات بين الاثنين معركة حاسمة بالقرب قرقميش انتصر فيها نبوخذ نصر وتراجـع الجيش المصرى إلى بلاده (١) .

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٣٩

٨ ـ العهد البابلى الأخير « المملكة الكلدانية »

أشرنا فيما سبق إلى القلاقل التى تعرضت لها الدولة الأشورية قبل انهيارها ، والواقع أن أكثر هذه القلاقل خطورة هى التى قامت فى الجنوب حيث انتهز البابليون فرصة تدهور آشور وبدأوا كفاحهم من أجل الاستقلال وقد بدأ الحاكم البابلى الذى عينه (آشور بانيبال) بعد أخيه الثورة بمجرد تعيينه ، وبعد وفاته أصبح حاكم بلاد البحر (نبوبولصر)[١] زعيما للثورة ولم تتمكن القوات الأشورية المرابطة فى الجنوب (فى نيبور) من هزيمته فأعلن نفسه ملكا على بابل مؤسسا الأسرة الحادية عشر البابليـــة وهى التى تعرف باسم « الأسرة البابليـــة الأخيرة » أو « المملكة الكلدانية » كما أشـــرنا .

وقد ظلت الحـــروب قائمة بين بابل وآشور نحو ١١ عاما استطاع بعدها « نبوبولصر » أن يستولى على نيبور وأن يحرر كل بلاد سومر وأكد ثم استمر فى فتوحاته شمالا على طول الفرات حتى وصل إلى منطقـــة حران ومنها تقدم على طول دجلة إلى كركوك وآشور - وحاصر آشور ولكنه لم ينجح فى الاستيلاء عليها ، وفى تلك الأثناء طلب الأشوريين المعونة من مصر التى كانت خاضعة لها فيما سبق ولكن هذه المعونة جاءت متأخرة لأن الميديين كانوا هم أيضا قد بدأوا غزو الأراضى الأشورية

---

(١) كان من قبيلة الكلدان الآرامية — أنظر
Roux, op. cit., p. 340

واستولوا على أرانجا وآشور ، وعند هذه الأخيرة تقابل « كى أخسار Gyaxares » ملك الميديين مع « نبوبولصر » ملك بابل وارتبطا برباط الصداقة والسلام وأيدا ذلك فيما بعد بزواج (نبوخذ نصر) بن (نبوبولصر) من (أميتس) إبنة (كى أخسار)، ومنذ ذلك الوقت ظل الاثنان يحاربان معا وتمكنا فى النهاية من إسقاط نينوى كما سبق أن أشرنا - وبعد مقتل آخر ملوك آشور اعتلى العرش أحد قواده (وكان يدعى آشورأوبالط وجمع ما بقى من فلول الجيش الأشورى والمدد المصرى الضئيل الذى أرسل إلى آشور واعتصم بهم فى منطقة حران ، فتقدم البابليون والميديون نحوه وسقطت مدينة حران فى أيديهم - وبعد محاولات يائسة لمدة عام تقريبا اختفى (آشور أو بالط) بعد أن اعتلى العرش الأشورى نحو ثلاثة أعوام ، ويبدو أن الميديين لم يهتموا بامتلاك آشور فقنعوا بنصيبهم من الغنائم ثم حولوا أطماعهم إلى أرمينيا وآسيا الصغرى - أما البابليون فقد امتلكوا آشور ولكنهم لم يحتلوها ولم يحاولوا إصلاح ما أتلفوه فيها حيث كرسوا جهودهم لإعادة إحياء المجد الدينى والثقافى لجنوب بلاد النهرين .

وحينما وقعت سوريا وفلسطين فى أيدى المصريين كمحاولة غير ناجحة من (نخاو) (١) لمساعدة حلفائه الأشوريين تقدم البابليون للقائه بقيادة « نبوخذ نصر » لأنهم كانوا يحرصون على إبقاء طريقهم إلى البحر المتوسط مفتوحا ، وانتصر البابليون وفتحوا سوريا وفلسطين وتقدموا نحو مصر ولكن موت « نبوبولصر » أثناء ذلك جعل ولده (نبوخذ نصر) يعود مسرعا إلى بابل .

---

(١) انظر اعلاه ص٢٣٨ - ٢٣٩

وقد تولى « نبوخذ نصر » هذا العرش بعد والده وكانت البلاد قد بدأت في الازدهار واستقرت أمورها السياسية فوجه جهوده نحو تشييد العمائر وترميم المعابد وإن كان قد أرسل جيشاً لتأديب مملكة يهودا حيث احتل بيت المقدس إلا أن اليهود ثاروا بعد مضى عشر سنوات فسار إليهم ودخل بيت المقدس وخربها وفتك بأهلها .

بعد أن حكم « نبوخذ نصر » نحو ٤٣ سنة خلفه على عرش بابل ملوك ضعاف فلم يكد ولده يحكم عامين حتى ثار عليه الكهنة لسماحه لليهود بممارسة طقوسهم الدينية بحرية وعلى نطاق واسع وقتلوه ونصبوا فى مكانه أحد قواد والده وهو صهره فى نفس الوقت ، ولم يقم هذا الأخير بما يستحق الذكر ثم مات بعد أن حكم ٤ سنوات وتبعه ابنه الصغير الذى لم يحكم سوى أسابيع قليلة ثم تدخل الكهنة ثانية وأبعدوه عن الحكم وعينوا فى مكانه أحد أبناء طائفتهم ويدعى (نبونهيد) ولكن هذا لم يستطيع أن ينهض بأعباء الحكم ولم يقم إلا ببعض النشاط العمرانى وقد تحالف مع الملك الفارسى كورش ضد الميديين ثم غزاهم وغزا شمال بلاد العرب وانشغلت فارس بحروبها فى جهات أخرى - وفى عهد خلفه ثار حاكم سوسه وانضم إلى الفرس وبعدئذ هاجم ملك الفرس « كورش » بابل ودخلها وأخذ ملكها (نبو نهيد) أسيرا ، وهكذا زالت آخر سلالة بابلية وانتهى رمز الحضارة البابلية رغم بعض محاولات الفرس لإحياء مجد مدينة بابل ومن بعدهم حاول الاسكندر أن يجعلها مركز إمبراطوريته ولكنها سرعان ما أهملت بعد وفاته وتحولت إلى أطلال .

الفصل الثامن

إيران

تتلو العراق شرقا منطقة إيران وتعد النهاية الشرقية لإقليم الشرق الأدنى وكانت ذات أثر كبير فى تاريخه وحضارته لأنها تقع فى طريق المواصلات البرية بين الشرق الأقصى وإقليم البحر المتوسط ، وكثيرا ما كانت تستقبل هجرات بين حين وآخر من وسط آسيا ، ويعد سكان سهولها من أقدم الشعوب التى توصلت إلى الزراعة والاستقرار ـ وقد تمكن حكامها فى بعض عصورها التاريخية من أن يبسطوا نفوذهم على ما جاورهم وأسسوا إمبراطورية واسعة ما أن أفل نجمها حتى أخذت تصبح مجالا لتنازع القوى الكبيرة لما لها من موقع استراتيجى ممتاز ولما لثرواتها الطبيعية من أهمية اقتصادية .

وهى فى شكلها العام تمثل هضبة مثلثة تنحصر بين منخفضين : الخليج العربى فى الجنوب وبحر قزوين وسهل التركمان فى الشمال .. وتغلب عليها الطبيعة الجبلية ولكن سلاسل جبالها تمتد حول منخفض فى الوسط يمثل منطقة صحراوية كانت فى الأصل بحرا داخليا ثم جفت مياهه ، وهذه السلاسل هى : جبال زاجروس فى الغرب وهى تسير فى سلاسل متوازية من الشمال الغربى إلى الجنوب الغربى وتفصل فيما بينها عدداً من الوديان

وجبال البرز فى الشمال وهى التى تكاد تحف بالشاطىء الجنوبى لبحر قزوين وتمتد غربا بحيث تنتهى فى منطقة أذربيجان (وتعرف أيضا باسم الخليج الميدى) التى تتوسطها بحيرة أرميا الملحة وتكاد تكون أكثر مناطق إيران كثافة فى السكان يسهل الدخول إليها من الشمال الغربى والشمال والشمال الشرقى مما كان له أكبر الأثر فى تاريخها ، وفى الشرق توجد جبال خراسان وهى قليلة الارتفاع سهلة العبور وتعد المنفذ الثانى لدخول إيران ، وفى الجنوب توجد جبال مكران - أما الجزء الأوسط من إيران فهو صحراء من أجدب بقاع العالم تنقسم إلى قسمين : الشمالى منها عبارة عن مسطات طينية مالحة لا يعيش فيها كائن إلا حيث تقل نسبة الملوحة فى جهات نادرة . أما القسم الجنوبى فعبارة عن منطقة جافة تماما تنعدم فيها الحياة (أنظر خريطة رقم ٦) فالحياة فى إيران منذ عصورها السحيقة محتملة فى الوديان والسهول فقط سواء تلك التى تحف بالهضبة من الخارج أو التى توجد بداخلها .

ويمثل السهول التى تحف بالهضبة من الخارج : « أ » سهل خوزستان فى الجنوب الغربى (منطقة سوسة القديمة) وهو يعد امتداداً لسهول العراق وكان مقراً لمدنية قديمة مستقرة إلا أن أهله تأثروا فى تاريخهم بالقبائل البدوية وشبه البدوية التى سكنت الجبال والتلال المجاورة - وحينما اتسعت رقعة الإمبراطورية الإيرانية كان مركزها فى وسط هذا السهل (حول سوسة) « ب » السهل الشمالى الذى ينتهى عند الجبال المطلة على بحر قزوين .

أما السهول الداخلية فى الهضبة فلم تلعب إلا دورا ثانويا فى حضارة إيران وكانت الصعوبه الدائمة أمام أهلها تنحصر فى عدم توفر مياه الرى



خريطة رقم ٦

ومحاولتهم تدبيرها ، وقد عثر على ما يشير إلى أن القنوات الصناعية استخدمت بها من أقدم العصور إلى عهد الإخمينيين (١) - وتقع مدن إيران القديمة وعواصمها فى مواجهة الصحراء على طول الطريقين الرئيسين اللذين يحفان بسلسلتى الجبال العظيمتين (البرز فى الشمال ومكران فى الجنوب) . وكان لهذا أثره بالطبع حيث نجد أن أهم المواقع الأثرية مثل سيالك (قرب قاشان) ودمغان ومشهد وغيرها تقع فى هيئة قوس حول الصحراء الملحية سالفة الذكر .

وهكذا نجد أن الهضبة الإيرانية - من الوجهة الطبيعية - تعتبر مجزأة إلى مناطق منفصلة غير متجانسة لا يسهل توحيدها كما أن الدفاع عنها عسير - ومع أن هذه كانت حالها فى تاريخها الطويل ، ومع أن أهلها عاشوا مشتتين فى الواحات والسهول الزراعية الضيقة فقد استطاعوا خلق مدنية تركت طابعها فى كثير من المدنيات الأخرى (٢) .

---

(١) أنظر فيما بعد ص ١٤٨ ومابعدها

(٢) R. Ghirshman, "Iran" (Pelican 1945), P. 26

العصور قبل التاريخية

العصر الحجرى القديم :

أقدم ما عثر عليه من آثار فى إيران يدل على أن الإنسان كان يعيش فى الكهوف واستمر كذلك إلى العصر الحجرى الحديث ، ومن المواقع التى وجدت فيها آثار من العصر الحجرى القديم كهف تنجى بابدا فى جبال بختيارى التى تحد الهضبة [1] من الغرب حيث عثر على فئوس حجرية تشبه نظائرها فى جهات العالم الأخرى .

العصر الحجرى المتوسط :

لم يعثر على آثار تمثله فى إيران حتى الآن وما زالت البحوث الأثرية فيها غير كافية بصفة عامة .

العصر الحجرى الحديث :

حينما اشتد الجفاف فى أقاليم الشرق الأدنى أخذ الإنسان يهجر المناطق التى عاش فيها إلى وديان الأنهار وبالقرب من المجارى المائية الدائمة كما سبق أن أشرنا [2] ، ولم يشذ أهل إيران عن غيرهم من سكان بقية أقاليم الشرق الأدنى فاتجهوا إلى السهول حيث أخذوا يتحولون إلى حياة الاستقرار فيها ـ وأقدم المحلات التى أمكن التعرف عليها فى السهول توجد فى سيالك (قرب قاشان) جنوب طهران التى يميز

---

(١) Ghirshman, op. cit, 27 f

(٢) انظر اعلاه ص ٢٤، ٢٥

فيها بين طبقات حضارية ثلاث تعرف بين الأثريين باسم سيالك ١ ، سيالك ٢ ، سيالك ٣ على الترتيب - ولا ينتمى منها إلى العصر الحجرى الحديث إلا سيالك ١ .

سيالك ١ :

تنتمى هذه الحضارة إلى نهاية العصر الحجرى الحديث ، وفيها لم يعرف الإنسان بناء المنازل بل كان يحتمى - فى أول الأمر - فى دروة من المواد الخفيفة ثم عرف - فى نهاية المرحلة - كيف يقيم جدرانا من الطين يأوى اليها ، ومع أنه استمر صيادا إلا أنه أخذ يستأنس بعض الحيوانات مثل الماشية والاغنام (التى اكتشفت عظامها مع مخلفاته) وبدأ مرحلة الزراعة وصنع الفخار وهو إما أسود أو أحمر وكانت أوانيه مزخرفة بخطوط أفقية ورأسية متقاطعة يحتمل أنها كانت محاكاة للسلال ، وكانت كل آلاته من الحجر ، وقد عثر منها على سكاكين ومحتات وفئوس وغيرها أما أدوات الزينة فكانت كثيرة منها دلايات من المحار وأساور وخواتم من المحار أو الحجر ، ومن المرجح أن الإنسان فى ذلك العصر استعمل الوشم أو طلاء الوجه على الأقل حيث عثر على مصحن وصلاية دقيقين - وقد أخذت النزعة الفنية فى الظهور فبدأ الحفر والنقش فى العظام إذ نجد مقابض بعض الأدوات مزينة برسوم تمثل غزال أو أرانب ، وأجمل ما عثر عليه من هذا العصر قطعة يحتمل أنها كانت مقبض سكين وهى فى هيئة إنسان يلبس قلنسوة ويغطى عورته إزار مثبت بحزام وتعد من أقدم تماثيل الشرق الأدنى القديم .

وكان أهل هذه الحضارة يدفنون موتاهم تحت أرضية المنازل فى وضع

مقرفص ومن المرجح أنهم اعتقدوا فى البعث لوجود بعض الأثاث الجنزى والتقدمات مع الموتى .

ويدل وجود المحار – وهو من نوع يوجد على بعد ٦٠٠ ميل من موقع سيالك – على أن إنسان سيالك « أ » كان على صلات تجارية مع مناطق بعيدة جداً ، ويرجح بعض الأثريين أنه توصل إلى معرفة النحاس واستخدامه فى بعض الأغراض البسيطة مثل عمل الدبابيس ، فإن صح هذا فإن إيران تكون أول من استخدم النحاس فى العالم القديم ولا يمكن فى هذه الحالة أن تعتبر سيالك « أ » ضمن العصر الحجرى الحديث .

عصر بداية استخدام المعادن :

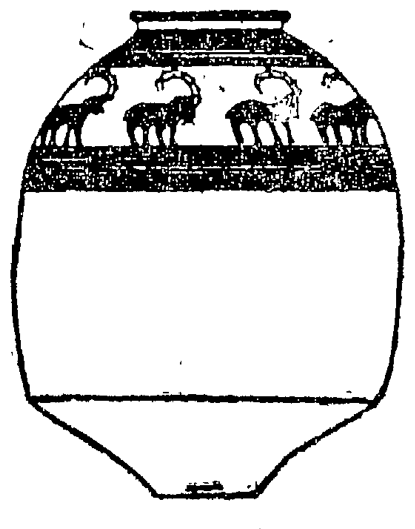
سيالك ٢ : هذه الحضارة تعاصر تقريبا حضارة البدارى فى مصر وحضارة العمق «ب» فى سوريا – وهى مرحلة متقدمة يبدو أن الأمور استقرت فيها مما أتاح الفرصة للنهوض ، فقد أخذ الإنسان يستخدم اللبن بدلا من الكتل الطينية التى كان يستعملها فى بناء مأواه ، ولم يكن هذا منتظما فى شكله تماما لأنه لم يصنع بقوالب بل كان يهيؤ باليدين مما جعله يتخذ شكلا بيضيا (أى أنه كان فى وسطه أكثر سمكا منه فى الطرفين) – وكانت المنازل متسعة وأصبحت تطلى باللون الأحمر وتزود بالأبواب أو بمنافذ تغطيها ستر ، وكان الموتى يدفنون فى أرضيتها كما كان الحال فى الحضارة السابقة – وتقدمت صناعة الأوانى الفخارية وزادت زخرفتها حيث زينت بمناظر حيوانات وطيور رسمت بلون أسود على أرضية

حمراء ، وكثر استخدام النحاس وإن كان مازال يطرق ولا يصب فى قوالب ولم يتعد استخدامه صناعة بعض لأوانى والدبابيس ـ كذلك كثرت أدوات الزينة واستخدمت فيها مواد جديدة مثل العقيق وغـــيره من الأحجار البراقة ، ومن الحيوانات التى استأنسها إنسان هذه الحضارة كلاب الصيد والخيل الصغيرة الحجم بالإضافة إلى الماشية والأغنام التى عرف استئناسها من العصر السابق .

سيالك ٣ : يظهر فى هذه الحضارة تطور معمارى جديد إذ أصبح شكل اللبن منتظما بعد أن صار يصيب فى قوالب وأصبحت القرى تخترقها ممرات طويلة ضيقة ومتعرجة تفصل بين الملاك المختلفين وكانت المنازل تزود بأبواب ونوافذ صغيرة ضيقة ، ولكن كان مما يساعد على زيادة إضاءتها أن جدرانها لم تكن مستقيمة بل كانت ذات مداخل ومخارج أو فجوات على أبعاد منتظمة وكانت تزينها من الخارج قطع من الأوانى الفخارية الكبيرة يرجح البعض أنها ثبتت فى الجدران لحمايتها من الرطوبة، كذلك كانت تطلى باللون الأحمر كما فى العصر السابق أو باللون الأبيض الذى أخذ يظهر فى بيوت هذا العصر ـ وقد ظل الموتى يدفنون تحت أرضية المنازل وفى الوضع المقرفص أيضاً ، وزادت كمية الأثاث الجنزى وكثرت التقدمات .

ومن أهم الاختراعات فى هذه العصر عجـــلة الفخار التى ساعدت على خلق كثير من الأشكال فى صناعة الأوانى كذلك أدخلت أنواع عديدة من الزخارف (انظر شكل٣٣) ـ ونتبين فى رسوم الفخار أنها مرت

بثلاثة مراحل : الأولى كانت الكائنات فيها ترسم على حقيقتها ، والثانية رسمت فيها الكائنات بشكل زخرفى مختصر ، أما الثالثة فقد عاد الميل فيها إلى فن الحقيقة من جديد وتميزت المناظر المختلفة فيها بالحيوية والحركة حيث يبدو أن الفنان كان يريد أن يعبر بها عن أفكار يرغب فى إبدائها للناظر أى انه كان فى الواقع يمهد للكتابة وهذه المرحلة ترجع إلى نفس

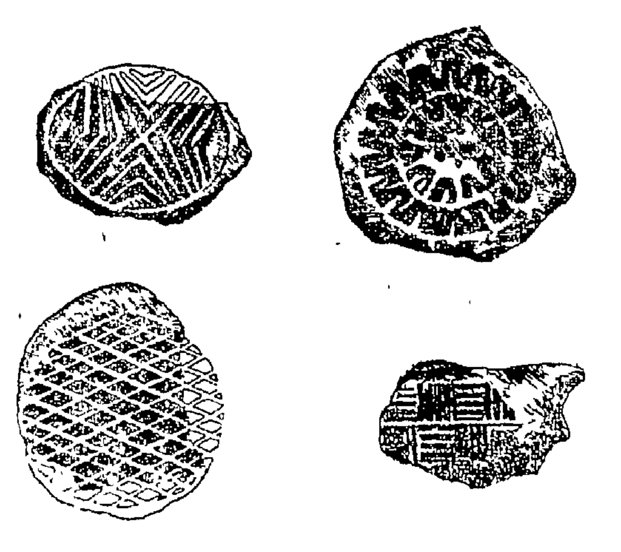


شكل ٣٣ آنية من سيالك ٣

الزمن الذى ظهرت فيه الكتابة فى العراق ، أى أنها عاصرت نشأة الكتابة هناك - ولم يقتصر التقدم الفنى على رسوم الفخار بل كان يتمثل كذلك فى أشكاله حيث عملت منه تماثيل صغيرة تمثل إلهة الأمومة وأنواع عديدة من الحيوانات ولعب الأطفال .

وقد تطورت صناعة المعادن فأصبح النحاس يصهر ويصب فى قوالب لعمل الأدات المختلفة ولو أن الآلات الحجرية ظلت مستعملة كذلك وتعددت أدوات الزينة وزاد استخدام الاحجار شبه الكريمة ، ومن المرجح

أن اتساع نطاق التجارة جعل الصناع يميزون صناعاتهم بعلامات مميزة فاستخدموا ختما من الحجر على شكل مخروط كان فى بداية الأمر ينقش بزخارف هندسية الشكل (شكل ٣٤) ثم وضعت بعد ذلك رموز أخرى من الكائنات الحيه والنباتات التى كانت تستوحى من رسوم الفخار .



شكل ٣٤ ـ أختام بها زخارف هندسية الشكل

وكان التقدم واضحاً فى كل مضمار أثناء هذه المرحلة الحضارية إذ ارتقت الحياة الاجتماعية حيث انتظمت الجماعات المختلفة فى مدن كبيرة فى مناطق السهول وخاصة فى سوسة فقد ظهرت أول حكومة مدنية فى عيلام ، أما المناطق الأخرى من الهضبة فإن قلة عدد السكان وتفرقهم فى أماكن متباعدة كان سبباً فى تأخر نمو هذه الجماعات وانتظامها فى مدن كبيرة .

ولم يعثر على ما يمثل هذه المراحل الحضارية الثلاثة سالفة الذكر مجتمعة فى أى من الأماكن الأثرية بالهضبة ، ففى جيان (قرب نهاوند)

وتل باكون وسوسة مثلا لم تستقر الحضـــارة فيها إلا من نهاية عصر سيالك ٢ وبعدها أخذت بعض المظاهر الحضارية ومن بينها الفخار الملون تنتشر فى كل أنحاء الهضبة وخارجها ، ثم أخذت صناعة الفخار والمعادن تخطو فى تقدمها خطوات موحدة تقريباً وإن وجدت مميزات فـــردية لـكل منطقة حيث أخذ كل مصنع يميل إلى أشكال معينة ويتأثر بمؤثرات خاصة ، وقد مهد ذلك إلى تطور الحضارة فى منطقة عيلام قبل دخولها فى عصرها التاريخى .

فترة التمهيد للعصر التاريخى فى عيلام

أشرنا إلى أن علامات انعدام الوحدة فى صناعة الفخار الملون أخذت تظهر فى النصف الثانى من الألف الرابع قبل الميلاد ثم اختفى هذا الفخار فجأة من سوسة وحل محله فخار أحمر يماثل أحد الأنواع التى ظهرت فى بلاد النهرين ، وربما يرجع ذلك إلى حدوث نهضة حضارية فى سوسة كانت متأثرة بحضارة تلك البلاد

ولم تـكن منطقة سوسة هى المنطقة الوحيـــدة التى تأثرت بمؤثرات غريبة بل أثبتت الأبحاث الأثرية أن كل السواحل الشمالية للخليج العربى قد تأثرت بها ، كما أن المناطق الجنوبية من إيران كافحت طوال العصور التالية دخول المؤثرات الثقافية التى كانت تأتى من بلاد النهرين ـ أما المناطق التى كانت فى غرب الهضبة فلم تعان ضغطاً أجنبياً وظل الفخار الملون مستعملا وبنفس الأساليب القديمة ولـكن أضيفت إلى أشكاله وزخارفه القديمة أشكال وعناصر زخرفية جديدة كما يتبين ذلك فى آثار جيـــان

ثم أخذ الفخار الملون فى الاختفاء تدريجياً من غرب إيران وحل محله الفخار الأسود أو الرمادى المسود مما يوحى بتسلسل عناصر أجنبية إلى المنطقة واندماجهم مع السكان الأصليين فيها ، وتدل شواهد الأحوال على أن العناصر الدخيلة جاءت من التركستان الروسية أو من سهول بعيدة وسط آسيا واستمرت فى تقدمها غربا حتى وصلت إلى كبادوشيا Cappadocia بآسيا الصغرى.

ولم ينج وسط إيران من المؤثرات الخارجية فقد وجدت فى سيالك آثار تدل على حدوث حريق وتدمير لبعض المساكن التى تنتمى إلى سيالك ٣ وإقامة مساكن أخرى فى مكانها اختفى الفخار الملون منها وحل محله فخار أحمر أو رمادى يشبه فى أشكاله فخار سوسه ، كما أن الختم الاسطوانى أصبح يستعمل بدلا من الختم المخروطى الذى كان معروفا من قبل ، ويدلنا هذا على إدخال الكتابة على الألواح الطينية وبالفعل ظهرت الكتابة قبل العيلامية فى الواح وآثار وجدت مع هذه الأختام . ويبدو أن العناصر التى جلبت معها هذه الكتابة « قبل العيلامية » إلى سوسة دخلت أيضاً إلى منطقة سيالك ولكن فى غــزوة وحشية ، ومن المرجح أنها كانت أقوى وأغنى من سكان المنطقة الأصليين ، لأن وجود مظاهر حضارية (من تلك التى أحدثوها فى سوسة) بمنطقة سيالك مع ما صاحبها من آثار تدمير وحريق يشير إلى أن هذه الحضارة قد فرضت بالقوة خلافا لما حدث فى المنطقة الشمالية حيث تسللت إلى هذه الأخيرة العناصر المسالمة التى أشرنا إلى احتمال مجيئها من التركستان أو من السهول البعيدة فى وسط

آسيا وجلبت معها الفخــار الاسود والرمادى المسود واندمجت مع السكان الاصليين .(١)

وتتميز منازل هـذا العصر بأنهـا بنيت بعناية ولو أن أبوابها ظلت حقيرة ، وكانت تزود عند مدخلها بموقد مقسم إلى قسمين ـ أحدهما للطعام والآخر للخبز ـ وإلى جانبه إناء للماء ـ وقد عثر فيها على أثاث متواضع خشن الصنع كانت مفرداته والمؤن المختلفة التى معه توضع داخل فجوات مخصصة لها أو تحاط بأسوار أو حواجز حجرية لحمايتها ـ وكان الموتى يدفنون تحت أرضية الحجرات وتوضع معهم مهمات جنزية وتقدمات مختلفة مثل أدوات الزينة والمرايا النحاسية وأوانى من المرمر وغيرها ـ وقد زين الموتى أنفسهم بحلى كثيرة منها دلايات من الفضة المطعمة بالأصداف والذهب واللابس لازولى (٢) ودلايات أخرى من الفضة المطروقة وأقراط مزينــة بقطع من الذهب واللابس لازولى بالتبادل وأساور من فضة وعقود طويلة خرزها من أحجـار بيضـاء ومن الذهب والفضة واللابس لازولى والعقيق ، ويوحى تعدد المواد ورقى الصنـاعة بأن هذه الحلى صنعت فى سوسة أو فى بلاد العراق حيث عثر على مايشبههـا فى المقابر الملـكية فى آور .

وتنحصر أهميـة تلك الحضـارة التى وجـــدت فى سوسة وتوغلت

---

(١) يبدو ذلك واضحا فى آثار جيان كما أشرنا أعلاه .

(٢) كان التطعيم بتثبيت هذه المواد فى الفضة بواسطة القار Ghirshman, Iran, 48

إلى وسط هضبة إيران فى إستخدام الكتابة التى يدل مظهرها على أنها كانت متقدمة عن الكتابة التصويرية البحتة ، ومع أنها لم تقرؤ بعد إلا أن ماعثر عليه من نصوص كتبت بها يدل على أن هذه النصوص عبارة عن أرقام وعمليات حسابية خاصة بشؤون تجارية .

ومنطقة سيالك هى الموقع الوحيد الذى وجدت فيه وثائق مكتوبة قبل قبل عصر الأخمينيين (١) فى داخل الهضبة ، وحيث أن هذه المنطقة قد تأثرت بحضارة عيلام (٢) فلابد وأن الكتابة والثقافة والعيلامية قد انتشرتا إليها عن طريق توسع سيـــاسى عيلامى يحتمل أنه كان لخدمة أغراض تجارية ، ومما يرجح هـذا الرأى أن الكتابة والثقافة العيلاميتين استمرتا فيها طوال المدة التى بقيت فيها مراكز تجارية عيلامية فى وسط الهضبة ثم اختفت بعد زوالها .

ومع أن التأثيرات الحضارية التى جاءت إلى إيران لم تصل إليها من منطقه واحدة أو فى وقت واحد أو بدرجة واحدة فإنها استطاعت أن تمتص هذه المؤثرات وفى نفس الوقت كانت ثقافتها تنتشر إلى ماجاورها فمثلا استعملت بلاد النهرين نوعا من الفخار المزخرف الذى كان شائعاً فى سيالك وحسار أى أنه انتقل إليها من إيران .

---

(١) منذ أوائل الألف الأول قبل الميلاد سادت إيران ثلاث عناصر هندوأوربية فقد حكمها على التوالى الإيرانيون والميديون ثم الاخمينيون الذين كونوا امبراطورية واسعة تنازعت مع اليونان على السيادة على العالم القديم إلى أن قضى عليها الاسكندر الأكبر .

(٢) أنظر أعلاه ص ٤٠٤ وما بعدها

العصر التاريخى

١ — عيلام

فى بداية الألف الثالث قبل الميلاد لم يدخل من إيران فى العصر التاريخى سوى منطقة عيلام وحدها أما بقية المناطق فإن معلوماتنا عنها تأتى من مصادر بلاد النهرين التاريخية وعلى الأخص المصادر البابلية وهذه لاتذكر شيئا عن الجهات الداخلية البعيدة وإنما تكتفى بالمناطق المتاخمة لها على الحدود حيث كان سكانها يعيشون على التلال ويحتكون دائما بأهل بلاد النهرين السومريين والساميين ، وسكان المناطق المرتفعة هؤلاء هم من الجنوب الى الشمال : العيلاميون والكاشيون واللولوبى والجوتى ، وكلهم ينتمون إلى جنس واحد ويتكلمون لغات متشابهة - وقد أدى الضغط المستمر الذى كانت تفرضه عليهم الممالك المتحضرة فى السهول إلى اتحادهم أحيانا وبصفة مؤقتة إذكان الكفاح مستمرا بين الأمم المتحضرة فى السهول وبين البدو وأشباه البدو فى المناطق الجبلية ، فكلما تكونت أسرة قوية فى بابل زاد الضغط على سكان المناطق الجبلية وكلما ضعفت بابل انحدر هؤلاء من الجبال إلى مناطق السهول الغنية يحتلونها لفترات مختلفة ، وعلى ذلك ظلت الهضبة الإيرانية فى معظمها على حالة من البداوة ولم يدخل العصر التاريخى فى أول الأمر إلا منطقة عيلام .

فحوالى الربع الأول من الألف الثالث قبل الميلاد كانت هناك أسرة عيلامية قائمة بالفعل تحكم مساحة كبيرة من السهول والمناطق الجبلية من بينها جزء هام من ساحل الخليج العربى ومنطقة بوشير ، وتدل شواهد

الأحوال على أن المملكة القائمة وإن كانت قد اتخذت كتابة خاصة إلا أنها استعملت اللغة السومرية .

وعندما أعتلى « سرجون » الأكدى عرش بلاده غزا عيلام التى كافحت من أجل الدفاع عن كيانها ولكن سرجون انتصر عليها فى موقعتين حاسمتين ، ومن المحتمل أنه ضم سوسة نفسها إلى ممتلكاته ـ كذلك كان ولده « مانيشتوسو » موفقاً فى حروبه ضد عيلام واستطاعت جيوشه أن تعبر الخليج العربى لتأمين الطريق المؤدى إلى المرتفعات التى كان يجلب منها المواد اللازمة للبناء ـ وفى عهد خليفته « نارام سن » حدثت ثورة فى أطراف مملكته ومن بينها عيلام ولكن هذه الثورة أخضعت بشدة واستطاع أحد قواده أن يشيد بعض المبانى الهامة فى سوسة ، وقد حلت اللغة الأكدية (السامية) محل العيلامية وأوشكت الثقافة العيلامية أن تختنق لولا أنها ظلت قائمة فى المناطق الجبلية الوعرة .

وقد انتهز حكام عيلام الوطنيون ومن بينهم « بوزور انشوشناق » كل فرصة للنهوض بعيلام من جديد حيث نجد أن نصوصاً كتبت باللغة العيلامية وما قبل العيلامية قد عادت الظهور جنباً إلى جنب مع نصوص كتبت بالأكدية ـ وانتهز « بوزور انشوشناق » فرصة التظاهر بالدفاع عن سيده « نارام سين »[1] وتوسع فى مد سلطانه نحو الشمال حتى وصل

(١) أنظر أعلاه ص ٣٥٩ — ٣٦٠

إلى الإحتكاك بقبائل جوتى ، وقد أثرى بلاده بالغنائم التى حصل عليها وشيد الكثير من المبانى ، ولما مات « نارام سين » أعلن استقلاله وهاجم بابل نفسها حتى وصل إلى أكد ولكنه رد عنها بصعوبة ومع ذلك فقد احتفظ باستقلاله عن بابل التى أخذت فى الضعف تدريجيا ، واتجهت اليها الأنظار وخاصة بعد نجاح « بوزور انشوشناق » فغزتها قبائل اللولوبى والجوتى الواحدة بعد الأخرى - واللولوبى كانوا يعيشون فى المنطقة التى تمتد من شرق بغداد الحالية إلى كرمانشاه وحمدان وطهران أما الجوتى فكانوا يعيشون فى المنطقة الممتدة بين وادى زاب الأدنى والحوض الأعلى لنهر دياله ، وقد تخلصت بابل بعد ذلك من سيادة الجوتيين بقيام أسرة جديدة فى أور تمكنت فضلا عن ذلك من إخضاع سوسة وما حولها تحت سلطانها ولكن هذه المملكة الجديدة لم يقدر لها البقاء طويلا فبعد مرور نحو قرن من الزمان هاجمتها مملكة « سيماش » (فى الجبال الغربية من أصفهان) وهزمت ملكها وحملته أسيراً إلى الجبال ، وأصبحت « سيماش » صاحبة السلطان فى سوسة وعيلام - ثم حدث رد فعل جديد حيث تكونت أسرة أيسين التى طردت « سيماش » واستولت على عيلام .

وهكذا نجد أن دور إيران فى تاريخ غربى آسيا قد زاد أهميته فى أثناء الألف الثالث قبل الميلاد ، وكان ملوك بلاد النهرين يهدفون فى حروبهم ضدها إلى غرضين : سياسى يتلخص فى ضمان عدم قيام دولة قوية على حدودهم حتى لا تهدد كيانهم السياسى ، واقتصادى نقصد من ورائه تحويل موارد الثروة من إيران إلى بابل .

ولا يعرف شيء عن الأحوال السياسية فى المناطق الداخلية من إيران ولا نعرف مدى توغل العيلاميين واللولوبيين والجوتيين فى المناطق التى تقع إلى الشرق من تلك التى أشرنا اليها ، ففى سيالك توجد فجوة أثرية تمثل فترة استمرت ما يقرب من ألفى عام لا نعرف ماذا حدث خلالها ـ ولكن فى جيان يبدو أن المجتمع الذى عاش فيها ظل يتبع نفس أساليب الحياة دون تغيير يذكر فالفخار الملون الذى يحاكى فخار موسة ظل مستعملا ، وقد وجدت فى المقابر حلى كثيرة من البرونز والفضة ـ وفى حسار حل الفخار الرمادى المسود محل الفخار الملون كما حدث فى غرب الهضبة ، وازداد استخدام المعادن وخاصة فى صنع الأشياء الصغيرة ، ومن المحتمل أن البرونز كان يقدر لقلته نسبيا أكثر من الفضة وبذلك دخلت إيران الداخلية فى عصر البرونز .

وأهم ما حـــدث فى الألف الثانى قبل الميلاد هو ظهور العناصر الهندو أوربية فى غربى آسيا (وكان من أثرها دخول الهكسوس إلى مصر على الأرجح) ـ ويبدو أن هؤلاء جاءوا من المناطق الرعوية فى آسيا وتشعبوا إلى شعبتين . غربية دارت حول البحر الأسود (بعد أن عبرت البلقـــان والبسفور) ووصلت إلى آسيا الصغرى حيث كونت المملكة الحيثية ، شرقية عرفت باسم الهندو إيرانيين وقد دارت حول بحر قزوين وخرجت منها بضعة فروع اتجه أحدها عبر القوقاز إلى أعالى الفرات حيث اختلط بالحوريين أهل البلاد السابقين وكونوا مملكة ميتانى (١) ، واتجه

---

(١) أنظر اعلاه ص ٢٩١ — ٢٩٢

فرع آخر وسط جبال زاجروس إلى المنطقة الواقعة فى جنوب طريق القوافل حيث استقر فيها كأقلية نشيطة (اشتهرت منطقتها فيما بعد بتربية الخيول) عرفت باسم الكاشيين الذين يحتمل بأنهم هم الذين تسببوا فى القضاء على مدنية حسار أثناء اندفاعهم غربا للاستقرار فى تلك المنطقة وذلك فى حوالى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد .

ومن المعروف أن أحد أمراء عيلام استطاع أن يغزو بابل فى بداية الألف الثانية قبل الميلاد مكونا بعد ذلك بوقت قصير أسرة لارسا التى استطاعت أن تقضى على أسرة أيسين وبذلك أصبحت سيدة على بابل وأورك ، ولكن حينما تولى حامورابى عرش بابل سرعان ما أوقف تقدم العيلاميين بل وتمكن بعد ٣١ عاما من أن يهزم ملكهم « ريم سن » - وبعد عدة محاولات فاشلة من جانب ملوك عيلام حاولوا فيها الاحتفاظ بسلطانهم على لارسا اختفت عيلام لمدة قرن من الزمان ثم أعيد بناؤها بضعة عشرات من السنين واختفت بعد ذلك على إثر غزوات الكاشيين

وأول ما يطالعنا من النصوص عن الكاشيين فى بابل هو ما يذكره خليفة حامورابى من أنه صد هجوما لجيش من الكاشيين ولكن مع ذلك يبدو أنهم تمكنوا فى النهاية من التسلل إلى بابل كمهاجرين مسالمين لمدة قرن ونصف تقريبا ثم استطاعوا أن يستأثروا فيها بالسلطة فى حوالى القرن ١٨ ق.م ، وتعد سيطرتهم فى بلاد النهرين أطول سيادة أجنبية فرضت فيها (١) ومع ذلك لم يدخلوا عناصر حضارية جديدة تستحق الذكر

---

(١) أنظر اعلاه ص ٣٧٣

وتدل شواهد الأحوال على أنهم كانوا على صـــلات بمصر فى عهد العمارنة ، ويظهر أن مملكة آشور استطاعت أن تنهض وعقدت بينها وبينهم معاهدة على أثر حملة قام بها ملك آشور « أداد نيرارى » ، وقد اتفق فيها على الحدود ثم عادت النهضة من جديد فى عيلام إلا أن الكاشيين ظلوا قابضين على ناصية الأمور فى بابل ولكنهم أصبحوا غاية فى الضعف حيث أنهم وحلفاءهم الآشوريين هزموا أمام عيـــلام التى استطاعت أن تقضى أولا على سلطان الكاشيين فى بابل وخلعت ملكهم عن العرش ووضعت ابنه فى مكانه وبعدئذ تقدمت جيوشها إلى الشمال واخترقت حوض ديالة ووصلت إلى منطقة كركوك ثم تقدمت نحو آشور كما حاصرت مدينة بابل ، وبذلك أصبح كل حوض الفرات ومعظم ساحـــل الخليج العربى وسلاسل جبال زاجروس فى يد عيلام .

وما أن حلت نهاية الألف الثـــانى قبل الميلاد إلا وتكونت أسرة قوية جديدة فى بابل استطاع ملكها « نبوخذ نصر » أن يحطم قوة عيلام واستولى على سوسة فاختفت عيلام مرة أخرى وكان ذلك لمدة ثلاثة قرون تقريبا اشتد فيها التنافس بين مملكتى بابل وآشور الجديدتين من أجل السيطرة على الأراضى السهلة بينما ظلت الهضبة الإيرانية قليلة الأهميـــة إلى أن تمكنت بعد بضعة قرون من أن تغير وجه التاريخ .

٢ـ الإيرانيون: الميديون والفرس

الايرانيون

فى بداية الألف الأول قبل الميلاد زاد استخدام الحديد وحدثت هجرة جديدة للشعوب الهندو أوروبية وكان لهذين الحادثين أكبر الأثر فى تاريخ آسيا .

ومن المحتمل أن الهجرة الهندوأوروبية الجديدة كانت تشبه الهجرة السابقة وربما كانت من نفس المنطقة التى جاءت منها أيضا ـ ففى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد تقريبا اتجهت بعض الشعوب الهندوأوربية إلى آسيا الصغرى وحطمت امبراطورية الحيثيين ، وكان الفلسطينيون الذين استقروا فى فلسطين من بين شعوب هـذه الهجرة وما زالت فلسطين تحمل اسمهم إلى اليوم ـ وقد وصلت هـذه الهجرة عبر سوريا إلى فلسطين وتقدمت نحو مصر إلا أن رعمسيس الثالث صدها ـ أما فى إيران فإن الشعوب الإيرانية قد اخترقتها فى بداية الألف الأول قبل الميلاد وأثرت عليها تأثيرا مغايرا لتأثير الغزوة السابقة التى حدثت قبل ذلك بألف سنة تقريباً[١] حيث أنهم لم يندمجوا فى السكان الأصليين مثل مافعله الحوريون والميتانيون والـكاشيون من قبل ، فقد وضعوا أنفسهم فى مركز السيادة بعد أن تسللوا تسللا بطيئًا إلى المنطقة ثم تمـكنوا بعدئذ من الخروج لغزو العالم ، ولم تتمكن الشعبة الشرقية من هؤلاء الإيرانيين من التوغل جنوب هندكوش

---

(١) أنظر اعلاه ص ٤١١

فاتجهت نحو الغرب إلى قلب إيران إلا أنهـا ظلت تطمح فى الوصول إلى بلاد الهند الغنية وأخذت تتحين الفرصة لذلك ، أما الذين اتجهو إلى الغرب فلم تكن السلاسل الموازية لجبال زاجروس هى التى تحول دون تقدمهم بل وقفت أمامهم سدا منيعـاً هناك ولايات قوية لها ماضى وحضارة مستقرة منذ آلاف السنين ، فالقبائل الإيرانية التى أرادت الاتجاه إلى الجنوب الشرقى على امتداد زاجروس كانت تواجهها من الشمال إلى الجنوب : آشور وبابل وعيلام ، وإلى الشمال الشرقى حول بحيرة وان توجد جبال القوقاز ومملكة أرارات التى أصبحت فيها بعد مملكة أرمينيا - وعلى هذا ظل الإيرانيون لايستطيعون اختراق ذلك الحاجز وأخذوا خلال الأربعة قرون التالية يمتصون السكان الأصليين ويفرضون ثقافتهم وسلطانهم السياسى فى وديان جبال زاجروس .

وكان النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد نقطة التحول فى تاريخ البشرية لأن مركز السيادة العالمية أصبح لايوجد فى السهول والوديان الخصيبة مثل وادى النيل ووادى دجلة والفرات بل انتقل إلى المرتفعات حيث وجدت ثلاثة قوى فى شرق إقليم الشرق الأدنى كانت تتصارع فيها بينها وهؤلاء هم : الأشوريون ومملكة أرارات والإيرانيون - وبعد كفاح مرير تمكن الأخيرون من الإنتصـار على خصومهم وأسسوا أول إمبراطورية عالمية ، ومن العسير التعرف على تفصيلات حوادث هذه الفترة الا عن طريق الوثائق الأشورية حيث لايوجد ماينير لنا الطريق عن هذا العصر سواها وإن كان من المحتمل أن نعرف كثيرا عن حضارة هؤلاء الإيرانيين بعد تقدم التنقيبات التى تجرى فى ايران وخاصة

فى منطقة سيالك التى أشير اليهـــا فيما سبق ، ومما ساعد على التحول السياسى عن السهول ازدياد استخدام الحديد كما أشرنا من قبـــل وهو يوجد بكثرة فى جنوب البحر الأسود وعبر القوقاز التى تتحكم فيها مملكة أرارات - وقد حولت هذه اهتمامهـــا نحو إيران التى كانت تكثر بها الخيول اللازمة للجيوش وبعض المعادن ، وحينما منعت إيران تلك الموارد عن آشور اضطرت هذه إلى اتباع سياسة الاعتداء عليها ولكن ملوكها لم ينجحوا دائمـا فى إخضـاع تلك الجهات - إذا مانجحوا فإن إدارتهم لها لم تكن فعالة ، وكانت هذه الاعتداءات المتكررة سببـا فى تغيير بعض الأساليب الحربية وأصبح الخيالة أهم سلاح فى الجيش حيث حلوا محل العربات .

الميديون

نجد فى حوليات شلمناصر الثـــالث أول ذكر الإيرانيين ، ففى سنة ٨٤٤ ق. م عرف الأشوريون الفرس وفى سنة ٨٣٦ ق.م عرفوا الميديين - وكان الفرس فى غرب وجنوب غربى بحيرة أورميا ، أما الميديون فكانوا فى الجنوب الشرقى الى جوارهمدان ، ومن المرجح أن هذه الأسمـــاء لاتدل على اختلافات جنسية وإنما تدل على أسماء القبائل التى عاشت فى تلك المنـــاطق - ويذكر الملك الأشورى « شمشى أدد الخامس » أنه هزم زعيما ايرانيا شمال بحيرة أورميا سنة ٨٢٣ ق. م .

ويبدو أن الفرس لم يستقروا فى الشـــمال الغربى من ايران طويلا إما نتيجة الغزوات الأشورية وإما نتيجة لضغط مملكة أرارات أو بعض

القبائل الأخرى ، وعلى ذلك اتجهوا فى القرن الثامن نحو الجنوب الشرقى واستقروا فى نهاية هذا الجزء من إيران غرب جبال بختيارى فى منطقة عرفت باسم « بارسوماش » - ولما كانت المملكة الآشورية قد أخذت فى الضعف منذ نهاية القرن التاسع فإن مملكة أرارات قد انتهزت الفرصة ووسعت أملاكها وفرضت سلطانها على الفرس ، واستمر النضال بين أرارات وآشور إلى أن اعتلى عرش آشور « تجلات بلاسر الثالث » الذى انتصر على ملك أرارات وتوغل داخل مملكته وحاصر العاصمة نفسها ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها - وقد قام بعدة حملات على الأمراء الايرانيين والميديين وأخضع مدنهم ونظم إدارتها ، ثم حاول ملك أرارات الجديد أن يستنهض زعماء القبائل المجاورين له ونجح فى تكوين حلف منهم .

وكان من بين هؤلاء زعيم الميديين الذى أسس المملكة الميدية ولكن « سرجون الثانى » ملك آشور نجح فى القضاء على الثورات التى نشبت فى أجزاء مختلفة من مملكته كما أنه جلب ٣٠ ألف اسرائيلى وأسكنهم فى المدن الميدية - وكلما تجددت الثورات ضدد مملكة آشور كان سرجون يقضى عليها ، أما « سناحريب » الذى جاء بعد ذلك بفترة فإن انشغاله فى حروبه ضد عيلام ومصر ويهوذا جعله يخفف الضغط على الميديين ، وفى تلك الأثناء دخلت عناصر جديدة هندو أوربية التفت هى وكثير من المدن الايرانية حول أحد زعماء ميديا فبلغت هذه من القوة مبلغا جعلها تنجح فى تكوين مملكة وتمكنت من التحكم فى العناصر الهندو أوربية الأخرى ومن بينها القبائل الفارسية - وقد استغل الميديون فرصة ضعف الامبراطورية

الآشورية واتجهوا نحو نينوى محاولين السيطرة على آشور ، ولكن الملك البابلى « نبوبولصر » استطاع إيقـــاف هذا التوسع الميدى ثم تحالف الميديون والبابليون وتمكنوا من إسقاط نينوى سنة ٦١٢ ق.م وقسمت المملكة الآشورية بين الميديين والبابليين الكلدانيين فاستولى الميديون على المناطق الواقعة شرق وشمال نهر دجلة واستولى الكلدانيون على تلك التى تقع فى الجنوب والغرب - ولم يكتف الميديون بذلك بل توسعوا نحو الغرب فى آسيا الصغرى وحاولوا فرض سيطرتهم على ليديا (غربى آسيا الصغرى) وانتهى الأمر بالتحالف بينهما نتيجة لتوسط ملك بابل ، ومع ذلك لم يأمن البابليون جانب الميديين فاتجهوا نحو عنصر إيرانى آخر بدأ يبرز إلى ميدان القوة وهـــذا العنصر حاول تأسيس مملكة بزعامة « أخيمين » (سنة ٧٠٠ - ٦٧٥ ق.م) - وحينما اعتلى العرش ولده تيسبيس أطلق على نفسه لقب « ملك أنشان » ، ثم قسم مملكته بين ولديه « أريارامن » ، و « كورش الأول » ، وقد حكم الأول فى بارسا وحكم الثانى فى أنشان وبموت « أريارا من » خلفه ولده الذى لم يستمر طويلا على العرش إذ أن « قمبـــيز » بن « كورش الأول » وخليفته تمكن من أن يوحد المملكتين تحت سلطانه .

الاخمينيون (الفرس)

ظل قمبيز خاضعا للنفوذ الميدى على الرغم من أنه كان يحكم مملكة موحدة فلم يكن مستقلا كل الاستقلال ، ولكن فى عهد خلفه « كورش الثانى » اصطدمت القوتان الفارسيـة والميدية واستطاع كورش أن يقضى على هذه المملكة الأخيرة واتخذ عاصمتها « اكباتاما » (همدان) عاصمة

إيران الموحدة وبذلك بدأ عهدا جديدا لإيران حيث احتلت بعد ذلك مركز السيادة فى الشرق القديم ـ وقد تمكن كورش من توسيع مملكته فبسط سلطانه حتى حدود البحر المتوسط غربا والهند شرقا بل وتمكن كذلك من احتلال بعض المدن والجزر اليونانية واحتـل بابل وبذلك قضى على أكبر منافس فى الشرق القديم ، ومنذ ذلك الحين انتهت مدنية بلاد النهرين ـ واستمر كورش الثانى فى عملياته الحربية فى الشرق والغرب موطدا أركان امبراطوريته ، وكان سياسيا ماهرا فلم يكن قاسيا فى معاملته للاعداء ولم يدمر بابل بعد إسقاطها ـ أما الأسرى الاسرائيليون الذين كانوا قد جلبوا إلى آشور وميـديا فقد أعادهم إلى وطنهم الأول فلسطين . (١)

ولما اعتلى « ولده قمبيز الثـانى » عرش الامبراطورية تمكن من غزو مصر فأصبح الفرس يحكمونها من الأسرة السابعة والعشرين إلى الأسرة الحادية والثلاثين باستثناء فترات قصيرة ثار فيها المصريون على الحكم الفارسى ـ وبعد موت قمبيز انقسمت الإمبراطورية إلى عدد من الولايات التى كانت تحاول الاستقلال ولكن خليفته « دارا الأول » تمكن من إنقاذ الامبراطورية وأعاد الاستقرار إلى أجزائها المختلفة بعد أن خاض نحوا من ١٩ معركة حربية .

ويعد « دارا الأول » من أهم الملوك الذين حكموا الامبراطورية

---

(١) انظر اعلاه ٢٨٨ — ٢٩٠

الفارسية التى كانت تتكون من عشرين ولاية حيث استطاع هذا الامبراطور بفضل جهوده أن ينعش الحركة التجارية فى أجزائها المختلفة وتوسع فى إنشاء الطرق وأمر بحفر القناة التى تصل بين النيل والبحر الأحمر ، ولذلك يرى بعض المؤرخين بأن هذا الامبراطور يعد « يهودى عصره » نظرا لما لقيه من نجاح فى ميدان التجارة ، كذلك نشط هذا الملك فى تشييد المبانى وتجميل العاصمة واستخدم فى ذلك أرز لبنان والنحاس وخشب الابنوس الوارد عن طريق مصر واستعان بالعمال الميديين والمصريين والبابليين أيضا كما استخدم نظـــام نقد ثابت استعملت فيه العملة بدل المقايضة ـ وفى نهاية عهده ساءت العلاقات اليونانية الفارسية مما أدى إلى قيام الحرب بينهما ، وقد انهزم الجيش الفارسى فى الموقعة المشهورة باسم ماراثون سنة ٤٩٠ ق.م ـ وبعد ذلك بقليل أى فى عهد « احزركسيس الأول » الذى تولى بعد دارا هزم الأسطول الفارسى فى موقعة سلاميس سنة ٤٨٠ ق.م ، وقد تلا هذا الملك ملوك ضعاف كان عهدهم مليئاً بالحروب والثورات إلى أن انتهى الأمر بانتصار الاسكندر الأكبر فأصبحت إيران ضمن أملاك السلوقيين ولم تتمكن من العودة إلى النهوض إلا فى عهد الساسانيين (١) الذى استمر إلى أن دخـــل العرب إيران سنة ٦٥١ م .

ولاشك أن الإمبراطورية الإيرانية كان لهـا أكبر الأثر فى تاريخ

---

(١) بدأ حوالى سنة ٢٢٦ ق . م

وحضارة الشرق الأدنى القـــديم ، فقد استعملت اللغة الآرامية كلغة رسمية وهذه انتشر استعمالها كلغة دولية فى الألف الاول قبل الميلاد ، كما أن العقيدة الزرادشتية نمت وترعرعت فى ظل الإمبراطورية الإخمينية وكانت معاصرة للديانة البوذية ومازالت هاتان العقيدتان منتشرتين فى كل من إيران والهند ـ ولم يحل تمسك الايرانيين بعقيدتهم دون تسامحهم الدينى فى غالب الأحيان واتجهوا فى سيـــاستهم وحكمهم للشعوب اتجاها نسانيا ، فلم يدمروا مثلما دمر الأشوريون ولم يشتتوا سكان بعض المناطق كما فعل غيرهم بل على العـكس من ذلك نجد أنهم فى بعض العصور كانوا يميلون إلى اتباع سياسة تهدف إلى إنعاش التجارة وتعميم الرخاء فى الولايات المختلفة .

ملحق تاريخى

ترتيب أهم الأدوار التاريخية فى الشرق الأدنى

التاريخ التقريبي ق . م .	مصر	بلاد العرب	الاقليم السورى	آسيا الصغرى	بلاد النهرين	إيران
بعد ظهور الانسان	الحضارة الشيلية					
	الحضارة الأشولية					
	السبيليه		الناطوفية		هزار مرد شاندر	
					بالى جوارا – زرزى كريم شهر جرمو	سيالك ١
	حلوان ا		العمق ا، ب		حسونة	
٥٠٠٠	ديرتاسا البدارى		جريكو ٩، ١٠	(حجرى حديث)		
	العمرة الفيوم		العمق ج		حسونة سامراء حلف	سيالك ٢
	جرزة حلوان ب		جريكو ٨		العبيد	سيالك ٣

٣٥٠٠	سيناء مرمده بنى سلامة المعـــادى		الغسوليه عصر البرونز الاول			
					الوركاء	
	الدولة القديمة					
٣١٠٠ ± ١٥٠ (٣٢٤٦ ؟) أو (٣٢٣٤ ؟)	الأسرة الأولى				جمدة نصر	
(٢٩٨٢ ؟)	الأسرة الثانية					
				عصر البرونز القديم		

٢٧٢٦ الأسرة الثالثة

الأسرة الرابعة

٢٤٨٤ الأسرة الخامسة

عصر البرونز الوسيط

أسرة الوركاء الأولى

أسرة الوركاء الثانية

أسرة كيش الاولى

أسرة كيش الثانية

كيش الثالثة

جلش

أسرة أور الاولى

أور الثانية

أكشاك

أسرة اوان و أسرة حمازى

أسرة اداب

أسرة مارى

أكشاك

أور الثانية

لجش تحت حكم الأكديين

كيش الرابعة

أكاد

الوركاء الثالثة

الوركاء الرابعة

غزو السومريين

غزو الأكديين

الأسرة السادسة

٣٣٤٤

٢٢٠٩	عصر الفوضى الأول الأسرات ٧ - ١١			أكاد	لجش تحت حكم الجوتى				أسرة الجوتى
٢١٥٠				الوركاء الخامسه					
٢١٠٠	الدولة الوسطى						أور الثالثة		
١٩٩١	الاسرة الثانية عشرة			أسرة أيسين		أشنونا	الاسرة البابليـة	آشـور	أسرة لارسـا
		التجار الاعموريين			لجش تحت حكم لارسا				

١٧٨٦ عصر الفوضى الثانى
الاسرات ١٣-١٧
الدولة الحديثة
١٥٧٥ الأسرة ١٨

الفتح المصرى
التأثير الميتانى
الغزو الحيثى

بتخانا أنيتا
الدولة القديمة
عصر الامبرطورية

دولة أرض البحر

الاسرة الكاشية
الغزو الحيثى

الكاشيون
الميتانيون
الحوريون
غيلام

تابع « الجدول التاريخي »

التاريخ التقريبي ق. م.	مصر	بلاد العرب	الاقليم السوري	آسيا الصغرى	بلاد النهرين					إيران
					بابل		آشور	عيلام	الحوريون	
١٣٣٥	الأسرة ١٩	معين		عصر الامبراطورية	الأسرة الكاشية					

١٢٠٠	الاسرة ٢٠		غزو شعوب البحر الفلسطينيون	الآراميون	الغزو الفريجى	الآسرة الرابعة		
١١٠٠	عصر الاضمحلال الثالث		العبرانيون عصر القضاة	غزو تيجلات بلاسر الاول				
١٠٥٠	الأسرات ٢١-٢٥	سبأ	المملكة	غزو الآراميين لبلاد النهرين الممالك الحيثية الجديدة والممالك الآرامية		الاسرة الخامسة الاسرة السادسة		

٦٦٤
عصر النهضة المؤقتة
الأسرة ٢٦

يهودا
إسرائيل
سقوط سامراء

طرد الاراميين من بلاد لنهرين
غزو شلمنصر الثالث
أداد نداري الثالث يستولى على دمشق
الأشوريون يهزمون المملكة الحيثية الجديدة

سيادة آرارات وليديا

الأسرة السابعة
الأسرة الثامنة
الأسرة التاسعة
الأسرة العاشرة
بابل
تدمير بابل

الميديون
الإخيذيون

٥٢٥

عصر الفوضى الأخير

الأسرات ٢٧-٣١

الاستيلاء على أورشليم

الأسرة ١١

سقوط بابل

سقوط آشور

سقوط الميديين

امبراطورية الفرس

امبراطورية الاسكندر الأكبر



المختار من المراجع العامة

ا ـــ باللغة العربية :ـ

١ ـ أحمد بدوى « فى موكب الشمس » جزءان القاهرة ١٩٤٦ ، ١٩٥٠

٢ ـ أحمد فخرى « مصر الفرعونية » القاهرة (طبعة ثانية) ١٩٦٠

٣ ـ إرمان ـ رانكه « مصر والحياة المصرية » مترجم ـ القاهرة

٤ ـ برستد « تاريخ مصر السياسى من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى» ترجمة حسن كمال ـ القاهرة ١٩٢٩

٥ ـ ديلابورت « بلاد مابين النهرين » مترجم ـ القاهرة

٦ ـ سليم حسن « مصر القديمة » الاجزاء الاثنى عشر الأولى

٧ ـ طه باقر « مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة » جزءان ـ بغداد ١٩٥٥، ١٩٥٦

٨ ـ فرانكفورت وآخرون «ماقبل الفلسفة» ـ مترجم ـ بغداد ١٩٦٠

٩ ـ محمد ابو المحاسن عصفور: ١) الشرق الأدنى قبل عصوره التاريخية الاسكندرية ١٩٦٢

٢) علاقات مصر بالشرق الأدنى القديم ـ الاسكندرية ١٩٦٢

٣) موجز تاريخ الشرق الأدنى ـ البصرة ١٩٦٦ الاسكندرية ١٩٦٢

١٠ ـ فيليب حتى « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق ـ بيروت ١٩٥٨

١١ ـ نجيب ميخائيل « مصر والشرق الأدنى القديم » ٦ أجزاء ـــ الاسكندرية

ب ـ باللغه الأوربيه : .

Arkell, A. J., A History of the Sudan from the Earliest Times to A. D. 1821, Londo, 1955.

Baumgrtel, E. J; The Cultures of Prehistoric Egypt, 2 Vols.: I (2nd. ed. London 1955) II (London 1960).

Bilabel, F. & Grohman, A. Geschicthte Vorderasiens und Aegyptens vom 16 Jagrhundert v. Chr, Heidelberg, 1927.

Breasted. J. H., Ancient Records (Hist. Documents from the Earliest Times to the Persian Conqest (I—IV, Chicago, 1906; V. Index, 1907)

" , A History of Egypt from the Earliest Times to the Persian Conquest (2nd ed), London 1925.

أشرنا إلى ترجمته رقم ٤ من المراجع العربية

Budge. E. A. W., A History of Egypt from the End of the Neolithic Period to the Death of Cleopatra Vols. 13.), London. 1902.

Cambridge Ancient History. (2nd ed. II. Vols. & 4 Vols. pls.), Cambridge 1923 — 36

Capart & Contenau, Histoire de l'Orient ancien, Paris, 1946

Cavainac, E, Le Monde méditerraneén jusqu'au IVe siécle av. J. C. (t. II de l'Histoire de Monde), Paris, 1929.

Cavainac, E, Les Hitties, Paris, 1950

Delaporte, L., Les Hittites, Paris, 1936.

Delaporte, L., Les peuples de l'Orient Mediterranéen t. I "Le proche Orient Asiatique" (clio 1938)

أشرنا إلى ترجمته رقم ٥ من المراجع العربية

Drioton, E. & Vandier, J., Les Puples de l'Orient Mediterranéen. t.II "L'Egypte" 4e· ed.

Gardiner, A. H., Egypt of the Pharaohs, London 1961.

Ghirshman, Iran, Pelican A 239

Gurney, O.R., The Hittites, Pelican A 259

Hall, H.. The Ancient History of the Near East. loth. ed., London 1947.

Hayes, W., The Sceptre of Egypt. I. New York, 1953.

Huzayyin, S. A, The Place of Egypt in Prehistory, Cairo 1941,

Kees, H., Das Alte Ägypten (Eine Kleine Landeskunde), Berlin 1955.

Kienitz, F. R, Die Politische Geschichte Agyptens vom 7 bis Zum 4 Jahr hundert vor der Zeitwende, Berlin, 1953.

Lloyd, S., Early Anatolia, Pelican A354

Luckenbill, D. D , Ancient Records of Assyria and Babylonia (2 vols.), Chicago, 1926 — 7.

Mercer, S.A.B., The Tell el Amarna Tablets, 2 vols. Toronto 1939.

Petrie, W.M.F., A History of Egypt (3 vols.) London, 19 3.

Pritchard, J. B., Ancient Near Eastern Texts Relating to ths Old Testament, Princeton, 1950.

G. Roux, Ancient Iraq, Pelican A 828

Söderbergh,T. Saeve, Aegypten und Nubien, Lund, 1941.

Scharff, A. and Moortgaat, Agypten und Vorderasien in Altertum, Munich, 1950.

Winlock, H, E., The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, New York 1947.

Zeissl, H., Äthiopen und Assyrer in Ägypten, Beitrage Zur Geschichte der agyptischen Spatzeit (Agyptologische Forschungen, Heft 14), Gluckstadt und Hamburg, 1944.

فهرس أبجدى

(ا)

ب

حدثت بعض الأخطاء التي لاتخفى على فطنة القارئ والمرجو مراعاة مايلى بصفة خاصة :ـ

الخطأ	الصواب	ص	س
افرضت	أفرضت	٢	٥
lonlon	London	١٧	هامش
الجانبية	الجانبية	١٨	٢
سمرخت	سخمخت	٩٣	١٢
الأثريو	الاثريون	٩٦	١٣
لو وجدنا	لوجدنا	٩٨	٦، ٧
الاقصتادية	الاقتصادية	١٠٢	٤
الفرعـوى	الفرعون	١٠٦	٥
نقوش	فى نقوش	١٠٨	١
أبيدس	أبيدوس	١١٠	١٧
نفرروهو	نفرتى	١١٨	١٠
		١٣٣	١٦
البحر	البحرى	١٢٧	١٩
كاوزا	كاموزا	١٥٠	٥
مملكة	(٣)مملكة	١٥٢	١
تخن	نخن	١٥٧	٦
نفروع	نفرورع	١٦٥	١٢
خريطة رقم٣	خريطة ٢ ب	١٦٩	١٤
خريطةرقم ٣	خريطة ٢ ب	١٧١	الشكل
آى	أى	١٨٥	٢
ونجلت	وتجلت	٢٠٠	١٩
بوباسطة	بوبسطة	٢١٩	١١
kawra	kawa	٢٣١	هامش
واحل	واحتل	٢٣٢	١٣
رعميس	رعمسيس	٢٣٨	٩
نورة	ثورة	٢٤٦	١
الاموريين	الاموريون	٢٧٣	٩
و العشرين	العشران	٢٧٠	١٠

الخطأ	الصواب	ص	س
الآرامين	الآراميين	٢٨١	١
		٢٨٨	٤
القيرانيون	العبرانيون	٢٨٥	هامش
شبشنق	شيشنق	٢٨٩	٥
op.cit	Early Anatolia, A354	٣٠١	هامش
حدردا	حدودا	٣١٢	١٧
أرنووانداص	أرنووانداس	٣٢٠	١
المقاطعت	المقاطعات	٣٢٠	١٣
أوراتو	أورارتو	٣٢٣	١٦
الميسيور	الميسور	٣٤٣	٤
أعمد	أعمدة	٣٤٣	الشكل
طور	أنظر	٣٤٥	هامش
سنبار	سيبار	٣٤٨	٧
دبالى	ديالى	٣٦٦	٤
الادرى	الإدارى	٣٦٧	هامش
وحد	وجد	٣٧٢	١٦
أدادنيرارى	أدادنيرارى	٣٨٢	٩
	الأول	٤١٣	٣
مملكة	ملك	٣٨٢	١٢
ص	ص ٢٨١	٣٨٦	هامش
أرانجا	أرنجا	٣٩٢	١



مطبعة المصري

٩ شارع ابن زنكى - محطة الرمل

تليفون ٣٧٤٠٦ إسكندرية





مطبعة المصرية
٩ شارع ابن زنكي - [illegible]
ت ٣٧٤٠٦ الزمالك